نقد الاقتصاد السياسي

محمد عادل زكي

دار الفتح
للطباعة والنشر

نقد
الاقتصاد السياسي

إهداء ٢٠١٤

اسرة الدكتور / محمد عادل زكى

جمهورية مصر العربية

محمد عادل زكي

نقد الاقتصاد السياسي

دار الفتح
للطباعة والنشر

دار الفتح للطباعة والنشر
شارع سوتير، الإسكندرية، أمام كلية الحقوق
س. ت: ١٩٨٢/١٠٨٢١٩
ت: ٤٨٧٠٢٠٣/٤٨٤٠٦٦٤/٤٨٤٠٦٦٤. ف: ٤٨٧٠٢٠٤ (٠٣)
نقد الاقتصاد السياسي، زكي، محمد عادل
الطبعة الأولى (مارس ٢٠١٤)
الطبعة الثانية (ديسمبر ٢٠١٤)
١. الاقتصاد– نظريات. مذاهب
٢. تاريخ الفكر الاقتصادي
٣. الاقتصاد الدولي
٤. التاريخ العام– تاريخ الحضارات العام
٣٥٨ ص: ١٦×٢٢.٥سم. غلاف
AF- Najed – Arabic Typesetting (١٢/١٥/٢٠/١٨).

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣/٢٦٥٤٧
ISBN 978-9953-82-6321-5

المحتويات

مدخل

تتلخص أهدافي في الأبحاث الراهنة في اعادة اكتشاف القوانين الموضوعية لعِلم الاقتصاد السياسي؛ رجوعاً إلى أصول هذا العلم المهجورة، والعمل على استكماله كعِلم محل انشغاله ظواهر نمط الإنتاج الرأسمالي. الظواهر الَّتي تتمفصل حول قانون القيمة. وهو ما استلزم تكوين الوَعيْ بماهية نمط الإنتاج الرأسمالي، وتحليل مفرداته، وقوانينه الموضوعية وتطورها التاريخي، من جهة، ونقد قانون القيمة من جهة أخرى.

وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف، الَّتي تتلخص في إعادة كتابة هذا العِلم من خلال استكماله؛ كان من المتعين أن أرفض، منهجياً، المركزية الأوروبية الَّتي أرخت للعالم ابتداءً من تاريخ أوروبا الاستعمارية، والاتخاذ، قدر الإمكان، من تاريخ البشرية بأسرها حقلاً للتحليل. وهو ما أستوجب التعرف إلى طبيعة النشاط الاقتصادي في المجتمعات السابقة على تبلور الرأسمالية كنظام مهيمن على الصعيد العالمي.

ومن المفترض أن لا يكون السعي نحو تحقيق الأهداف المذكورة أعلاه من قبيل الترف الفكري، إنما يجب أن يكون أحد مراجع ذلك السعي رغبة في تلمس الإجابات عند هذا العلم، علم الاقتصاد السياسي، عن مجموعة الأسئلة الَّتي ترتبط، بحسم، بوجودنا الاجتماعي ذاته. فإن فلح هذا العلم في تقديم هذه الإجابات تعين علينا اتباع خطواته الفكرية، إنما بوعي ناقد. أما إذ لم يفلح؛ فقد تعين هجره واللجوء إلى غيره يُسعفنا في سبيل الكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم الظواهر الَّتي

تؤرقنا نحن أبناء الأجزاء المتخلفة بصفة خاصة، وبصفة أخص ما يؤرقنا من ظواهر تتعلق بتجديدنا اليومي لإنتاج تخلفنا الاجتماعي والاقتصادي والمعرفي. ولذلك، كانت أحد مراجعنا الرغبة في الإجابة على سؤال التخلف، ومن ثم سؤال التنمية. فهل سيفلح الاقتصاد السياسي، بعد افتراض استكماله كعِلم اجتماعي، في تقديم إجابة؟ لا شك في أن الإجابة على هذا السؤال نفسه تقتضي أولاً تحديد العِلم الَّذي يمدنا بأدوات فكرية تمكنا من الإجابة. ثم، ثانياً، نقد هذه الأدوات في سبيل التأكد دوماً وباستمرار من صحتها باختبارها على أرض الواقع.

وفي سبيل تحقيق ذلك فقد قسمت البحث إلى ثلاثة كتب: الكتاب الأول: ينشغل بالتحديدات وبيان **الإشكاليات المركزية** محل اهتمامنا. والكتاب الثاني: يفترض، استناداً إلى الواقع التاريخي، أن الاقتصاد السياسي توقف عن التطور عند أفكار محددة، ومن ثم يكون محل الانشغال هو **استكمال العلم** وبلوغ الأفكار الَّتي لم يصل إليها. أما الكتاب الثالث: فهو **يعيد النظر في المركزية الأوروبية** الَّتي هيمنت على علم الاقتصاد السياسي؛ فأفرغته من محتواه الإنساني وأفقدته طابعه العالمي.

وإنى لآمل أن تسهم هذه الأبحاث في فتح باب المناقشة الَّتي تعي أن درس الحاضر في ضوء الماضى لفائدة المستقبل، إنما يعني الفهم الناقد الواعي بحركة التاريخ البطيئة والعظيمة، الَّتي كونت في رحمها الحاضر بجميع تفاصيله، وتركت لنا تشكيل المستقبل، نعم تشكيل المستقبل، بل الاختيار بين الموت والحياة... إما الموت انتحاراً جماعياً على ظهر كوكب يعتصره نظام عالمي لا يعرف العدالة أو الرحمة، وإما الحياة بدفع عجلات

التاريخ نحو مستقبل لديه مشروع حضاري وإنساني يستلهم وجوده من تراث البشرية المشترك. حقاً إما الطموح إلى أكثر من الوجود. وإما الصلاة لئلا يأتي المخرب شتاءً بعدما قاد المخبولون العميان. هلا طمحنا إلى أكثر من وجودنا ؟ فلنطمح إلى أكثر من الوجود.

محمد عادل زكي

الإسكندرية ٢٠١٤/١٢/٥

الفصل الأول
موضوع الاقتصاد السياسي[١]
(١)

مِن اليسير على الملاحظ أن يَرصد هذا العالم الهائل من السلع الّذي نعيش فيه، فكُل حياتنا صارت مرتبطة بحالٍ أو بآخر بالسلع؛ كَيْ نُنتِج، كَيْ نَستهلك، كَيْ نُبادِل، كَيْ نُهادي، كَيْ نَهدم، كَيْ نَبني... إلخ؛ لا بد مِن السلع. والسلع، بشكل مجرد، ليست سوى عملية ضم وفصل لمواد موجودة سلفاً في الطبيعة.

ولكَيْ يمكن اعتبار هذه العملية من الضم والفصل عملية إنتاج سلعي؛ يَتعين أن يكون الهدف من وراء هذا النشاط هو الإنتاج من أجل السوق. من أجل التبادل النقدي. من أجل البيع. وليس من أجل الإشباع المباشر. فالفلاح الّذي يُنتِج خبزاً ليأكله لا يُنتِج سلعة. والواقع أن الفلاح لم يَعد يُنتِج كَيْ يأكل، إنما بات يَعتمد كليةً على السوق! فلم يَعد الهدف الرئيسي للنشاط الاقتصادي هو الاشباع المباشر، إنما صار الهدف هو إنتاج السلع من أجل السوق. من أجل البيع، ومن ثم الربح. ولأن الربح هو الهدف النهائي للنشاط الاقتصادي؛ فلا يتعين على

---

(١) أول مَن استخدم اصطلاح"الاقتصاد السياسي" هو الفرنسي أنطوان دي مونكريتيان في القرن السابع عشر؛ ولكن شومبيتر يرى أن ذلك هو فضله الوحيد، أما الكتاب فهو"وضيع، وفاقد للأصالة"!

"Antoyne Montchretien, Sieur de Watteville (c.1575-1621), Traicte de l`oeconomie politique (1615), seems to have been the first to publish a book under the title of Political Economy. This was, however, his only merit. The biik is a mediocre performance and completely lacking in originality. Though there is a rough common sense about its recommendations, it abounds in elementary slips of reasoning that indicate a level of competence rather below than above its own time".

Joseph A.Schumpeter, **History of Economic Analysis** (New York: Oxford University press,1959).p.167-168.

الرأسمالي، ولا يتعين علينا أن ننتظر منه، أن يَعمل على اشباع الحاجات الاجتماعية! فكُل ما يهم الرأسمالي هو تحقيق أقصى ربح ممكن بأقل كُلفة ممكنة.

وفي السوق لا تظهر فقط السلع المادية إنما تظهر كذلك سلع الخدمات، مثل النقل والمواصلات والتعليم والطب والسياحة وأعمال المصارف... إلخ، وجميعها تُعد من قبيل العمل المنتِج. إذ لم تَعد ثروة المجتمعات، مع نمط الإنتاج الرأسمالي، تزيد بفضل الإنتاج السلعي فحسب، إنما تزيد أيضاً بسبب إنتاج سلع الخدمات. فثمة بلدان تَعتمد كليةً تقريباً على أعمال المصارف أو السياحة أو التسوق، وربما الدعارة؛ الَّتي صارت سلعة مطروحة في الأسواق العالمية!

ويُشترط كَيْ يكون العمل المأجور منتِجاً، مع الرأسمالية: أن يزيد القيمة، مع التميز بين الأخيرة وبين الثروة[٢]، على الصعيد الاجتماعي. فالطبيب الَّذي يعمل في أحدى المؤسسات الطبية بأجر يُعد عاملاً منتِجاً، كما العامل الَّذي يعمل في مصنع للحديد والصلب. فالإثنان مأجوران ويُنتِجان قيمة زائدة. إذ يَشتري الرأسمالي، صاحب المؤسسة أو المصنع، قوة عمل الطبيب أو العامل، ويوفر لهما وسائل الإنتاج، وفي نهاية اليوم أو الأسبوع أو الشهر يدفع لهما الأجر، بغض النظر عن الحالات الَّتي عالجها الطبيب، والمنتَجات الَّتي أَنتجها العامل. فلقد اشترى

---

(٢) الثروة هي: مجموع ما يوجد تحت تصرف المجتمع من منتجات تخصص للاستعمال النهائي، ومنتجات يُعاد استخدامها في عملية الإنتاج الاجتماعي. محمد دويدار، **مبادئ الاقتصاد السياسي: الأساسيات** (الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة، ٢٠٠٨)، ص٢١٤. ويُشترط في الثروة على هذا النحو أن تكون ذات منفعة ومحدودية في العرض وقابلية للتحويل والانتقال، انظر:

Nassau Senior, **Political Economy** (London: Richard Griffin and Co,1854) p.59.

الرأسمالي قوة العمل، ولم يَشترْ العمل نفسه. والتفرقة بين قوة العمل والعمل تتيح، بمفردها، فَهم كيف تزيد القيمة.(٣)

(٣) يتعين أن يكون من الواضح وجوب التفرقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للكلمة. وبطبيعة الحال فإن ما ننشغل به في أبحاثنا هو المعنى الاصطلاحي. فالقيمة، كما سنرى عند الكلاسيك وماركس، كجوهر اجتماعي، تنقسم إلى: قيمة الاستعمال، الّتي تعني صلاحية السلعة لاشباع حاجة معينة، وقيمة المبادلة الّتي تعني صلاحية السلعة للمبادلة بسلعة أخرى، وهذه الصلاحية، كما يقول ريكاردو، تُستمد من أمرين: مدى ندرتها من جهة، وكمية العمل المبذولة في إنتاجها من جهة أخرى. هنا يجب الوَعي بالفارق بين القيمة في ذاتها والمظهر النقدي الّذي تتخذه حين التداول، المعبّر عنه باصطلاح الثمن. كما يتعين الوَعيْ بالفارق بين القيمة التبادلية للسلعة وثمنها الطبيعي. وسوف نُعالج هذه الأفكار بالمتن لاحقاً. أما القيمة في اللغة، فإنما وَرَدَت على نحو:"أن يدفع الرجل إلى الرجل الثوب فيقومه بثلاثين درهماً ثمن يقول: بعه، فما زاد فهو لك، فإن باعه بأكثر من ثلاثين بالنقد فهو جائز. القيمة واحدة. والقيم وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم". ابن منظور، **لسان العرب** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤)، ج٥، ص ٤٠٢. ووافق المعنى نفسه ما ورد في: عبد الله البستاني، **فاكهة البستان** (بيروت: المطبعة الأمريكانية،١٩٣٠)، ص١٣١٢، ونكاد نجد اتفاقاً بين القدماء من الفقهاء المسلمين على الخلط بين القيمة والثمن، انظر: **فتح القدير (٤٣٧/٧) وبدائع الصنائع (٥١/٤) شرح المحلى (٢٤٨/٣) شرح الزرقاني (٢٠٨/٦)** حيث أن القيمة لديهم هي:"ما يُقدّر به الشيء حسب سعره في السوق". بيد أننا في مرحلة متقدمة تاريخياً نجد تفرقة بين القيمة والثمن لدى الفقيه ابن عابدين (١٧٨٤-١٨٦٣) في **الحاشية**، وكأن التفرقة صارت ضرورة تاريخية، فالثمن هو ما تراضى عليه المتعاقدان سواء أزاد على القيمة، أو نقص، وأما القيمة فهي ما قُومَ به الشيء بمنزلة المعيار من غير زيادة، ولا نقصان. للمزيد من التفصيل: **رد المحتار على الدر المختار: حاشية ابن عابدين** (بيروت: دار احياء التراث العربي،١٩٨٧)، ج٤، ص٥١-٥٢. وقد أخذ **مرشد الحيران** بتعريف ابن عابدين حرفياً في المادة٣٢٠. انظر: محمد قدري، **مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان** (القاهرة: المطبعة الكُبرى الأميرية، ١٨٩١)، ص٥١. وفي اللغتين الفرنسية والإنجليزية لا يختلف المعنى كثيراً عن كلام القدماء من فقهاء الإسلام، بل يكاد يطابقه، حيث القيمة، في هاتين اللغتين، تعني الثمن، الثروة، وإن كان المعنى أكثر وضوحاً، في مرحلة متقدمة أيضاً، في قاموس أكسفورد؛ حيث الإشارة إلى عنصري المنفعة والمبادلة، وتوضيح المعنى مِن خلال قدرة السلع على شراء بعضها البعض، انظر في ذلك :

Clifton& Laughlin, **Nouveau Dictionnaire** (Paris:Librairie Grainer présures1904), p.626.Jean-Paul Colin, **Dictionnaire Des Difficultés du Française** (Paris: Les Usuels du Robert, 1977), p.775.H.Fowler&F.Fowler, **The Concise Oxford Dictionary** (Oxford: Oxford University press, 1939), p.1361.

بالإضافة إلى المُعطى في المعاجم اللغوية، يتم عادة تناول القيمة على أساس، لا ننشغل به في أبحاثنا الراهنة، هو كونها تُمثل بعض الصفات الإنسانية المحمودة في إطار ما يُسمى القيم الاجتماعية، وهي تشير إلى بعد أخلاقي فلسفي يتوافق ربما من زاوية ما مع القيمة حين النظر إليها من جهة فكرة الثمن العادل، للمزيد مِن التفاصيل عن هذا التناول الفلسفي والتفسيرات الاجتماعية والإنسانية، واعتبارها مِن قبيل المثل العُليا، يُمكن الرجوع إلى: توفيق الطويل، **أسس الفلسفة**، ط٣ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨)، زكريا ابراهيم، **مبادىء** =

وحينما نسأل: كيف تزيد القيمة[٤]؟ نكون أمام أول مستوى من مستويات ظهور الاقتصاد السياسي. **مستوى القيمة**. إذ ظهر الاقتصاد السياسي كَيْ يوضح كيف تزيد هذه القيمة. فالرأسمالي يشتري مواد العمل بـ ٣ وحدات، وأدوات العمل بـ ٣ وحدات، وقوة العمل بـ ٤ وحدات، ولكنه لن يَفعل ذلك إلا بقصد الربح. فإذ ما وجد بين يديه، بعد الإنتاج وقبل البيع، نفس الـ ١٠ وحدات الَّتي بدأ بها، فلن يقدم على هذا الاستثمار بالأساس. فماذا يفعل؟ إن ما يمكنه فعله هو أن يَدفع للعامل هذه الـ ٤ وحدات (بافتراض أن ساعة عمل واحدة تساوي وحدة من الأجر) ويأخذ منه عملاً يساوي ٨ وحدات، نصفهم مدفوع الأجر والنصف الآخر غير مدفوع الأجر. والفارق، أَيْ الـ ٤ وحدات، بين ما دَفع الرأسمالي للطبيب أو للعامل. وما أَنتجه هذا الطبيب أو هذا العامل هو القيمة الزائدة[٥]. وهي على هذا النحو يمكن أن يَستخلصها الرأسمالي

= **الفلسفة والأخلاق** (القاهرة: مطبعة الفجالة، ١٩٦٢). رالف بارتن بيري، **آفاق القيمة: دراسة نقدية للحضارة الإنسانية**، ترجمة عبد المحسن عاطف سلام (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨)، بصفة خاصة الفصل الأول: تعريف القيمة. والفصل الخامس عشر: الاقتصاد وعِلم الاقتصاد.

(٤) يتعين أن نعي ان العملية الإنتاجية، بالمعنى العام للإنتاج، تحتاج إلى أشياء أخرى كثيرة مثل: الأرض، والفكرة، والإدارة، والطاقة،... إلخ؛ بيد أن تلك الأمور إن كانت مهمة من زاوية ما من أجل"تسيير" عملية الإنتاج، هي، في نفس الوقت، ثانوية وغير مؤثرة في عملية زيادة القيمة، فالنقل مثلاً لا يزيد قيمة السلعة، وإنما يمكن لعملية النقل خلق قيمة في حقل صناعة النقل نفسه.

(٥) أتصور ان إنتاج القيمة الزائدة يجب أن يُنظر إليه نظرة عِلمية، دون نعرات ثورية مغيّبة، فهو ليس رذيلة تماماً، كما يُقال، إن قِيل، وإنما النظام الرأسمالي المعاصر، كشكل تاريخي من أشكال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، لا يُمكن أن يعمل بدونه، فهو القانون العام الحاكم لعمل الرأسمال، أياً كان الشكل الَّذي يتخذه (صناعي، أو تجاري، أو مالي) وأياً ما كان حقل توظيفه (الزراعة، أو الصناعة، أو التجارة). ومن هنا يجب علينا، إن رغبنا في مستقبل إنساني، مراجعة الخطاب الأيديولوجي غير العلمي ضد الرأسمال. لأنه مُشوش ومعطل وليس بإمكانه دفع عجلات التاريخ، فأياً ما كانت شرور الرأسمالية، كشكل تاريخي لأحد أنماط الإنتاج، وهي بلا ريب بغيضة، كثيرة ظاهرة، فيجب علينا، إن أردنا الفهم؛ ومن ثم التغيير، أن نُقدّر كُل حضارة تقديراً موضوعياً بعيداً عن الأهواء وإدعاء إمتلاك ناصية الحقيقة الاجتماعية، ونبحث في الوقت ذاته عن القانون الموضوعي الحاكم لعمل النظام كُكُل. والقانون العام الَّذي أفترض أنه يَحكم عمل النظام الرأسمالي، وكُل =

من الطبيب كما العامل تماماً. ولكن، هل استخلاص هذه **الزيادة في** القيمة من الشغيلة المأجورين يَخضع لهوى الرأسمالي؟ أيْ: هل هو الّذي يُحدد، بإرادته المستقلة والمنفردة، مقدار ما سوف يختص به من القيمة الزائدة؟ أم أن هذه القيمة الزائدة تَخضع لقانون موضوعي يَحكم عملها في إطار النظام الرأسمالي؟ وهل هذا القانون يرتبط عمله بإطار سوق معين، المنافسة الكاملة مثلاً؟ أم هو قانون موضوعي من قوانين النظام نفسه، يحكم عمل هذا النظام في الأسواق كافة، بما فيها الأسواق الاحتكارية؟ الإجابة على هذه الأسئلة تمثل المستوى الثاني لظهور الاقتصاد السياسي. **مستوى الإنتاج**. إذ ظهر الاقتصاد السياسي كيْ يُقدم إجابات على الأسئلة الّتي تثور بشأن القوانين الموضوعية الّتي تحكم الأرباح في النظام الرأسمالي، ومن ثم تقديم إجابات على الأسئلة الّتي تثيرها إشكاليات **تجدد الإنتاج الاجتماعي** بوجه عام. وسوف يكون هذا المستوى من مستويات ظهور الاقتصاد السياسي محل بحث لاحقاً.

(٢)

فلنعد إلى الوحدات الّتي زادت. ما هو اتجاه هذه الـ ٤ وحدات الزائدة الّتي تحققت بِفضل العمل؟ كيف يتم توزيعها على الصعيد الاجتماعي؟ هنا يتبدى المستوى الثالث من مستويات ظهور الاقتصاد السياسي. **مستوى التوزيع**. فإذ ما افترضنا أن الأرضَ الّتي شيَّد عليها الرأسمالي مصنعه مستأجرة، وأفترضنا[٦] أيضاً أن الرأسمال الّذي يستثمره

= تنظيم اجتماعي يعتمد على العمل الإنساني، هو قانون القيمة؛ ومن هنا؛ ومن هنا فقط، قد نتمكن من فهم النظام بل والقضاء على شره، ومن ثم رسم المشروع الحضاري لمستقبل آمن لأجيال لم تأتِ بعد ونتحمل أمامها المسئولية التاريخية كاملة.

الرأسمالي هو رأسمال مقترَض من أحد المصارف، فيمكننا تتبع اتجاه هذه الزيادة في القيمة، إذ سوف يتم توزيع الزيادة الَّتي تَحققت اجتماعياً بين الطَبقات الاجتماعية المختلفة، كالأتي:

أولاً: طبقة مُلاك الأراضي ستحصل على نصيبها في صورة ريع، الَّذي هو **ثمن** التخلي عن منفعة الأرض. وحينما نقول "ثمن" فإن هذا يَعني أن هذا الفعل من التخلي عن منفعة الأرض إنما هو في ذاته، مع التنظيم الاجتماعي الرأسمالي، عملية بيع لسلعة معدة للطرح في السوق.

ثانيا: طبقة الرأسماليين الماليين/ النقديين ستحصل على نصيبها في صورة فَائدة، الَّتي هي **ثمن** التخلي عن السيولة النقدية. التخلي عن الرأسمال كسلعة. وما ذكرناه أعلاه بشأن الريع، كثمن، يَنطبق تماماً بشأن الفائدة من جهة كون فِعل التخلي عن السيولة النقدية، أَيْ التخلي عن الرأسمال كسلعة، إنما هو في ذاته بيع لسلعة في مقابل ثمن يُسمى الفَائدة.

ثالثاً: طبقة الرأسماليين الصناعيين ستحصل على نصيبها في صورة ربح، الَّذي هو **ثمن** المغامرة وتحمل مخاطر المشروع. وما ذكرناه أيضاً أعلاه بشأن الريع والفائدة، كثمنيّن، يَنطبق تماماً بشأن الربح من جهة كَون فعل المخاطرة بالاستثمار في قطاع معين إنما هو بيع لسلعة لقاء ثمن يُسمى الربح.

بوجه عام سوف تتوزع القيمة الزائدة في صورة دخول للطبقات

---

(٦) الافتراض هنا غرضه التبسيط من أجل تكوين الوَعْي بتوزع القيمة الزائدة، بوجه عام، بين الطبقات المختلفة، ولا يَعني إيماننا، في هذه المرحلة من البحث، بأحد أشكال هذا التوزيع، إذ سوف نتقدم خطوات فكرية في الفصل السابع كيْ نُقدم فرضية مؤداها ان القيمة الزائدة، مع هيمنة قانون حركة الرأسمال الصناعي، لا تنحل إلا إلى ربح في القطاع المنتِج لها.

الاجتماعية المختلفة المشاركة، وربما غير المشاركة فعلياً، في عملية الإنتاج. وابتداءً من هذا التوزيع، على الصعيد القومي الداخلي، تتم عملية تجديد الإنتاج الاجتماعي. الاقتصاد السياسي يَفترض هنا أن الاقتصاد مُغلق، أَيْ لا يُقيم علاقات تَبادل خارجية مع بلدان آخرى. كما يفترض سيادة المنافسة الكاملة. فهل يختلف الأمر إذ ما أدخلنا اعتبارات التبادل الخارجي في التحليل، ثم انتقلنا بمستوى هذا التحليل من أسواق المنافسة الكاملة إلى أسواق الاحتكار؟ والأهم، سؤال، ما هو وضع الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي- في سياق افتراض التبادل مع العالم الخارجي وسيادة الاحتكار- من توزيع القيمة الَّتي زادت على الصعيد الداخلي والصعيد العالمي؟ أَيْ: هل يُعاد ضخ القيمة الزائدة في مسام الاقتصاد القومي المنتِج لها بفضل العُمال المأجورين؟ أم تَتَسرب إلى الخارج كَيْ تُغذي مصانع ومؤسسات الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي الَّتي تُنتِج السلع والخدمات الَّتي تعتمد عليها الأجزاء المتخلفة في سبيل تجديد إنتاجها الاجتماعي؟ يتبدى هنا المستوى الرابع، والأخير، لظهور عِلم الاقتصاد السياسي. **مستوى نمو الاقتصاد وتطور قوى الإنتاج الاجتماعي**. إذ يمدنا الاقتصاد السياسي، ابتداءً من قانون القيمة، بمجموعة من الأدوات الفكرية الَّتي تمكنّا من تحليل ظاهرة تؤرقنا بالأخص نحن أبناء الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، وهي ظاهرة التكون التاريخي للتخلف الاجتماعي والاقتصادي. إذ يظهر الاقتصاد السياسي على هذا المستوى، مستوى نمو الاقتصاد وتطور قوى الإنتاج الاجتماعي، كَيْ يُقدم مجموعة من الأدوات التحليلية والمرتكزات الفكرية الَّتي تمكنا من تعدية الظاهرة، ظاهرة تجديد إنتاج التخلف، إلى الكُل الاجتماعي والتاريخي الَّذي تَنتمي إليه؛ من أجل وَعيْ

ناقد متجاوز للرؤى الخطية والتصورات الميكانيكية الَّتي لا تنشغل بإثارة التكون التاريخي للظاهرة وتتعامل معها كمعطى وفي أفضل الأحوال تعتبرها أسباباً لعدم الإندماج فى النظام الرأسمالي بعدم اللحاق بركب البلدان المتقدمة. ومن ثم يعد التخلف، وفقاً لهذه التصورات، سبباً لعدم الإندماج، وليس نتيجة لهذا الإندماج!

(٣)

فلنرجع إلى الدخول المختلفة للطبقات الاجتماعية المتناقضة؛ فالريع والفائدة والربح، كدخول للطبقات الاجتماعية، هي في واقعها، كما ذكرنا، أثمان؛ فالريع، كما ذكرنا أيضاً، هو ثمن التخلي عن منفعة الأرض. والفائدة هي ثمن التخلي عن السيولة النقدية. والربح هو ثمن المغامرة وتحمل المخاطرة. أيْ أننا صرنا هكذا أمام مجموعة من السلع المطلوب معرفة كيف تَتحدد أثمانها؟

فعلى سبيل المثال: لماذا دفع الرأسمالي ٢ وحدة لمالك الأرض، ولم يدفع وحدة واحدة؟ أو ثلاث وحدات؟ ولماذا دفع ٣ وحدات كفائدة، ولم يدفع وحدة واحدة؟ أو ٢ وحدة؟ وهو ما يَستوجب منا طرح نفس السؤال بصدد الأجر كثمن لقوة العمل، وطرح نفس السؤال أيضاً بصدد أثمان مواد العمل وأدوات العمل؛ فلماذا دفعَ الرأسمالي للعامل ٤ وحدات، ولم يدفع ٢ وحدة؟ أو ٥ وحدات؟ ولماذا ثمن وسائل الإنتاج (مواد العمل+ أدوات العمل) ٦ وحدات؟ ولم يكن ٥ وحدات؟ أو ٧ وحدات؟ بوجه عام كيف تتكون الأثمان؟

كَيْ نعرف كيف تتكون الأثمان يتعين أن نذهب إلى السوق حيث تظهر الأثمان. ولنراقب الأمر. فالأثمان كما تطرح نفسها في السوق يميزها عدم الثبات. أيْ التأرجح. فقد نجد سلعة (ومن هذه السلع: قوة العمل، أو التخلي عن منفعة الأرض، أو التخلي عن السيولة النقدية، أو المخاطرة) ربما تتغير أثمانها ثلاث أو أربع مرات في اليوم الواحد. السمك مثلاً. في أول اليوم يكون له ثمن. وفي وسط اليوم له ثمن ثان. وفي نهاية يوم السوق له ثمن ثالث. فماذا يعني ذلك؟ ذلك يعني أن السوق، أيْ حقل التداول، لا يوضح كيف يتكون الثمن. هو فقط يوضح كيف تتأرجح الأثمان ارتفاعاً وانخفاضاً حول محور محدد يمثل ثمناً عادلاً(٧)، أو ضرورياً(٨) أو طبيعياً(٩). هذا التأرجح يجوز أن يكون مرجعه انخفاض الطلب أو ازدياد العرض أو ارتفاع درجة الحرارة أو قرار حكومي، أو.... إلخ. ولذلك، فالَّذي يتعين أن ننشغل به ليس تأرجحات، أو وفقاً لتعبير ماركس انحرافات، ثمن السوق حول الثمن الطبيعي للسلعة، إنما يشغلنا التعرف إلى هذا الثمن الطبيعي نفسه. الأمر الَّذي يتعين معه أن نُغادر السوق. نَخرج من حقل التداول ونتوجه إلى حقل الإنتاج. حيث مُكونَات الثمن الطَبيعي. الثمن الطَبيعي لكُل ما هو مطروح من سلع في السوق للبيع.

فإذ ما توجهنا إلى حقل الإنتاج؛ فكَيْ نتعرف إلى كيفية تكون الثمن

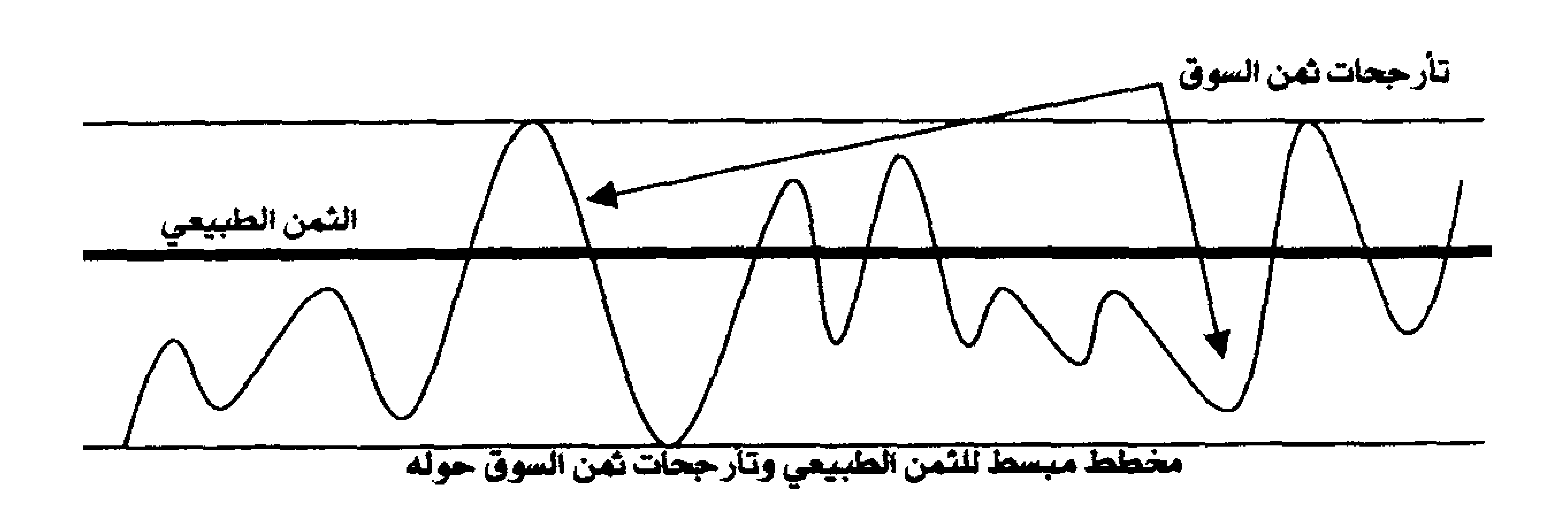
---

(٧) اصطلاح خاص بالمدرسيين في القرن الثاني عشر.

(٨) اصطلاح خاص بالطبيعيين في القرن السادس عشر.

(٩) اصطلاح خاص بالكلاسيك في القرن الثامن عشر. ونلاحظ ان آدم سميث يذكر أن الثمن الطبيعي يمكن تسميته أيضاً **الثمن المركزي**، الَّذي تدور في فلكه دوماً أثمان السلع كافة. أما ماركس فسوف يبحث عن هذا الثمن تحت اسم "ثمن الإنتاج" وهو يختلف من جهة تركيبه العضوي عن التصورات الفكرية السابقة عليه، ولكنه يحتفظ بنفس الجوهر وهدف التعرف إلى الثمن الَّذي يتحدد عنده قرار الإنتاج. وسوف نُعالج هذه الإشكاليات بالتفصيل.

الطَبيعي لسلعة ما، بما فيها قوة العمل، والتخلي عن السيولة النقدية والتخلي عن منفعة الأرض والمخاطرة، كسلع، يمكننا أن نتعرف إلى مكونات هذا الثمن الطبيعي، أو المركزي، فهو يتكون من: الأجور والريع والفائدة والربح. فما علينا إلا أن نَعهد بالأمر إلى أحد المحاسبين كَيْ يقوم بحساب قدر الأجور الَّتي دُفعت للعُمال، وقدر الريع، أيْ الإيجار، الَّذي دُفع إلى مالك الأرض المقام عليها المشروع، وقدر الفائدة الَّتي سُددت عن قرض الرأسمال؟ وقدر الربح الَّذي سيحصل عليه الرأسمالي، ثم يقوم بعمل بعض العمليات الحسابية الَّتي بمقتضاه يحسب مقدار الإنتاج، ويوزع على كُل وحدة من السلعة نصيبها من نفقة إنتاجها. وحينئذ سيكون بين أيدينا الثمن الطبيعي[١٠] للسلعة.



مخطط مبسط للثمن الطبيعي وتأرجحات ثمن السوق حوله

ولكن، الَّذي بين أيدينا، في الحقيقة، إنما هو نفقة إنتاج! والواقع أن صديقنا المحاسب لم يحل المشكلة؛ بل لم يتعرض لها بالأساس! فلم نزل أمام مجموعة أثمان تحتاج إلى تفسير هي الأخرى. أردنا معرفة ثمن واحد، هو ثمن السلعة، وجدنا أنفسنا، مع صديقنا المحاسب، أمام أربعة أثمان!

(١٠) إن ذكرنا هنا لمكونات الثمن الطبيعي، على النحو الوارد بالمتن، وفقاً لتصور الكلاسيك، هو لاعتبارات الشرح والتبسيط وتقريب الفكرة، دون أن نقصد، في هذا الموضع من التحليل، الإشارة إلى صحة الاتجاه الفكري للكلاسيك، بما يتضمنه من اصطلاحات، أو رفضه.

الأجر كثمن لقوة العمل، والريع كثمن للتخلي عن منفعة الأرض، والفائدة كثمن للتخلي عن السيولة النقدية، والربح كثمن للمخاطرة، ومن ثم أثمان العمل وأدوات العمل. جميعها أثمان تحتَاج أيضاً إلى تفسير! هذا التفسير يتطلب منا، منهجياً، التعرف أولاً إلى مصدر هذه الدخول، فإذ ما عرفنا مصدرها، تعيّن أن نعرف كيف يَتحدد هذا التوزيع. التعرف إلى هذا المصدر يَنقلنا مِن حقلِ الأثمان والسوق والتداول، إلى حقل القيمة والإنتاج. هذا الإنتقال يجعلنا وبوَعيْ، مرة أخرى، أمام المستوى الأول. **مستوى القيمة**. ما هو، وكيف يتحدد الثمن المحوري/ القيمة الحقيقية لهذه الأشياء؟ الثمن المحوري الَّذي تتَأرجح حوله أثمان السوق. **الثمن الَّذي عنده يَتحدد قرار الإنتاج**. ظهور الاقتصاد السياسي هنا إنما يَعني، ومباشرة، ان الاقتصاد السياسي يمفصل الإنتاج والتوزيع، وبالتبع تَطور قوى الإنتاج الاجتماعي، حول القيمة، ومن ثم يُصبح الاقتصَاد السياسي بحالته الراهنة، المهجورة، هو عِلم نمط الإنتاج الرأسمالي المتمفصل حول قانون القيمة. بل هو عِلم قانون القيمة.

ابتداءً من الوعيْ بالخطوط المنهجية الَّتي تُشكل موضوع العِلم محل انشغالنِا؛ كان لنا أن نَنتقل إلى الفصل الثاني كَيْ نَتَعرف إلى الإشكاليَّتين الرئيسيَّتين في أبحاثنا الراهنة.

الفصل الثاني
المركزية الأوروبية

(١)

يتخذ ماركس (١٨١٨- ١٨٨٣) من أوروبا بوجه عام، وبوجه خاص إنجلترا[١]، حقلاً للتحليل. وابتداءً من ذلك يعتنق مبدأ تقسيم تاريخ

---

(١) ولكن لماذا إنجلترا؟ لأن إنجلترا كانت مهيأة تاريخياً أكثر من غيرها من بلدان أوروبا الغربية لانطلاق الرأسمالية من أرضها، وأحد أهم الأسباب الَّتي أدت إلى إنهيار الإقطاع في إنجلترا، ومن ثم قيام الرأسمالية، هو أن الإقطاع لم يكن عريقاً فيها، ففي المجتمعات الإقطاعية تتوزع مناصب القضاء والقوة العسكرية بين الملاك المحليين، ويستغلون هذه السطوة في سلب كل الحقوق المحلية وامتلاكها، وقد يوكلون هذه السلطات إلى مَن ينوب عنهم ممن يستغلون الفلاحين بدورهم. غير أن إنجلترا كانت موحدة نسبياً، ومنظمة مع وجود استقرار واستمرار للسلطة المركزية الملكية منذ غزو "النورمانديين" لها عام ١٠٦٦. وبحلول القرن الـ ١٦ أصبحت تحت حكم أسرة "تيودور" أقل إقطاعاً وأكثر دولة أوروبية متمتعة بالوحدة تحت سلطة مركزية. لذلك كانت الطبقة الإنجليزية الحاكمة أقل قدرة عن مثيلاتها من الطبقات الحاكمة في باقي دول أوروبا في استعمال سلطتها العسكرية لانتزاع الفوائض الزراعية من الفلاحين بالقوة، واعتمدت تلك الطبقة بشكل أكبر على الآليات الاقتصادية المستمدة من ملكية الأرض الزراعية، وتأجيرها، وعلى العمالة ذات الأجر، كما سهلت الدولة الموحدة نسبياً ولادة سوق وطنية... فلقد كان الملاك الإقطاعيون يعيشون على حقهم في الإنتاج الزراعي، أو العمل، أو مدفوعات من الفلاحين المرتبطين بزراعة الأرض، وفي القرن الخامس عشر بدأت علاقات السوق تسود على العلاقات الإقطاعية وأصبح اللوردات، هم أصحاب الأرض الزراعية، ويعيشون على ريعها الَّذي يدفعه الفلاحون، والَّذين يتنافسون في السوق على إيجار الأراضي. وكانت العمالة المأجورة تزداد لاستغلال الأرض الَّتي أصبحت ضمن الممتلكات الَّتي تباع وتشترى... ويرجع السبب فى انتشار الإيجار من ناحية إلى العوائد المضمونة التي كانت توفرها الإيجارات في فترة لم يكن الإزدهار الزراعي مستقراً، ومن ناحية أخرى يرجع السبب في هذا إلى أن مستوطني الأراضى البور في الماضي، والَّتي استصلح الكثير منها في القرن الثالث عشر، كانوا دائماً يدفعون إيجارات مقابل هذه الأراضي. وكان العامل الثالث هو تزايد تعقيدات حياة ملاك الأراضي الَّذين وفر لهم النمو التجاري مجالاً أوسع من السلع الجاهزة ومواد الرفاهية الَّتي يمكن أن يشتروها. وإذ تعود مالك الأرض على مستوى معيشة أعلى وعلى دخل منتظم يمكن حسابه مما يوفر الإيجار بشكل مضمون، صار من الضروري له أن يحاول تغطية مصروفاته. وكان الأثر الكُلي هو انهيار ما تبقى من الرابطة المحلية المتينة الَّتي كانت تربط بين السيد والفلاح لاستغلال الأرض وتقسيمها إلى طبقات اجتماعية عريضة. أصبحت الزراعة السوقية أو المنضوية ضمن آليات السوق إضافة جديدة للإنتاج الرأسمالي من نواح عديدة. فالمنافسة بين المزارعين/المستأجرين أدت إلى الابتكار والابداع للحصول على محاصيل أكبر وأجود مكنتهم من إنتاج طعام يكفي النمو السكاني، وأصبح لدى الفلاحين، ولدى العمال الزراعيين المأجورين نقوداً =

= ينفقونها في سبيل شراء السلع الاستهلاكية المطروحة في السوق. كما أدى تعاظم الكفاءة الزراعية إلى وجود زيادة في العمالة الزراعية لا حاجة لأحد إليها، ومن ثم تم ضخ هؤلاء للعمل في إنتاج السلع الاستهلاكية الَّتي كان إنتاجها يزداد في المناطق الريفية الَّتي كانت تبزغ كمراكز جديدة للإنتاج... ومع نمو العمالة المأجورة، ظهرت أول بوادر التقسيم الطبقي، فقد نظم العمال الحرفيون أنفسهم في القرن الـ ١٨ في "اتحادات". أما البدايات المبكرة لتنظيمات العمال، فقد بدأت قبل ذلك. فقد أسست جمعيات العمالة المؤقتة بشكل قوي في إنجلترا في القرن الـ ١٦، ويمكن تتبع جذورها إذا رجعنا بالتاريخ إلى القرن الـ ١٤. كانت العمالة المؤقتة تضم عمال المياومة، ويؤجرون من قبل صاحب أيِّ عمل لفترة محددة من الأيام. ومع اختلاف درجات مهاراتهم، فإنهم كانوا حرفيين بوجه عام،... وبالرغم من بدائية تلك التنظيمات الَّتي اتسمت ببدائية ممارسات القرون الوسطى، فإنهم استخدموا وسائل تعد متقدمة جداً بالنسبة إلى عصورهم؛ ففي كوفنتري عام ١٤٢٤، كما يقول فولتشر، أضرب عمال المياومة وهم يرتدون ملابس العمل مطالبين برفع أجورهم، وتدخلت السلطة المحلية للتوصل إلى تسوية ملائمة. وهكذا ففي تلك المرحلة المبكرة، كان الحرفيون قد أصبحوا مقسمين إلى نوعين من العمالة، عمالة موظفة وعمالة مؤقتة، ودخلا في صراع محموم ضد بعضهما... وقد كان كل الإنتاج الحرفي يدار برءوس أموال صغيرة، وبرز في بعض الصناعات، وبشكل خاص في صناعة الملابس، نوع وشكل جديد من أشكال الإنتاج، وهو نظام "الإقراض بفائدة". ففي حالة إنتاج الملابس، بدأ التجار يستخدمون أموالهم في شراء الصوف الخام، ويدفعونه إلى المغازل، ثم المناسج، ثم يسلمونه إلى التفصيل النهائي والتشطيب، ويبيعونه كملابس كاملة الصنع. وبالرغم من أن من كانوا يقومون بذلك النوع من العمل من التجار، فإنهم كانوا أقرب في عملية الإنتاج من التجار المشتغلين بالمشاريع التجارية الدولية البحتة. وكانوا بالفعل حرفيين في الأصل، لا تجاراً. كانت هذه الخطوة المهمة على طريق ظهور نمط الإنتاج الرأسمالي. ولم تكن بالفعل إنتاجاً رأسمالياً تماماً، إلا إذ ما نظرنا إلى أن المنتج النهائي لن يكون على ملك منتجه المباشر، فصاحب الرأسمال كان يمتلك في بداية العمل المواد الخام، إلا أنه لم يكن يمتلك كُل مواد العمل أو أدواته. فكان النساجون يعملون في منازلهم في نسج ما يتفقون على نسجه على أنوالهم المنزلية، وكان الصوف المراد نسجه يوزع على وحدات نسج صغيرة منتشرة في بيوت كثيرة، ولم يكن بمقدور التاجر صاحب الصوف التحكم مباشرة في العمالة المنتشرة في بيوت كثيرة، ويعملون على أنوال لا يملكها. ومع مرور الزمن وزيادة الطلب، وفي الأشكال الأخيرة لذلك النظام، أصبح النساجون يستأجرون أنوالاً من صاحب أنوال رأسمالي، أو يستأجرون أماكن العمل الَّتي تضم أنوالاً من صاحبها. وازدادت هيمنة صاحب العمل على العمال العاملين على تلك الأنوال، وتلاشى نظام هيمنة التاجر المصنع مع بداية ظهور المصانع. للمزيد من التفصيل حول هذه المرحلة التاريخية، انظر: جيمس فولتشر، **مقدمة قصيرة عن الرأسمالية**، ترجمة رفعت السيد علي (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١)، ل. فيشر، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، ترجمة محمد زيادة والسيد العريني (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٥٠). ج. كرامب، أ. جاكوب، **تراث العصور الوسطى**، ترجمة سعيد عاشور وآخرين (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٩٤)

Thomas Munck, **Seventeenth Century Europe: State, Conflict and The Social order in Europe 1598-1700** (London: Macmillan,1990). John Merriman, **A History of Modern Europe from the Renaissance to present** (New York,: W.W.Norton & Company,1996), Norman Davies, **Europe : A History**(Oxford: Oxford Univ press,1996). **Chronology of European History 15,000 B.c to 1997, Volume 1: 15,000 B.c – 1763, Edited by John Powell** (London: Fitzroy Dearborn publisher,1998).

العالم، الَّذي يَعتمد على أنماط الإنتاج، إلى أربع مراحل: المشاعية البدائية، ثم العبودية اليونانية والرومانية، ثم الإقطاعية الفرنسية والإنجليزية، ثم الرأسمالية الإنجليزية أيضاً. وقد نجد لديه بعض الإشارات المتفرقة إلى أحوال مصر القديمة أو الأجزاء البعيدة في الهند أو الصين أو أمريكا، ولكن دون أن يتخلى عن المركزية الأوروبية الَّتي ترى تاريخ العالم ابتداءً من تاريخ أوروبا.

وفي **رأس المال**، أهم مؤلفات ماركس وقمة إنتاجه الفكري على الاطلاق، بل وقمة نُضج الاقتصاد السياسي نفسه، تقوم فرضيات ماركس على أساس أن الرأسمالية في أوروبا، وفي إنجلترا بوجه خاص، تحمل من الخصائص والسمات ما يجعل منها نظاماً مختلفاً عن التنظيمات الاجتماعية السابقة عليها (أيْ: البدائية والعبودية والإقطاعية) إذ رأى ماركس أن الرأسمالية تتميز بظَاهرتين حاسمتين غير معروفتين في المجتمعات السابقة على الرأسمالية!

الظاهرة الأولى: هي ظاهرة بيع قوة العمل؛ إذ كان العبد بأكمله، في المجتمع العبودي، مِلكاً لسيده، بما يحتويه من قوة عمل. فالعبد في المجتمعات السابقة على الرأسمالية بوجه عام لا يَبيع قوة عمله لسيده، وإنما يُباع بأكمله[٢]. والرأسمالية فقط، وفقاً لماركس، هي الَّتي تَعرف ظَاهرة بيع قوة العمل.

أما الظَاهرة الثانية، فهي الإنتاج من أجل السوق: فحينما ينحل المجتمع

---

(٢) انظر:

Karl Marx **Capital: A Critique of Political Economy**, vol I, (New York: The Modern Library, 1906), p.65.

العبودي، في روما، ويأتي المجتمع الإقطاعي؛ فسوف يرى ماركس أن القاعدة، في المجتمع الأخير، هي أن إنتاج الفلاحين يُعد إنتاجاً لـ (مُنتجات) وليس لـ (سلع). لأن المنتَج كَيْ يكون سلعة لابد وأن يكون معداً للتبادل. للبيع من خلال السوق. وهو ما ينفيه ماركس بصدد المجتمعات الإقطاعية في أوروبا الغربية؛ فجزء من المحصول، وفقاً لإضافة إنجلز إلى الطبعة الرابعة لـ **رأس المال**، الَّذي كان يُنتجه الفلاح الأوروبي في القرون الوسطى كان يدّخر جزء منه من أجل اعادة الإنتاج، وتجديد إنتاج المنتجين المباشرين أنفسهم، والجزء الآخر يذهب إلى السيد الإقطاعي على شكل الخراج، وإلى القساوسة على شكل العشور. ولكن، كما في **رأس المال**، لا القمح المقدم على شكل الخراج ولا القمح المقدَّم على شكل العشور صارا سلعة لمجرد كونهما أُنتجا من أجل اعطائهما لأشخاص آخرين؛ فلا يكفي، كَي يُعتَبر المنتَج سلعة، كما ذكرنا، أن يتم إنتاجه من أجل الآخرين فحسب، إنما يجب أن يمثل لمنتجه قيمة مبادلة. فالناتج كَيْ يكتسب صفة السلعة يتعين أن يكون مُنتَجاً من أجل السوق. من أجل المبادلة النقدية. من أجل البيع. وهو الأمر الَّذي يرى ماركس، كما ذكرنا، أنه غير متحقق في نمط الإنتاج الإقطَاعي، ولن يتحقق إلا مع نمط الإنتاج الرأسمالي.(٣)

فمع النظام الرأسمالي سوف يَحدث التغيّر الجذري؛ فمن جهة، ستُصبح قوة العمل سلعة تُباع وتُشترى في سوق خاص بها. ومن جهة أخرى، سوف تُصبح كُل المنتجات سلعاً معدة للتبادل في السوق. ووفقاً للتصور العام لماركس، يُعد بيع قوة العمل، والإنتاج من أجل السوق، من

---

(٣) Marx, **Capital**, vol I, op, cit, p.96.

الأمور غير المسبوقة تاريخياً. والرأسمالية بمفردها هي الَّتي شهدت هاتين الظاهرتين.(٤)

(٢)

وبعد ماركس، لدينا من النماذج ما يوضح أن أوروبا صارت، وبشكل نهائي، حقل التحليل المعتَمد في أبحاث الاقتصاد السياسي. النموذج الأول: روزا لوكسمبورج (١٨٧١- ١٩١٩) والنموذج الثاني: روبرت هيلبرونر(١٩١٩- ٢٠٠٥).

فمن أجل أن تُثبت روزا أن قبل الرأسمالية (الأوروبية طبعاً!) لم تكن هناك حاجة تستدعي ظهور عِلم الاقتصاد السياسي، حيث علاقات الإنتاج شفافة، كما تقول، ومظاهر النشاط الاقتصادي، بوجه عام، بسيطة لا تحتاج إلى عِلم يشرح ظواهرها أو يكشف عن قوانينها الموضوعية، كَتبت متخذة من إمبراطورية شارل مان (٧٤٢- ٨١٤) نموذجاً:"في القرون الوسطى، نجد أن الفلاح الصغير في مزرعته، تماماً مثل العاهل الكبير في أملاكه، يعملان تماماً ما يودان الحصول عليه عن طريق الإنتاج. غير أنه ليس في الأمر من سحر: فالإثنان إنما يريدان سد حاجات الإنسان الطبيعية من الغذاء والشراب والثياب، وبعض شؤون الحياة الأخرى. أما الفارق الوحيد

---

(٤) مع الأخذ في الاعتبار أن ماركس لديه الوَعيْ، في إطار المركزية الأوروبية بالطبع، بأن الرأسمال لم يخترع، كما يقول، العمل الزائد، بل في كُل مجتمع يمتلك قسم منه وسائل الإنتاج يتحتم على القسم الآخر أياً ما كان: عامل حر أم غير حر، سواء أكان في أثينا أو روما أو العالم الرأسمالي المعاصر، أن يضم إلى وقت العمل الضروري من أجل اعالة نفسه وقت عمل زائد كيْ يُنتج وسائل المعيشة لمالك وسائل الإنتاج. مع الأخذ في الاعتبار ذلك نلاحظ أن ماركس يرى الفارق من جهة شكلية بحتة. إذ أن الشكل الَّذي ينتزع به هذا العمل الزائد هو وحده الَّذي يميز التشكيلات الاقتصادية للمجتمع مثل المجتمع القائم على أساس العبودية عن مجتمع العمل المأجور. والاعتداد بالشكل على العكس يوهن الفرق لأن المجتمعات السابقة على الرأسمالية، كما سنرى تفصيلاً، عرفت في أحوال عديدة ومواضع كثيرة انتزاع العمل الزائد بنفس (الشكل) الَّذي عرفته الرأسمالية!

فهو أن الفلاح يَنام على القش، بينما المالك العقاري الكبير ينام على فراش من ريش النعام، والفلاح يَشرب إلى المائدة بيرة أو شيئاً يشبهها، بينما يشرب المالك الكبير، خموراً ثمينة. إن الفارق الوحيد يكمن في كمية ونوعية المواد المنتجة. بيد أن أساس الاقتصاد وغرضه الَّذي هو سد الحاجات البشرية، يظلان أنفسهما. مقابل العمل، الَّذي ينطلق من هذا الهدف الطبيعي هناك نتيجته الواضحة. وهنا، مجدداً، في عملية العمل نفسها، ثمة فوارق عديدة: فالفلاح يَشتغل بنفسه. برفقة أفراد أسرته، ولا يحصل من ثمار العمل إلا على ما توفره له قطعة الأرض الَّتي يملكها. أو حصته من الأرض المشاعية... ولكن سواء أعمل كل فلاح لنفسه برفقة عائلته، أم عمل الجميع معاً لحساب السيد الإقطاعي بقيادة العمدة أو المشرف الملكي، ليست نتيجة هذا العمل سوى كمية معينة من وسائل العيش بالمعنى الواسع للكلمة، أيْ بالضبط ما يحتاجه الفلاح للعيش أو تقريباً بمقدار ما يَحتاج لهذا العيش. بامكاننا طبعاً أن نُدير مثل هذا الاقتصَاد في كُل الاتجاهات، وأن ننظر إليه من كُل جانب، وسنجد أن لا سر فيه ولفهمه نحن لا نحتاج لأَيْ عِلم خاص ولا لأبحاث عميقة".(٥)

في هذا المجتمع (الأوروبي!) الَّذي تحلله روزا لوكسمبورج لا تُباع قوة العمل ولا تُشترى، كما أن مُنتجات الفلاحين ليست معدة، كقاعدة عامة، للبيع في السوق. ويتعين أن ننتظر، وفقاً لفرضية روزا، مجيء الرأسمالية كيْ نرى بيع قوة العمل، والإنتاج من أجل السوق، كظاهرتين غير مسبوقتين تاريخياً؛ أيْ كما لاحظ وأوضح ماركس بالتمام والكمال!

وابتداءً من المركزية الأوروبية نفسها، أَيْ كتابة تاريخ العالم ابتداءً من تاريخ أوروبا، الغربية تحديداً، يقدم هيلبرونر فرضيته، وفقاً للتقليد الماركسي، وهي أن الَّذي يميز الرأسمالية هو أن "عناصر الإنتاج"، (وفقاً

---

(٥) روزا لوكسمبورج، **ما هو الاقتصاد السياسي؟** ترجمة إبراهيم العريس، سلسلة دليل المناضل؛ ١ (بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٧٧)، ص١٦٨.

لاصطلاحات النيوكلاسيك!) الممثلة في العمل والأرض لم يكونا، قبل الرأسمالية محلاً للتبادل. وإنَّ الرأسمال أيضاً كأحد عناصر الإنتاج لم يكن أكثر من ثروة مكتّزة. ولكن مع الرأسمالية تَبدَّل الحال.

فوفقاً لفرضية هيلبرونر، لم تكن الأرض، كقاعدة عامة، قبل الرأسمالية، محلاً للتداول. ولم تُصبح هكذا إلا عندما تمكنت الرأسمالية من فرض هيمنتها على المجتمعات؛ فصارت الأرض خاضعة لمنظومة البيع والشراء بعدما أصبحت مما يمكن التخلي عنه وبيعه وشرائه ورهنه والتصرف فيه بجميع أنواع التصرفات الناقلة للملكية. فقد كانت القاعدة في الريف، مع نمط الإنتاج الإقطاعي، أَيْ قبل الرأسمالية، أن الفلاح في أوروبا في القرون الوسطى عاش مرتبطاً بضيعة سيده؛ فيخبز في فُرن السيد ويطحن في طَاحونته، ويزرع حقوله ويخدمه في الحرب، ولكن نادراً ما كان يؤدي له أجراً عن خدماته. وحتى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر لم تكن هناك أرض بوصفها ممتلكات قابلة للبيع الحر. لقد كانت هناك أرض بطبيعة الحال، ضياع وأبعاديات إقطَاعية وإمارات، لكنها لم تكن بالتأكيد، كما يقول هيلبرونر، عقاراً يُباع ويُشترى كلما دعت المناسبة. كانت مثل هذه الأراضي تُشكل جوهر الحياة الاجتماعية وتهيىء الأساس الَّذي تقوم عليه سمعة المرء ومكانته في المجتمع. وبالرغم من أن الأرض كانت قابلة للبيع وفق شروط معينة[٦]، إلا أنها لم تكن بوجهٍ عام للبيع. فالنبيل الَّذي كان يشغل مركزاً طيباً لم يُفكر في بيع أرضه. إن كُل

(٦) "كانت الأراضي تُباع أحياناً، وكان أحد الملوك هو الَّذي يمول المبيعات، وقد قام أحد مؤرخي الأديرة في إنجلترا... بتسجيل عملية بيع قرية إيلتون لأحد الملوك مقابل ٥٠ ماركاً في عام ١٠١٢، إلا أن مثل هذه العمليات كانت نادرة، ولا يبدو أن هناك مَن كان يعرف أكانت إيلتون تستحق هذا المبلغ؟ نظراً لعدم وجود سوق للأراضي، مثل ما نعرفه اليوم". إي. راي كانتريري، **موجز تاريخ علم الاقتصاد: مقاربات جمالية لدراسة العلم الكئيب**، ترجمة سمير كريم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١)، ص٤٦.

مجتمع يستبعد أشياء لها قيمتها من نطاق البيع والشراء، ومن هذه الأشياء الأرض في نظر العصور الوسطى.

ومن جهة أخرى، وفقاً لهيلبرونر أيضاً، فحين يتم الحديث عن سوق العمل مع النظام الرأسمالي المعاصر فسيكون المقصود مباشرة تلك العملية من المفاوضة الَّتي يَبيع فيها الأشخاص قوة عملهم لمن يدفع أعلى ثمن! وهنا يَكتب:"وكُل ما يمكن قوله إن هذه العملية (يقصد بيع قوة العمل"م.ع.ز") لم يكن لها وجود في العالم السابق على العصر الرأسمالي. كان هناك خليط من الأقنان والصبيان وعمال اليومية مما يقومون بالعمل، ولكن هذا العمل لم يكن على الإطلاق له (أيْ قبل الرأسمالية "م.ع.ز") سوق يُباع فيه ويُشترى".(٧)

وأخيراً، وفقاً لنفس الفرضية، لم يكن الرأسمال أكثر من تعبير عن ثروة مكتنزة، إنما مع الرأسمالية، فلن يصبح الرأسمال كذلك، إنما سيمسي علاقة اجتماعية تنتمي إلى حقل الإنتاج. فقبل الرأسمالية كان الأسلوب المفضل في الإنتاج (في أوروبا في القرون الوسطى!) هو العملية الإنتاجية الَّتي يَستغرق أداؤها أطول فترة وأقل قدر من العمل. وكان الإعلان محرماً، وكانت الفكرة الَّتي تخطر إلى عضو النقابة الحرفية أن يُخرِج مُنتَجاً أفضل نوعاً من زملاءه، فكرة، كما يقول هيلبرونر، تنطوي على الكثير مِن الخيانة! ويؤكد هيلبرونر على صواب مذهبه بالاستشهاد بما كان عليه الحال في إنجلترا خلال القرن السادس عشر؛ فحين أطل الإنتاج الكبير في صناعة النسيج برأسه لأول مرة احتجّت نقابات الحرف لدى الملك الَّذي اعتبر الورشة العجيبة الَّتي تضم مائتي نول ومجموعة من الجزارين

---

(٧) انظر:

R. Heilbroner, **The worldly Philosophers** (New York: Simon &Schuster, 1961) p25.

والخبازين لتوفير الغذاء للقوة العاملة، خروجاً على الأعراف والقانون.[٨]

(٣)

إذاً، نحن أمام، على الأقل، ظاهرتين جديدتين على العالم المعاصر، هما: بيع قوة العمل، والإنتاج من أجل السوق. وهذه الظواهر بتلك المثابة هي الّتي تميز العالم الرأسمالي المعاصر من جهة، وسبب ظهور الاقتصاد السياسي كعلم لكَيْ يُفسر هذه الظَواهر (الطارئة/الجديدة!) ويكشف عن قوانينها الموضوعية من جهة أخرى.

ولكن، هل هذه الظواهر حقاً غير مسبوقة تاريخياً؟ ولم يكن لها وجود، كما ذهب ماركس وتابعوه، إلا مع النظام الرأسمالي المعاصر الّذي هيمن منذ خمسة قرون فقط؟ أم هي ظواهر معروفة تاريخياً قبل الرأسمالية بمئات السنين؟ وإذ ما كانت فعلاً معروفة فلمَ لم يظهر الاقتصاد السياسي كَيْ يُفسرها ويكشف عن قوانين حركتها؟ إن الطريق الّذي سوف يسلكه الذهن في سبيله لتقديم إجابة على هذه الأسئلة تعين أن يكون مُعبّداً بموقف واضح رافض للمركزية الأوروبية الاستعمارية، والاتخاذ من تاريخ العالم حقلاً للتحليل. وهو مَا سوف نحاول فعله عبر أبحاثنا الراهنة. ولنرجيء، منهجياً، معالجة هذه الإشكالية إلى ما بعد طرح إشكاليّتنا الرئيسية الثانية، وهي المتعلقة بمباديء الاقتصاد السياسي كما تَبدت على يد الكلاسيك وماركس.

---

(٨) Heilbroner,op,cit,p.28

الفصل الثالث
مباديء الاقتصاد السياسي

(١)

حدد ماركس لنفسه هدف الكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم عمل هذا النظام الجديد غير المسبوق تاريخياً، والَّذي يحتوي، من وجهة نظره، على ظواهر غير معروفة من قبل في العالم. وبوجه خاص، كما ذكرنا في الفصل السابق، ظاهرة بيع قوة العمل، وظاهرة الإنتاج من أجل السوق. وإذ يُحدد ماركس هدفه على هذا النحو يشرع في مراجعة الفكر السابق عليه، أيْ الفكر الاقتصادي للطبيعيين، وفرنسوا كينيه (١٦٩٤-١٧٧٤) بصفة خاصة، والفكر الاقتصادي للكلاسيك (١٦٢٣-١٨٧١) وبوجه خاص آدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠) وديفيد ريكاردو (١٧٧٢-١٨٢٣) باعتبارهما تنظيراً رأسمالياً للرأسمالية الناشئة نفسها، وبصفة أخص ريكاردو، الَّذي اعتنق ماركس أهم تصوراته في أهم المواقع الفكرية المحورية وأكثرها خطورة في مجمل مذهبه في **رأس المال**[١]. وقد بدا هذا التأثر على مستوى المنهج؛ إذ استخدم ماركس أعلى درجات التجريد كما فعل ريكاردو. كما ظهر على مستوى الموضوع؛ إذ مثلت

---

(١) "هل كان لماركس مُعلِم؟ نعم. فالفهم الحقيقي لاقتصاده يبدأ بأن ندرك أنه كواحد من أصحاب النظريات، كان تلميذاً لريكاردو، لا بمعنى أن حجته تبدأ بشكل واضح من أفكار ريكاردو فحسب، وإنما بالمعنى الأهم بكثير وهو أنه تَعلم من ريكاردو فن صوغ النظريات. كان دائماً يستخدم أدوات ريكاردو، وكانت كُل مشكلة نظرية تعرض نفسها له في صورة الصعاب الَّتي لاقاها خلال دراسته العميقة لريكاردو، وفي صورة ما استشفه من تلك الدراسة من إيماءات بالتوافر على المزيد من العمل. ولقد اعترف ماركس نفسه بالكثير من هذا". جوزيف شومبيتر، **عشرة اقتصاديين عظام**، ترجمة راشد البراوي (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٨)، ص٤٠. ولكن إريك رول يؤكد على أن الَّذين يقولون أن ريكاردو هو أستاذ ماركس، بصفة خاصة في ما يتعلق بنظرية القيمة الزائدة، إنما يغفلون تأثير آدم سميث الحاسم على الأخير. للمزيد من التفصيل، انظر:

Eric Roll, **History of Economic Thought** (London: Faber and Faber, 1973), p.125.

نظرية القيمة كما صاغها ريكاردو العمود الفقري في الجسم النظري لمعظم كتابات ماركس الاقتصَادية، وبوجه خاص في **رأس المال.**

ومن أجل استخلاص مباديء الاقتصاد السياسي، بعد نقدها وتبلورها على يد ماركس، يكون من المتعيَّن، في مرحلة أولى، التعرف إلى مجمل البناء النظري للكلاسيك، بوجه خاص آدم سميث وديفيد ريكاردو، **لأنه البناء الذي سوف يُخضعه ماركس، بشكل مركزي، للمراجعة والنقد**[٢]. ثم التعرف، في مرحلة ثانية، إلى مباديء الاقتصَاد السياسي بعد أن قام ماركس بمراجعتها. فلنتقدم الآن خطوة فكرية إلى الأمام بغرض التعرف إلى مباديء الاقتصاد السياسي، الَّتي سوف نخضعها نحن أيضاً بدورنا للمراجعة، عند كُل من آدم سميث، وديفيد ريكاردو، وكارل ماركس.

---

(٢)"يعني الاقتصاد الكلاسيكي بالنسبة لماركس مواجهته بموضوع جديد وبالتالي وضع الاقتصَاد السياسي الكلاسيكي نفسه محل تساؤله. وبما ان الاقتصَاد السياسي الكلاسيكي يتحدد كاقتصَاد سياسي بموضوعه فإن النقد الّذي يُصيب هذا الموضوع عن طريق مواجهته بموضوع جديد يمكن أن يُصيب الاقتصَاد السياسي الكلاسيكي في ذات وجوده". محمد دويدار، **مباديء الاقتصاد السياسي**، المصدر نفسه، ص٢٤٦. ويجب أن لا يُفهم من ذلك أن ماركس يستبدل اقتصَاد سياسي قديم/غير عِلمي، باقتصاد سياسي جديد/عِلمي. اقتصاد سياسي ماركسي. إنما هو النقد للاقتصاد السياسي الكلاسيكي ومحاولة استكماله.

أولاً: آدم سميث[٣]

يمكننا تحديد أهم أفكار آدم سميث الَّتي جاءت في **ثروة الأمم**، والَّتي تحددت معها معالم الاقتصَاد السياسي لديه، على النحو التالي:

١- انشغل ذهن سميث بمجموعة من الأسئلة وحاول الانطلاق ابتداءً من الإجابة عليها في سبيله إلى إقامة مذهبه؛ إذ انشغل بتحليل كيف يمكن لمجتمع يَسعى جميع أفراده إلى مصلحتهم الفردية أن يستمر ولا ينهار؟ وما الَّذي يجعل تصرفات أفراد المجتمع، على الرغم من أنانيتها تلك، تأتي متفقة مع المصلحة الجماعية؟ بل كيف ينجح المجتمع في تأدية المهام اللازمة لبقائه على الرغم من أن الحكومة، كما يفترض سميث، يقتصر دورها على الدفاع وحفظ الأمن الداخلي؟ وإذ يُقدم سميث إجابات عن ما يُثيره من أسئلة، فإنما يتوصل إلى أول صياغة لقوانين السوق الَّتي ترتكز على"اليد الخفية" (سنرى أن ماركس لديه نفس النظرية بشكل مركزي) الَّتي تسير بمقتضاه مصالح الناس الخاصة وأهواؤهم في الاتجاه الأكثر اتفاقاً مع مصلحة المجتمع بأسره.

٢- ولكن، قوانين السوق هي قوانين ديناميكية، من هنا يسعى سميث لفهم كيف تزيد ثروات الأمم؟ فقد كان آدم سميث مُنشغلاً بحركة المجتمع

---

(٣) الواقع أن آدم سميث لا يعد أول مَن أرسى دعائم علم الاقتصاد السياسي، إنما توجد جذور هذا العلم في كتابات وليم بتي، وفرنسوا كينيه، وريتشارد كانتيون، كتب ماركس:" أني أقصد بالاقتصاد السياسي الكلاسيكي مجمل الاقتصاد السياسي ابتداءً من وليم بتي، ذلك الاقتصاد الَّذي يدرس الترابطات الداخلية لعلاقات الإنتاج البورجوازية". **رأس المال**، نفسه، ص١٣٩. وسبب إختياري سميث كنقطة بدء، على الرغم من الروائع الفكرية والاجتهادات المرموقة السابقة عليه، هو أنه كان واع بكونه يرسي دعائم العلم، إذ كانت الأفكار الخاصة بالقيمة والتوزيع والإنتاج وغيرها من الأفكار الَّتي فرضت نفسها على الواقع الأوروبي، متفرقة فى الكتابات السابقة وتظهر عرضاً إلى حد ما. كتب إريك رول:"آدم سميث هو موضوع الاعتراف عند الجميع بأنه مؤسس الاقتصاد السياسي الكلاسيكي". إ. رول، **تاريخ**، المصدر نفسه، ص٢٣٥.

عبر الزمن. وستكون هذه الفكرة جوهرية في مجرى تحليله بصفة خاصة للقيمة الَّتي يخلقها العمال أثناء عملية الإنتاج.

٣- وقد لاحظ، وهو في سبيله إلى تحليل طبيعة السوق وقواعدها، وصياغة قوانينها، أن المصلحة الفردية تقوم بدور مركزي. ولكن، ثمة عامل موضوعي آخر يُعد عاملاً آخر، هو الَّذي بإمكانه تنظيم السوق والسيطرة على انفلات الأثمان. هذا العامل المنظِم هو المنافسة (نفس الأمر عند ماركس كما سنرى) وهو العَامل الَّذي يمنع تحكم أحد العارضين في الثمن، والمقصود هنا هو ثمن السوق، اللهم إلا إذ ما حدث اتفاق بين العارضين لسلعة ما، وهنا أيضاً يتدخل نفس المبدأ، مبدأ المنافسة، إذ سيأتي رأسماليٌ آخر من خَارج سوق تلك السلعة ويدخل سوقها بأثمان أقل؛ بما يؤدي إلى توازن الثمن في السوق مرة أخرى.

٤- يلاحِظ سميث في تحليله أن قوانين السوق لا تَفرض أثمان السلع في السوق فحسب؛ بل تُحدد أيضاً كميات السلع المختلفة الَّتي يحتاج إليها المجتمع؛ فالسلعة الَّتي يرغب المجتمع في زيادة استهلاكه منها ستقود المنتجين إلى العمل على إنتاج المزيد منها على حساب سلعة أخرى كفّ المجتمع، ولو مؤقتاً عن استهلاكها، بما يؤدي إلى زيادة الإنتاج من السلعة الَّتي قرر المجتمع زيادة استهلاكه منها، ومن ثم يزيد الفائض منها في مقابل اختفاء الفائض من السلعة الَّتي توقف الإنتاج بشأنها لعدم رغبة المجتمع فيها، بما يؤدي إلى انخفاض المعروض منها عن حاجة المجتمع. هنا تتدخل قوانين السوق كَيْ تُصحح الوضع ولترجعه إلى ما كان عليه من توازن، فتبدأ أثمان السلعة الَّتي انخفض قدر المعروض منها عن حاجة المجتمع في الارتفاع، نظراً لاختفاء الفائض واحتياج المجتمع إليها. ويتم ذلك كُله، في

تصور سميث، من دون تدخل أية سلطة مركزية، وإنما بفضل التناقض بين المصالح الذاتية، والمنافسة. كتب سميث:"إن الإنسان يحتاج دائماً إلى مساعدة غيره من بني جنسه، ولا يمكن توقع صدور هذه المساعدة عن طيب خاطر فحسب، إذ يتعين دوماً إقناعهم بأن من مصلحتهم مساعدتنا، فنحن لا نتوقع الحصول على الغذاء من الجزار والخباز بفضل حسن أخلاقهم، ولكننا نتوقع ذلك منهم كنتيجة لاهتمامهم بمصلحتهم الشخصية... إننا لا نُخاطب النزعة الإنسانية في أنفسهم بل نُخاطب حبهم لذاتهم، ولا نتحدث إليهم عن ضرورياتنا بل عن منافعهم".(٤)

٥ - ومثلما تُنظم قوانين السوق الأثمان وكميات السلع المنتَجة، فهي تُنظم كذلك دخول الّذين يشاركون في إنتاج تلك السلع؛ فإذا كانت الأرباح في قطاع ما مِن الأعمال مشجعة، فسوف يَتدفق الرأسماليون على هذا القطاع؛ فيزداد الإنتاج، ويزداد الطلب على العمال. ومن ثم يَزداد الفائض، أيْ الكمية المعروضة، حتّى تنخفض الأثمان... وهكذا تتم الدورة في السوق، وفقاً لقوانين السوق الّتي تُنظِم المنافسة الكاملة. والدخول هنا إنما ترتبط، وفقاً لقوانين السوق لدى سميث، بمدى تدفق العمال على قطاع السلعة الّتي زاد الطلب عليها، فيظل هذا التدفق مستمراً حتّى يَكثر العمال في هذا القطاع وتزداد المزاحمة في ما بينهم، كما سيشرح ريكاردو ومِن بعده ماركس، فيبدأ الدخل في الانخفاض؛ نظراً لزيادة الكمية المعروضة من العُمال، فيأخذ العمال في الانسحاب من القطاع بحثاً عن أجور أعلى في قطاع آخر، فيقل المعروض من السلعة الّتي سبق أن زاد الطلب عليها، فيرتفع ثمنها،...، وهكذا، حتّى يتم التوازن.

---

(٤) انظر:
Adam Smith, **The Wealth of Nations** (New York: Barnes& Noble. 2004), p. 258.
وهي الطبعة الّتي اعتمدت عليها في الاستشهاد بالنصوص

٦- يتعامل سميث حتى الآن مع السلعة في مرحلة التداول، وليس الإنتاج، وقوانين السوق هي القادرة، وفقاً له، على تنظيم المجتمع وضبط ايقاع نشاطه الاقتصادي، ولكن تلك القوانين الَّتي كشف عنها سميث لم تكن مساهمته الأكثر أهمية؛ إذ أن مساهمته الفعلية إنما تتركز في نظره إلى السلعة في المرحلة السابقة على طرحها في السوق للتبادل. فقد نظر، هو والكلاسيك بوجه عام، إلى العملية الاقتصادية في المجتمع ككُل، ابتداءً من الإنتاج، ومروراً بالتبادل، وانتهاءً بالتوزيع الَّذي سيكون الانشغال الرئيسي لدى ريكاردو، كما سنرى لاحقاً.

٧- فحينما أراد سميث التعرف إلى ثمن السلعة، كان عليه أولاً أن يُحدد موقفه من مشكلة القيمة. ومن أجل تحديد هذا الموقف كان عليه أن يَنتقل من دائرة التداول إلى دائرة الإنتاج حيث تُنتَج القيمة، ومن ثم التراكم، ويرى سميث مصدر هذا التراكم في قيام بعض الناس بإدخار المال، وهم الَّذين سيتحولون إلى تجار ثم إلى رأسماليين يستخدمون عمالاً بالأجرة. وبغض النظر عن هذه الفرضية، الأوروبية أيضاً، الَّتي سوف يرفضها ماركس لعدم اتفاقها مع التاريخ الدموي للتراكم في المستعمرات، فلكَيْ يتعرف سميث على أساس التبادل كان عليه أولاً أن يتعرف إلى قيمة السلع الَّتي تتبادل. وحينئذ سنجد لديه الوَعيْ بكون كمية العمل الضروري اللازم للإنتاج هو مقياس التبادل بين السلع، ويضرب على ذلك مثلاً: الصيد؛ فإذ ما كان صيد حيوان ما يتكلف اصطياده ساعتين من العمل، وآخر يتكلف ساعة واحدة من العمل؛ فإنه يتعين مبادلة زوج من الحيوان الَّذي تكلف صيده ساعة عمل واحدة بحيوان واحد من الَّذي تكلف صيده ساعتين من العمل. كتب آدم سميث:"إذا كان صيد القندس يتطلب عادة ضعف العمل اللازم لصيد الغزالة، يتعين إذاً أن يُبادل القندس

بزوجين من الغزالة. ومن الطبيعي أن يستحق ما يُنتج عادة في يومي عمل أو ساعتين عمل ضعف ما يُنتج عادة في يوم عمل أو ساعة عمل".

٨ - ولكن، حين استكمل سميث تحليله في واقع المجتمع المعاصر، وجد مشكلة تكمن في صعوبة المقارنة بين المجهود المبذول في سبيل إنتاج السلعة من جهة شدة العمل، ومن جهة البراعة، إذ يصعب للغاية، وفقاً لتحليله النهائي، مقارنة ساعة عمل حداد أو عامل منجم مع ساعة عمل منسق ورود، أو حلاق. أو مقارنة ساعة عمل فلاح، أو إسكافي، مع ساعة عمل صائغ، أو صانع ساعات. ولذلك قرر سميث أن العمل هو مقياس القيمة، ولكن حينما يتعلق الأمر بالمبادلة في السوق، أَيْ قيمة المبادلة، فإن قيمة السلعة لا تتحدد بحسب كمية العمل المنفق في إنتاجها هي، إنما تتحدد بحسب كمية العمل المبذول في سبيل إنتاج السلعة الأخرى المتبَادل بها.

وعلى قدر التشوش الَّذي كان يملأ ذهن مُفكر يَعلم أنه يؤسس لعِلم جديد، جاءت عباراته مشوشة؛ فسميث وفقاً لمثل القندس والغزالة يُقرر أن كمية العمل المبذول في صيد كُل من الحيوانين هي الَّتي تحدد نسبة المبادلة بينهما. معنى ذلك أنه يرى أن كمية العمل المبذول في سبيل إنتاج السلعة هو مقياس قيمتها، ولكنه لم يستكمل فكرته وانحرف بها حين أراد اختبارها على أرض واقع المجتمع المعاصر، نظراً لصعوبة المقارنة بين العمل من جهتي الشدة والبراعة. ونتيجة هذا الارتباك؛ فبدلاً من أن يكتب، ووفقاً لما انتهى إليه تحليله:"مع ان العمل هو المقياس الحقيقي للقيمة، لكن حين التبادل لا تُقدّر القيمة بالعمل المبذول في إنتاجها هي، إنما تُقدّر بالعمل المبذول في سبيل إنتاج السلعة الأخرى المتبَادل بها". كتبَ،

وبارتباكٍ ملحوظ:"مع ان العمل هو المقياس الحقيقي للقيمة التبادلية للسلع كافة، لكنه ليس الشيء الّذي تقدر به قيمة السلع عادة، فمن الصعب في كثير من الأحيان التأكد من النسبة بين كميتين مختلفتين من العمل. فالزمن المنفَق في نوعين مختلفتين من العمل لن يحدد بمفرده دائماً هذه النسبة. فالاختلاف في كمية الجهد المبذول، والبراعة، ينبغي أن يؤخذ في الحسبان. بالإضافة إلى ذلك، يتم تبادل كُل سلعة عادة بالمقارنة مع سلع أخرى لا مع العمل. ولذلك كان مِن الطبيعي أكثر أن تقدر قيمتها التبادلية بكمية من سلعة أخرى لا بكمية العمل الّذي يمكنها ابتياعه والسواد الأعظم من الناس أيضاً يفهمون ما تعنيه كمية معينة من سلعة معينة أحسن مما يفهمون كمية من العمل".(٥)

---

(٥)

"But though labour is the real measure of the exchangeable value of all commodities, *it is not that by which their value is commonly estimated. It is* often difficult to ascertain the proportion between two different quantities of labour. The time spent in two different sorts of work will not always alone determine this proportion. The different degrees of hardship endured, and of ingenuity exercised, must likewise be taken into account. There may be more labour in an hour's hard work than in two hours easy business; or in an hour's application to a trade which it cost ten years labour to learn, than in a month's industry at an ordinary and obvious employment. But it is not easy to find any accurate measure either of hardship or ingenuity. In exchanging indeed the different productions of different sorts of labour for one another, some allowance is commonly made for both. It is adjusted, however, not by any accurate measure, but by the higgling and bargaining of the market, according to that sort of rough equality which, though not exact, is sufficient for carrying on the business of common life."
Smith, **The Wealth of Nations**, op, cit, *p. 65*

ويمكن أن نفهم عبارة سميث بشكل آخر على أساس أنه يقصد أن العمل هو المقياس الحقيقي للقيمة التبادلية للسلع كافة، إنما في المجتمعات قبل الرأسمالية. لأن القول أن سميث يقصد أن العمل هو المقياس للقيمة التبادلية في المجتمعات الرأسمالية، لا يلغي فقط الصعوبة الّتي واجهته حين اختباره نظريته في القيمة على أرض الواقع المعاصر، إنما أيضاً يجعل العبارة كلها بلا معنى. ولذلك نفضّل اعادة صياغة العبارة على نحو ما أوردنا بالمتن لتساوقها مع مجمل مذهب سميث في القيمة الّذي يرى ان العمل هو المقياس الحقيقي للقيمة، لكن حين التبادل لا تُقدّر القيمة بالعمل المبذول في إنتاجها هي، إنما بالعمل المبذول في سبيل إنتاج السلعة الأخرى المتبادل بها. وعلى هذا الأساس يكون العمل، وفقاً لمنطق سميث، هو المقياس الحقيقي للقيمة وقيمة المبادلة في المجتمعات البدائية، والمقياس الحقيقي للقيمة فقط في المجتمعات الرأسمالية.

٩- والأساتذة. أساتذة الاقتصاد في الجامعات، ابتداءً من تجزئة كلام سميث، المرتبك بالأساس، وتأويله، دون وَعيٍ بهذا التشوش، على نحو يستبعد قانون القيمة الَّذي يؤرق النظرية الرسمية! يقولون للطلبة، وبمنتهى الثقة، أن سميث كان يرى أنَّ قيمة السلعة تتَحدد بالعمل، أَيْ انه كان يؤمن بنظرية القيمة، ثم قام بتغيير رأيه[٦] وأعتنَق نظرية نفقة الإنتاج، أَيْ انحلال القيمة التبادلية إلى مكونات الثمن الطبيعي(الأجر، والربح، والريع). والواقع ان التحليل الدقيق لمجمل مذهب سميث وتحليل نصوصه بشكل عِلمي يوضح، كما سنرى أدناه، أن سميث لم يعدل نهائياً إلى نظرية في نفقة الإنتاج؛ لأنه، في نهاية المطاف، يُرجع عناصر هذه النفقة إلى المجهود الإنساني الواعي المنتِج، أَيْ إلى العمل البشري. فوفقاً لتصور سميث لانحلال ثمن السلعة الطبيعي، أو قيمة مبادلتها، إلى دخول الطبقات المختلفة، أَيْ إلى: أجر وربح وريع، يسير التحليل على النحو الأتي: يشتري الرأسمالي مواد العمل، وأدوات العمل، والعمل (نلاحظ أن آدم سميث والكلاسيك بوجه عام لا يفرقون بين العمل وقوة العمل، وهو ما سوف ينتبه إليه ماركس، على الرغم من أنه وقع في نفس الخطأ في كتاباته المبكرة) ثم يقوم العمال بالإنتاج، وهم حينئذ **يضيفون قيمة** إلى المواد، كما يقول سميث. وحينما يخرج المنتَج يوجهه الرأسمالي إلى السوق. كقيمة مبادلة. تنحل هذه القيمة، بما تمثله من ثمن طبيعي للسلعة، إلى(أجر) للعمال، وإلى (ريع) للمُلاك العقاريين، وإلى (ربح) الَّذي يَستقل به الرأسمالي. أيْ أن الدخول المختلفة مصدرها واحد، هو العمل. ونفس التصور، كما سنرى، سيعتنقه ديفيد ريكاردو، مع استبعاد الريع، ولكن كارل ماركس سيرفضه جزئياً حين يُعيد النظر في انقسام القيمة الَّتي يضيفها

---

(٦) على سبيل المثال، انظر: إ. رول، **تاريخ**، المصدر نفسه، ص٢١٥.

العمال إلى الناتج، إذ سيرى ماركس أن هذه القيمة لا تنحل إلا إلى (ربح) و(ريع) فقط. ولا يحصل العمال على أَيْ نصيب في القيمة الَّتي يضيفونها إلى الناتج.

١٠- فوفقاً لنصوص سميث؛ نجد أنه بعد أن حدد موقفه من مشكلة القيمة على هذا النحو، كان عليه أن يحدد لنفسه المنهج الَّذي سوف يسير بمقتضاه لمعرفة كيف تتكون، ابتداءً من القيمة، الأثمان، وكان لديه الوَعيْ بضرورة مناقشة ثلاث أفكار مركزية: أولاً: المعيار الحقيقي للقيمة التبادلية، وكيف يتقوم الثمن الحقيقي لجميع السلع؟ ثانياً: معرفة الأجزاء المختلفة الَّتي يتكون منها هذا الثمن الحقيقي. ثالثاً: معرفة الظروف المختلفة الَّتي ترفع بعض أو كل هذه الأجزاء المختلفة الَّتي يتألف منها الثمن الحقيقي، والَّتي تنخفض أحياناً إلى ما دون المعدل الطبيعي. وعليه، رأى سميث أن ثمن السلعة الطبيعي، أو قيمة مبادلتها، إنما يتكون مِن: الأجر، والربح، والريع. إذ كتب:"إنّ ثمن أية سلعة في كُل مجتمع يرجع في النهاية إلى هذا الجزء أو ذاك من هذه الأجزاء: الأجور والربح والريع العقاري أو ينحل إلى هذه الأجزاء الثلاثة جميعاً... إنّ الأجور والربح والريع العقاري هي المنابع الأصلية لكُل ايراد ولكُل قيمة مبادلة". هنا سميث يُطابق بين الثمن الطبيعي والقيمة الزائدة المنتَجة مجدداً!

١١- إذاً، الأجر والربح والريع، كدخول للطبقات المشاركة في الإنتاج السنوي للأمة، مصدرهم جميعاً العمل. ويرد آدم سميث، بهذه الصفة، جميع الأجزاء المكونة لثمن السلعة إلى العمل، كتب سميث:"في ثمن القمح مثلاً، قسم يؤدى ريع مَالك الأرض، وقسم أجور العمال أو صيانة الدواب العاملة في إنتاجه، والقسم الثالث ربح المزارع، وتبدو هذه الأقسام الثلاثة بمثابة المكونات المباشرة أو النهائية لكامل ثمن القمح". "إن القيمة الَّتي يضيفها العمال إلى المواد تنحل إلى قسمين، أحدهما يوفى أجور العمال، والآخر أرباح رب العمل على كامل

رأسمال المواد والأجور الَّتي قدمها. وما كان لهذا الرأسمالي أن يهتم بتشغيلهم لو لم يكن يتوقع من بيع ثمرة أعمالهم شيئاً أكثر من مجرد تعويض الرأسمال الَّذي خاطر به، وما كان له أن يستخدم رأسمال كبيراً لا صغيراً، لو لم يكن لأرباحه أن تتَقايس نسبياً مع سعة رأسماله".

١٢- ومع وَعيْ سميث بأن **القيمة الَّتي يضيفها العمال** إلى مواد العمل وأدوات العمل هي مصدر الزيادة في القيمة الَّتي تنحل، في تصوره، إلى أجر وربح وريع، فهو يضيف بصدد الرأسمال:"إن الرأسمال يلعب دورين: أولهما: دور الإيراد بالنسبة للعمال، وثانيهما: دور الرأسمال بالنسبة للرأسمالي، وبعبارة أخرى: إن ذلك الجزء مِن الرأسمال الَّذي دُفع للعمال، ويُمثل لهم كإيراد، صار بهذه المثابة بعد أن لعب في البداية دور الرأسمال"، "إن العمال في مجال الصناعة يأخذون أجورهم مِن سيدهم، الرأسمالى، وهم في ذلك لا يجعلونه في الحقيقة يُنفِق شيئاً؛ حيث أن هذه الأجور، عادة، ما تُدفع من الأرباح".

١٣- وبشأن اصطلاح الثمن، فإن آدم سميث يستخدم أربعة مصطلحات مختلفة[٧]. يمعن الأساتذة. أساتذة الاقتصَاد. في الخلط بينها ببراعة، سواء كان ثمن السلعة، أو ثمن العمل، وهي: الثمن الحقيقي، والثمن الأسمي، والثمن الطبيعي، وثمن السوق. أما الثمن الحقيقي، وهو يقترب في ذهن سميث من الثمن الطبيعي، فهو مقدار العناء والتعب والجهد الَّذي يبذله الإنسان في سبيله للحصول على سلعة ما[٨]. كتب آدم سميث:"الثمن

---

(٧) على الرغم من ان سميث يقول أنه سوف ينشغل بتحديد "مكونات" الثمن الحقيقي، إلا أنه لا يتحدث عن هذه الـ "مكونات" إلا بخصوص الثمن الطبيعي فقط. فلا"مكونات" للثمن الحقيقي لديه، وحينما نقول أنه كان منشغلاً ذهنيا بالثمن الطبيعي حال تناوله الثمن الحقيقي فإننا نُرجع ذلك لا إلى فكرة المكونات فحسب، إنما أيضاً لأنه يعي الأهمية المركزية للعمل الإنساني في تكون الأثمان، وبصفة خاصة، كما سنرى، الثمن الحقيقي والثمن الطبيعي.

(٨) من الفقهاء المسلمين مَن يشترط في العمل المأجور أن يكون متقوماً، بأن يكون في العمل كلفة وتعب. انظر: على بن اللبودي (القرن السادس عشر) **كتاب فضل الاكتساب وأحكام الكسب وآداب المعيشة**، في: **رسالتان في الكسب**، تحقيق سهيل زكار (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ص١٦٤.

الحقيقي لكُل شيء، أَيْ الكلفة الحقيقية لكُل شيء بالنسبة إلى الشخص الَّذي يريد الحصول عليه هو المجهود والعناء المبذول في سبيل الحصول على هذا الشيء... فما يُشترى بالمال أو بالسلع إنما يُشترى بالعمل كالشيء الَّذي نحصل عليه بعناء بدننا الخاص. فهذا المال أو هذه السلع يجنبانا هذا العناء. وهما في الواقع يحتويان على قيمة كمية معينة من العمل الَّتي نُبادِل بها ما يتعيّن فيه عند المبادلة أن يحتوي على قيمة كمية مماثلة".

ويرى سميث أن أول ثمن دُفِعَ في التاريخ لم يكن الذهب ولا الفضة، إنما كان العمل، إذ كانت المبادلة تتم ابتداء من العمل المنفق في إنتاج المنتَج المراد مبادلته. أما الثمن الأسمي، فيذهب سميث إلى القول بأن للعمل ثمناً حقيقياً وثمناً اسمياً، الثمن الحقيقي يتقوم بكمية ضروريات الحياة وكمالياتها الَّتي تبذل بدلاً عنها؛ والثمن الاسمي يتقوم بكمية النقود. كتب سميث:"الثمن الحقيقي والاسمي للسلع كافة يتناسبان بدقة في الوقت نفسه والمكان نفسه... فالمال هو المقياس الدقيق للقيمة التبادلية لكُل السلع".

أما الثمن الطبيعي، فهو الثمن المطابق لأجور العمال وأرباح الرأسمال وريع الأرض. أَيْ أَنَّ الثمن الطبيعي ينحل، كما ذكرنا، إلى الأجر، والربح، والريع. أما ثمن السوق، فهو الثمن الفعلي الَّذي تُباع به أية سلعة عادة، وقد يكون أعلى من ثمنها الطبيعي أو أَدنى منه، أو مساوياً له.

١٤- ولم تقتصر الصعوبات الَّتي واجهت سميث على مشكلته مع القيمة، إنما واجهته صعوبة أخرى حينما تدبر قيمة السلعة ووجد أن لكل سلعة قيمتين: قيمة استعمال، أَيْ صلاحية السلعة لإشباع حاجة معينة. وقيمة مبادلة، أَيْ قدرة السلعة على المبادلة بسلعة أخرى، فلم يتمكن من معرفة كيف تكون أشياء ذات قيمة استعمال عالية جداً ولكن قيمة مبادلتها قليلة أو

منعدمة مثل الماء؟ وبالعكس، كيف تكون أشياء ذات قيمة استعمال قليلة أو معدومة ولكن ذات قيمة مبادلة مرتفعة جداً مثل الماس؟ وهو اللُّغز الَّذي سوف يحله ريكاردو. حينما يوضح أن المنفعة شرط قيمة المبادلة، وليست مقياساً لها، فأياً ما كانت ندرة السلعة، وأياً ما كانت كمية العمل الضرورية المنفقة في الإنتاج، فلن يكون لقيمة المبادلة معنى دون منفعة السلعة، وهو الأمر الَّذي كان غامضاً أمام آدم سميث، الَّذي ظن أن للمنفعة أهمية في قياس قيمة المبادلة، فقد كتب: "يتعين أن نوضح أن لكلمة قيمة معنيين، فهي تشير أحياناً إلى منفعة شيء معين، وأحياناً تشير إلى القدرة على شراء سلع أخرى. الأولى تُسمى قيمة الاستعمال، والثانية تُسمى قيمة المبادلة. ولكن الأشياء الَّتي تكون ذات قيمة استعمال كبيرة غالباً ما تكون ذات قيمة مبادلة قليلة أو معدومة؛ وبالعكس، فالأشياء ذات قيمة المبادلة المرتفعة غالباً ما تكون ذات قيمة استعمال قليلة أو معدومة. فالماء لا شيء أنفع منه ولكن لا يُشترى به تقريباً شيء، ولا يكاد يُبادل به شيء. على العكس من ذلك الجوهرة لا تكاد تكون ذات قيمة في الاستعمال، ولكن يمكن في كثير من الأحيان مبادلتها بكميات كبيرة من السلع".(٩)

١٥- وحيث يبني آدم سميث مذهبه ابتداءً من تحليل عملية الإنتاج، فهو يرى أن الإنتاج إنما يتطلب توافر حد أدنى من الرأسمال الَّذي يلج حقل الإنتاج في أشكال مختلفة، منها ما هو في صورة مواد أولية أو مواد مساعدة، ومنها ما هو في صورة آلات ومعدات ومبان، ومنها ما هو في صورة عمل يُنفَق في سبيل تَفعيل المواد من خلال الأدوات وتحويلها إلى سلع، هنا يُقرر سميث أن الرأسمال يَنقسم إلى قسمين: أحدهما يُستخدم

---

(٩) في كيفية انتقال فكرة قيمة الاستعمال وقيمة المبادلة من فكر الفيزيوقراط، بصفة خاصة فرنسوا كينيه، وترجو، إلى آدم سميث، انظر

Lewis Haney, **A History of Economic Thought** (New York: Macmillan Company, 1936) P.217-222.

في سبيل الحصول على الأراضي والآلات والمعدات،...، أَيْ أدوات الإنتاج، ويُسمي هذا القسم"الرأسمال الأساسي"، والآخر يُستخدم في سبيل شراء مواد العمل والعمل، ويُسمي هذا القسم "الرأسمال الدائر". ووجه الاختلاف بين الرأسمال الأساسي والرأسمال الدائر، كما يرى سميث، يتجلى في شرط بقاء الملكية، وهو الشرط الَّذي سيقوم ريكاردو بتعديله فيما بعد، فسميث يجعل معيار التفرقة بين قسمي الرأسمال هو مدى احتمالية تغير مالك ذلك الجزء من الرأسمال الَّذي تَجسد في السلعة عقب إنتاجها وطرحها في التداول، بمعنى أن كُلّ سلعة من السلع المنتَجة طبقاً لنمط الإنتاج الرأسمالي والمعدّة للبيع في السوق، إنما تحتوي على"أدوات عمل، ومواد عمل، وعمل"، والَّذي يمضي في التداول هو "مواد العمل والعمل"، وتظل الأدوات، والمباني، على مِلك صاحبها، وإنما تتجسد في الناتج بمقدار الاستهلاك فقط، وبنسبة محددة، في حين أن المواد إنما تُستهلك كليةً في أثناء عملية الإنتاج، وكذلك العمل الَّذي هو كالمواد عرضة للتبدل والتغيّر في أَيْ لحظة يراها الرأسمالي، وتبقى الآلات والمباني كَيْ تمثل الرأسمال الأساسي، في حين تُعد مواد العمل، والعمل، رأسمالاً دائراً.

ثانياً: ديفيد ريكاردو

١- يتقدم ريكاردو بالاقتصاد السياسي خطوات إلى الأمام، على الأقل على مستوى نظرية القيمة، فلم يعتبر ريكاردو أن المشكلة المركزية في الاقتصاد السياسي هي الإنتاج ونمو قوى الإنتاج وتنمية الثروة بوجه عام، كما كان يرى آدم سميث، وانما اعتبر أن الإشكالية الأساسية في الاقتصاد السياسي إنما تتعلق بمسألة تحديد القوانين الَّتي تُنظم عملية توزيع القيمة

الَّتي تخلقها العمال، أيْ الكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم توزيع الثروة بين الطبقات الاجتماعية المشاركة في عملية الإنتاج، وهي طبقة الرأسماليين وطبقة الملاك العقاريين وطبقة العمال(١٠). وإذ يُرجع ريكاردو جميع دخول السكان إلى مصدر واحد هو العمل؛ فإنه يصل إلى الاستنتاج: بأن مصالح الطبقات تتقارب مع بعضها وتتناقض، ولكن هذا التناقض ليس في حقل الإنتاج، وإنما في حقل التوزيع؛ حيث يجري الصراع بين الطبقات على اقتسام الناتج الإجمالي. وعلى الرغم من وجه الاختلاف بين سميث وريكاردو على هذا النحو، فإن كلاً منهما يصدر في تحليله لدائرة انشغاله عن نظرية في القيمة.

٢- والواقع أن الاختلاف بين ريكاردو وسميث بشأن موضوع الإشكالية الأكثر أهمية في الاقتصاد السياسي إنما هو انعكاس مباشر لحركة الواقع؛ فسميث حين فكر في إنتاج **ثروة الأمم**، إنما كان يعيش عصر الثورة الصناعية والرأسمالية الناشئة أيْ المرحلة الصاعدة للرأسمالية، وكانت المشكلة الأساسية حينئذ هي مشكلة تنظيم الإنتاج ونموه، بينما جاء ريكاردو كيْ يُعايش مرحلة تالية أخذت فيها مشكلة توزيع الدخل حيزاً

---

(١٠) كتب ريكاردو:

"To determine the laws which regulate this distribution, is the principal problem in Political Economy: much as the science has been improved by the writings of Turgot, Stuart, Smith, Say, Sismondi, and others, they afford very little satisfactory information respecting the natural course of rent, profit, and wages" .David Ricardo, **The Principles of Political Economy and Taxation** (New York Barnes& Noble. 2005), p xvii.

وهي الطبعة التي اعتمدت عليها في الاستشهاد بالنصوص."وتتخذ العلاقة بين نظرية القيمة وتحليل التوزيع معنى مزدوجاً: فمن الوجهة المنطقية يلزمها أن تحدد قيمة المبادلة ومعدل الربح في الاقتصاد تحديداً صحيحاً. بينما تعطي هذه العلاقة، كمحاولة لتقريب فكرة القيمة- العمل إلى الحقيقة، مضموناً يلازم ذلك النظام الاقتصادي المحدد الَّذي يرجع نظريته المتعلقة بالتوزيع والعملية الاقتصادية".ف. فيتللو، **الفكر الاقتصادي الحديث**، ترجمة محمد إبراهيم زيد (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦١)، ص١٧.

كبيراً على صعيد الاقتصاد القومي بين: طبقة الرأسماليين، وطبقة الملاك العقاريين، فالتعارض كان واضحاً وشرساً بينهما. حيث تبلور الصراع بين رجال الصناعة الَّذين يريدون خفض أثمان المنتجات الزراعية كَيْ لا يضطروا لدفع أجور مرتفعة تتناسب مع ارتفاع أثمان الغذاء، ورجال الزراعة الَّذين يرغبون في رفع أثمان هذه المنتجات لتحقيق أقصى ربح.

٣- وعلى صعيد المنهج، نظر ريكاردو إلى المجتمع، كما نظر إليه آدم سميث، باعتباره عدداً معيناً من الأفراد الَّذين وهبوا ملامح "طبيعية خالدة". والتجريد، أو العلو بالظاهرة محل الدراسة عن كُل ما هو ثانوي، هو طريقة التفكير الَّتي تلقاها ريكاردو عن آدم سميث، وغيره من الأسلاف الكلاسيك بوجه عام، والَّذين توصلوا إلى نتائج علمية هامة مستخدمين في ذلك هذا المنهج. ويمكن القول أن سميث استخدم، في الواقع، منهجين: فإلى جانب المنهج التجريدي، استخدم المنهج الوصفي في شرحه للظواهر محل تحليله. أما ريكاردو فهو يتجاوز هذه الازدواجية ويرفض بشكل حاسم المنهج الوصفي. ويلتزم بأعلى درجات التجريد.(١١)

كان ريكاردو منشغلاً بهدف أساسي هو صياغة القوانين الاقتصادية الَّتي توجه المجتمع وبصفة خاصة في حقل توزيع الناتج الاجتماعي؛ وتمكن

---

(١١) كتب جون جالبريث، بسطحية، منتقداً منهج ريكاردو، وبوجه خاص منهجه التجريدي:"حينما نُقارن ريكاردو بسميث أو مالتس نجد أن ريكاردو قدم تغييراً مؤثراً في المنهج، فلقد كان آدم سميث تطبيقياً... كان يبدأ من ملاحظاته الخاصة المتنوعة ويخرج منها باستنتاجاته. أما ريكاردو فكان نظرياً... وهو يبدأ من رأي واضح، أو يبدو انه كذلك ويستكمل المسير عن طريق المنطق إلى استنتاج معقول ظاهرياً، أو ربما إلى استنتاج حتمي. وكان ذلك منهجاً يمكن أن يجذب اهتمام رجال الاقتصاد بعد ذلك؛ لأنه لا يحتاج إلى وفرة في المعلومات، ويمكن عند الضرورة أن يكون منفصلاً عن الواقع الجاف أو غير المريح". انظر:
John Kenneth Galbraith, **A History of Economics: The past as the present** (Penguin Books, 1987) p.81

باستخدام التجريد من التغلغل في بنية المجتمع بشكل أعمق مما أستطاع سميث، والكلاسيك بوجه عام.

٤- أعاد ريكاردو النظر في تصور سميث للقيمة. إذ رأى أن قيمة السلعة تعتمد على كمية العمل النسبية الضرورية في سبيل إنتاج السلعة، وليس بوقت العمل اللازم في سبيل إنتاج السلعة الأخرى المتبَادل بها، كما كان يرى سميث. ولكيْ يحل المشكلة الَّتي واجهت سميث توصل إلى أن السلع تتَبادل وفقاً لكمية العمل النسبية الضرورية في سبيل إنتاجها دون الوقوف كثيراً أمام اعتبارات شدة العمل وبراعته؛ حيث رأى أنه يمكن المقارنة بين كميات العمل المختلفة على أساس العمل البسيط والعمل المركب، فكمية **(س)** من العمل المركب يمكن مقارنتها بالكمية **(ص)** من العمل البسيط. وبذلك حل ريكاردو المشكلة، ولم تعد المقارنة بين عمل شاق وعمل سهل أو بسيط، تمثل أزمة؛ إذ يمكن المقارنة، وفقاً لحل ريكاردو، بين العملين على أساس أن ساعات العمل الشاق يمكن أن تنحل إلى عدد معين من ساعات العمل البسيط، ولتكن ساعة عمل شاق تساوي ثلاث ساعات من العمل البسيط. والواقع أن ريكاردو يَعتنق نفس نظرية سميث الَّتي ترى أن السلع، في المجتمعات البدائية، تتبادل على أساس كمية العمل المبذول في إنتاجها. ولكنه لم يرتبك كما ارتبك سميث؛ وقرر أن نفس المبدأ واحد ولم يحدث تغيّر، ومن أجل المقارنة بين قيمة سلعتين يمكن أن نُقارِن بين وحدات من العمل البسيط والعمل المركب، والعمل الشديد والعمل السهل، والعمل البارع والعمل العادي.

٥ - فإذا ما توصل ريكاردو إلى قيمة السلعة وأن مقياسها العمل، رأى أن القيمة لا تتوقف فقط على العمل المنفَق مباشرة في إنتاجها، بل أيضاً على

العمل المنفَق في سبيل إنتاج الأدوات والمعدات والمباني الضرورية لتحقيق العمل. أيْ العمل المختَزن.(١٢)

وبناءً عليه؛ وباستخدام التجريد، كما ذكرنا، يصيغ ريكاردو جميع أفكاره الأخرى، وكان في كُل مرة يطرح على نفسه السؤال: هل تُطابق المقولة الَّتي يدرسها أم تناقض تحديد القيمة بوقت العمل؟ كما كان غالباً ما يذكر رأي آدم سميث ثم يعقبه برأيه المتفِق معه أو المخالِف له سارداً لحججه وبراهينه.

٦- وحينما انتقل ريكاردو لمناقشة قيمة المبادلة وجد أن السلع تعتمد في قيمتها التبادلية على أمرين: الندرة، وكمية العمل الَّتي تحتويها. فحينما تصدى ريكاردو لتفسير لغز القيمة، الَّذي لم يتمكن سميث من تفسيره؛ فكيف تكون أشياء ذات قيمة استعمال كبيرة مثل الماء ولكن قيمة مبادلتها منعدمة تقريباً؟ وبالعكس، كيف تكون أشياء ذات قيمة استعمال قليلة ولكن ذات قيمة مبادلة مرتفعة مثل الماس؟ رأى أن حل هذا اللُّغز إنما يبدأ من فكرتي الندرة والمنفعة؛ فالماء ليس نادراً في الطبيعة؛ ولذلك تكون قيمة مبادلته قليلة، على العكس من ذلك الماس الَّذي يتميز بالندرة، ولذلك تكون قيمة مبادلته كبيرة.

ولا يتوقف ريكاردو عند هذا الحد من التفسير، بل يتقدم خطوة أكثر أهمية حين يقرر أن المنفعة شرط القيمة وليست مقياساً لها كما ظن

---

(١٢) D. Ricardo, **The Principles**, op.cit.

"Not only has the labour applied immediately to commodities affected their value, but the labour also which is bestowed on the implements, tools, and buildings, with which much labour is, assisted".p.18.

سميث الَّذي تصور أن المنفعة تؤخذ في الاعتبار حين قياس القيمة. فقد أوضح ريكاردو أن الأشياء كَيْ تكون ذات قيمة يشترط أن تكون ذات منفعة مهما كانت ندرة السلعة ومهما كانت كمية العمل الضرورية المبذولة في إنتاجها. ولكن هذه المنفعة يقتصر دورها على ذلك ولا يتعداه إلى أن تكون مقياساً للقيمة.

٧- وفي سياق انشغال ريكاردو بمشكلة القيمة يصل إلى منظم القيمة، موضحاً أنه لو كانت كمية العمل الموجودة في السلعة تُنظم قيمة مبادلتها؛ فإن أَيْ تغير في كمية العمل الّتي تحتويها السلعة يستصحب، مباشرة، التغيّر في قيمة السلعة ذاتها.

٨- وعلى الرغم من أن ريكاردو قد حدد، على نحو صائب إلى حد كبير، مفهوم القيمة ومقياسها ومنظمها؛ إلا أنه لم يستطع تفسير عملية التبادل بين العمل والرأسمال ابتداءً من نظريته في القيمة. فلماذا يكون الأجرُ أقلاً من القيمة الَّتي يخلقها العمل؟ يتعين هنا أن ننتظر تدخل ماركس كَيْ يحل هذه المشكلة ويقدم إجابة تعتمد على التفرقة بين العمل وقوة العمل.

٩- يفرق ريكاردو، كما سميث، بين الأثمان، وبصفة خاصة الثمن الطبيعي وثمن السوق، وهو يُعمم تلك التفرقة على جميع ما يُباع ويُشترى في السوق من سلع، وطالما العمل سلعة تُباع في سوق العمل لمن يشتريها في مقابل الأجرة، فإن ريكاردو يرى أن الثمن الطبيعى للعمل هو الَّذي يكون ضرورياً لتمكين العمال من العيش وإدامة عرقهم، دون زيادة أو نقصان، إنما يعني حد الكفاف، وحينما تطرح سلعة العمل في السوق نكون أمام

ثمن السوق للعمل، وهو يراه هنا، كما سميث، خاضعاً لقوى السوق ولكنه يتأرجح ارتفاعاً وانخفاضاً حول الثمن الطبيعي.

والحد الضروري من وسائل المعيشة بالنسبة لريكاردو ليس ثابتاً وإنما يتأثر بشروط تاريخية وجغرافية تحدد مكوناته. وسوف يشير ماركس إلى دخول عنصر تاريخي وآخر معنوي في تحديد قيمة قوة العمل بخلاف جميع السلع الأخرى.

١٠- ويفرق ريكاردو بين الأجور الأسمية والأجور الحقيقية: فالأجور الأسمية هي في نظره، كما سميث، كمية معينة من النقود تُدفع للعامل لقاء عمله خلال فترة معينة من الزمن، أما الأجور الحقيقية فهي زمن العمل الضروري لإنتاج وسائل معيشة العامل الضرورية خلال الفترة الَّتي يتقاضى عنها أجره الأسمي.

١١- يستكمل ريكاردو، ابتداءً من قانون القيمة، الخط المنهجي الَّذي وضعه آدم سميث بشأن التفرقة ما بين الرأسمال الأساسي والرأسمال الدائر، بيد أن استكماله لهذا الخط المنهجي إنما هو في الواقع اعادة نظر ليس في التَقسيم أو في محتواه، وإنما في معياره؛ ففي حين يرى سميث أن معيار التفرقة بين الرأسمال الأساسي والرأسمال الدائر يعتمد على شرط مدى بقاء ملكية ذلك الجزء من الرأسمال الَّذي يتجسد في السلعة، على نحو ما رأينا أعلاه، يعتمد ريكاردو معياراً جديداً يرتكز على معدل الاستهلاك، أو الديمومة؛ فإذا كان ذلك الجزء من الرأسمال مما يُستهلك في وقت قصير، أو يُستهلك كُلّيةً في فترة وجيزة، مثل الجزء من الرأسمال المدفوع كأجرة، فإن ذلك من قبيل الرأسمال الدائر. أما إذا كان مما يطول بقاؤه

ويدوم استخدامه في الوظيفة الَّتي تم إعداده لأجلها، كالآلات والمباني، فإننا نكون كما يقول ريكاردو، أمام رأسمال أساسي، مع ملاحظة أنه لا يُحدثنا عن المواد الأولية أو عن المواد المساعدة!

ثالثاً: كارل ماركس[١٣]

١- انشغل كارل ماركس، مثل جميع مفكري الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، بمشكلة القيمة... الأمر الَّذي جعله يَبدأ من تحليل السلعة؛ لأنها الَّتي تَتَجسد فيها القيمة.

وفي أثناء تحليله يفرق، كما سميث وريكاردو، بين نوعين من القيمة: الأول: قيمة استعمال السلعة، أَيْ صلاحية السلعة لإشباع حاجة إنسانية معينة، وهذا النوع من القيمة هو الَّذي يشكّل المضمون المادي للثروة في المجتمع. أما النوع الثاني فهو قيمة المبادلة، أَيْ صلاحية السلعة للتبادل بسلعة أخرى، وهي تتبدى كعلاقة كَمية، أَيْ كنسبة يجري بموجبها تبادل قيم استعمالية مِن نوع ما بقيم استعمالية مِن نوع آخر؛ فسلعة معيّنة، كيلو جرام واحد مِن القمح مثلاً تجري مبادلته بمقدار **(س)** مِن الأرز، و **(ص)**

---

(١٣) يمكن من زاوية ما أن نرى ماركس، وتراثه الفكري، داخلاً في إطار المدرسة الكلاسيكية، على الرغم من أن مصطلح الاقتصاد الكلاسيكي من مبتكرات ماركس نفسه، أطلقه على المفكرين السابقين عليه وبصفة خاصة ريكاردو، وجيمس ميل. فالعبرة دائماً بتصور المفكر بشأن موضوع العلم الَّذي ينشغل به، وهو الأمر الَّذي ينطبق على ماركس وعلاقته بالمفكرين السابقين عليه؛ إذ يُعد ماركس امتداداً فكرياً ناضجاً لمجمل التراث الكلاسيكي، الَّذي يبدأ من قانون القيمة، ويفصل مجموعة من القوانين الموضوعية حول هذا القانون. مع ملاحظة ان اعتباري ماركس امتداداً فكرياً لعلم الكلاسيك، إنما يصدر عن تصوري لموضوع العلم الَّذي انشغل به الكلاسيك وماركس، وليس كما ذهب كينز إلى أن المدرسة الكلاسيكية تُطلق على أولئك الَّذين تبنوا علم الاقتصاد الريكاردي وأكملوه مثل ستيوارت ميل، ومارشال، وإدجوورث، وبيجو.

John Maynard Keynes, **The General Theory of Employment, Interest and money** (London, Macmillan, 1967) p.3. "

مِن الحرير، و(ع) مِن الفضة، وغير ذلك، وباختصار، بسلع أخرى بأكثر النسب تبايناً. وبالتالي، ليس للقمح، كسلعة، قيمة تبادلية واحدة، بل الكثير جداً مِنها، ولكن بما أن (**س**) مِن الأرز، و(**ص**) مِن الحرير، و(ع) مِن الفضة، تُشكل القيمة التبادلية للكيلو مِن القمح، فإن (**س**) من الأرز، و(**ص**) من الحرير، و(ع) مِن الفضة، وما إليها، يجب أن تكون قيماً تبادلية قادرة على أن تحل محل بعضها البعض، أَيْ أن تكون متساوية فيما بينها. ومِن هنا يَنجم أن القيم التبادلية المختلفة للسلعة تعبر عن شيء واحد. فمهما تكن العلاقة التبادلية بين الحرير والفضة، يُمكن على الدوام التعبير عن هذه العلاقة بمعادلة تَتَعادل فيها كمية معيّنة مِن الحرير مع كَمية معينة مِن الفضة. مثلاً: مبادلة ١٠ أمتار مِن الحرير بـ ٥ جرامات مِن الفضة، فعلى أَيْ شيء تَدُل هذه المعادلة؟ إنها تدل على وجود أمر مشترك مقداره واحد. إن كلاً مِن هذين الشيئين، الحرير والفضة، مساو لشيء ما ثالث، لا هو الأول ولا هو الثاني، وبالتالي لابد وأن يكون كل منهما، باعتباره قيمة تبادلية، قابلاً للإرجاع إلى هذا الشيء الثالث. الَّذي لا يكون متمثلاً في خصائص هندسية أو فيزيائية أو أية خصائص طبيعية أخرى للسلع؛ إذ ان خصائص السلع الجسدية لا تُؤخذ في الاعتبار على وجه العموم إلا بقدر ما تتوقف عليها منفعة السلع، أَيْ بقدر ما تجعل مِن السلع قيماً استعمالية، وفي هذا الشأن يَنقل ماركس عن باربون (١٦٤٠-١٦٩٨) قوله:"إن نوعاً من السلع هو صالح تماماً كأيّ نوع آخر إذا كانت قيمتها التبادليتان متساويتين، ولا فرق أو اختلاف بين الأشياء الَّتي لها قيم تبادلية متساوية؛ فكَمية مِن الحديد أو الرصاص بمائة جنيه لها نفس القيمة التبادلية كما لكمية مِن الفضة أو الذهب بمائة جنيه".[١٤] إن الأمر الثالث المشترك بين"قيمة

---

(١٤) Marx, **Capital**, vol I, op, cit, p. 44.

السلعتين التبادلية" هو العمل، فكلاهما نِتاج قوة العمل. هنا يجد ماركس أهمية في الانشغال بقيمة قوة العمل. مُتساءلاً: ما هي قيمة قوة العمل؟ ومن أجل الإجابة يَسير التحليل على النحو التالي: ان قيمة كُل سلعة تُقاس بكمية العمل اللازم لإنتاجها، وقوة العمل توجد في شكل العامل الحيْ الَّذي يحتاج إلى كمية محددة من وسائل المعيشة لنفسه ولعائلته، مما يضمن استمرار قوة العمل حتى بعد موته. ومِن هنا، فإن وقت العمل اللازم لإنتاج وسائل المعيشة هذه يُمثل قيمة قوة العمل.

٢- وعلى ذلك، يدفع الرأسمالي للعامل أجره، أسبوعياً مثلاً، شارياً بذلك استخدام قوة عمله لهذا الأسبوع. وبعد ذلك يجعل الرأسمالي عامله يبدأ في العمل. وفي وقت محدد سيقدم العامل كمية من العمل توازي أجره الأسبوعي، فإذ افترضنا أن أجر العامل الأسبوعي يمثل ثلاثة أيام عمل، فإذا بدأ العامل عمله يوم السبت؛ فإنه يكون في مساء يوم الإثنين قد "عوض" الرأسمالي عن"القيمة الكاملة للأجر المدفوع". ولكن هل يتوقف العامل عندئذ عن العمل؟ إطلاقاً. لقد اشترى الرأسمالي "قوة عمل" العامل لمدة أسبوع، وعلى العامل أن يَستمر في العمل خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من الأسبوع كذلك، وهذا العمل الزائد الَّذي يقدمه العامل فوق الوقت اللازم لتعويض أجره وزيادة عليه هو"القيمة الزائدة"، ومصدر الربح، والتراكم المتزايد للرأسمال على نحو مستمر. يمكن هنا اعتبار ما وصل إليه ماركس، على هذا النحو، استكمالاً للبناء النظري الريكاردي، وحلاً للمشكلة الَّتي سبق أن واجهت ريكاردو بصدد: لماذا يكون الأَجر أقل من القيمة الَّتي يخلقها العمل؟ فالرأسمالي لم يشترْ العمل، كما ظن ريكاردو، إنما اشترى قوة العمل، كما توصل ماركس.

٣- وعقب أن أتم ماركس تحليله للقيمة، على نهج ريكاردو، وجد ضرورة مراجعة تصورات الكلاسيك بصدد أنواع الرأسمال. فقد كان آدم سميث وديفيد ريكاردو، والكلاسيك بوجه عام، يرون، كما ذكرنا، أن الرأسمال اللازم من أجل عملية إنتاجية ما، ينقسم إلى قسمين: القسم الأول: الرأسمال الأساسي، ويحتوي على المباني والآلات والمعدات. وكُل ما لا يُستهلك في عملية إنتاجية واحدة. والقسم الثاني: الرأسمال المتداول، وهو الَّذي يُستخدَم في عملية إنتاجية واحدة مثل المواد الأولية والمواد الوسيطة والعمل الإنساني. ولكن هذا التقسيم لم يكن يَتناغم مع نظرية ماركس في القيمة. الأمر الَّذي جعله يُعيد النظر في التقسيم إنما ابتداءً من مِعيار مختلف هو مِعيار القيمة نفسها، مُتساءلاً ما هي الأجزاء من الرأسمال الَّتي تُغيّر من قيمتها أثناء الإنتاج، أَيْ الَّتى يمكنها أن تخلق قيمة أزيد من قيمتها، وما الأجزاء الَّتي لا تُغيّر من قيمتها أيْ تظل قيمتها ثابتة عبر العملية الإنتاجية؟ حينئذ رأى ماركس ان تقسيم الكلاسيك ليس خطأ كُليةً إنما يحتاج إلى تعديل؛ فالرأسمالي، من أجل الإنتاج، يستخدم قسمين من الرأسمال: القسم الأول: الرأسمال **ذو القيمة الثابتة**، ويتكون ذلك القسم من: جزء أساسي مثل الأدوات والمعدات والمباني. وجزء دائر مثل المواد الوسيطة والمواد الأولية، وهذا القسم من الرأسمال لا يُغيّر من قيمته أثناء العملية الإنتاجية، لأنه يدخل عملية الإنتاج ويخرج منها بنفس القيمة. فالآلة مثلاً، بما تحتويه من عمل مختزن، يُحسب مُعدل استهلاكها على أساس قيمتها وطاقتها الإنتاجية، وهي تدخل في حساب كُلفة الإنتاج بهذه القيمة دون زيادة أو نقصان. أما القسم الثاني: الرأسمال **ذو القيمة المتغيرة**، ويتكون من: قوة العمل. وهذا القسم من الرأسمال يحقق أربعة أمور:

- يَنقل قيمته إلى الناتج.

- يزيد من قيمة الناتج.

- يَسمح بنقل قيمة الرأسمال الثابت إلى الناتج.

- يخلق قيمة جديدة غير مدفوعة الأجر. ويتم ذلك بأن يدفع الرأسمالي للعامل ٣ جنيهات مثلاً- على افتراض أن ساعة عمل واحدة تساوي وحدة واحدة من الأجر- ويأخذ منه عملاً يساوي ٤، أو ٥،... إلخ. ولذلك سمي هذا القسم من الرأسمال بالرأسمال المتغير. بعبارة أدق (الرأسمال ذو القيمة المتغيرة) كتب ماركس:" إن ذلك القسم من الرأسمال الَّذي يتحول إلى وسائل إنتاج أي مادة خام ومواد مساعدة ووسائل عمل، لا يُغيّر مقدار قيمته في عملية الإنتاج. لذلك أسمّيه بالقسم الثابت للرأسمال، أو بإيجاز: الرأسمال الثابت، وعلى العكس، فذلك القسم من الرأسمال الَّذي تحول إلى قوة عمل، يُغيّر قيمته أثناء عملية الإنتاج، فهو يُجدّد إنتاج معادله الذاتي ويشكل بالإضافة إلى ذلك قيمة زائدة يمكنها أن تتغيّر بدورها وأن تكون أكبر أو أقل، وهذا القسم للرأسمال يتحول بصورة متواصلة من مقدار ثابت إلى متغيّر، ولذلك أسمّيه بالقسم المتغيّر للرأسمال، أو بإيجاز: الرأسمال المتغير".(١٥)

٤ - ان هذا العمل غير مدفوع الأجر يمثل قيمة زائدة يستحوذ عليها الرأسمالي. والرأسمالي يجدد إنتاجه من خلال تحويل هذه القيمة الزائدة إلى رأسمال مجدداً، على نطاق متسع؛ ونمط الإنتاج الرأسمالي لا يقتصر على اعادة إنتاج الرأسمال بصورة مستمرة، ولكنه يُعيد إنتاج فقر العمال بصورة مستمرة في ذات الوقت، بحيث أنه يضمن على الدوام، تركز الرأسمال من

(١٥) Marx, **Capital**, vol I, op, cit, p.96.

جهة، ويضمن أيضاً وجود جماهير غفيرة من العمال المضطرين لبيع قوة عملهم إلى هؤلاء الرأسماليين لقاء كمية من وسائل العيش الَّتي تكفي بالكاد لبقائهم قادرين على العمل، وعلى إنجاب جيل جديد من العمال من جهة أخرى. إلا أن الرأسمال لا يُعاد إنتاجه فحسب بل يَزداد ويتضاعف على الدوام بقدر ما تتضاعف سطوته على طبقة العمال المفتقرين لوسائل الإنتاج. وكما أن الرأسمال يُعَاد إنتاجه بمعدلات تتزايد بأطراد فإن نمط الإنتاج الرأسمالي المعاصر يُعيد إنتاج طبقة العمال المعدومي الملكية بمعدلات متزايدة أيضاً وبأعداد هائلة!

٥ - وعلى مستوى الآداء اليومي للمشروع الرأسمالي، يَنتهي ماركس، ابتداءً من نظريته في القيمة والقيمة الزائدة المستندة إلى تصورات ريكاردو، إلى:

- إن جميع السلع هي نِتاج العمل البشري، وهذه الخاصية يُمكن قياسها؛ فالعمل يُقاس بكمية الزمن المنفَق في سبيل إنتاج السلعة، فكمية العمل الضروري اجتماعياً المبذول في إنتاج السلعة، إذاً، هي الَّتي تُحدد النسب الَّتي تَتَبادل بها بعض السلع بالبعض الآخر.

- إن جميع ظواهر الكون سواء كانت بفعل الإنسان أو ناتجة عن قوانين الطبيعة، لا تُقدم سوى فكرة تبدل الأشكال المادية للسلع، إن الضم والفصل هما العنصران الوحيدان اللذان يكشف عنهما الذهن البشري بتحليله لعملية الإنتاج، إذ أن عملية الإنتاج ما هي سوى عملية فصل وضم لأشياء موجودة سلفاً في الطبيعة.

- إن نفقة إنتاج قوة العمل هي النفقات الضرورية، لجعل العامل عاملاً، ولإبقائه عاملاً. وإن استهلاك العمال يؤخذ في الحسبان المحاسبي، شأنه شأن استهلاك الآلة.

- ان الاستثمارات في فروع القطاعات المشاركة في الإنتاج على الصعيد الاجتماعي تحكمها معدلات الربح؛ ومن هنا انشغل ماركس بتحديد شروط التوازن بين فروع الإنتاج، فأَيْ رأسمالي يرغب في استثمار أمواله سوف ينظر أولاً إلى ربحه المحتمل. وهو لن يُقدم على الاستثمار في فرع إنتاجي معين، وليكن الحديد والصلب، إلا إذ ما كان هذا الفرع الإنتاجي، الَّذي يريد استثمار أمواله فيه، يحقق أعلى معدلات الربح. فكيف تتحدد معدلات الأرباح الَّتي تحكم قرارات المستثمر؟ يتعين، قبل الإجابة، أن نوضح أن تحليل ماركس بوجه عام في **رأس المال**(١٦) هو تحليل ساكن، يفترض:

- ثبات كُل من: كمية النقود، والكمية المطلوبة من السلع، وكمية الربح الممكن توزيعه على الرأسماليين؛ فلو إفترضنا أن: مجموع الرساميل الموظفة في الإنتاج= ٥٠٠ وحدة، وان عدد المشروعات= ٥ مشروعات، وان (كمية/كتلة) النقود الَّتي توزع كأرباح على المشروعات= ١١٠وحدة، فإن نصيب كُل مشروع من الربح سيكون ٢٢ وحدة. ومعنى ذلك ان أَيْ مشروع جديد سوف يدخل السوق سوف يُشارك المشروعات الخمسة القائمة في كمية الربح المحددة وهي ١١٠ وحدة. فإذ ما أفترضنا أن ٥ مشروعات جديدة دخلت السوق فسوف يكون نصيب كُل مشروع من

---

(١٦) Marx, op, cit, vol III pp. 154-21

هذه المشروعات الـ ١٠ مقداره ١١وحدة فقط. وذلك مرتبط بشرط واحد هو أن كمية الطلب الكُلّي محددة؛ فمهما زادت الكمية المعروضة بدخول مشروعات جديدة، فلن يزيد المجتمع من استهلاكه من هذه السلعة. وبالتالي سوف تتنافس المشروعات على تلبية كمية محددة سلفاً من السلع من جهة، وعلى اقتسام كمية الأرباح المحددة أيضاً سلفاً، من جهة أخرى. وسوف ينشغل ماركس بتحديد معدلات هذه الأرباح.

- كما يفترض التحليل أن السلع تُباع بقيمتها، وأن المجتمع مُغلق، أَيْ لا يدخل في علاقات مع بقية أجزاء الاقتصاد العالمي،

- وأخيراً، يفترض التحليل سيادة المنافسة الكاملة في مجتمع يَسعى فيه الرأسماليون إلى تحقيق أقصى ربح. وبناءً عليه **تتحدد معدلات الأرباح، ابتداءً من قانون القيمة**؛ مع افتراض أمرين: الأمر الأول: قطاع إنتاجي معين يضم خمسة مصانع تستخدم تراكيب مختلفة من الرأسمال الثابت والرأسمال المتغير. الأمر الثاني: معدل القيمة الزائدة = ١٠٠ بالمئة.

الرأسمال الثابت	الجزء المستهلك من الرأسمال الثابت	الرأسمال المتغيّر	القيمة الزائدة	قيمة السلعة	ثمن التكلفة	معدل الربح الوَسطي	ثمن الإنتاج	إنحراف الثمن ـــــ القيمة
٨٠	٥٠	٢٠	٢٠	٩٠	٧٠	٢٢	٩٢	٢ +
٧٠	٥١	٣٠	٣٠	١١١	٨١	٢٢	١٠٣	٨ -
٦٠	٥١	٤٠	٤٠	١٣١	٩١	٢٢	١١٣	١٨ -
٨٥	٤٠	١٥	١٥	٧٠	٥٥	٢٢	٧٧	٧ +
٩٥	١٠	٥	٥	٢٠	١٥	٢٢	٣٧	١٧ +
٧٨	**٣٨**	**٢٢**	**٢٢**	**٨٢**	**٦٠**	**٢٢**	**٨٢**	**تطابق**

- مجموع القيمة الزائدة المنتجة في كُل المصانع =٢٠+٣٠+٤٠+١٥+٥ = ١١٠ وحدة.

- مجموع الرساميل الموظَفة في كُل المصانع = ١٠٠+١٠٠+١٠٠+١٠٠+١٠٠= ٥٠٠ وحدة.

- التركيب المتوسط للرأسمال = مجموع الرأسمال الثابت إلى مجموع الرأسمال المتغير ÷ الرأسمال الكُلّي = ٧٨ث + ٢٢م.
- مُعدل الربح الوَسطي= مجموع القيمة الزائدة ÷ مجموع الرساميل، أيْ: ١١٠÷٥٠٠= ٢٢%.
- سوف تقوم المشروعات المختلفة (وفقاً لقوى السوق. اليد الخفية عند آدم سميث) بإدخال تعديلات في التركيب العضوي للرساميل؛ حتى تتلائم مع التركيب المتوسط للرأسمال على الصعيد الاجتماعي، وكذلك مع الربح الوَسطي.
- ثمن التكلفة = الجزء المستهلك من الرأسمال الثابت + الرأسمال المتغير.
- قيمة السلعة = الجزء المستهلك من الرأسمال الثابت + الرأسمال المتغير + القيمة الزائدة.
- أما ثمن الإنتاج فيتكون من: ثمن التكلفة + معدل الربح الوَسطي.
- على الرغم من أن كُل رأسمالي بمفرده، وفقاً للجدول أعلاه، يحصل على قيمة زائدة مقدارها ١٠٠% إلا ان حساب الربح، ومن ثم تجديد الإنتاج، لا يَعتمد على القيمة الزائدة الَّتي تتحقق في مصنعه هو فحسب، إنما يعتمد في المقام الأول والأخير على الربح الكُلّي الَّذي أنتجه الرأسمال الاجتماعي الكُلّي.

٦- وعليه، فإن الرأسمال يَنسحب من قطاع ذي مُعدل ربح أدنى ويتدفق إلى القطاع الَّذي يُدر ربحاً أعلى. ومن خلال هذا المد والجزر... أو الهجرة والعودة للرساميل، بعبارة أخرى من خلال تزاحم هذه الرساميل وتوزعها على مختلف قطاعات الإنتاج وفقاً لتدني معدل الربح هنا، وارتفاعه هناك، يَخلق الرأسمال تناسباً بين الطلب والعرض يجعل الربح الوَسطي واحداً في مختلف قطاعات الإنتاج، فتتحول القيم على هذا النحو إلى أثمان إنتاج.
٧- ولكن، ماركس يحذر. فالرأسماليون الَّذين يُكثرون من استخدام القسم الثابت من الرأسمال على حساب القسم المتغير(١٧)سوف يتعرضون للإفلاس والخراب! لأنّ القيمة الزائدة الَّتي يتحصلون عليها إنما يحصلون عليها بالاعتصار من الرأسمال المتغيّر وليس من الرأسمال الثابت. فالأدوات

---

(١٧) Marx, op, cit,561

والمواد تخرج من العملية الإنتاجية بنفس القيمة الَّتي دخلتها بها.

٨- ولكن المسألة، كما يُعلِن ماركس، ليس اختيارية إنما إجبارية، فمع تطور التقنية واحلال الآلة محل العمل يحدث تدهور مستمر في معدلات الربح وتتجه بوجه عام هذه المعدلات إلى الانخفاض لأن الرأسمالي لا يستطيع أن يعتصر قيمة زائدة من الآلة. فليس بالضرورة إذاً أن تؤدي الزيادة في الرساميل إلى الزيادة في معدلات الربح؛ بل على العكس قد تؤدي هذه الزيادة إلى الانخفاض في هذه المعدلات. فالرأسمال ليس مبلغاً مِن النقود، كما ذكرنا، إنما هو علاقة اجتماعية. وإن الرأسمال يَفترض العمل المأجور، والعمل المأجور يَفترض الرأسمال. فكُل منهما شرط الآخر. وبقدر ما يَنمو الرأسمال المنتِج، وبقدر ما يَتسع تقسيم العمل واستخدام الآلات، بقدر ما تَنتشر المزاحمة بين العمال، وبقدر ما ترتفع مؤشرات البطالة، وبقدر ما تَنخفِض مقادير القيمة الزائدة. وبقدر ما تأخذ الرأسمالية في طريقها الهابط لجفاف منابع سر نشأتها وحياتها وتطورها. القيمة الزائدة.

٩- فمع ادخال الماكينات يبدأ العامل في الصراع ضد وسيلة العمل ذاتها، الَّتي هي الشكل المادي لوجود الرأسمال؛ فما أن ظهرت وسيلة العمل بشكل الماكينة حتى أصبحت مزاحِمة للعامل نفسه؛ فإن عدد العمال الضروريين لإنتاج نفس الكمية من السلع يتناقض أكثر فأكثر بفضل التقدم الآلي... إلخ. وهذا يؤدي إلى نمو عدد العمال الزائدين عن الحاجة بسرعة أكبر من نمو الرأسمال نفسه. وحينئذ يَتساءل ماركس: ما هو مصير هذا العدد المتنامي من العمال؟ ويرى انهم يشكلون جيش الصناعة الاحتياطي الَّذي يتقاضى، في فترات الأزمات الدورية الَّتي تمر بها الرأسمالية، أجراً أدنى من قيمة عمله، كما أنه يستخدم بصورة غير دائمة.

١٠- بناءً عليه، يضع ماركس، بناءً على شرح ريكاردو، القانون العام المُطلق للتراكم الرأسمالي على أساس من أنه كُلّما كانت الثروة الاجتماعية أكبر تعاظم جيش الصناعة الاحتياطي[١٨]، وكُلّما كانت نسبة الجيش الاحتياطي أكبر من الجيش الفعلي (العمال الدائمون) كُلّما تَضخمت جماهير السكان الفائضين الَّتي يَتناسب بؤسها بصورة طردية مع مشقة عملها. وأخيراً كُلّما اتسعت فئات المعدمين من الطبقة العاملة وجيش الصناعة الاحتياطي، كلما تزايد الفقر على الصعيد الاجتماعي.

رابعاً: الكلاسيك وماركس

في ضوء ما تحقق لنا من وَعيْ بفكر سميث وريكاردو وماركس، يصير من المناسب هنا أن نناقش فكرة مناقشة تفيد في تكوين صورة أكبر أوضح لمجمل الجسم النظري لعلم الاقتصاد السياسي الَّذي تكون بفضل جهود الكلاسيك وماركس عبر قرنين من الزمان. كتب آدم سميث:

"That the price of the greater part of commodities resolves itself into three parts, of which one pays the wages of the labour, another the profits of the stock, and a third the rent of the land which had been employed in producing and bringing them to market: that there are, indeed, some commodities of which the price is made up of two of those parts only, the wages of labour, and the profits of stock: and a very few in which it consists altogether in one, the wages of labour: but that the price of every commodity necessarily resolves itself into some one, or other, or all of these three parts; every part of it which goes neither to rent nor to wages being necessarily profit to somebody Since this is the case, it has been observed, with regard to every particular commodity, taken separately, it must be so with regard to all the commodities which compose the whole annual produce of the land and labour of every country, taken complexly. The whole price or exchangeable value of that annual produce must resolve itself into the same three parts, and be parcelled out among the different *inhabitants of the country, either as the wages of their labour,* the profits of their stock, or the rent of their land". A.Smith, **The Wealth**, op.cit.p.159

---

(١٨) قارن: ريكاردو، **المبادىء**، المصدر نفسه، فصل: في الآلات، ص٢٥٠.

ولنتوقف أمام هذا النص قليلاً، فآدم سميث يقول فيه أن ثمن السلعة ينحل، أو يتكون، كما ذكرنا سلفاً، من ثلاثة أقسام: الأجر، والربح، والريع. وهو ينطلق من فرضية أن الرأسمالي يوظف الرأسمال الأساسي (المباني، أدوات العمل) كما يوظف الرأسمال الدائر (العمل، ومواد العمل) وحينما يتفاعل قسما الرأسمال من خلال الإنتاج يجد الرأسمالي بين يديه ناتجاً يفوق في قيمته قيمة القسمين المكونين لرأسماله. يبعه. ومن حصيلة البيع يدفع الأجر، والريع، وبعد خصم (إجمالي تكاليف صيانة الرأسمال الأساسي) يجني الربح بيد أن منتقدي سميث، وماركس منهم، لا تسير لديهم الأمور على هذا النحو، إذ يرون أن سميث أخطأ حينما أغفل (إجمالي تكاليف صيانة الرأسمال الأساسي) من توزيع القيمة، وجعل الناتج ينحل إلى (م + ق ز) أيْ الرأسمال المخصص للأجور والناتج الزائد أيْ الربح. أيْ أنه لم يتمكن من رؤية قيمة العمل المختزن في الآلات وأنه يدخل بقيمته في الناتج، ومن ثم يجب أن يتم تجديده عبر عملية الإنتاج. وعلى الرغم من أن هذا الإتهام غير صحيح لأن آدم سميث ذكر صراحة، وهو ما ذكره ماركس نفسه، ان إجمالي تكاليف صيانة الرأسمال الأساسي يتعين أن تستبعد من الإيراد الصافي للمجتمع.

"The entire expenditure for the maintenance of the fixed capital must evidently be excluded from the net revenue of society. Neither the raw materials by means of which the machines and tools of industry must be kept in condition nor the product of the labor required for the transformation of these raw materials into their intended form can ever constitute a portion of this revenue. The price of this labor may indeed form a portion of that revenue, as the laborers so employed may invest the entire value of their wages in their immediate fund for consumption. But in other *kinds of labor the price*"(that is to say, the wages paid for this labor"as well as the product" (in which this labor is incorporated) "enter into the fund for consumption; the price into that of the laborers, the product into that of other people, whose subsistence, comfort, and pleasure are increased by the labor of these workmen." (Book II, chapter 2, page 190, 191.)." Marx, **Capital**, op.cit p.598.

أيْ ان سميث لديه الوعي بإشكاليات تجدد الإنتاج الاجتماعي. فمن غير المقبول منطقياً أن نفترض أن آدم سميث لم ير أن الربح لا يمكن أن يجنيه الرأسمالي إلا بعد أن يخصم ما دفعه أثناء عملية الإنتاج. والَّذي يعزز رفضنا الإتهام الموجه إلى آدم سميث، أن نفس الإتهام تم توجيهه إلى ديفيد ريكاردو، كتب ماركس:"يكرر ريكاردو نظرية آدم سميث حرفياً... الواقع، أن ريكاردو تقبل بشكل كامل نظرية آدم سميث المتعلقة بانحلال ثمن السلعة إلى أجور وقيمة زائدة، أو إلى رأسمال متغير وقيمة زائدة".

"Ricardo reproduces the theory of Smith almost verbatim...In fact; Ricardo fully accepted the theory of Adam Smith concerning the separation of the price of commodities into wages and surplus-value (or variable capital and surplus-value)." Marx, **Capital**, op.cit,p63.

ولكن ريكاردو، وماركس يعلم ذلك، كتب، وبوضوح أن:"قيمة السلعة لا تتوقف فقط على العمل المنفق مباشرة في إنتاجها، بل وأيضاً العمل المنفق على الأدوات والمباني الضرورية لتحقيق العمل". أيْ أن ريكاردو يدخل العمل المختزن في الآلات والمباني والمعدات (الرأسمال الأساسي) في قيمة الناتج، ولكن كيف؟ أتصور أن الكيفية ليست بحاجة إلى ذكر أو شرح، لا من سميث ولا ريكاردو، لأنها بديهية. إذ لا يمكن الحديث عن ربح إلا بعد أن يتم خصم (إجمالي تكاليف صيانة الرأسمال الأساسي).

ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من أن الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، بصفة خاصة سميث، لا يفرق بين العمل وقوة العمل كما ذكرنا سلفاً ولا ينظر إلى انقسام الرأسمال إلى أساسي ودائر إلا ابتداء من شرط انتقال الملكية، عند سميث، وسرعة التلف، عند ريكاردو. إلا أن الفكرة المتعلقة بالناتج الزائد اجتماعياً المخلوق بفضل العمل الإنساني تظل صحيحة ومنتجة، وفقاً لمصطلحات الكلاسيك، لا مصطلحات ماركس.

ومن السخف أن أناقش فكرة ابتداءً من مصطلحاتي أنا، كما فعل ماركس. وحينما يتلقف ماركس هذه الفكرة، فكرة الناتج الزائد، يعيد طرحها بعد إعادة النظر في أمرين مركزيين: أولهما: أن الرأسمالي يشتري قوة العمل، وليس العمل (والواقع أن ريكاردو، في تصوري، ربما توصل إلى ذلك) ثانيهما: أن الرأسمال ينقسم إلى رأسمال ثابت (أدوات العمل، ومواد العمل) ورأسمال متغير (قوة العمل) بدلاً من التقسيم الكلاسيكي إلى رأسمال أساسي ورأسمال دائر بيد أن النتيجة في التحليل العِلمي النهائي واحدة. قوة عمل غير مدفوعة الأجر.

خامساً: الاقتصاد السياسي: المباديء العامة المجردة

يمكننا الآن؛ في ضوء التحليل أعلاه، أن نستخلص على نحو مجرد، مباديء الاقتصاد السياسي، الَّتي سوف نخضعها بدورنا للنقد، على النحو التالي:

- الاقتصَاد السياسي هو عِلم نمط الإنتاج الرأسمالي المتمفصل حول قانون القيمة.

- المنفعة شرط القيمة، وليست مقياساً لها.

- القيمة خصيصة اجتماعية في السلعة تجعلها محلاً للتبادل. وتُعبر القيمة على هذا النحو عن نفسها في صورة قيمة المبادلة.

- قيمة المبادلة هي نسبة بين قيمتين استعماليتين أو أكثر.

- تَعتمد القِيمة التبادلية للسلعة على: مدى ندرتها، والعمل المبذول في إنتاجها. وتُقاس القِيمة بالكمية النسبية الضرورية من هذا العمل.

- العمل المختزن في مواد العمل وأدوات العمل يؤخذ في الاعتبار عند قياس قيمة السلعة. فالرأسمال ليس سوى مجموعة من المقادير الاجتماعية، فكُل المنتجات الَّتي يتكون منها هي سِلع، إذ يتكون الرأسمال من مواد عمل وأدوات عمل، وكُل هذه المكونات الَّتي يتركب منها الرأسمال هي مُنتجات عمل.

- كمية العمل المتحققة في السلعة هي الَّتي تنظم قيمة مبادلتها.

- القِيمة الزائدة هي مقدار الفارق بين ما يُدفع مُقابل قوة العمل وما يَستأثر به الرأسمالي.

- معدل القِيمة الزائدة هو: النسبة بين القِيمة الزائدة إلى الرأسمال المتغير.

- تنحل القِيمة الزائدة، وفقاً للتحليل الساكن، إلى الربح والريع والفائدة. فالقيمة الَّتي يخلقها العمل تتوزع بين الرأسماليين الصناعيين، والماليين، والمُلاك العقاريين. ولا يَحصل خالقوا هذه القِيمة، الشغيلة، على أيْ نصيب في ما أنتجوه، إلا في أحوال تجديد الإنتاج على نطاق متسع؛ حينما يتم استخدام جزء من القِيمة المنتجة سلفاً في تشغيل عمال جدد.

- الرأسمال الثابت هو الَّذي يتحول إلى وسائل إنتاج (أدوات عمل، ومواد عمل)، ولا يُغير مقدار قيمته أثناء عملية الإنتاج. وهو يَنقسم إلى قسمين: الأول: رأسمال أساسي لا يُستهلَك في عملية إنتاجية واحدة، مثل

المباني والآلات. القسم الثاني: رأسمال دائر يُستهلَك في عملية إنتاجية واحدة، مثل المواد الأولية والمواد المساعدة.

- الرأسمال المتغير هو الَّذي يَتحول إلى قوة عمل، ويُغيّر قيمته أثناء عملية الإنتاج. فهو، أولاً، يَنقل قيمته إلى الناتج. وثانياً: يزيد قيمة الناتج. وثالثاً: يَسمح بنقل قيمة الرأسمال الثابت إلى الناتج. ورابعاً: يخلق قيمة جديدة غير مدفوعة الأجر.

- قيمة السلعة = قيمة المستهلك من الرأسمال الثابت + قيمة الرأسمال المتغير+ القيمة الزائدة.

- ثمن التكلفة = قيمة الجزء المستهلك من الرأسمال الثابت + قيمة الرأسمال المتغير.

- مُعدل الربح الوسطي = مجموع القيمة الزائدة ÷ مجموع الرساميل.

- ثمن الإنتاج = ثمن التكلفة + مُعدل الربح الوسطي.

- التركيب المتوسط للرأسمال = مجموع قيم الرأسمال الثابت إلى مجموع قيم الرأسمال المتغير ÷ الرأسمال الكُلّي.

- قوة العمل هي القدرة على العمل، هي مجموع القدرات المادية والمعنوية الَّتي يتملكها الإنسان مستعملاً إياها في سبيل إنتاج القيمة الاستعمالية. وقوة العمل، مع نمط الإنتاج الرأسمالي، ليست سوى سلعة، يقوم مالكها (العمل المأجور) ببيعها إلى الرأسمالي من أجل أن يعيش.

- إن الحد الأدنى للأجرة شأنه شأن تحديد ثمن السلعة بنفقات الإنتاج على وجه العموم، إنما يَصح على الجنس، لا على الفرد بمفرده. فهناك عُمال، ملايين العُمال، لا يَحصلون على ما يَكفي للمعيشة والتناسل؛ ولكن أجر الطبقة العاملة بأسرها يساوي هذا الحد الأدنى، ضمن حدود تقلباتها.

- إن نفقة إنتاج قوة العمل هي النفقات الضرورية، لجعل العامل عاملاً، ولإبقائه عاملاً. وإن استهلاك العُمال يؤخذ في الحسبان المحاسبي، شأنه شأن استهلاك الألة. والعامل يَستهلك وسائل المعيشة، لغرض واحد هو إدامة قوة عمله مثلما يَستهلك المحرك البخاري الفحم والماء، وتَستهلك العجلة الزيت.

- بما أن عملية الإنتاج هي في الوقت نفسه العملية الَّتي يَستهلك فيها الرأسمال قوة العمل، فإن ناتج العامل يتحول، وبشكل مستمر، لا إلى سلعة فحسب، بل أيضاً إلى رأسمال. والعامل على هذا النحو يُنتِج باستمرار ثروة موضوعية، ولكن في شكل رأسمال.

- ان النقود والسلع ليستا بالضرورة رأسمالاً بحد ذاتهما. شأنهما في ذلك شأن وسائل المعيشة ووسائل الإنتاج. فهي بحاجة إلى أن تتحول إلى رأسمال. ولكن هذا التحول لا يَجري إلا في ظل ظروف نمط الإنتاج الرأسمالي حيث تتبادل قوة العمل الحرة بوحدات النقود.

سادساً: ولكن، هنا توقف الاقتصَاد السياسي، ولم يَصل إلى:

- كيف تتحدد القيمة الزائدة نفسها؟ ونقصد بذلك كيف تتحدد عبر **حركة** النظام الرأسمالي. وهو سؤال يتعلق بنظرية الإنتاج. إذ أكتفى الاقتصاد

السياسي بتحديد مُعدلها دون تحديدها هي. فقد توقف الاقتصاد السياسي عند القول بأن معدل القيمة الزائدة هو النسبة بين القيمة الزائدة إلى الرأسمال المتغيّر، دون أن يَصل إلى محددات القيمة الزائدة نفسها وعلاقات التناقض بداخلها.

- ما هو اتجاه القيمة الزائدة، على الصعيد العالمي؟ وهو سؤال يتعلق بنظرية في التوزيع، وأخرى في التجارة الخارجية. فما هو الاتجاه الَّذي تأخذه القيمة التي خلقتها الشغيلة على وجه خاص في بلدان الأجزاء المتخلفة من الاقتصاد الرأسمالي. إذ لم يُثِرْ الاقتصاد السياسي إشكالية لا تَقل أهمية في حقل التوزيع؛ وهي أين تذهب القيمة الزائدة الَّتي تَتخذ من الربح والريع، وربما الفائدة، صوراً لها، تعكس وجودها كدخول للطبقات الاجتماعية المختلفة؟ أَيْ أين تذهب تلك الصور الَّتي تتخذها القيمة الَّتي زادت بفعل الإنتاج في الاقتصاد القومي خلال فترة زمنية معينة؟ هل يُعاد ضخها في مسام الاقتصاد القومي المنتِج لها، أم تتسرب إلى الخارج من أجل شراء السلع والخدمات الَّتي تُنتجها البلدان المتقدمة؛ وتتوقف عليها عملية تجديد الإنتاج الاجتماعي في الأجزاء المتخلفة؟

- كيف تتحدد نسبة المبادلة بين العمل البسيط والعمل المركب؟[١٩] إذ اكتفى الاقتصاد السياسي بالقول بإمكانية مبادلة **(س)** من العمل البسيط

---

(١٩) يعتمد الاقتصاد السياسي في هذا الشأن، أيْ التفرقة بين العمل البسيط والعمل المركب، اعتماداً كلياً على السوق، ولا يبحث في القانون الموضوعي الَّذي يحدد معيار التفرقة بين العملين، فماركس يرى:"أن النسب المختلفة الَّتي يتم بها ارجاع أنواع مختلفة من العمل إلى العمل البسيط كوحدة لقياسها تحددها عملية اجتماعية تجري من وراء ظهور المنتجين". **رأس المال**، المصدر نفسه، ص٩٥. وكتب جارودي:"... إن آلية السوق العفوية تتيح إمكانية قيام علاقات جديدة: فساعة واحدة من عمل الميكانيكي ستعادل عمل ساعة ونصف ساعة من عمل الحائك وهكذا دواليك". روجيه جارودي، **كارل ماركس**، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت: منشورات دار الآداب، ١٩٧٠)، ص٢٠٩.

بـ **(ص)** من العمل المركب، دون أن يَصل إلى أساس هذه المبادلة؛ فعلى أَيْ أساس تتم مبادلة**(س)** من السلعة **(ك - عمل بسيط)** بـ **(ص)** من السلعة **(ع - عمل مركب)**؟ وهو سؤال يرتبط منطق مناقشته بمنطق مناقشة: لَمَ تَختلف الأجور، الَّتى هي ثمن قوة العمل، في الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي عنها في الأجزاء المتخلفة؟

(٢)

والآن؛ بعد أن حددنا الإشكاليات الرئيسية الَّتي سننشغل بها، وهي:

- نقد المركزية الأوروبية الَّتي تُهيمن على الاقتصَاد السياسي، كعِلم اجتماعي، أوروبي النشأة والنكهة.

- الانطلاق من مباديء عِلم الاقتصاد السياسي كما تبلورت على يد سميث وريكاردو ماركس؛ بغرض استكمال مجمل البِناء النظري للعِلم، وبصفة خاصة بشأن: مُحددات القيمة الزائدة، ثم اتجاهها عقب توزيعها بين الطبقات الاجتماعية، وأخيراً أساس مُبادلة العمل المركب بالعمل البسيط. عليه، يكون من المتعين أن ننتقل خطوة فكرية إلى الأمام، بقصد التعرف إلى المنهج الَّذي سوف نستخدمه في سبيلنا إلى تحقيق ذلك. فلننتقل إلى المنهج. إلى الطريق الَّذي يسلكه الذهن في سبيله إلى إنتاج المعرفة.

الفصل الرابع
في التجريد

(١)

حينما نتساءل عن طبيعة الألوان والألحان والأفكار، هل هي محدودة أم غير محدودة؟ أَيْ: هل الألوان يمكن عدّها وحصرها؟ أم هي غير محدودة، ومن ثم لا يمكننا أن نعدّها أو نحصيها، ونفس السؤال بشأن الألحان والأفكار، هل هما محدودان يمكن حصرهما، أم لا حدود لهما؟ فإنه يتعين قبل أن نُقدم إجابة على هذه الأسئلة أن نَتعرف على بعض الأفكار الرئيسية المتعلقة بالمنهج. أَيْ نتعرف على ما يَتعلق بطبيعة الطريق الَّذي يسلكه الذهن في سبيله إلى تقديم إجابة.

فالمنهج هو فن ترتيب الأفكار. هو الطريق الَّذي يسلكه الذهن في سبيله لإنتاج المعرفة. ومن ثم فحينما يُطرح سؤال، مثل أحد الأسئلة المطروحة أعلاه، فليس من المهم، في مذهبي، أن تقدم إجابة، إنما المهم هو الطريق الَّذي يسلكه الذهن كَيْ يُنتِج هذه الإجابة. فالإجابة الصحيحة، دون ادعاء امتلاك الحقيقة، ستكون في التحليل النهائي نتيجة خطوات فكرية سليمة.

ولننظر إلى المسألة عن قرب. إلامَ نحتاجه كَيْ نُشيد بناء؟ لا شك في كوننا بحاجة، إضافة إلى الأرض الصالحة للبناء، إلى مواد عمل (تتمثل في الطوب والرمل والأسمنت،... إلخ) وأدوات عمل (كالروافع، والخلاطات، ... إلخ). ونحتاج كذلك إلى قوة عمل تتمكن من خلال تلك الأدوات من استعمال هذه المواد في سبيلها إلى تشييد ذلك البناء على

هذه الأرض. ومن المعلوم بالبديهة أنه كُلّما صلحت الأرض للغرض وقويت، علا البناء ورسخ. ولست مُنشغلاً ها هنا بالنظر في تهيئة الأرض غير الصالحة، إذ لذلك مجال أرحب وحديث أوسع، وإن وددت أن تتمكن من استخلاص خطوطه العريضة ممّا سنسير فيه معاً عبر المراحل الفكرية.

هذا عن تشييد البناء، فماذا عن إنتاج الفكرة؟ إن شأن إنتاجها شأن تشييد ذلك البناء؛ إلا ان مواد العمل المطلوبة لإنتاج الفكر تتمثل في ذلك الكم المعرفي المختزن و/أو المكتسب، الَّذي ينشغل الإنسان بتحصيله خلال حياته، وعلى أسس وأصول وجب احترامها وتعيّن تدبر أهميتها قبل تخطيّها وتدميرها عن جهل بعد أن فشي الرفض الجاهل للقيم وأصول الأشياء بلا تساؤل عن المعاني الَّتي تحملها الضوابط قبل الرفض... أما الأدوات، وهي الَّتي تمثل، في مجمل مذهبنا، شغلنا الشاغل، فتتبلور في ذلك الطريق الَّذي يسلكه الذهن في سبيله لإنتاج المعرفة، هذا الطريق يُسمّى المنهج، الَّذي هو فن ترتيب الأفكار.

إذاً، مثلما أن مواد العمل لبناء منزل تتمثل في الطوب والرمل...، وفي الروافع والخلاطات...، كأدوات لا يتم البناء من دونها، كذلك الأفكار بحاجة، كَيْ تُنتَج هي الأخرى، إلى أدوات ومواد؛ فالأدوات هي المنهج، أما المواد فهي كم معرفي. المواد هي الكم. والأدوات هي الكيف. لا توجد فكرة، ولا يمكن أن يوجد فكر ما، بمعزل عن الأفكار السابقة، ولا يمكن أن توجد فكرة لا تعتمد على فكرة موازية أو سابقة عليها. ولا تعدو الفكرة الجديدة عن كونها نقداً أو تطويراً لها أو توضيحاً. أو مسخاً لها وتحريفاً. فالأفكار الَّتي يحصلها الذهن هي موضوع المواد، أما ترتيبها على نحو يؤدي

إلى فكرة صحيحة، لا تدعي ملكيتها لناصية الحقيقة الاجتماعية، فذاك هو المنهج، أو الطريق الَّذي يسلكه الذهن في سبيله إلى إنتاج المعرفة. المشكلة لا تكمن في الأفكار، إنما تكمن في الطريقة الَّتي تُنتَج بها هذه الأفكار، وكيف نرتبها ترتيباً صائباً يُنتِج معرفة علمية. كيف نكشف عن القوانين الموضوعية الكُلية الَّتي تحكم تطور عالمنا، وقانون حركته على الصعيد الاجتماعي.

(٢)

إن التاريخ يشرح لنا لمَ سادت الحضارة الإسلامية في يوم ما وأنارت العالم الوسيط[١] في مرحلة هي من أشد المراحل إظلاماً وجهالة. ففي

---

(١) يتحفظ د.محمد دويدار بشأن تعبير "العصور الوسطى"، بمناسبة مناقشة الفكر العربي، ويرى عدم صحة ادخال الفكر العربي، في هذا الوقت من التاريخ، تحت فكرة العصور الوسطى؛ لأن التاريخ العربي له خصوصية تختلف عن العصور الوسطى الأوروبية، ولذلك يجب أن يكتب تاريخ كُل جزء من أجزاء العالم ابتداءً من تاريخ هذا الجزء. انظر: محمد دويدار، **مبادىء الاقتصاد السياسي**، المصدر نفسه، هامش ص١٥٠. والواقع ان تحفظ د. دويدار، على هذا التعبير، إنما يمثل إمتداداً فكرياً لتحفظه على تعبير آخر هو "الإقطاع" حين الحديث عن النظام الاجتماعي الَّذي كان سائداً فى الريف المصري في القرن التاسع عشر. حيث يرفض أيضاً أن يطلق على النظام الاجتماعي في تلك الفترة اسم الإقطاع، ويكتفي بالإشارة إلى لزوم تكييف طريقة الإنتاج الَّتي سادت الريف المصري في خمسينات القرن العشرين من خلال دراسة طريقة الإنتاج الرأسمالية! انظر: محمد دويدار، **الاقتصاد المصري: بين التخلف والتطوير**(الإسكندرية: دار الجامعات المصرية، ١٩٧٨)، ص١٠-١٢. أما عن التحفظ الأول: فإن مخالفتي لتحفظ أستاذي، واستخدامي لتعبير "العالم الوسيط" بالمتن يستند إلى أربعة اعتبارات: أولاً: ان كتابة تاريخ العالم العربي ابتداء من تاريخ العالم العربي ليس له شأن بتحديد الحقبة التاريخية الَّتي يؤرخ فيها لتاريخ العالم العربي، القديم أو الوسيط أو الحديث. ثانياً: لم يقل أحد ان القول بـ "العصور الوسطى العربية"، ولا يوجد مصطلح هكذا بالأساس، إنما يعني التسليم بأن المستوى الحضاري للمجتمع العربي لا يختلف عن المستوى الحضاري للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى. ثالثاً: المصطلح نفسه أوروبي النشأة وصار راسخاً للتعبير عن العالم بأسره في الفترة الممتدة من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر تقريباً؛ أيْ انه فقد خصوصيته المركزية كتعبير عن العصور الوسطى في أوروبا فقط. رابعاً: إذ أردنا أن نتحدث عن فكر ابن خلدون مثلاً، وتحديده زمنياً، هل يضيرنا في الأمر شيئاً أن نقول أنه محدد زمنياً بتاريخ البشرية الوسيط، الَّذي يفصل بين التاريخ القديم، والتاريخ الحديث؟ لا أتصور أن ضرراً معرفياً من أيْ نوع قد يحدث، طالما تسلحنا بالوَعي بإشكاليات المركزية =

نفس اللحظة التاريخية الَّتي سُحق فيها الضمير البشري الأوروبي بين رحى صنمية الفكر الكنسي التكفيري وعسف الملكية الإقطاعية النخبوية، برق الفكر الإسلامي في سماء الظلام وأنارت مصنفات فحوله حقبة فيصلية في الفكر البشري وتاريخ الإنسانية.(٢)

ويمكن تلخيص الحالة الفكرية في أوروبا آنذاك من خلال عبارات شديدة التعبير كتبها تولستوي:"خذوا كُل المراجع العلمية للقرون الوسطى ولسوف ترون أيْ قوة إيمانية ومعرفة راسخة لا يرقى إليها الشك لما هو حق وما

= الأوروبية إن الَّذي يضيرنا هو محاولة ابتكار عصور تاريخية خارج التصنيف الكلاسيكي المستقر: قديم، ووسيط، وحديث. لأننا حينما نتحدث عن العالم العربي، أو الحضارة الإسلامية، في العصر الوسيط، إنما نضع العالم العربي والحضارة الإسلامية في سياق التاريخ العام لكوكبنا، دون قطيعة معرفية أو تاريخية من أيْ نوع.

(٢) من المؤلفات الرائعة، والمهمة، في هذا الشأن: مايكل هاملتون، **تاريخ ضائع: التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه**، ترجمة أميرة نبيه بدوي (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، بصفة خاصة: الفصل الثاني: مدن العباقرة المفقودة. والفصل الخامس: المخترعون والعلماء. والفصل السابع: رؤية وصوت وقلعة. وانظر أيضاً الكتاب المهم الَّذي وضعته المستشرقة الألمانية: زيجريد هونكه، **شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية فى أوروبة**، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي (بيروت: دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة، ١٩٩٣)، ط٨. ولقد أوضح حيدر بامات في بحث قيم، كيف حدث التأثير الاقتصادي على أرض الواقع، إذ كتب:" فقد وضعت الحملات الصليبية الديانة المسيحية على اتصال مباشر مع الشعوب الإسلامية على أرض الإسلام نفسه... فقد وجد رجال الحملات الصليبية في الشرق أشياء كثيرة جديدة عليهم وأساليب تقنية لم تكن معروفة لديهم في الغرب، فادخال كميات كبيرة من المنتجات الشرقية إلى الأسواق الأوروبية واستخدام وتبني أساليب جديدة في الزراعة والصناعة والحرف اليدوية، كان من أهم نتائج الحملات الصليبية، وقد أحدث هذا تحولاً كبيراً في اقتصاد أوروبا الغربية، وتقدمت التجارة تقدماً راقياً، وانضمت مارسليا إلى دويلات المدن الإيطالية الَّتي كانت إلى ذلك الحين تحتكر تجارة البحر المتوسط". ثم ينقل حيدر بامات عن ألبرت تنشمبدر:"من الشرق تعلم أسلافنا نسج المنسوجات الثمينة الَّتي كانت سبب ثراء البندقية ثم ثراء أجزاء من فرنسا، كما أخذوا من الشرق صناعة الستان والقطيفة والمطرزات الذهبية والفضية والمنسوجات الرقيقة مثل الموسلين والتيل والتافتاة، كما أنه منذ عصور قديمة برع الشرقيون في صناعة السجاجيد ذات الوبر الطويل الغزير... كما أن الغرب تعلم صناعة الورق ومزج الشراب من صناع سوريا، ولقد كان الغزو السلمي أثر باقياً على التجارة، وبداية للصناعة في أوروبا، فتعلمت أوروبا صناعة النسيج، وانتعشت صناعات الرفاهية وتطورت في الغرب، واتسع الإنتاج وتقدمت الأساليب الفنية". حيدر بامات، **إسهام المسلمين في الحضارة**، ترجمة ماهر عبد القادر محمد (الإسكندرية: المركز المصري للدراسات والأبحاث، ١٩٨٥)، ص٤٧.

هو باطل في هؤلاء البشر! كان من اليسير عليهم أن يعرفوا أن اللغة الإغريقية هي الشرط الوحيد اللازم للتعليم، لأنها لغة أرسطو الَّذي لم يشك أحد في صدق أحكامه على مدى بضعة قرون بعد وفاته. وكيف كان للرهبان إلا يُطالبوا بدراسة الكتاب المقدس القائم على أسس لا تتزعزع. كان من اليسير على لوثر أن يُطالب مطالبة بتية بدراسة اللغة العبرية، عندما كان يَعلم عِلم اليقين أن الله ذاته قد كشف الحقيقة للبشر بهذه اللغة. من السهل أن نفهم أن المدرسة كان يجب أن تكون دوجمائية، عندما كان وَعيْ البشر النقدي لم يستفق بعد، وأنه كان من الطبيعي أن يحفظ التلاميذ عن ظهر قلب الحقائق الَّتي كشف عنها الله وأرسطو، والروائع الشعرية لفرجيل وشيشرون. فلبضعة قرون بعدهم لم يكن بوسع أحد أن يتصور حقيقة أكثر صدقاً أو رائعة أكثر روعة مما أتوا به، كان من اليسير على مدرسة القرون الوسطى أن تعرف ما الَّذي ينبغي تعليمه عندما كان المنهج واحداً لا بديل له، وعندما كان كُله يتركز في الإنجيل وفي كتب أغسطين وأرسطو".[٣]

ويمكننا أيضاً أن نجد تلخيصاً للحالة الاقتصادية للمنتجين المباشرين، من خلال كتابات المعاصرين الَّذين أوضحوا بجلاء سوء الأحوال الَّتي كان عليها المنتجون المسحوقون: "الَّذين بلغوا حداً ليس هناك ما هو أدنى منه، مثل ذلك الرجل الَّذي كان يقود أربع عجول عجاف بلغوا من الضعف حداً يجعل من السهل أن يُحصي المرء عدد ضلوعهم، وكان شكلهم يدعو إلى الرثاء... ولا يكاد يطأ الأرض حتى تطل أصابعه من حذائه الممزق، ولا يكاد يُغطي سرواله ركبتيه، بينما تسير زوجته بجواره حافية القدمين فوق الجليد حتى ترى بكّات الدم من أقدامها".[٤]

---

(٣) ليو تولوستوي، **كتابات تربوية** (بيروت: دار القلم، ١٩٦٩)، ص٩٨.

(٤) انظر:

M.Dobb, **Studies in the Development of Capitalism** (London: George Routledge, 1947) p.59.
=

إن النور الَّذي انبعث من بخارى إلى الأندلس في حقبة تاريخية معينة، على الأقل في القرن الرابع الهجري، لم يكن انعكاساً لسيلٍ جارف من الأفكار التقدمية، بقدر ما كان انعكاساً للطريقة الَّتي تُنتج بها هذه الأفكار التقدمية؛ فلقد استخدم العُلماء المسلمون في عصرهم الذهبي. عصر الرقي الفكري. علي الرغم من الانحطاط السياسي. التجريد كطريقة في التفكير؛ كَيْ يهتدوا من خلالها إلى القوانين الموضوعية الَّتي تحكم الظواهر العِلمية، والاجتماعية. وراحوا يشرّحون الظواهر بالعلو بها عن كُل ما هو ثانوي، كَيْ يكشفوا عن القواعد الكلية(٥) لكُل الظواهر الَّتي أرّقت أذهانهم، دون أن يقف أمامهم عائق الحرام أو الممنوع أو المحظور، وتمكنوا ابتداءً من إنتهاجهم التجريد، كطريقة في إنتاج المعرفة العِلمية، من بلوغ أماكن معتمة في الفكر الإنساني لم يصل إليها مثلهم بذلك الكمال والجمال، بل ولم يجرؤ غيرهم على التفكير في بلوغها. وإذ ما أردنا التعرف إلى الكيفية الَّتي أنتجت بها الذهنية الإسلامية المعرفة العِلمية، في عصرها الذهبي، فيمكننا أن نُعاين بعض الأمثلة، إذ على سبيل المثال نرى عبد الله ابن المقفع (٧٢٤- ٧٥٩) يوجه رسالته إلى الطريقة الَّتي يتعيّن اتباعها

= "نشاهد بعض حيوانات متوحشة منتشرة بالريف، سوداء، مغبرة، قد لفحتها الشمس، ملحقة بالأرض الَّتي تنبش فيها بعناد لا يغلب، تلوح وكأنها تنطق بلغة مفصلة، وحينما تقف على أقدامها تظهر لها وجوه إنسانية؛ الواقع أنهم أناس يأوون بالليل إلى جحورهم حيث يتغذون بالخبز الأسود، بالماء وبالجذور. إنهم يكفون الناس الأحرار مشقة البذر والحرث للمعيشة، وبذا يستحقون ألا يحرموا من الحب الَّذي بذروه". مُشار إليه في: بول هازار، **أزمة الضمير الأوروبي (١٦٨٠- ١٧١٥)**، ترجمة جودت عثمان ومحمد نجيب المستكاوى، مقدمة طه حسين (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٥) ص٢٣٦، هامش.

(٥) حينما نقرأ ما كتبه برتراند رسل:"ولكن كانت بالعرب آفة تختلف عن آفة الإغريق. فهم كانوا ينشدون الحقائق المنفصلة أكثر مما ينشدون المباديء العامة. ولم يكن لديهم المقدرة على استخلاص قوانين عامة على الحقائق الَّتي اكتشفوها". فالواقع أننا حين نقرأ هذا الإدعاء الأجوف لا نملك إلا أن نقول وبوضوح أن السيد رسل كان جاهلاً حقاً بتاريخ الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي. انظر: برتراند رسل، **النظرة العلمية**، ترجمة عثمان نويه (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦)، ص٩.

حتّى يمكن الفهم وتكوين الوعي؛ فقد كتب:"ياطالب العِلم اِعرف الأصول والفصول؛ فإن كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دركهم دركاً، ومَن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل".(٦) يقصد ابن المقفع هنا بيان أهمية التجريد من أجل فهم ظاهرة ما أو عِلم معين، فنراه يوصي طالب العِلم بأن يحرص على أن يُراعي الالمام بالقواعد الكُلية والمسائل الأصولية، والحرص على عدم الوقوع في التفاصيل المشوشة على الوَعيْ والمعطلة للفهم.

وحينما ذهب أبو نصر الفارابي (٨٧٤-٩٥٠) الملقب بالمعلم الثاني، إلى إحصاء العلوم، لم يعتبر علم العدد أو علم الهندسة، علوماً معتبرة إلا إذا كانت مجردة، فقد كتب:"... أما علم العدد فإن الّذي يعرف بهذا الاسم علمان: أحدهما علم العدد العملي، والآخر علم العدد النظري. فالعملي يفحص عن الأعداد من حيث هي أعداد معدودات تحتاج إلى أن يضبط عددها في الأجسام وغيرها، مثل رجال أو دنانير أو دراهم. وأما النظري فإنه إنما يفحص عن الأعداد بإطلاق على أنها مجردة في الذهن عن الأجسام وعن كل معدود منها، وإنما ينظر فيها مخلصة عن كُل ما يمكن أن يعدّ بها من المحسوسات. والهندسة النظرية إنما تنظر في خطوط وسطوح أجسام على الإطلاق والعموم وعلى وجه يعم سطوح جميع الأجسام، ويصور في نفسه الخطوط بالوجه العام الّذي لا يُبالي في أَيْ جسم كان، ويتصور في نفسه السطوح والتربيع والتدوير والتثليث بالوجه الأعم الّذي لا يُبالي في أَيْ جسم كان ويتصور المجسمات بالوجه الأعم الّذي لا يُبالي في أَيْ جسم كانت وفي أَيْ مادة ومحسوس كانت، بل على الإطلاق من غير أن يقيم في نفسه مجسماً هو خشب أو مجسماً هو حائط أو مجسماً".(٧)

---

(٦) عبد الله بن المقفع، **الأدب الكبير** (بيروت: دار الآداب. ١٩٩٨)، ص٢٨٠.

(٧) أبو نصر الفارابي، **إحصاء العلوم** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٩)، ص٧٥-٧٧. وقارن: أبو نصر الفارابي، **كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة** (القاهرة: مطبعة النيل بمصر، ١٩٢١)، ص٤١-٤٢.

وقد ذهب التوحيدي (٩٢٢- ١٠٢٣) إلى حدود وضع قاعدة في المنهج التجريدي، فقد حدد المسائل الأربع الكبرى الواجب الإحاطة بها لَمن أراد العِلم؛ ورأى أن في تِلكِ الإحاطة الكفاية، فكتب:"إن أقرب الطرق وأسهل الأسباب هو معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله، فإنه متى عرف هذه الجملة بالتفصيل، واطلع على هذا التفصيل بالجملة، فقد فاز الفوز الأُكبر، ونال الملك الأعظم، وكُفِي مؤونة عظيمة في قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير، مع العناء المتصل في الدرس والتحصيل والنصب فى المسألة والجواب، والتنقير عن الحق والصواب".(٨)

أما اخوان الصفاء وخلان الوفاء (القرن العاشر) فنراهم في الرسالة الثامنة من القسم الرياضي في الصنائع العملية والغرض منها، يُعالجون ما يمكننا اعتباره تجريداً، حصرياً، لطبيعة السلع والخدمات في المجتمع عند أعلى مستوى من مستويات التجريد، فلم يَنظروا إلى المصنوعات الَّتي يُنتجها الإنسان بأنواعها الكثيرة جداً وأشكالها المتعددة للغاية، وإنما نظروا إلى القواعد الكُلية، وكشفوا عن أصول الصناعات، وحددوا هذه الأصول في العناصر الأربعة (الماء، والتراب، والنار، والهواء) ثم المواد الثلاث (المعدن، والنبات، والحيوان) ثم المقادير والقيم، ثم نفوس الناس وأجسادهم. فما كان يشغل ذهنهم التجريدي هو الأصول الكُلية وليس الفرعيات والثانويات. فقد كتبوا:"... فمن الصنائع ما هي الموضوع فيها الماء كصناعة الملّاحين والسقّائين والروّائين، ومنها الموضوع فيها التراب كصناعة حفار الأبار والأنهار والقنى، ومنها الموضوع فيها النار كصناعة النفّاطين والوقّادين والمشعلين، ومنها الموضوع فيها الهواء كصناعة الزمارين والبوّاقين والنفّاخين، ومنها الموضوع فيها أحد الأجسام المعدنية كصناعة الحدّادين والصفّارين والزجّاجين، ومنها

---

(٨) علي بن محمد أبو حيان التوحيدي، **الامتاع والمؤانسة** (القاهرة: دار الرسالة. ١٩٩٥)، ص١٠٦.

الموضوع فيها أصول النبات من الأشجار والقضبان والأوراق كصناعة النجارين والخواصين، والكتانين، والدقاقين، ومنها الموضوع فيها الحيوان كصناعة الصيادين ورعاة الغنم والبقر، والبياطرة، ومنها الموضوع فيها أحد الأجسام الحيوانية من اللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقز كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدبّاغين، ومن الصنائع الموضوع فيها مقادير الأجسام كصناعة الوزّانين والكيّالين، ومن الصنائع الموضوع فيها قيمة الأشياء كصناعة الصيارفة والدلالين، ومن الصنائع الموضوع فيها أجساد الناس كصناعة الطب والمزينين، ومن الصنائع الموضوع فيها نفوس الناس كصناعة المعلمين...". (٩)

أما ابن خلدون(١٣٣٢- ١٣٨٢) وعلى الرغم من أنه عاش، كمفكر استثنائي، في أسوأ القرون الَّتي مرت على العالم الإسلامي، عصر الانحطاط الفكرى وهيمنة الغيبيات، فنراه يتحدث عن الأسس الجوهرية الَّتي ينهض عليها هذا العِلم أو ذاك ويجد أن صعوبة التعلم إنما تكمن في التفاصيل العديدة والفرعيات الكثيرة الَّتي تشوش على تكوين الوعي وتعطل التحصيل، وبالطبع لا تُهمَل التفاصيل والفرعيات والثانويات، وإنما لا تُعامل إلا بوصفها كذلك، أَيْ غير مؤثرة في الظاهرة محل البحث؛ فالفرعيات والأمور الثانوية تأتي في المرتبة الثانية بعد الاستيعاب العميق للأصول الجوهرية والمباديء الرئيسية للعِلم المُراد تعلمه، فقد كتب ابن خلدون:"ولو اقتصر المعلمون على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعليم سهلاً، ومأخذه قريباً".(١٠)

---

(٩) **رسائل اخوان الصفاء وخلال الوفاء**، تحقيق خير الدين الزركلي(القاهرة: المطبعة العربية بمصر، ١٩٢٨)، ج١، ص٢٠٤. وعلى هذا النحو؛ نكون أقل تجريداً من إخوان الصفا؛ حينما نقول، مع ماركس، أن السلعة ما هي إلا عملية فصل وضم لعناصر موجودة سلفاً في الطبيعة.

(١٠) أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة** (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٠)، ج١، ص٥٣٩.

(٣)

ولعل أزمة التعليم في الأجزاء المتخلفة من الاقتصاد الرأسمالي العالمي المعاصر، وعالمنا العربي أحد تلك الأجزاء بامتياز، إنما تكمن في الاصرار على حشو عقول التلاميذ بكمٍ هائل من المعلومات (لا الأفكار حتّى!) ويكون المطلوب من هؤلاء الضحايا لا الفهم وإنما الحفظ، دون وَعيْ، ثم المرور بمأساة الإمتحانات الَّتي تقيس مدى تشرّب الضحية بما هو كَمي وليس بما هو كَيفي. فما يتعلمه الضحايا والجرحى والشهداء في مدارس الأجزاء المتخلفة يبتعد تماماً عن كونه موجهاً لإعدادهم كَيْ يصيروا أجيالاً قادرة على إنتاج الفكر كما فعل أسلافهم حينما سادوا الأمم بفضل وصولهم إلى سر إنتاج المعرفة الإنسانية.

ويمكننا أن نقرأ آلاف الأوراق الَّتي ترصد طبيعة التردي الفكري الَّذي أمسى فيه عالمنا العربي بوجه خاص، والإسلامي بوجه عام، فنقرأ، على سبيل المثال:"إن الانحطاط الأخلاقي أمر طبيعي سببه سيطرة المذاهب الجبرية المرتبطة بأخلاق التقشف وغياب الطموح المادي واندثار المشاعر الكُبرى كَطلب المجد والقوة والعزة. أما تشويه الدين وفساده فيرجع إلى خضوع العُلماء للسلطة الَّتي عينتهم في المناصب، فمن أجل المحافظة على مصالحهم لا يترددون في مسايرة السلطة الفاسدة. لكن إذا كان العلماء قد سقطوا إلى هذا الدرك فلأنهم تجاهلوا العلوم الطبيعية بينما لم يكف الغرب عن تشجيعها والتشبع منها. ولا يمكن للعِلم إلا أن يدعم الإسلام لأن الخرافة لا يمكن أن تتعايش في نفس الدماغِ مع العقل".[11]

---

(١١) برهان غليون، **اغتيال العقل: محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية** (بيروت: دار التنوير، ١٩٨٧)، ص١٣٠.

كما نقرأ لدى كاتب آخر: "... فنحن إذا تمسكنا بمجرد الترديد فإننا سنكون أصحاب توكيلات فكرية، تماماً كالتوكيلات التجارية... فمن يقوم ببيع سلعة أجنبية يكون دوره مجرد البيع وليس المشاركة أو الإنتاج بالنسبة لهذه السلعة...".[١٢]

في هذين النصين، النموذجين، يمكننا أن نرى تشخيصاً عاماً، فالنص الأول يُرجع التردي إلى مسخ الدين (الدافع!) وسيادة الدين الوضعي، وثقافة السلبية، والإتكالية، والإنهزامية بوجه عام. والبعد عن العِلم! أما الثاني فيرى أن التردي يكمن في ترديد العِلم المنتَج في معامل الغرب دون المشاركة في إنتاجه.

معنى ذلك، ان الرجوع إلى الدين الحنيف، (الصحيح!) والسعي نحو مشاركة الغرب في إنتاج العِلم! سوف يجعلنا في طليعة الأمم! ولكننا لا نجد لا عند برهان غليون، ولا عند عاطف العراقي، ولا غيرهما، ممن استمتعوا برصد أوجه التردي بمنتهى الثقافوية، أَيْ إشارة ولو واهنة إلى كيفية تحقيق الرجوع إلى هذا الدين (الدافع/الصحيح!) أو الكيفية الّتي يمكن عن طريقها مشاركة الغرب في العِلم! الواقع أننا لا نجد علاج المرض، المشخص، بشكل معقول؛ لأننا لا نجد وسط هذا الكم الهائل جداً من ذاك الرصد مَن يرى إمكانية إرجاع سبب التردي إلى التباعد عن السر الّذي توصلت له الذهنية الإسلامية في عصرها الذهبي[١٣]. سر إنتاج الفكرة. سر التجريد الّذي يعلو بالظاهرة، محل التحليل، عن كُل ما هو ثانوي، بحثاً عن القوانين العامة، وكشفاً عن قوانين الحركة. بحثاً في معنى الحياة. وكشفاً عن الهدف منها.

---

(١٢) عاطف العراقي، **العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر**(بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ص١٦.

(٤)

يمكننا الآن العودة إلى أسئلتنا المتعلقة بمدى محدودية كُل من الألوان والألحان والأفكار. إذا ما استخدمنا التجريد، أيْ إذا استخدمنا الطريقة الَّتي أنتجت بها المعرفة العلمية عبر تاريخ البشر. الطريقة الَّتي اعتمدت عليها الحضارة الإسلامية، وكُل الحضارات العظيمة في إنتاج تاريخها الخالد. يمكننا أن نقول ان الألوان محدودة، والألحان محدودة، والأفكار محدودة. إن مَن يَنظر إلى الألوان والألحان والأفكار نظرة تسطيحية/ إقتطَاعية/حسية؛ وينشغل ذهنه، كمياً، بالتفاصيل والفرعيات حتماً سيقول: أنها غير محدودة؛ لأن عدد البشر غير محدود وكُل يوم من الممكن أن يُنتِج هؤلاء البشر ملايين الملايين من الألوان والألحان والأفكار. ولكن مَن اتخذَ التجريد منهجاً سيقول انها محدودة. إذ عند لون معين سوف تكتمل الألوان، وكذا الألحان. ولن تكون أيْ عملية خلط

---

(١٣) يمكن أن نعتبر ان أفضل ما تحقق علي صعيد تشخيص الخلل يتمثل في دراسة مهمة أنجزها د. نديم البيطار، تشير إلى غرق الذهن العربي في التفاصيل، والوقوف عند الأحداث حدثاً حدثاً، وكأنها مستقلة عن بعضها البعض الآخر، فلا يتجاوزها أو يدركها موضوعياً وعلمياً ككل مترابط. انظر: نديم البيطار، **المثقفون والثورة: سقوط الإنتيليجنسيا العربية** (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ٢٠٠٢)، ص١٤٤. كما نجد لدى أركون خير وصف لما آل إليه الأمر، بتدبر لما كان عليه حال التناول المعرفي للمسائل الخلافية بين القدماء لفحول الفكر الإنساني في العصر الوسيط، وبصفة خاصة بصدد الجدال الَّذي دار بين الغزالي وابن رشد، كتب أركون :"... الإشارة إلى مرحلة فائقة الأهمية من مراحل الفكر الإسلامي والتذكير بما كان يتصف به هذا الفكر من التفوق العقلاني واتساع العقل ومدى حرية البحث والإبداع في الإشكاليات المتصلة بالقضايا الدينية الحساسة، ودرجة التسامح والإقبال على المناظرة، واحترام شروط المناظرة بين الأئمة المجتهدين، ورفض الخلط بين العرض العلمي للقضايا ومواقف العوام، والتقيد بما يفرضه البرهان الساطع والحجج الدامغة على العقل، ومتابعة البحث والاحتجاج على المستوى العلمي المحض دون الانحطاط إلى مستوى الشتم والافتراء وتحميل المناظر ما لم يفكر فيه ولم يدعيه ولم ينطق به قط، بل الاعتماد على ما قال به ودافع عنه وردده في كتبه. يمكننا أن نضع أمام كل فضيلة من هذه الفضائل عند المفكرين القدماء ما يقابلها من نقائص ورذائل ومثالب شاعت مع الأسف في الكثير مما ينشر ويذاع اليوم...". محمد أركون، **من فيصل التفرقة إلى فصل المقال: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟**، ترجمة هاشم صالح (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦)، صIII.

جديدة سوى التكرار للون أو لحن سبق أن اتخذ مكانه على القطعة المستقيمة، كما سنرى. فالذهن الأول انشغل بالكم وفهم، خطأ، ان ذلك هو المقصود، أما الثاني فقد انشغل، عن صواب، بالكيف وعرف انه عين المطلوب.

إن الفارق الوحيد بين محدودية الألوان والألحان وبين محدودية الأفكار، يتبدى في حدود كُل طائفة. فالألوان والألحان تمثل، بمفردات الهندسة، على هيئة قطعة مستقيمة. الألوان محصورة بين حديها، الحد الأول اللون الأبيض والحد الثاني اللون الأسود، وأياً ما كان عدد عمليات الخلط بين الألوان، فلا يمكن أن يأتي أحدنا بلون يخرج عن حدود هذه القطعة المستقيمة الَّتي تبدأ باللون الأبيض وتنتهي باللون الأسود، أو العكس. وبطريقة أخرى مهما كان عدد عمليات خلط الألوان لا يمكن الخروج عن ألوان الطيف السبعة، إذ أن كُل عمليات الخلط لا تخرج عن الألوان السبعة الأصولية. وكذا الألحان، لا يمكننا أن نأتي بلحن خارج القطعة المستقيمة الَّتي تبدأ، وفقاً للسلم الموسيقي، بـ"الدو" وتنتهي بـ"السي". فأياً كان عدد الألحان، الشجية والمنفرة، فلا يمكن الإتيان بلحن خارج حدود السلم الموسيقي. وأظن أن أجهزة الحاسب الآلي اليوم لقادرة على حساب العدد.

الأمر الَّذي يجب التأكيد عليه، قبل أن نستكمل فكرتنا، هو أن عدم إدراكنا لمحدودية الألوان أو الألحان، أو عدم قدرتنا على الإحاطة بها لا ينفي عنها هذه الطبيعة المحدودة. فليست الألوان والألحان فقط محدودة، إنما قدرتنا البشرية أيضاً محدودة.

هذا عن الألوان والألحان. فماذا عن الأفكار؟ هل محدودة هي الأخرى؟ نعم. محدودة. ولكن حدودها، بمفردات الهندسة أيضاً، على هيئة شكل مربع حدوده العلاقات الأربع الَّتي يعيشها الإنسان؛ فكلٌ منا يعيش الحياة، بجسده وروحه وعقله، وذلك تجريد أيضاً، عبر أربع علاقات: علاقة مع الآخر وعلاقة مع الذات وعلاقة مع الطبيعة وعلاقة مع إله، حتّى مَن كان ينفي وجوده هذا الإله، ولا يمكن للذهن أن يُنتِج فكرة خارج هذا المربع. فأيْ فكرة يُنتجها العقل البشري لا يمكن أن تكون خارج هذا المربع. الأفكار إذاً محدودة. ولم يكن من الممكن الوصول إلى هذه الإجابة إلا بالتجريد.

بالتجريد[١٤] إذاً، وبالتجريد فقط، تمكنا من تقديم إجابة على السؤال عن طبيعة الألوان والألحان والأفكار، هل هي محدودة أم غير محدودة؟ والواقع إن أيَ إجابة على أيْ سؤال تثيره ظاهرة اجتماعية ما، لن تستند، بحال أو بآخر، إلى التجريد كطريقة في التفكير لن يمكنها الوصول إلى أيْ شيء. بل سوف تغرق في التفاصيل والثانويات، ولن يمكنها الخروج بأيْ نتيجة سوى المزيد من الغرق في المزيد من التفاصيل الضبابية والمزيد من الفرعيات المشوشة.

(٥)

ولعل من أكثر الدعاوى سطحية واستفزازاً في نفس الوقت، تلك الَّتي تأتي على غرار الأمراض الموسمية التقليدية فتظهر حالة"إحياء الفِكر

(١٤) بعد أن بسطنا فكرتنا عن التجريد على النحو المذكور بالمتن، فلا بأس من أن نتعرف إلى المعاني المختلفة لكلمة التجريد المقدمة من الفلاسفة ورجال المعاجم، كتب د. مراد وهبة: "التجريد لغة هو التعرية، وسل =

العربي" أو"التواصل مع التراث الإسلامي" بين كُل حين وآخر، وتجد لها من المريدين والمروجين من جُل الإتجاهات فيما عدا مَن لا يرون في الإنتاج الفكرى الإسلامي إلا ما كان منظوراً إليه مِن منظار السلف الصالح، كما يرونهم هم. وهم فقط!

أقول تظهر تلك الحالة، المرضية ربما، وعند نقطة انتهاء منحنى فورانها لا يُقدم أصحابها في جُل مؤتمراتهم ومعظم كتاباتهم إلا الأحبار الحالكة على خلفيات أحلك. كما أن الحالة ذاتها لا تتمكن إلا من تقديم أمرين لا ثالث لهما:

الأمر الأول: زخم كَمي، فوضوي ربما، بشأن عبقرية مفكر مسلم ما؛ كابن رشد، الإنتقائي غالباً: ابن رشد **البرهان**. وليس ابن رشد **بداية المجتهد**

= السيف من غمده، ونزع الأغصان من الشجرة. وفي اللغات الأفرنجية اللفظ مأخوذ من الفعل اللاتيني ويعني الانتزاع وهو المعنى الوارد عند ابن سينا، حيث يقول إنتزاع النفس الكليات المفردة عن الجزئيات على سبيل تجريد لمعانيها عن المادة وعن علائق المادة ولواحقها". مراد وهبه، **المعجم الفلسفي: معجم المصطلحات السياسية** (القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨)، ص١٧٤. وإذ تتبعنا ابن سينا، وجدنا أن التجريد لديه هو:"يشبه أن يكون كُل إدراك إنما هو أخذ صورة المُدرَك، فإن كان لمادي فهو أخذ صورته مجردة عن المادة تجريداً مَّا. إلا أنَّ أصناف التجريد مختلفةٌ، ومراتبها متفاوتةٌ، فإن الصورة المادية تعرض لها بسبب المادة أحوالٌ وأمورٌ ليست لها بذاتها من جهة ما هي تلك الصورة. إنّ التجريد هو تبرئة عن شيء لو لم يبرأ عنه لكان لاحقاً من خارج". جيرار جهامي، **موسوعة مصطلحات ابن سينا: الشيخ الرئيس** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٤)، ص٢٣٥. أما المعجم الفلسفي الّذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فقد جاء فيه "التجريد سيكلوجياً: عزل صفة أو علاقة عزلاً ذهنياً وقصر الاعتبار عليها. والذهن من شأنه التجريد لأنه لا يحيط بالواقع كله ولا يدري منه إلا أجزاء معينة في وقت واحد، وتسوقه التجربة أيضاً إلى التجريد لأنها تعرض له الواقع مجزءاً أو تظهره على صفة ما. وفي المنطق الصوري: عملية ذهنية يسير فيها الذهن من الجزئيات والأفراد إلى الكُليات والأصناف. وعند المتصوفة: إماطة الأغيار والأعيان عن السر والقلب، فتنكشف الحجب ويكون الاتصال". مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي** (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٨٣)، ص٣٦. ولدى البستاني:"ان العقل البشري بدون قوة التجريد لا يتجاوز خطوة من خطواته ولا يكون لهُ إلا أفهام ملتبسة ومختلفة لأنه لا يمكنه أن يشتمل كُل شيء فلا يمكنه تمييز شيء". بطرس البستاني، **دائرة المعارف**: ١٠ج (بيروت: دار المعرفة، د. ت)، ج٦، ص٦٥٢.

ونهاية المقتصد، مثلاً، وكيف تمكن ببراعة من الانتصار للعقل في عصور التخلف، وستنبت من هنا أطروحات فرعية ترى الخلاص عند ابن رشد **البرهان**! أو كيف أن المقريزي هو أول من عبر وببراعة شديدة، وتلك حقيقة، عن هيكل الأزمة الاقتصادية وحلل أسبابها وعلاقاتها الجدلية الداخلية. إنما دون وَعيْ مِن قبل المحتفلين بعبقرية المنهج الَّذي استخدمه المقريزى في تحليله! أو كيف أن ابن خلدون قد سبق آدم سميث في تقديمه لنظرية في التجارة الخارجية. وعلى الرغم من أن هذا السبق هو مجرد وهم في خيال من يقول به، إلا أنه لا بأس من دسه في الإحتفالية وترديده ببغائياً! الأمر الثاني: وهو ناتج عن الأمر الأول من جهة التنائي أكثر وأكثر عن عبقرية الفِكر الإسلامي، في عصره الذهبي. الفِكر الَّذي علّم العالم في عصور الظلام.

إن المسلمين، في عصرهم الذهبي، قد علموا العالم العِلم والمعرفة، أو أن علوم المسلمين ومعارفهم قد انتشلت أوروبا من مستنقع الجهالة والرجعية والتخلف، أو أن علوم المسلمين لولاها ما قامت لأوروبا قائمة إلا بعد أحقاب تاريخية أكثر طولاً[١٥]... إن كُل تلك العبارات جوفاء

(١٥) نجد تلخيصاً دقيقاً لهذا الاتجاه المشار إليها بالمتن، في عبارات كتبها د. اليازجي:" حمل العرب مشعل الفكر الإنساني ستة قرون، كانت أوروبا في غضونها غارقة في ظلمة الجهل. بدأوا في أن أحيوا الفِكر اليوناني، ثم عالجوه بالشرح والتعليق. حتى إذا نضجوا أخذوا في التأليف والوضع، مستأنفين السير بالعلوم من حيث أوصلها اليونان، إلى حيث تيسر لهم أن أوصلوها. واشتغلوا بمواضيع جديدة، اختبروا حقائقها، ووضعوا أصولها، واستنبطوا لها القواعد، واستخرجوا منها النواميس، وهيأوا لها المصطلحات والتعابير. ثم أتاحوا لهذا التراث الفِكري، لشعب فتيّ كان بهم بالنهوض، هو الشعب اللاتيني...". كمال اليازجي، **معالم الفكر العربي في العصر الوسيط** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٤)، ص٣٥٨. فالَّذي نفهمه من كلام د. اليازجي أن العالم اللاتيني قد تسلم من الشرق القواعد والنواميس والمصطلحات والتعابير ثم انطلق نحو النهضة. ولكننا نرى أن الغرب اللاتيني لم يتسلم كُل ذلك فحسب، بل أهم ما تسلمه هو كيف أنتجت الذهنية الإسلامية مثل هذه المصطلحات والتعابير، وكشفت عن القواعد والنواميس. أيْ كيف أنتج الشرق الفكرة. وليس الفكرة ذاتها. ويتضح ذلك بجلاء شديد في كُل كتابات مفكري عصر النهضة في أوروبا.

المضمون خاوية المحتوى ليس لها مكان داخل إطار ماهو عِلمي، مع إحتفاظها، وبكل قوة، بموقعها في التاريخ الإنتقائى العُصابي. إنه التاريخ الَّذي ينشغل بالإستنتاجات الجاهزة كَيْ يُلقي بها فوراً في كراسات التعميم، وكَيْ تتشرب به الأذهان الملقَنة في هذا الفرع من المعرفة أو ذاك. "**إن المسلمين، في عصرهم الذهبي، قد علموا العالم كيف يفكر**". تلك هي الإجابة الَّتي نفترض صحتها على السؤال المطروح، والمعني بماهية ما خلّفه العلماء المسلمون للعالم. ولقد تشكل لديَّ ابتداءً من هذا، وإنطلاقاً من موقف رافض لصنمية الفِكر والرأي، الإيمان الراسخ بشرعية الجهاد بلا هوادة من أجل الإنتصار لعلو منزلة المنهج في الطرح؛ ولأجل ذلك أضحت قضيتي الَّتي إنشغلت بها دوماً هي الدفاع عن أهمية الإنتباه إلى الطريقة الَّتي يستعملها الذهن لقيامه بتقديم إجابة، أكثر مِن الإهتمام بالإجابة نفسها. ولن يكون ذلك مُتاحاً إلا بالتجريد.

(٦)

التجريد إذاً، كطريقة في التفكير مؤداها العلو بالظاهرة محل البحث عن كُل ما هو ثانوي، يستطيع أن يرشدنا إلى الحقائق الكلية الَّتي تحكم تطور عالمنا وقوانين حركته الاجتماعية.

والتجريد هو المنهج الَّذي نراه بوضوح في كُل الأعمال الفكرية العظيمة الَّتي صاغت وَعيْ البشر عبر التاريخ بل وشكلت التاريخ نفسه. والتجريد، على هذا النحو، هو المنهج الَّذي سوف نلتزم به في المواقع المركزية من أبحاثنا.

لقد عبر كارل ماركس بدقة عن منهجه في **رأس المال** حين كتب:" لا يمكن لتحليل الأشكال الاقتصادية استخدام المجهر أو الكواشف الكيمياوية، بل يجب على قوة التجريد أن تحل محل هذا وتلك".[١٦]

(٧)

كَيْ نُنتِج العِلم، بالكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم الظاهرة محل انشغال هذا العلم، يتعين أن نستخدم منهج. وبقدر وضوح المنهج يكون وضوح الرؤية. وعلى أساس من وضوح الرؤية يمكن إنتاج العلم. هذا الإنتاج يكون بالكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم الظاهرة المراد تفسيرها. فما هو العِلم؟

العِلم، ابتداءً مِن رفض التعريفات (الَّتي لا تُقدم سوى فكرة مقيدة وعازلة) والاعتماد على التحديدات (الَّتي تُعطى رحابة في الفِكر وثراء في المعرفة) هو طريقة تفكير لتفسير ظاهرة مُعينة.

ولا يُمكن الحديث عن ظاهرة اجتماعية تستنهض علماً، أو على الأقل تثير انشغالاً فكرياً، يفسرها دون شرطين: وجود الظاهرة؛ وهيمنتها. إذ لا يكفي وجود ظاهرة حتى ينهض العِلم، أو ينشط انشغال فكري ما، كَيْ يفسرها، وإنما يشترط أيضاً أن تكون هذه الظاهرة مهيمنة على الصعيد الاجتماعي.

فمن الممكن أن توجد ظاهرة، مثل ظاهرة "الرأسمال" في المجتمعات السابقة على الرأسمالية، وتكون كذلك في حاجة إلى الكشف عن سر

---

(١٦) Marx, **Capital**,p.15

يكمن في القانون الموضوعي الَّذي يحكم ربح التاجر مثلاً، ومع ذلك لا يظهر العِلم أو الانشغال الفِكري، لأن الظاهرة المراد تفسيرها والكشف عن القانون الموضوعي الَّذي يحكمها لم تبلغ بعد مرحلة الهيمنة، على الصعيد الاجتماعي، الَّتي من شأنها استنهاض العِلم أو إثارة الإنشغال الفِكري. وفي نفس الوقت تكون الهيمنة منعقدة لظواهر أخرى تحول دون الانشغال بغيرها.

وعلى الرغم من أن هيمنة الظاهرة تتضمن بالضرورة وجودها، إلا أننا فضلنا إعتبار وجود الظاهرة شرطاً لاعتبارات الشرح والتبسيط.

(٨)

والظاهرة المهيمنة، هي السبب الرئيسي الَّذي يُؤدى إلى ظهور العلم، ومن ثم ظهور الطريقة الَّتي مِن خلالها يسعى العقل مِن أجل تفسير هذه الظاهرة، والكشف عن قوانينها الموضوعية؛ فيُمكن القول أن عِلم الفلك، على سبيل المثال، هو مِن أسبق العلوم ظهوراً؛ إذ نشأ كَيْ يكشف عن القوانين الموضوعية للعديد مِن الظواهر المتكررة الَّتي أرّقت الذِهن البشرى منذ بداياته الأولى، مِن رعد وكسوف وخسوف وأمطار وأعاصير إلى آخر تلك الظواهر الطبيعية المتكررة الَّتي استلزمت تبلور طريقة تفكير معينة تنهض بتفسير الظاهرة بالكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم نشأتها وتطورها وعوامل فنائها. أُحدد هنا العِلم ولا أعرفه، أحدده بتحديد انعكاسه المباشر وهو طريقة التفكير. وذلك تجاوزاً لكون العِلم، وأقصد هنا العِلم الاجتماعي، هو: مجموعة القوانين الَّتي تحدد الشروط الموضوعية الَّتي تحكم نشوء وتطور وفناء ظاهرة اجتماعية معينة. فطالما كان

تحديد العِلم مِن خلال ما يكشف عنه أكثر إيجابية؛ فمِن الأوفق الركون إلى تحديده في حالته الديناميكية، ومِن ثم القول بأن العِلم هو طريقة التفكير، تعبيراً عن العِلم والتفكير العِلمي معاً، لعدم امكانية فصل الموضوع عن المنهج إلا كحيلة منهجية لاعتبارات التبسيط ودَرس كل منهما على استقلال. لكن، ومنعاً للارتباك سنَعمد إلى تفصيل التحديد بشكله التقليدي، على النحو التالي، تاركين، مؤقتاً، ما نفضّله مِن تحديدات:

- العلم هو مجموعة القوانين الموضوعية الحاكمة لظاهرة ما.

- التفكير العلمي هو الطريق الَّذي يتّبعه الذهن مِن أجل الكشف عن تلك القوانين الموضوعية.

- لا يوجد، ولن يوجد عِلم، من دون ظاهرة واضحة وجوهرية ومتكررة؛ فالَّذى يُنشيء العِلم هو الظاهرة المتكررة وليس العكس، إذ الَّذي يُنشيء علم خاص بالنقود هو وجود وهيمنة التبادل النقدي، كظاهرة، في التعامل اليومي بين البشر. الواقع يصيغ الفكر وليس العكس، على الأقل في مرحلة أولى، كما أن الخسوف والكسوف والرعد والبرق، كظواهر طبيعية متكررة، تحتاج إلى تفسير، هي الَّتي أنشأت عِلم الفلك وعلوماً أخرى، وليس علم الفلك أو علم الجغرافيا مثلاً، هما اللَّذين قاما بإنشاء الرعد أو البرق، أو السهول والأودية وممرات السيول.

(٩)

والحال نفسه بالنسبة للاقتصاد السياسي كعِلم اجتماعي. فلقد نشأ هذا العِلم كَيْ يُفسر مجموعة من الظواهر على صعيد النشاط الاقتصادي

في المجتمع. مجموعة من الظواهر لا يمكننا، بحال أو بآخر، أن نقول أنها جديدة بشكل مطلق حتّى مِن منظور المركزية الأوروبية الاستعمارية.

إذ قبل هيمنة قانون حركة الرأسمال على جميع مظاهر النشاط الاقتصادي في المجتمع، **واخضاعه جميع أشكال الرأسمال لقانون حركة واحد**، ابتداءً من القرن العاشر تقريباً، وهو ما سوف ندرسه ببعض التفصيل فيما بعد، كان أمام الرأسمالي، الَّذي يملك نقوداً يهدف إلى إنمائها، سواء كان في أورشليم في القرن الأول، أو في روما في القرن الثالث، أو في بغداد في القرن العاشر، ثلاثة خيارات لإنماء رأسماله:

الإختيار الأول: أن يشتري سلعة بسعر منخفض ويعيد بيعها بسعر مرتفع ويحصل على الربح من هذا الفارق بين السعرين. وقد تتم هذه العملية في داخل البلد الواحد، أو عبر عدة بلدان في العالم القديم أو الوسيط. ويمكننا أن نُلحق بهذا الخيار المضاربات، مثل شراء الأراضي واعادة بيعها.

أما الإختيار الثاني فهو: أن يُنتِج السلعة بدلاً مِن أن يَشتريها. وحينئذ يأتي الرأسمالي، هو في الواقع سمسار، بمواد العمل إلى الحرفي أو الصانع في بيته أو حانوته، ويحتكر إنتاجه من السلع الَّتي سوف يُنتجها هذا الحرفي أو الصانع مقابل أجر يومي. نلاحظ هنا أن المنتِج المباشر يستخدم، في الغالب، أدوات عمل مملوكة له، وليس للرأسمالي. ولكن العبرة في التحليل النهائي تكون بأن المنتَج النهائي ليس ملكاً له. فهو لم يَبِعْ إنتاجه، إنما باع قوة عمله.[١٧]

أما الإختيار الثالث فهو: أن يقوم بإقراض نقوده إلى شخص آخر أو مؤسسة ما لأجل محدد، وفي نهاية مدة القرض يحصل على نقوده مُضافاً إليها الفائدة، الَّتي هي، كما نعرف، ثمن التخلي عن منفعة النقود لفترة زمنية معينة. وهو في الواقع حينما يقرض نقوده فإنما يشتري حقوق دائنية يمكنه التصرف فيها بأنواع التصرفات القانونية كافة.

ويمكننا أن نرى هذه الخيارات الثلاثة بوضوح عبر تاريخ النشاط الاقتصادي للبشر، في مراحل التاريخ كافة، كخيارات مطروحة وممكنة، بشكل متكرر ومنتظم على الصعيد الاجتماعي، أمام الرأسماليين سواء كانوا، كما ذكرنا، في أورشليم، أو في روما، أو في بغداد، أو في أيْ مكان في العالم القديم أو الوسيط.

ومعنى أن هذه الخيارات/ الظواهر متكررة الحدوث بانتظام، فإننا أمام ظواهر اجتماعية تستدعي التفسير وتحديد القوانين الموضوعية الَّتي تحكم هذه الظواهر، فنحن أمام مجموعة من الظواهر: الشراء من أجل

(١٧) "وكانت صناعة النسيج في الدلتا صناعة منزلية، فكان النساء يغزلن الكتان والرجال ينسجونه، وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كُل يوم، ولم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا إلا للسماسرة الَّذين تعينهم الحكومة، وكانت أجرة النساج في أوائل القرن الثالث الهجري نصف درهم كُل يوم، وكان ذلك لا يفي بثمن الخبز الَّذي يأكله". آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨)، ج٢، ص٢٩٨. ويمكننا أن نفهم من هذا النص: أولاً: الرأسمالي، تاجر القماش، يحضر مواد العمل، الكتان، إلى المنتجين المباشرين، النساء والرجال، ويدفع لهم الأجر يومياً في مقابل استخدامه لقوة عملهم. ثانياً: المنتج النهائي، القماش، لن يكون مِلك المنتج المباشر. ثالثاً: لن يكون ذا بال هل يملك المنتج المباشر أدوات العمل أم هي مملوكة للرأسمالي. لأننا سنصادف كثيراً في القرن العاشر في أرجاء العالم الإسلامي مَن يعمَلون (يبيعون قوة عملهم) بأدوات مستخدميهم. أو بأدواتهم، كالغطاسين الَّذين يَستخدمون المراكب، والحبال، والأكياس، والسكاكين، والشمع المذاب في زيت السمسم الَّذي يسد الغواصون به أنوفهم. كتب متز:"... وكان استخراج اللؤلؤ يعمل على قاعدة النظام الرأسمالي، فكان أحد المقاولين يؤجر الغواصين شهرين ويدفع لهم أجرهم بانتظام، وكان يحصل من وراء غوصهم في بعض الأحيان على ربح جسيم لا يصيبهم منه شيئاً". انظر: آدم متز، **الحضارة الإسلامية**، المصدر نفسه، ص٢٧٦.

البيع، الربح، الإقراض، الفائدة، السوق،... إلخ. الأهم أننا كذلك أمام عدة ألغاز تتطلب الحل؛ فنحن لا نعرف على أَيْ أساس تحدد ربح الرأسمالي في اختياره الأول؟ ولا نعرف أيضاً من أين أتى الربح في اختياره الثاني؟ وكذلك لا نعرف لَمَ حصل في اختياره الثالث على **(س)** من النقود، ولم يحصل على**(ك)** أو **(ع)** من النقود؟ ولكننا لا نجد الاهتمام من قبل مفكري العالم القديم وحتّى آواخر العالم الوسيط بتحليل هذه الأمور أو تقديم الإجابات على مثل هذه الأسئلة. ولكن الحد الأدنى المفترض أنه مؤكد: أن مُعدلات الأرباح في أَيْ من الإختيارات الثلاثة في أورشليم، أو في روما، أو في بغداد، أو في أَيْ مكان في العالم القديم أو الوسيط، لم تكن تتم بشكل عشوائي، وكان من المؤكد أيضاً أن ثمة قوانين موضوعية تحكم هذه المعدّلات. ولكن الانشغال الفكري على الصعيد الاجتماعي كان موجهاً في اتجاه آخر غير الكشف عن هذه القوانين الموضوعية. كان موجهاً في إتجاه ظواهر أكثر هيمنة، وحينما هيمنت ظاهرة الرأسمال وأخضعت النشاط الاقتصادي في المجتمع بأسره لقانون حركة واحد، كما سنرى، كان من المتعين ظهور العِلم الَّذي يتكفل بالكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم الظواهر المهيمنة على مجمل النشاط الاقتصادي في المجتمع. لكن هذا العِلم، وهو عِلم الاقتصاد السياسي، تأخر ظهوره إلى ٥٠٠ عام خلت تقريباً. والسبب الرئيسي وراء تأخر هذا الظهور هو عدم خضوع مجمل النشاط الاقتصادي في المجتمع لقانون حركة الرأسمال. كان الرأسمال موجوداً ولكنه لم يكن مهيمناً. ومن جهة أخرى، لم يكن الذهن الجَمعي مُنشغلاً كثيراً بمحاولة تقديم إجابات على الأسئلة الَّتي تثيرها حركة الرأسمال؛ إذ كان بجوار الرأسمال، بأشكاله كافة، والتجاري والمالي بوجه

خاص، كظاهرة اجتماعية، مجموعة أكثر أهمية من الظواهر الَّتي حالت دون هيمنته على الانشغال الفكري.

فإذ ما توجهنا مثلاً إلى سواحل فينيقيا قبل الميلاد، سوف نبحث ذلك التاريخ وغيره بالتفصيل في الكتاب الثاني، سنجد تجاراً مهرة وتجارة دولية رائجة، ومن ثم ربحاً تجارياً، ولكن لا نجد سوى غزارة في الإنتاج الميثولوجي على صعيد الإنتاج الفكري. ولا يوجد بأَيْ حال أدنى انشغال بتحليل ربح التاجر مثلاً، وما يتعلق بهذا الربح من ظواهر تخص النشاط الاقتصادي في المجتمع.

وإذ ما انتقلنا إلى مصر القديمة لن يختلف الأمر كثيراً فسوف نجد تجارة وتجاراً وربحاً تجارياً. ولكن لن نجد، على صعيد الانشغَال الفكري، إلا الإنتاج الذهني المتعلق بالعالم الآخروي والحياة بعد الموت. قد نجد مجموعة من البرديات عن المهن المختلفة في المجتمع، والنقوش لبعض أنواع التبادل في السوق، أو مجموعة إلتماسات الفلاح الفصيح يشكو فيها سوء الأحوال الاجتماعية، ولكن يظل الانشغال الفكري الرئيسي في هذه المرحلة متعلقاً بالحياة الخالدة بعد الموت.

وفي آثينا أو روما أو بيزنطة، أو غرب أوروبا في القرون الوسطى، وعلى الرغم من إنتشار التجارة العالمية على سواحل البحر الأبيض المتوسط، إلا إن أهم ما وصل إلينا من إنتاج فكري وتحليلات نظرية سيكون متعلقاً، في مجموعه، بعلوم الفلسفة أو السياسة أو القانون، أو أدب الملاحم، دون أن نلمس انشغالاً علمياً بتحليل أيْ ظاهرة تتعلق بالرأسمال، فقد هيمنت ظواهر اجتماعية أخرى على مجمل المسرح

الاجتماعي، مثل: العبودية، وعلوم الجدل، والفلك، والفتوحات العسكرية والحروب المفتوحة، أو الدوجما الكنسية، وصراعات الأباطرة والباباوات، والإقطاع وترسيخ التراتبية الاجتماعية الَّتي تدور حول الأرض.

وفي بغداد أو قرطبة أو القيراوان، وعلى الرغم من انشغال علماء ومفكري هذا العصر الذهبي بشتى الظواهر الاجتماعية، وتحليل أدق تفاصيل الوجود الإنساني، والكشف عن أسرار الكون، إلا أن ظواهر الرأسمال لم تستحوذ على اهتمام من قِبلهم، وحتى الَّذين تماس انشغالهم مع تحليل التجارة والصناعة، مثل ابن خلدون أو اخوان الصفا، لم يتقدم تحليلهم إلى أبعد من وصف تجريدي لهاتين الظاهرتين. ويرجع ذلك إلى أن الظاهرة الَّتي كانت أكثر هيمنة، على صعيد الفكر، وحالت دون الانشغال الفكري بأساس ربح التاجر/ الرأسمالي وتأصيله بالكشف عن القانون الموضوعي الَّذي يحكمه، هي غلبة الاهتمام بالتاريخ وسير الملوك، وتراجم الرجال، وقبل كُل ذلك الاهتمام بعلوم الشريعة (**المتضمنة أوجه النشاط الاقتصادي**) والصراع الفكري، الَّذي كان له الأهمية المركزية، بين النص المقدس والتأويل، من جهة، ومحاولة التحرر من سلطة النص الوضعي وسطوة الفقيه من جهة ثانية، واكتشاف الكون بواسطة العقل، والعقل وحده، من جهة ثالثة. وما يتعلق بكُل ذلك من علوم الكلام، وما صاحب ذلك أيضاً من حركة ترجمة واسعة لعلوم فارس واليونان.

(١٠)

في كُل مرحلة من مراحل التاريخ البشري يمكننا أن نرى ظواهر الرأسمال التجاري، والمالي أيضاً، وربما الصناعي، بوضوح على أرض الواقع. ويمكننا أن نرى بوضوح أيضاً تجاهل كُل ذلك على صعيد

الانشغال الفكري؛ فلا نجد ثمة كتابات تحاول الكشف عن القانون الّذي يحكم أشكال حركة الرأسمال وتحليل الظواهر الاجتماعية المتعلقة بهذه الحركة. لأنه لم يكن بلغ بعد مرحلة اعتباره "ظاهرة مهيمنة" على الصعيد الاجتماعي، على الرغم من أهميته الشديدة في بعض المجتمعات. والرأسمال يُصبح ظاهرة مهيمنة حينما يُخضِع، كقاعدة عامة، جميع أشكال حركة الرأسمال (تجاري، مالي، صناعي) لقانون حركة واحد. ومن ثم يُخضِع مجمل النشاط الاقتصادي في المجتمع (إنتاج، تبادل، توزيع) لقانون حركة واحد يحدد الشروط الموضوعية لتجديد الإنتاج في هذا المجتمع. وما نفترضه هنا بصدد المجتمع سنعتبره مفترضاً ضمناً، في أبحاثنا الراهنة، بشأن العالم المعاصر بأسره.

وفي كُل مرحلة تاريخية أيضاً يمكننا أن نلمح بيع قوة العمل. كما نلمح العمل الفائض. لكننا لا نُصادف انشغالاً نظرياً، لا لأن التفكير الإنساني لم ينضج بعد. ولا لأن علاقات الإنتاج كانت شفافة وبسيطة، كما ذكرت روزا، ولكن لأن قانون حركة الرأسمال كظاهرة لم يسمح له تاريخياً بالهيمنة حتّى هذه اللحظة، بعد صراع جدلي طويل جداً بين الظواهر على الصعيد الاجتماعي، إلا في وقت متأخر نسبياً. تقريباً منذ خمسمائة عام.

وحينما يشرع الرأسمال، التجاري بوجه خاص، في التأهب لبسط هيمنته، كيْ يُصبح الظاهرة الأكثر سيطرة على باقي الظواهر الاجتماعية، أو على الأقل يحتل مرموقة بين هذه الظواهر، يمكننا حينئذ أن نقرأ اجتهادات أولية للجاحظ (٧٧٦-٨٦٨) والدمشقي (القرن الحادي عشر)، وألبرتوس ماجنوس (١٢٠٠-١٢٨٠)، وتوما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤)

ونيكول أوريزم (١٣٢٠-١٣٨٢) كبدايات أولى لهذا الانشغال على الصعيد الفكري.(١٨)

وحينما تمكن الرأسمال، المتجسد في قانون حركته، من تحقيق هذه الهيمنة على الصعيد الاجتماعي، ودمغ الحقبة الممتدة من القرن الخامس

---

(١٨) فعلى سبيل المثال، لدينا كتاب الدمشقي: **الإشارة إلى محاسن التجارة**، وكتاب الجاحظ: **التبصر بالتجارة**. أما كتاب: **الإشارة إلى محاسن التجارة**، فإن هذا الكتاب يعد نموذجاً واضحاً على بدء تأثير هيمنة التجارة وظاهرة الأثمان على ذهن المفكرين في القرن الثاني عشر، إذ يشرح الدمشقي في هذا الكتاب أقسام الأموال: الصامت مثل العين والورق وسائر المصنوع منها، والعرض مثل الأمتعة والبضائع والجواهر... إلخ. والعقار وهو صنفان أحدهما المسقف وهو الأدوار والفنادق والحوانيت... إلخ. والآخر المزروع ويشتمل البساتين والمراعي... إلخ. وأخيراً الحيوان ويقسمه الدمشقي إلى: الرقيق وهو العبيد والإماء. والكراع وهو الخيل والحمير... إلخ. والماشية وهو الغنم والبقر،... إلخ، ثم ينتقل لرصد الثمن، ولكنه يخلط كعادة الكُتاب في هذه الفترة بين القيمة والثمن، ولكنه ينشغل بالثمن (القيمة) المتوسط الّذي تتأرجح حوله أثمان السوق. مع وعيه باختلاف ثمن السلعة في مكان الإنتاج عن مكان التوزيع. ثم يعرض لأنواع السلع وكيفية التعرف على جيدها ورديها، ثم أصناف التجار، ثم مجموعة نصائح وصفات التاجر الناجح. انظر: أبو الفضل الدمشقي، **الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها**، اعتنى به وقدم له وعلق عليه محمود الأرناؤوط (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٩).

ولدينا أيضاً كتاب الجاحظ: **التبصر بالتجارة**: إذ افتتح الجاحظ الكتاب بفصول في صفات المعادن والجواهر، وتسمية نفائس كُل معدن وجوهر، وطرق معرفة الزائف منها. وأتبع ذلك بفصل في معرفة العطور والروائح الطيبة. واشتمل فصل الثياب على معلومات مهمة حول جلود السنجاب والثعالب الّتي تصنع منها السجاد، وذلك من الأمور الّتي اختص بعلمها اليهود. ثم عقد الجاحظ فصلاً روى فيه ما يجلب من كُل بلد من طرائف السلع والأمتعة. ومما ذكره فيه مما يجلب من اليمن: البرود والجواميس والعقيق...إلخ. ومن مصر: الدهن البلسان والزبرجد الفائق. ومن خوارزم: المسك. ومن بلخ: العنب الطيب. ومن جرجان: العناب وحب الرمان الجيد. ومن أصفهان: الشهد والعسل والكمثرى والتفاح. ومن فارس ماء الورد. ومن عمان وسواحل البحر: اللؤلؤ. ومن الأهواز: السكر والديباج وأنواع التمر والدبس. ثم أوضح الجاحظ في باب مستقل ما يختار من الشواهين والصقور، وما يستحب منها. وختم الكتاب بقواعد عامة في محاسن السلع، ودور الحواس الخمس في الحكم عليها. انظر: الجاحظ، **التبصر بالتجارة** (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٤٩)

وفي تصور توما الإكويني عن الملكية الخاصة والربا والتجارة وغيرها من المسائل الّتي بدأت تطرح نفسها بقوة ابتداء من القرن الحادي عشر، انظر على سبيل المثال:

ST.Thomas Aquinas, **Philosophical Texts,** selected and translation with notes and an introduction by Thomas Gilby (London: Oxford University press, 1951) p.340-325.

عشر حتى اليوم باسمه، كان لابد من ظهور الانشغال الفكري بالظواهر الَّتي صارت مهيمنة على النشاط الاقتصادي في المجتمع، ومن ثم كان لا بد من تبلور العِلم الَّذي يكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم هذه الظواهر الَّتي فرضت نفسها على الحياة اليومية في النشاط الاقتصادي للبشر والَّتي تدور بأسرها في فلك قانون حركة الرأسمال؛ ولذا ظهر الاقتصاد السياسي كعِلم نمط الإنتاج الرأسمالي. إنما بعد أن فرض قانون حركة الرأسمال هيمنته بفعل قانون التناقض بين الظواهر على الصعيد الاجتماعي. إذاً، هيمنة الرأسمال، كظاهرة، واخضاعه مجمل النشاط الاقتصادي في المجتمع لهيمنته، هو السبب في ظهور الاقتصاد السياسي. الرأسمال إذاً، حينما يُصبح ظاهرة مهيمنة، وليس متكررة الحدوث فحسب، يمثل المحور المركزي في الاقتصاد السياسي كعِلم شرح ظواهر نمط الإنتاج الرأسمالي والكشف عن قوانينها الموضوعية، فلذلك يُصبح من المتعين، منهجياً، الانتقال للتعرف إلى هذا المصطلح، أيْ مصطلح الرأسمال، وما يَتعلق به من مصطلحات مثل الرأسمالي، والرأسمالية. ومن ثم التمهيد من أجل اعادة النظر في الظواهر الَّتي تمثل محل انشغال الاقتصاد السياسي، ابتداءً من رفض المركزية الأوروبية، والاتخاذ من تاريخ العالم، الشرقي القديم والوسيطِ، حقلاً للتحليل. مع اعترافنا بقصور التحليل لعدم تضمنه الحضارتين الصينية والهندية العظيمتين.

الفصل الخامس
مفهوم الرأسمال

(١)

الرأسمال. الرأسمالي. الرأسمالية. ثلاث كلمات، هي في الواقع ثلاثة مصطلحات، يتم ترديدها بشكل يومي منذ ٥٠٠ عام، في أرجاء العالم المعاصر. لكن ذلك لا يعني أبداً أن هذه الكلمات، تحديداً الرأسمال والرأسمالي، لم تظهر في سماء العالم القديم أو العالم الوسيط.

فلنتعرف الآن إلى مفهوم هذه الكلمات وتاريخها. فقط يتعين أن يكون لدينا الوَعيْ، من البداية، بأن مُصطَلح"الرأسمالية"هو من ابتكار الألماني ويرنر سومبارت (١٨٦٣-١٩٤١) في القرن العشرين كرد فعل لتبلور مصطلح الإشتراكية(١). هو إذاً مصطلح حديث، وسياسي في المقام الأول(٢). ومعنى ذلك أيضاً أن تبلور هذا الاصطلاح قد جاء بالضرورة

---

(١) انظر:

Werner Sombart, **The Jews and Modern Capitalism**, Translated by M. Epstein,(Kitchenr: Batoch Books, 2001).

ويوضح بوهم بافرك (١٨٥١-١٩١٤) أن الرأسمالية تعني أحد أمرين، إما إنتاج السلع بالرأسمال المكون من مواد العمل والآلات؛ أي إنتاج السلع بالسلع، وإما خضوع عملية الإنتاج لسيطرة صاحب الرأسمال الخاص.

"The expression Capitalist Production is generally used in one of two senses. It designates either a production which avails itself of the assistance of concrete capital (raw materials, tools, machinery, etc.), or a production carried on for the behoof and under the control of private capitalist undertakers. The one is not by any means coincident with the other. I always use the expression in the former of these two meanings".Eugen Böhm-Bawerk, **The Positive Theory of Capital** (London: Macmillan and Co.1888) p.236.

(٢) انظر: أريك هوبسباوم، **عصر رأس المال**، ترجمة مصطفى كرم (بيروت: دار الفارابي،١٩٨٦)، ص٩.

وباختصار يمكن أن نقول:"إن كلمة الرأسمالية لم تظهر بوضوح من بين جنبات المناقشات السياسية إلا في =

تالٍ تاريخياً لتبلور الاصطلاح الَّذي اشتق منه، وهو اصطلاح الرأسمال. ولقد استخدم كلمة "الرأسمالية" كُل من لوي بلان (١٨١١-١٨٨٢) وجوزيف برودون (١٨٠٩-١٨٦٥) قبل سومبارت، ولكن من قبيل التوصيف العابر لفئة تستأثر بالأموال الطائلة، أو فئة مَن"يمتلكون الأرض".

ولا نجد لدى الكلاسيك، كتيار فكري مركزي في علم الاقتصَاد السياسي، ذكراً للمصطلح؛ فهو بوجه عام غير موجود عند آدم سميث، أو ديفيد ريكاردو، أو غيرهما من كبار مفكري الاقتصَاد السياسي الكلاسيكي، إذ كان جُل انشغال هؤلاء منصباً على تحليل نظام تُهيمن عليه ظاهرة الرأسمال، ليس كظَاهرة طارئة، إنما كظَاهرة فرضت هيمنتها. ومن ثم كان همهم تحليل الرأسمال نفسه كظاهرة تدور في فلكها جُل ظواهر المجتمع الجديد، دون أن يكون في أذهانهم رأسمالية المجتمع؛ لأن الروابط الاجتماعية لم تكن تحللت، والعلاقات الشخصية لم تكن تهاوت كليةً بعد.

أما ماركس، فقد استخدم الكَلمة أيضاً، لكنها ظهرت خافتة كمصطلح في كتاب **رأس المال**[٣] إذ لم يعره ماركس الاهتمام، ولم يَستعمله كاصطلاح مُستقل له دلالة مُعينة، وكان يَستخدِم عادة اصطلاح"الملكية الرأسمالية" أو"عملية الإنتاج الرأسمالية"، أو"نمط الإنتاج الرأسمالي" للتعبير عن العملية الإنتاجية الَّتي ترتكز، لا على العمل العبودي أو على الأرض،

= بداية القرن العشرين، من حيث هي العكس الطبيعي لكلمة اشتراكية، فهي إذاً كلمة سياسية، أما الَّذي قذف بالكلمة إلى الأوساط العلمية فكان كتاب سومبارت الرأسمالية الجديدة...". انظر:

Fernand Braudel, **Civilization Materielle, Economie et Capitalism, XV^e^-XVIII^e^ siècle**, Vol II (Paris: Librarie Armand Colin, 1979) p.557

وإنما ترتكز على الرأسمال.

(٢)

فلنذهب إذاً إلى المعاجم والقواميس بحثاً عن معنى كلمة/اصطلاح الرأسمال CAPITAL وأول ما يمكننا ملاحظته هو أن الكلمة في اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية على الأقل ليس لها أيْ علاقة، من ناحية الأصل اللُغوي بالأموال أو بالنقود، وإنما تعني: عاصمة، تاج العمود، حرف كَبير، فائق، فاخر، عظيم، رئيسي، أوَّلي، له الاعتبار الأول، أساسي، رأسمال. وأساسها اللاتيني كلمة CAPUT أيْ رأس، والأصل أن هذه الكلمة، في اللاتينية، تدل على عقوبة الإعدام أو فقد الحقوق المدنية(٤). ونلاحظ أنَ كُل هذه المعاني الَّتي تحملها المفردات المذكورة ذات دلالة واضحة على مقدار من الأهمية والمركزية والعلو المادي والمعنوي.

وتخلو القواميس العربية الكُبرى، مثل: المحيط في اللغة(٥)، ومجمع البحرين(٦)، ولسان العرب(٧)، والقاموس المحيط(٨)، وتاج العروس(٩)، من أيْ إيضاح لغوي للرأسمال إلا عبارة مقتضبة، عند الفيروزآبادي: "ورأس

---

(٣) نرى ماركس، في **رأس المال**، يستخدم، وعلى نحو قليل للغاية، ومتفرق، عبارات من قبيل:"الملكية الرأسمالية"، و"الروح الرأسمالية"، لكن دون أن يكون لديه الإنشغال بالرأسمالية ذاتها كمصطلح.

"Admire, therefore, the craftiness of Proudhon who wishes to abolish *capitalist property* by enforcing against it—the eternal property laws of the production of commodities", p65. "We know that the means of production and subsistence, while they remain the property of the immediate producer, are not capital. They become capital, only under circumstances in which they serve .... But this *capitalist soul* of theirs is so intimately wedded, in the head of the political economist, to their material substance", p368."It is the great merit of Wakefield to have discovered, not anything new about the Colonies, but to have discovered in the Colonies the truth as to the conditions of *capitalist production* in the mother-country".
Marx, **Capital,** Vol I, op, cit, p.268.

المال أصله". ولذلك يحق لنا الاستغراب لهذا التجاهل على الرغم مِن معرفة اللسان العربي، كما سنرى، لهذه التركيبة اللغوية (رأس/مال) على الأقل منذ القرن السابع الميلادي.

(٣)

ونجد عند برودل (١٩٠٢- ١٩٨٥) بحثاً أصيلاً يتعقب من خلاله تطور كلمة الرأسمال منذ عام ١٢١١، ويرصد ظهور الكلمة على فترات تاريخية متقطعة، بصفة خاصة في إيطاليا وألمانيا وفرنسا، عبر القرون الممتدة من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر، ونجد، وفقاً لهذا البحث، أن الكلمة كان لها استخدام عام يدل على الثروة المكنّزة، أو مبلغ من المال أو مقدار دين أو سلفة أو أصول تجارة[١٠]. وأظن أن الأمر على هذا النحو يعني أن مستوى ظهور الكلمة حتى هذه الفترة التاريخية هو **مستوى حقل التداول**. إذ لا يوجد على صعيد اللغة أو الاصطلاح، حتى هذه المرحلة التاريخية الَّتي بحثها برودل، أيْ ارتباط ما بين كلمة الرأسمال وأَيْ مفردة من المفردات الَّتي تخص عملية الإنتاج. ويتعين أن ننتظر مجيء تيار الكلاسيك حتى ينتقل مستوى ظهور الكلمة من

---

(٤) قاموس أكسفورد، **المحيط**(بيروت: أكاديميا إنترناسيونال،٢٠١٠)،ص١٦٠. حارث الفاروقي، **المعجم القانوني**، ص٢٠٨. ويزيد قاموس **المنهل**: "أصل المال". انظر: جبور عبد النور وسهيل ادريس، **المنهل** (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٩)، ص١٦٣.

Oxford Latin Dictionary (Oxford: Oxford University press, 1996)p796.

(٥) الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة** (بيروت: عالم الكتب،١٩٩٤)، ج٩، ص٥٤.

(٦)"ورأس المال أصله". فخر الدين الطريحي، **مجمع البحرين** (بيروت: دار الهلال،١٩٨٥)، ج٤، ص٧٣.

(٧) جمال الدين بن منظور، **لسان العرب** (بيروت: دار الفكر،١٩٩٤)، ج٦، ص٩٢.

(٨) "ورأس المال أصله". مجد الدين الفيروزآبادي، **القاموس المحيط** (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ص٧٠٤.

(٩) مرتضى الزبيدي، **تاج العروس** (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤)، ج٨، ص٢٩٨.

(١٠) Braudel, op, cit, p.574.

مستوى حقل التداول إلى مستوى حقل الإنتاج؛ فقد أخذت الكلمة في التبلور على يد مفكِري الاقتصَاد السياسي الكلاسيكي، مثل جيمس ميل (١٧٧٣-١٨٣٦) الَّذي رأى أن الرأسمال سلعة معدة لإنتاج سلعة، أيْ أن الكلمة قد أخذت في الابتعاد عن كونها مجرد تعبير عن مبلغ من النقود، أو مبادلة سلعة بسلعة فحسب، إلى اعتبارها معبرة عن عملية إنتاجية كاملة تَعني إنتاج السلع بالسلع.

أما سيسموندي (١٧٧٣-١٨٤٢) فقد رأى أن الرأسمال هو"قيمة تُضاعِف نفسها باستمرار بواسطة الإنتاج". وهكذا نقترب من الصياغة النهائية الَّتي سوف يُعلنها ماركس للكلمة على أساس من أن الرأسمال ليس مبلغاً من المال، إنما هو علاقة اجتماعية من جهة، ووسيلة إنتاج من جهة أخرى. والواقع أن ماركس، على هذا النحو، لم يبتكر في الأمر شيئاً؛ إلا اعادة التصنيف، فقد تلقف من الاقتصَاد السياسي الكلاسيكي المعنى الجديد، والنهائي، للرأسمال.

(٤)

ويمكننا القول ان التطور الَّذي لحق استخدام كلمة الرأسمال، لغةً واصطلاحاً في أوروبا، وانتقال مستوى ظهور الكلمة من مستوى حقل التداول إلى مستوى حقل الإنتاج، قد جاء نتيجة عدة عوامل تضافرت على صعيد الواقع في مقدمتها اخضاع جميع مظاهر النشاط الاقتصادي في المجتمع لقانون حركة الرأسمال، ومنها تبلور الصناعة الحديثة وهيمنتها، وسيادة الإنتاج المتزايد من خلال الآلة من أجل السوق، ومن ثم الاستهداف الدائم للربح، وتأزم الصراع الطبقي في حقل اقتسام الناتج

الاجتماعي بين كبار ملاك الأراضي (الريع) والرأسماليين (الربح) والعمال (الأجر) كصراع بين طبقات اجتماعية متناقضة في حقل التوزيع. وعلى صعيد الفكر صار الانشغال الرئيسي متركزاً في حقل الإنتاج المادي للسلع، في محاولة تقديم إجابة عن سؤالين محددين بدقة: السؤال الأول: كيف تزيد ثروات الأمم؟ وهو سؤال يتعلق بالإنتاج، وليس التداول. والسؤال الثاني: مَا هي القوانين الموضوعية الَّتي تحكم اقتسام هذه الثروات بين أعضاء المجتمع المنتِج لها؟ وهو سؤال مُنشغل بحقل التوزيع. وفي المرحلة الَّتي شهدت شروع ظاهرة الرأسمال في فرض هيمنتها، بوجه خاص في قطاع الصناعة الآخذة في النمو، سنجد ثمة اعادة صياغة لمفهوم الرأسمال، فلم يعد الرأسمال يُعطي معنى الغنى أو الثراء أو الثروة المكتنزة في أقبية القصور، وإنما أصبح يُنظَر إليه ابتداءً من دائرة الإنتاج، فروبرت ترجو (١٧٢٧-١٧٨١) وهو من عُظماء الفيزيوقراط، يُعرف الرأسمال بأنه:"قيم متراكَمة"[١١]. أما روبرت مالتس (١٧٦٦-١٨٣٤)، فيُعرّف الرأسمال بأنه رصيد الأمة الموظف في الإنتاج وتوزيع الثروة، أو هو:"ثروة متراكمة تجني الأرباح بالإنتاج"[١٢]. كما رأى جون ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٣) أن الرأسمال هو المخزون المتراكم من إنتاج العمل[١٣]. ويُحرز الفرنسي جان باتيست ساى(١٧٦٧-١٨٣٢)، في إطار التصور،

---

(١١)

"These accumulated values are what we name a capital".
Robert Jacques Turgot, **Reflections on the Formation and Distribution of Wealth** (London: E.Sprag, 1898).p.56

(١٢)

Thomas Robert Malthus, **Definitions in Political Economy** (London: John Murray, 1827) p92.

(١٣)

John Stuart Mill, **Principles of Political; Economy with some of Their Applications to Social Philosophy** (London: Longmans, Green &Co, 1909) p.328.

العام للكلاسيك تقدماً حينما يعتبر أن الرأسمال، المنتِج، يتضمن الأدوات والآلات والمواد الخام ووسائل معيشة المنتِج، بالإضافة إلى النقود نفسها[١٤]. وعليه، يُصبح من المستقر، في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، اعتبار كلمة الرأسمال، كاصطلاح، معبرة عن الثروة الموظفة في الإنتاج من أجل الربح أو العائد. وهو معنى تم بناءه على اصطلاحات أخرى صارت مستقرة مثل العائد والإنتاج والقيمة. وبصفة خاصة القيمة الَّتي كانت مبحثاً مركزياً في جميع أبحاث الكلاسيك وماركس، كما رأينا.

بوجه عام، نخلص إلى ان المعنى الَّذي سوف يُعطيه الاقتصاد السياسي الكلاسيكي للرأسمال هو المعنى الَّذي سوف تعتمده اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، ومن ثم سائر اللغات الأوروبية.[١٥]

ولذلك سنجد موسوعة كولومبيا تذكر:"في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي يُعد الرأسمال العنصر الثالث من عناصر الإنتاج إلى جوار العمل والأرض"[١٦] ولكن، فات الموسوعة الشهيرة أن توضح، لأن هذا مهم، أن اعتبار الرأسمال عنصراً من عناصر الإنتاج إنما جاء بعد جهود كبيرة من قِبل مفكري الاقتصاد السياسي الكلاسيكي بشأن"العمل المنتِج" و"الثروة، فالاقتصاد السياسي يُعرّف العمل المنتِج بأنه:"العمل الَّذي يُنتِج الثروة"، ومن ثم يعد العمل غير المنتِج للثروة عملاً غير منتِج على الإطلاق. وتجد

---

(١٤)

Jean-Baptiste Say, **A Treatise on Political Economy** (Philadelphia: Lippincott, Grambo&Co, 1855).p.59.

(١٥) انظر، على سبيل المثال:

Henry Higgs, **Palgrave's Dictionary of Political Economy** (London: Macmillan and Co., Ltd, 1929) p217-223. **Petit Larousse** (Paris: Librairie Larousse, 1977) p.165-166.

الثروة مصدرها، في التصورات الأُولى لرواد عِلم الاقتصاد السياسي، مثل وليم بتي (١٦٢٣-١٦٨٧) وريتشارد كانتيون (١٦٨٠- ١٧٤٣) في أمرين، أولهما: الأرض"كمصدر لجميع الثروات"، وثانيهما: العمل، الَّذي"يُنتج هذه الثروة"، أو وفقاً لعبارة وليم بِتي الشهيرة:"العمل أبو الثروة والأرض أمها". ويُصبح من الضروري أن ننتظر مئة عام تقريباً كي يتم اعتبار الرأسمال (بعد أن فرض هيمنته) مصدراً ثالثاً على يد توماس مالتس؛ إذ اعتنق مالتس التصور الكلاسيكي الَّذي رأى أن الثروة تجد مصدرها في الأرض والعمل، كمصدرين رئيسيين، لكنه أضاف عنصر الرأسمال على أساس أن العمل والأرض في حاجة إلى الرأسمال، لأنه، كما يقول:"ضروري من أجل إنتاج الثروة؛ فيمكن من ثم اعتبار الرأسمال مصدراً ثالثاً للثروة".(١٧)

(٥)

وإذ نقبنا في العالم الوسيط، ابتداءً من رفض منهجي للمركزية الأوروبية، ورجعنا إلى ما قبل العام الَّذي انتهى إليه برودل، عام ١٢١١

---

(١٦)

The Columbia Encyclopedia (Columbia University Press, 1959)

أضاف البعض، من رجال المعاجم، إلى أشكال الرأسمال، المعرفة المنتَجة من خلال البحث العلمي، انظر:

Douglas Greenwald, **Encyclopedia of Economics** (New York: McGraw-Hill Book Company, 1982) p112.

ولقد صار من المستقر، لدى فقهاء القانون المدني، مسايرة لما صار سائداً، أن الرأسمال لم يعد معبراً عن مبلغ من النقود وإنما صار"يشمل الأشياء المادية، منقولة أو عقارية، والأشياء المعنوية، كالحقوق الشخصية، ومحال التجارة، والملكية الأدبية، وحقوق المؤلفين، وشهادات الاختراع". محمد كامل مرسي، **شرح القانون المدني**، تنقيح محمد علي سكيكر ومعتز كامل مرسي (الإسكندرية: منشأة المعارف،٢٠٠٥)، ج٢، ص٥١٠. ولدى السنهوري ما يُطابق ذلك تقريباً:"قد تكون نقوداً أو أوراقاً مالية أو منقولات أو عقارات أو حق انتفاع أو ديناً في ذمة الغير أو اسماً تجارياً أو شهادة اختراع أو عملاً أو غير ذلك مما يَصلح أن يكون محلاً للالتزام". عبد الرزاق السنهوري، **الوسيط في شرح القانون المدني**، تنقيح أحمد مدحت المراغي (الإسكندرية: منشأة المعارف، ٢٠٠٤)، ج٥، ص١٩٥.

(١٧) Malthus, **Definitions**, op, cit, .p.18.

فسنجد أن اللسان العربي، في القرن السابع الميلادي، يَعرف كلمة الرأسمال، وكمصطلح، قبل أوروبا، الَّتي كانت حقل بحث برودل، بمئات السنين، إذ في الآية رقم ٢٧٩ من سورة البقرة، نجد ذكراً صريحاً للكلمة في صيغة الجمع؛ إذ نصت الآية على:"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلِمون ولا تظلَمون".

المؤكد أن الرأسمال المذكور في الآية، والَّذي سوف نقابله في شبه الجزيرة العربية بوجه عام في التاريخ الوسيط بعيد إلى حد كبير عن المعنى الاصطلاحي الَّذي سوف يتبلور في أوروبا بعد ذلك على نحو ما أوضحنا أعلاه، أيْ الرأسمال الصناعي. ولن نجد سوى نوعين فقط من الرأسمال، الرأسمال التجاري(١٨)، والرأسمال المالي الَّذي يرتكز على إقراض النقود بفائدة. والأخيرة أيْ الفائدة، من الأمور المحرمة في الذهنية المسلمة.

فلنرجع إلى الآية، ولنلاحظ في البداية أن القرآن ذكر في هذه الآية (رءوس أموالكم) ولم يذكر (أموالكم) أو (نقودكم) وأظن أن السبب في اكتساب النقود صفة الرأسمال في سياق الآية هو أن هذه النقود كانت مقرَضة، بوجه عام، على سبيل التشغيل والإنتاج وليس الاستهلاك. وقد ذكر الرازي (٨٦٥-٩٢٥) أربع روايات في أسباب نزول هذه الآية(١٩)،

---

(١٨) الجدير بالذكر أن أصحاب الأموال الطائلة والثروات بمكة، مثل عثمان بن عفان، قد برعوا وأجادوا في تشغيل رؤوس أموالهم وفي استثمارها، فنمت وزادت. شغّلوها في التجارة، وشغّلوها في أعمال نستطيع أن نسميها أعمالاً مصرفية بلغة هذا اليوم، كما كتب د. جواد علي، وشغلوها باستثمارها بمشاريع زراعية وصناعية وما شابه ذلك، مشاركة أو على ربح ثابت معين، أو مساهمة في الأرباح دون الخسائر. ولم يكتف تاجر مكة بالاتجار على حسابه، بل ساهم مع غيره من أهل مكة في تكوين رءوس أموال القوافل، بحيث صارت القوافل تجارة شركاء، أو شركة عامة يُساهم فيها مَن يَشاء من أصحاب المال. انظر: جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (بيروت: دار العلم للملايين. بغداد: مكتبة النهضة،١٩٦٩) ج٧، ص٤٢١.

الرواية الأولى: أنها نزلت في أربعة أخوة من ثقيف، كانوا يداينون بني المغيرة، والرواية الثانية، انها خطاب لأهل مكة وهو مجتمع بطبعه متاجر، والرواية الثالثة انها نزلت في العباس وخالد بن الوليد، وكانا يسلفان في الربا، والرابعة انها نزلت في العباس وعثمان.

وعند الواحدي (١٠٠٢-١٠٧٦) ربما يتأكد تصورنا بشأن سبب استخدام كلمة الرأسمال وليس كلمة المال أو كلمة النقود في الآية. لأن الأموال كانت مُسلّفة بغرض الاستثمار وليس الاستهلاك.

كتب الواحدي:"قال عطاء وعكرمة: نزلت في العباس وعثمان بن عفان، وكانا قد أسلفا في التمر فلما حضر الجداد (أيْ وقت جني الثمار) قال لهما صاحب التمر: لا يَبقى لي ما يكفي عيالي إذا أنتما أخذتما حظكما كله فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما ففعلا فلما حل الأجل طلبا الزيادة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهما وأنزل الله تعالى هذه الأية فسمعا وأطاعا وأخذا رءوس أموالهما".[٢٠]

في هذه الرواية. رواية الواحدي. اكتسبت النقود صفة الرأسمال لأنها مقرَضة على سبيل الاستخدام في الإنتاج الزراعي على ما يبدو، فالمقترض هنا إنما اقترَض كَيْ يَزرع التمر، بالضرورة كَيْ يَبيعه، وهو يَطلب امهاله في سداد الدين، ربما لآفة لحقت زراعته في ذلك العام أو لأيْ سبب آخر أقعده عن السداد، ولكنه يَعقد صفقة جديدة ابتداءً من ذلك؛ إذ طلب امهاله في سداد الدين المستحق عليه، في مقابل أن يَدفع ضعف ما عليه من هذا الدين في الموسم التالي.

---

(١٩) محمد الرازي فخر الدين، **تفسير الفخر الرازي** (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ج٤، ص٢٥٧.

(٢٠) أبو الحسن بن أحمد الواحدي، **أسباب النزول** (القاهرة: المكتبة التوفيقية،٢٠٠٣)، ص٧٤.

وحينما نَنتقل إلى كُتب التفاسير، المعتمدة من لدن المؤسسة الدينية الرسمية!، لا نُقابل في الحقيقة تفسيراً مريحاً، وبالكاد نلمح دلالة على أن الرأسمال هو (أصل المبلغ من غير زيادة) أو (أصل النقود بدون فوائد)، وهو في الآية بمعنى أصل المبلغ (المقرَض).

كتب الطبري (في القرن التاسع) :"القول في تأويل قوله تعالى (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم) "إن تبتم" فتركتم أَكلَ الربا وأنبتم إلى الله عز وجل،"فلكم رءوس أموالكم"، من الديون الَّتي لكم على الناس، دون الزيادة الَّتي أحدثتموها على ذلك رباً منكم، وعن قتادة في قوله:"وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم" ما كان لهم من دين، فجعل لهم أن يأخذوا رءوس أموالهم، ولا يزدادُوا عليه شيئًا".[٢١]

وكتب القرطبي (في القرن الثالث عشر) :"روى أبو داود عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. فردهم تعالى مع التوبة إلى رؤوس أموالهم، وقال لهم: لا تظلمون في أخذ الربا، ولا تظلمون في أن يتمسك بشيء من رؤوس أموالكم فتذهب أموالكم. ويُحتمل أن يكون ولا تظلمون في مطل لأن مطل الغني ظلم".[٢٢]

أما ابن كثير (في القرن الرابع عشر) فقد كتب:"وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لَا تظلمون". أَيْ: بأخذ الزيادة وَلَا تُظْلَمُونَ أَيْ: بوضع رؤوس الأموال أيضا، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه".[٢٣]

---

(٢١) الطبري، **جامع البيان** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠)، ج١، ص٢٨٩.

(٢٢) القرطبي، **تفسير القرطبي** (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠)، ج١، ص ٣٢٤.

(٢٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (القاهرة: دار الحديث، ١٩٧٢)، ج١، ص٢٤٥.

أما الفقه، فقد اعتمد رسمياً كلمة الرأسمال ضمن مفرداته الفنية، فنراها مركزية في فقه كل من الشيرازي (١٠٠٣-١٠٨٣)،[٢٤] وابن رشد (١١٢٦-١١٩٨)،[٢٥] وابن قدامة (١١٤٦-١٢٢٣)،[٢٦] ومنصور البهوتي (١٥٩١-١٦٤١)،[٢٧] وغيرهم حين شرحهم لأحكام القروض والشركات. ونجد الكلمة كذلك عند ابن خلدون، حين يُناقِش حرفة التجارة.[٢٨]

وذكر أبو منصور الثعالبي(٩٦١- ١٠٣٨) :"حدثني أبو القاسم الطهان الفقيه قال لما رجع أبو الفضل المحمي من الحج اتخذ دعوة دعا إليها اعيان نيسابور ووجوهها وفيهم أبو زكريا الحربي وأبو الحسين بن لسيان الفارسي رأس التجار وأديبها وفقيهها فأفضت بهم الأحاديث إلى أن أفاض ابن لسيان في مدح التجارة وفضل واطنب في مدحهم ثم قال من جلالتهم: ان لهم أمثالاً مستعملة بين السادة والكبراء كقولهم: الصرف لا يحتمل الظرف، ورأس المال أحد الرابحين...".[٢٩]

(٦)

وإذ ما نقبنا في العالم القديم، فسنجد أن تقنين أشنونا، في القرن الثامن عشر قبل المسيح، له السلام. يذكر كلمة الرأسمال صراحة. كذلك نجد لدى حمورابي ذكراً صريحاً للكلمة، وسوف نناقش مواد هذين التقنينيّن لاحقاً ببعض التفصيل.

(٧)

أما فقهاء القانون، والقانون التجاري بوجه خاص، فيعرّفون الرأسمال، بأنه:"مجموع الأموال الَّتي تتكون منها ثروة الشركة باعتبارها شخصاً معنوياً، وتقسم إلى أسهم متساوية القيمة، تعطي حقوقاً متساوية".[٣٠] أو هو:"المبلغ النقدي الَّذي يمثل القيمة الأسمية للحصص النقدية والعينية على السواء".[٣١]،"مجموع الحصص

النقدية أو العينية التي يقدمها الشركاء"[٣٢] والحد الأدنى الَّذي يمكننا فهمه من هذه التعريفات، المتشابهة، أن فقهاء القانون، في مبحث الشركات التجارية بوجه خاص، إنما يخلطون بين ثلاثة اصطلاحات مختلفة، وهي (الأموال)، و(الثروة)، و(النقود) ويعتمدون مفهوماً انطباعياً في الغالب، وذاتياً في الأعم. ولن ننشغل هنا بمناقشة هذا الخلط ونكتفي بالإشارة إلى عدم إمكانية استخلاص أية معرفة بصدد اصطلاح (الرأسمال) لدى فقهاء

(٢٤) الشيرازي، **تكملة المجموع شرح المهذب** (القاهرة: دار الحديث، ٢٠١٠)، ج١٤، ص١١.

(٢٥) ابن رشد، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ج٢، ص٢٠٦.

(٢٦) ابن قدامة، **المغني** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠)، ج٥، ص١٧٠.

(٢٧) البهوتي، **الروض المربع شرح زاد المستنقع** (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة،١٩٨٣)، ج٣، ص١٣٦.

(٢٨) ابن خلدون، **المقدمة**، المصدر نفسه، ص٤٣٨. والجدير بالذكر أن الشركات لم تكن، لدى فقهاء المسلمين، مقتصرة على شركات الأموال، إنما عالج الإمام مالك شركات الخدمات أيضاً، مع ذكر واضح للرأسمال؛ جاء في **المدونة:**" قلت: هل تجوز شركة الأطباء اشترك رجلان على أن يعملا في مكان واحد يعالجان ويعملان فما رزق الله بينهما نصفين. قال: سألت مالكاً عن المعلمين يشتركان في تعليم الصبيان على أن ما رزق الله بينهما نصفين. قال: ان كانا في مجلس واحد فلا بأس به. قال: وان تفرقا في مجلس فلا خير في ذلك. قال: وكذلك الأطباء عندي اذا كان ما يشتريانه من الأدوية أن كان له رأسمال يكون بينهما جميعاً بالسوية". مالك بن أنس، **المدونة الكُبرى**، رواية سحنون (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر، ١٩٤٦)، ج٥، ص٤٨.

(٢٩) أبو منصور الثعالبي، **كتاب خاص الخاص** (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٦)، ص٨١.

(٣٠) محمد صالح، **شرح القانون التجاري المصري** (القاهرة: مطبعة فتح الله الياس وأولاده، ١٩٣٨)، ج١، ص٢٦٩.

(٣١) على البارودي، **القانون التجاري: الأعمال التجارية والتجار- الشركات التجارية** (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٦)، ص٢٤٠.

(٣٢) محمد سمير الشرقاوي، **الشركات التجارية في القانون المصري** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٦)، ص١٤٤. والواقع أن عدم الانشغال بتعريف الرأسمال والاقتصار على تحديده على أساس كونه المساهمات النقدية والعينية الَّتي تقدم من الشركاء، هو سمة عامة في كتابات فقهاء القانون، وانظر في فرنسا:

Georges Ripert, **Traite Elementaire de Droit Civil de Planiol** (Paris: Librairie Generale de Droit et de Jurisprudence, 1952) p.958."L' ensemble des apports en argent ou en nature forme le capital social.C' est le montant de ce que la societe, Personne morale, a recu des associes. IL' est considere comme une dette de la societe envers les associeset, dans les bilans commerciaux, le capital social figure au passif. IL ne faut pas le confondre avec l' actif social qui comprend tous les biens appartenant a la societe et qui, apres que que annees d' exploitation est, suivant le cas, superieue ou inferieur au capital".

القانون، وبصفة خاصة فقهاء القانون التجاري، الَّذي يعد هذا الاصطلاح من أهم الاصطلاحات لديهم، والَّتي تمثل أحد المباحث العلمية المهمة وبالأخص في باب الشركات التجارية! ومع ذلك لا نجد من قِبلهم الإهتمام اللازم بالتعرف على تاريخ المصطلح وطبيعته ودلالاته المعرفية.

(٨)

حتى الآن كنا نبحث في كلمة "الرأسمال". أما كلمة "رأسمالي" فهي تاريخياً، في الرأي الغالب، ترجع إلى منتصف القرن السابع عشر حينما استخدمت لأول مرة في صحيفة Hollandsche Mercurius الهولندية في عام ١٦٣٣، ومرة ثانية في عام ١٦٥٤. وفي عام ١٦٩٩ جاء في مذكرة فرنسية تناولت بالحديث ضريبة جديدة فرضها مجلس الطبقات في الأقاليم الهولندية المتحدة، إن:"الرأسماليين مُيزوا عن غيرهم في أشياء كثيرة...". كما أن جان جاك روسو استخدم الكلمة في عام ١٧٥٩ عندما كتب إلى صديق له يقول:"فلا أنا سيد من كبار السادة، ولا أنا رأسمالي، إنما أنا شخص فقير، وإنسان راض بحالي".[٣٣]

كلمة "رأسمالي" إذاً معروفة منذ زمن طويل، لكنها دائماً ما كانت ملتصقة بمفهوم المال والثروة والغنى، إذ نجدها تعني أصحاب الثراء الواسع، أو أصحاب الثروات المالية، أو أصحاب السندات العامة. ولا شك في أن اصطلاح الرأسمالي الآن صار مختلف المعنى نتيجة تطور اصطلاح الرأسمال نفسه، فلم يعد الرأسمالي إذاً ذلك الرجل الَّذي يكتنز الثروة، إنما أصبح ذلك الَّذي يُنتجها.

---

(٣٣) مُشار إليه في: Braudel, op, cit, p.596.

وحينما يُذكَر الرأسمال الآن فإنما ينصرف المفهوم مباشرة، غالباً، إلى الرأسمال الصناعي، وليس الرأسمال التجاري أو الرأسمال المالي. فلقد صارت كلمة الرأسمال، أو CAPITAL، تعبيراً، لغوياً، عن الرأسمال الصناعي بوجه خاص. أيْ الرأسمال الَّذي يستخدم مواد العمل وأدوات العمل وقوة العمل في سبيل إنتاج السلع بواسطة الآلة من أجل السوق. ومن الناحية الاصطلاحية صارت الكلمة معبرة عن أيْ شكل من الأشكال الثلاثة للرأسمال. كتب الفاروقي:"الرأسمال نقود مثمرة لفائدة أو مبذولة لمشروع؛ مصدر ايراد أو دخل. أسهم صادرة مستوفاه القيمة؛ حصص مكتتب بها مدفوعة".[(٣٤)]

(٩)

بعد أن بحثنا في التاريخ، وحددنا المفاهيم إلى حد ما، وعرفنا أن الرأسمالية مصطلح مضاد للإشتراكية، وأن الرأسمال لم يعد مبلغاً من النقود، إنما صار يعني علاقة اجتماعية تنتمي إلى حقل وسائل الإنتاج، وأن الرأسمالي هو ذلك الشخص الذي يُنتِج الثروة بالثروة. أو السلع بالسلع. فإنه يمكننا الآن فهم، ولو أوَّلي، لمَ أُطلق على الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى الآن اسم الرأسمالية. فالواقع أن الرأسمال في أبسط صوره، وربما أعقدها في نفس الوقت، هو نقود. هذه النقود تتحول إلى أدوات عمل، ومواد عمل، وقوة عمل، من أجل إنتاج السلعة. والنقود كانت تُستخدم إبتداءً من القرون الأخيرة من العالم القديم ومنذ بدايات العالم الوسيط، في جُل عمليات التبادل والتجارة، وكان يمكننا أن نرى بوضوح قيامها، وعلى أكمل وجه، بتأدية مختلف وظائفها كوسيط في

---

(٣٤) الفاروقي، **المعجم القانوني**، المصدر نفسه، ص٢٠٩.

التبادل، وكمخزن للقيمة ومعياراً لها[٣٥]، وكان الهدف الأول وربما الوحيد مِن وراء استخدامها عند مَن يملكوها مِن الأغنياء والنُخب بوجه عام هو زيادتها المستمرة (التركيم)، كما يفعل صديقنا الرأسمالي في عالمنا المعاصر. ولكننا لا نطلق على العصور التاريخية السابقة على الرأسمالية إلا اسمائها الَّتي عبرت عن الظاهرة الأكثر هيمنة.

فقد أطلقنا على العصر العبودي هذا الاسم، لأن الظاهرة الَّتي سادت المجتمعات آنذاك، كما في اليونان القديمة على سبيل المثال، كانت ظاهرة الرق، وكان من الملاحَظ بجلاء أن تطور المجتمع نفسه يتم من خلال عمل العبيد في السلم والحرب.

كما أطلقنا على عصر الإقطَاع هذا الاسم لأن الظاهرة الَّتي سادت المجتمعات آنذاك، في العالم الوسيط، هي الزراعة والملكيات الزراعية الكبيرة. والتناقض بين كبار الملاك، على اختلاف أشكال الحيازة وتباين الملاك والحائزين، وصغار الفلاحين أو الأقنان. الأمر الَّذي يعني أن اطلاق الرأسمالية كمصطلح على عالمنا المعاصر إنما يعني هيمنة الرأسمال (المتجسد في قانون حركته) كظاهرة.

ولا يعني هذا أن هذه الظاهرة فريدة تاريخياً، أو غير مسبوقة، إنما يعني انها ظاهرة صارت مهيمنة. إذ لا توجد، ولن توجد، حقبة تاريخية خالصة، فكما عرفت المجتمعات العبودية الإقطَاع، بل وعلاقات الإنتاج المشاعية أيضاً، جنباً إلى جنب، فقد عَرِفت المجتمعات الإقطاعية ظاهرة

---

(٣٥) "ان النقود الَّتي تكون أثماناً للمبيعات وقيماً للأعمال...". أحمد بن على المقريزي، **شذور العقود في ذكر النقود**، دراسة وتحقيق محمد عبد الستار عثمان (القاهرة: مطبعة الأمانة، ١٩٩٠)، ص١٥٧.

العبودية، وبالتبع ظلت الرأسمالية فترة طويلة جداً بجانب الإقطاع واستعباد البشر[٣٦]، ولم تزل أجزاء من العالم المعاصر تحكمها علاقات الإنتاج المشاعية. والظاهرة الَّتي تهيمن على عالمنا اليوم ظاهرة الرأسمال كعلاقة اجتماعية تنتمي إلى حقل وسائل الإنتاج.

نحن إذاً لم نُطلق على المجتمعات السابقة اسم الرأسمالية على الرغم من اشتراكها مع مجتمعنا الرأسمالي المعاصر، كما سنرى، في الكثير من السمات والخصائص الَّتي جعلتنا نُطلق على عالمنا المعاصر اصطلاح العالم الرأسمالي، لا لخلو المجتمعات السابقة هذه من الرأسمال أو من قانون حركته، لأنه كان موجوداً بالفعل، إنما **لعدم هيمنة** هذا القانون على مظاهر

(٣٦) إذ ما نظرنا إلى أفريقيا الشرقية، بصفة خاصة جنوب السودان، في القرن الثامن عشر والتاسع عشر(كانت الرأسمالية في عز عنفوانها في أوروبا) فسنجد أن تجارة الرقيق حتى أيام دولة محمد علي كانت تجارة رسمية:"كان قنص الرقيق أو الغزوات من أهم مصادر الايراد في الجهات الواقعة على ممتلكات محمد علي وكان جنود الباشا في غالب الأحيان يتقاضون مرتباتهم عبيداً تقدر أثمانهم بما يفوق سعر السوق بكثير. ولما كان التأخر في دفع رواتب الجنود أمراً كثير الحدوث، فقد أظهروا نشاطاً غير قليل في قنص الرقيق لاعتمادهم على ما يحصلونه من بيعه في استيفاء رواتبهم المتأخرة". انظر: محمد فؤاد شكري، وآخرون، **بناء دولة مصر محمد علي، السياسة الداخلية** (القاهرة: دار الفكر العربي،١٩٤٨)، ص٥٦٤. وقريب من ذلك ما ذكره د. محجوب باشري، إذ كتب: "اعتاد خورشيد أن يبقى أربعة أو خمسة أشهر في جنوب السودان، ويرجع إلى عاصمته، وقد ألقى القبض على الآلاف من البشر عبيداً، وبعد ذلك يبدأ في تصنيف العبيد، فيبقي خيرهم وأحسنهم لنفسه، وما يلي هؤلاء يلحقهم جنوداً بقواته، أما الفئة الثالثة فيدفعهم لضباطه بدلاً من المرتبات الَّتي كان يجب أن يتقاضوها، ويعني ذلك أن الحكومة التركية المصرية قامت في السودان للاستعباد والاسترقاق". محجوب عمر باشري، **معالم الحركة الوطنية في السودان** (بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٦٦) ص٤٧. كما كتب جرجي زيدان:"تجار الرقيق كانوا أشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار، في حاشية كل منهم مئات أو ألوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده. فالنخاسون عمد السودان وعيون أعيانه وقادة أعماله تهابهم الحكام وتخشى صتوتهم الحكومة. فلما جاء المهدي. آنس من أولئك التجار إصغاء وكانوا له عوناً في إضرام الثورة". جرجي زيدان، **تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الآن، مع فذلكة في تاريخ مصر القديم** (القاهرة: مكتبة مدبولي،١٩٩٩)، ص٢٢٧. ويقول د. محمد صبري:" وكانت دارفور في سنة ١٨٧٤ لا رقابة عليها فكان لابد من إخضاعها لسلطانه قبل أن يسيطر عليها تجار الرقيق الذين كانوا بفضل ثروتهم وعصابتهم المسلحة الأجيرة سادة أفريقيا الوسطى... ". محمد صبري، **الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر** (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٤٨)، ص٢١٠.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية اليومية. إذ الهيمنة كانت لمظاهر اجتماعية أخرى أشد ظهوراً وأكثر أهمية. وحينما يُهيمن هذا القانون، الموضوعي. قانون حركة الرأسمال ويُخضع له جميع مظاهر النشاط الاقتصادي في المجتمع، يكون من المتعين تاريخياً أن نُسمي عالمنا المعاصر العالم الرأسمالي، **أيْ هو العالم الَّذي يحكمه ويهيمن عليه قانون حركة الرأسمال.**

فلنفترض أن رأسمالاً (مواد عمل+ أدوات عمل+ قوة عمل) يتكون من ١٠ وحدات، دَر ربحاً مقداره ٤ وحدات. الأهمية هنا، اجتماعياً، ليست منعقدة للـ ٤ وحدات، إنما للـ ١٠ وحدات. فالمجتمع هنا يُدرك، بعبارة أدق بات يُدرك، أن الـ ١٠ وحدات هذه يدور في فلكها نشاطه الحياتي اليومي. ولذا يُصبح مفهوماً لمَ اتخذت النقود الموظفة في التجارة أو الصناعة أو الزراعة بقصد زيادتها كلمة CAPITAL للتعبير عنها، حيث تعني (فائق، فاخر، عظيم، رئيسي، أساسي، كرسي الملك، له الاعتبار الأول) وإن أهم ما يمكن ملاحظته في هذا الشأن هو انتفاء العلاقة، كما ذكرنا، بين الكلمة والنقود أو الأموال في اللغات الأوروبية الَّتي انتقت كلمة تُعبِر عن سمو وأهمية وعلو منزلة النقود أو الأموال المعدة للإنماء، واختارت كلمة/ اصطلاح CAPITAL.(٣٧)

في مجتمعات سابقة على الرأسمالية، في كُل المجتمعات تقريباً، وعلى الرغم من وجود نفس الـ ١٠ وحدات، ونفس الـ ٤ وحدات، إلا أن

---

(٣٧) راجع في اللغة الإسبانية: ف. كورينطي، قاموس **إسباني- عربي** (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٨٥)، ص٧٩. حيث Capital تعني: رئيسي، هام، عظيم. وانظر في اللغة الإيطالية: **قاموس: عربي- إيطالي، إيطالي- عربي** (لندن: دار عكاظ، ١٩٨٩)، ص١٤٤، حيث تعني الكلمة: كرسي الملك، رأسمال، أصل المال. ونجد في اللغة الألمانية، نفس المعاني، انظر:

Collins Dictionary: German- English, English- German (New York: Harper Collins Publisher: 1997), p384.

المجتمع كان محكوماً بظواهر اجتماعية واقتصَادية أكثر حسماً وبروزاً وأهمية. الرق مثلاً في بابل أو آثينا. الأرض في أوروبا في القرون الوسيطة، ثم هذه الـ ١٠وحدات في الرأسمالية.يكون من المهم الآن التعرف إلى قانون الحركة الَّذي يحكم ذلك المجتمع الَّذي يولي مثل تلك الأهمية القصوى لهذه الـ ١٠ وحدات، كظاهرة مهيمنة على العالم المعاصر، وتدور في فلكها الظواهر كافة على الصعيد الاجتماعي، فلننتقل إلى الفصل السادس كَيْ نتعرف إلى قانون حركة الرأسمال.

الفصل السادس
في الصيغة العامة للحركة

(١)

منذ أن هبط الإنسان من فوق الأشجار، وقبل أن تنتصب قامته؛ وهو لا يكف عن الإنتاج أو الاستهلاك. والواقع انه لا يمكن تصور مثل هذا المجتمع الإنساني الَّذي لا يُنتِج ولا يَستهلِك. حتى بلدان الخليج العربي الَّتي يُنتَج لها النفط، وتَستورِد كُل شيء من الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي، ابتداءً من الويسكي وانتهاءً بالتقنية. نراهم يُنتِجون العصائر والمثلجات، وبعض الخدمات، المتطورة جداً أحياناً!

وفي كُل مجتمع مُنتِج ومُستهلِك، يسوده نمط الإنتاج الرأسمالي، يكون التبادل النقدي هو الظاهرة السائدة في النشاط الاقتصادي. فكُل شيء أصبح، من المؤكد، محلاً للتداول. للبيع والشراء. حتى الأخلاق!

وعلى مستوى البدء في النشاط الاقتصَادي على صعيد التجارة أو الزراعة أو الصناعة، في ظل نمط الإنتاج الرأسمالي، لابد وأن نبدأ من النقود، وسنرمز لها بالحرف **(ن)** فلكَيْ نَشتري سلعة، وسنرمز لها بالحرف **(س)** من أجل استعمالها استعمالاً استهلاكياً أو إنتاجياً، يتعين أن يكون تحت تصرفنا مقدار معين من **(ن)** فلكَيْ نشتري كمية معينة من الفاكهة:

- من أجل أكلها، أَيْ استهلاكها مباشرة.

- أو من أجل اعادة بيعها بثمن أغلى، أَيْ بقصد الربح.

- أو بقصد أن نضيف إليها السكر والمواد الحافظة مثلاً، ونبيعها كأحد أنواع المربات، أَيْ الشراء بقصد الإنتاج.

فإنه يتعين أن يكون تحت تصرفنا(ن) والفعلان الأخيران، أي الشراء بقصد البيع، والشراء بقصد الإنتاج، ثم كيفية توزيع هذا الإنتاج اجتماعياً، محل انشغال أصيل للاقتصاد السياسي. إذ لا ينشغل علم الاقتصَاد السياسي كثيراً بفعل الشراء بغرض الاستهلاك المباشر. وترك هذا الإنشغال لما يُسمي(الاقتصاد!) الذي يُلقّنونه، عَلقماً، للطلبة في المدارس والجامعات كفن تجريبي!

(٢)

ولنبدأ من الشراء بقصد البيع، أيْ بقصد التجارة. فبائع الفاكهة أو تاجر التجزئة يذهب إلى تاجر الجملة، أو إلى المنتِج المباشر، الفلاح، كَيْ يَشتري منه الفاكهة؛ ثم يتوجه بسلعته الَّتي اشتراها إلى دكانه عارضاً إياها للزبائن، لا بغرض تزيين الدكان بهذه السلعة بالطبع، وإنما بقصد اعادة بيعها بثمن أغلى من الثمن الَّذي اشتراها به؛ كَيْ يحصل على أصل نقوده الَّتي بدأ بها نشاطه التجاري بالإضافة إلى الربح؛ وسوف نرمز للربح بالرمز (∆)

وإذ ما استخدمنا التجريد وجردنا جميع عمليات البيع والشراء المتتالية والمتعاقبة من كُل ما هو ثانوي، فسنحصل على شكل الحركة الَّذي يحكم كُل هذه العمليات، وهو (ن – س – ∆ ن).

فلقد ذكرنا أن تاجر التجزئة نزل إلى سوق الجملة ومعه نقوده(**ن**) بقصد شراء السلع (**س**)، أَيْ أنه سوف يقوم بتحويل (**ن**) إلى (**س**) وبمجرد عودته إلى دكانه يَشرع في تحويل (**س**) الَّتي اشتراها لتوه من تاجر الجملة، إلى (**ن**) + (**Δ**)، أَيْ أن صيغة شكل الحركة الَّتي تحكم جميع عمليات البيع والشراء ما بين المنتِج المباشر وتاجر الجملة وتاجر التجزئة، حتى المستهلِك الأخير، ستكون: (**ن — س — Δ ن**).

(٣)

والَّذي يهمنا الآن، متسلحين بالتجريد، كما ذكرنا، هو أن نَنتقل من التعرف على شكل حركة الرأسمال التجاري، في مرحلة أولى، كما رأينا أعلاه، إلى التعرف على تطوره إلى رأسمال صناعي، في مرحلة ثانية. ثم تطوره إلى رأسمال مالي، في مرحلة ثالثة. دون أن يُفهم من ذلك أن الثاني هو تطور تاريخي للأول. أو أن الثالث هو تطور تاريخي للأول أو للثاني. فواقع الأمر أن الرأسمال الصناعي، والمالي، لا يستطيعان أن يعيشا بمعزل عن الرأسمال التجاري. والأغلب أن يَعمل الرأسمال الصناعي والرأسمال المالي على الاعتناء بالرأسمال التجاري والعمل على تطويره وتدعيمه، على الرغم مما بينهم من تناقض، كأجزاء مكوّنة للرأسمال الكُلي على الصعيد الاجتماعي.

فقبل سيادة الرأسمالية كنظام يفرض هيمنته على العالم بأسره، منذ خمسة قرون، كانت المجتمعات المختلفة تُنتِج وتَتَبادل وتوزع وتستهلك، وكان شكل حركة الرأسمال التجاري، الَّذي هو أسبق أنواع الرأسمال تاريخياً، مؤداه أن يَبدأ التاجر برأسمال معين (**ن**). يبدأ مثلاً بـ ١٠

وحدات من النقود، يشتري بها أحد أنوع السلع، مثل صديقنا الَّذي اشترى الفاكهة منذ قليل، ثم يبيعها مثلاً بـ ١٢ وحدة. يحصل على نقوده الَّتي بدأ بها وقدرها ١٠ وحدات، مضافاً إليها ٢ وحدة كربح. ثم يعيد الكرّة مرات ومرات.

(٤)

ولكن، حينما يُقرر هذا التاجر النابه أن يُنتج السلعة، بدلاً من أن يشتريها بقصد بيعها، أَيْ حينما يقرر تاجر الفاكهة أن يتحول إلى رأسمالي يُنتج مربى الفاكهة، يحدث تعديل طفيف في نص الصيغة **(ن- س- Δ ن)** ولكنه تعديل عميق. تعديل سوف يؤدي (حين يُهيمن) إلى اعادة صياغة شكل العالم المعاصر بأسره. فبدلاً من تحول النقود **(ن)** إلى سلعة **(س)** أَيْ بدلاً من شراء السلعة المنتَجة مباشرة، سوف تتحول**(ن)** إلى قوة عمل **(ق ع)** ووسائل إنتاج **(و أ)** وتتركب وسائل الإنتاج من مواد عمل **(م ع)** وأدوات عمل **(أ ع)**، وحينئذ يتحول الرأسمال **النقدي** إلى رأسمال **إنتاجي**. فسوف يقوم هذا التاجر النابه، الَّذي قرر أن يتحول إلى رأسمالي صناعي، بشراء الفاكهة **(م ع)** من سوق الفاكهة، ثم يتوجه إلى سوق آخر هو سوق الآلات كَيْ يشترى ماكينة صُنع المربى**(أ ع)** ثم يتوجه إلى سوق ثالث مختلف هو سوق العمل، كَيْ يشتري قوة العمل **(ق ع)** الَّتي يبيعها العُمال الأجراء، وحينما تكتمل الأجزاء الَّتي يتكون منها الرأسمال الإنتاجي **(م ع + أ ع + ق ع)** يأمر العمال بمعانقة الآلة المحبوبة من أجل الإنتاج! من أجل تحويل الرأسمال الإنتاجي إلى رأسمال **سلعي**. وحينما يخرج المنتَج، أيْ الرأسمال السلعي، يوجهه الرأسمالي إلى السوق كَيْ يبيعه ويحصل على **(ن)** + **(Δ)** . أيْ يحوّل الرأسمال السلعي إلى رأسمال **نقدي** مرة أخرى.

فهو يبدأ بـ ١٠ وحدات من **(ن)** ويشتري **(ق ع)** بـ ٤ وحدات، ويشتري **(م ع)** بـ٣ وحدات، ويشتري **(أ ع)** بـ ٣ وحدات، وحينما يخرج المنتَج يوجهه إلى سوق رابع هو سوق المواد الغذائية، كَيْ يُباع ويحصل على نقوده، الَّتي هي أصل المال، زائد الربح، أَيْ **(ن)** + **(Δ ن)** أَيْ يحصل على الوحدات الـ ١٠ الَّتي بدأ بها، مُضافاً إليها الربح **(Δ ن)**. ولكن ما هو مَصدر **(Δ ن)** ؟

علمنَا مِن الاقتصاد السياسي أن مصدر الربح هو العمل البشري، أَيْ، باختصار، يتلقى الرأسمالي عملاً أكبر من الأجر المدفوع، وهذا الفارق هو ما اصطلح على تسميته بالقَيمة الزائدة. الصيغة العامة لشكل الحركة هنا هي **(ن — و أ + ق ع — س — Δ ن)**، وهي في نفس الوقت، كما سنرى، تعد القانون العام للحركة الذي تخضع له جميع الأشكال الَّتي يتخذها الرأسمال على الصعيد الاجتماعي. نلاحظ هنا أمرين:

الأول: أن هذا القانون يَحكم كُل نشاط إنساني إنتاجي يستخدم التوليفة الَّتي تجمع بين مواد العمل وأدوات العمل وقوة العمل **(م ع + أ ع + ق ع)** في سبيل إنتاج سلعي من أجل السوق لا تعود ملكيته إلى المنتِج المباشر. ولا نجد أيْ مبرر لإنكار سريان القانون في المجتمعات السابقة على الرأسمالية، وبصفة خاصة المجتمعات القائمة على عمل العبيد، بحجة أن قوة العمل كانت غير مأجورة! ونرى سريان هذا القانون بامتياز على هذه المجتمعات، والمجتمع العبودي بصفة خاصة، لأن العبرة تكون بمدى ملكية المنتِج المباشر للمنتَج من ناحية، كما وأن مالك العبد في الواقع يتكلف طعام وإيواء العبد، وهذا الإطعام والإيواء يحسب ضمن نفقة الإنتاج، وكأن السيد دفع **(ن)** مقابل **(ق ع)** من أجل إنتاج سلع يتم توجيهها إلى

السوق، من ناحية أخرى. ونحن نعرف أن أجور بعض العمال في عالمنا المعاصر تكاد تطابق تكاليف إطعام وإيواء العبيد في العصور القديمة! أما القول بأن العلاقة بين العامل والرأسمالي تختلف، على صعيد العلاقة الحقوقية، عن العلاقة بين العبد والسيد، فهو قول تعوزه الدقة، وقبله الصدق مع النفس! بصفة خاصة حين التحليل الدقيق والأمين لا للعلاقة الحقوقية فحسب وإنما للعلاقة الإنتاجية أيضاً. أما أن العامل يتلقى جنيهاً أو كسرة خبز، فهو أمر لا يُقدم ولا يُؤخر. النتيجة واحدة: عمل زائد بلا مقابل. ولنا عودة إلى هذه المسألة.

أما الأمر الثاني فهو: أن الصيغة **(ن — و أ + ق ع — س — Δ ن)** تنشط بكفاءة سواء ذهب العامل إلى الرأسمالي في مصنعه، أو ذهب الرأسمالي إلى العامل، بمواد العمل، إلى بيته. وسواء أكان الرأسمالي فرد أم مؤسسة أم دولة حديثة، أو حتّى دولة الخلافة الإسلامية في القرن العاشر، طالما كنا بصدد **(م ع + أ ع + ق ع)** ثم إضافة المنتَج إلى مِلك شخص آخر غير مُنتِجه المباشر[١]؛ فقانون الحركة ليس وليد اليوم، ولا الـ ٥٠٠ عام الماضية فقط، إنما يعود إلى عصور أقدم. ولكن رجال الاقتصاد السياسي الّذين اتخذوا من تاريخ أوروبا تاريخاً للعالم، لم يتمكنوا من الذهاب أبعد من

---

(١) "ولا بأس أن تؤاجره على بناء دارك هذه والجص والآجر من عنده، وهذه إجارة وشراء جص وآجر في صفقة واحدة". أبو سعيد البراذعي القيرواني، **التهذيب في اختصار المدونة**، دراسة وتحقيق محمد الأمين الشيخ (دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث،٢٠٠٢)، ج٣، ص٣٤٨. وكتب السقطي (القرن الثاني عشر) :"ويأمر النشارين للخشب المستأجرين للنهار أن يحدّوا مناشيرهم قبل وقت الشروع في العمل إما عند الصباح وإما عند الفراغ بالعشي سداً للذريعة في ذلك فإن منهم مَن يغش بأن يجلس لذلك ويطيل المدة ليستريح ويعمل ثلاثة أيام في شغل يومين". انظر:

Coline et E. Levi -Provençal, **Un Manuel Hispanique De Hisba**, Traite D'abc Abd ALLAH Muhammad B. Abi Muhammad As-sakti De Malaga, Sur la Surveillance Des Corporations Et La Répression Des Fraudes En Espagne Musulmane (Paris: Librairie Ernest Leroux 1931) p13.

أوروبا القرون الوسطى. فكما تحكم الصيغة **(ن — و أ + ق ع — س — Δ ن)** أداء مصانع جنرال موتورز في عالمنا الرأسمالي المعاصر، فقد حكمت نفس الصيغة العامة الأداء في مصانع بلاد الغال في القرن الثالث، والمصانع السُلطانية في القرن العاشر.

فيمكننا أن نرى العُمال النساجين **(ق ع)** في دولة الخلافة في القرن العاشر يَستخدمون النسيج **(م ع)** المملوك للدولة، كما كانوا يستخدمون الآلات والمعدات **(أ ع)** المملوكة أيضاً للدولة، في سبيل الإنتاج، وكانوا في مقابل ذلك يتلقون الأجور.

ولدينا أمثلة عديدة نكتفي هنا منها برواية الرحالة ناصر خسرو(١٠٠٣- ١٠٨٨) حين زار مصر في عهد الفاطميين تؤيد انطباق الصيغة العامة للحركة **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)**، في القرن الحادي عشر؛ فالعُمال في مصانع السلطان (رأسمالية الدولة) كانوا يتلقون الأجور مقابل بيعهم لقوة عملهم، ونفهم من باب أوّلى أن العمال في المصانع الأخرى الَّتي كانت تُنتِج للعامة كانوا يتلقون الأجور أيضاً أسوة بعمال دار الطراز السُلطانية. فقد كتبَ ناصر خسرو:"... ويُنسَج بتنيس القصب الملون من عمائم ووقايات وما يلبس النساء، ولا يُنسَج في أَيْ مكان قصب ملون كذلك الذي يُنسج في تنيس. وينسج القصب الأبيض في دمياط، وينسج خاصة في مصانع السلطان ولا يُباع ولا يُعطى لأحد. وفي مدينة تنيس هذه، ينسجون البوقلمون وهو غير موجود في أيْ مكان آخر في العالم، وهو ثوب ذهبي يتلون باختلاف أوقات النهار. وتُحمل هذه الثياب من تنيس إلى المشرق والمغرب... والقصب والبوقلمون الَّذي يُنتَج للسلطان يُبذَل فيه ثمن كامل فيعمل العُمال للسُلطان برغبة لا كما في الولايات الأخرى حيث يظلم ديوان السلطان الصناع...".[٣]

كما يحكي لنا اليعقوبي (٨١٠- ٨٩٧) قصة انشاء بغداد على يد الخليفة أبي جعفر المنصور، ونفهم من روايته معرفة المجتمع في القرن العاشر لقوة العمل المأجورة:"... ثم وجه في احضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعِلم بالمساحة حتى اختط مدينته واحضر البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين فلما اجتمعوا وتكاملوا أجرى عليهم الأرزاق وأقام لهم الأجرة".(٤)

(٥)

فلنرجع إلى تاجر الفاكهة الَّذي قرر أن يتحول إلى رأسمالي صناعي. ونراه الآن يفكر وهو يُشاهد العمال يطبخون الفاكهة ويضيفون إليها السكر، وآخرون يُعلبون المربى، وآخرون يحملون المنتَج على سيارات النقل المتجهة إلى السوق. ويُحدّث نفسه لمَ لا يَستخدم رأسماله في استثمار مختلف مثل صديقه الَّذي يَجني أرباحاً أكثر منه بالمضاربة المالية! أو صديقه الثاني الذي أودع رأسماله لدى أحد المَصارف ويحصل كُل مدة معينة على فائدة تفوق الربح الذي يحققه من وراء مصنعه! حينئذ سوف

---

(٣) انظر: ناصر خسرو علوي، **سفرنامة**، ترجمة يحيى الخشاب (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣)، وعلى صعيد بيع قوة العمل في حقل الخدمات، نجد عند الحسن الوزان ما يفيد أن بيع قوة العمل يعد ظاهرة معروفة تاريخياً في شمال أفريقيا في القرن الخامس عشر:"... ثم نصل إلى مجمع الحمالين، ويبلغ عددهم ثلاثمائة حمال، ولهم أمين أيْ رئيس، يختار كُل أسبوع مَن يجب عليهم أن يشتغلوا ويكونوا رهن إشارة الجمهور طوال الأسبوع. يجمع هؤلاء الرجال ما ربحوه من مال في صندوق. ويقسم المال بين الذين اشتغلوا عندما ينتهي الأسبوع. ويشتغل هؤلاء وهم لابسون ثياباً قصيرة ذات لون واحد، ويلبسون خارج أوقات عملهم مما يشاؤون". انظر: الحسن بن محمد الوزان، **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر(بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣)،ج١، ص٢٣١-٢٤٥. وسوف نعرض للنص لاحقاً بشيء من التفصيل.

(٤) أحمد بن أبي يعقوب، **كتاب البلدان** (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص٣٣٧. "والتاجر صاحب الأعمال، في القرن العاشر، قد يحرص على اقامة صناعة وتشغيل العمال فيها وتوفير المواد الأولية"، انظر:
Maurice Lombard, **The Golden Age of Islam** (Princeton, NJ: Markus Wiener Publishers, 2004) p.215.

يتحول تاجر الفاكهة من رأسمالي صناعي إلى رأسمالي مالي، وتكون الصيغة العامة لشكل الحركة عندئذ هي: **(ن – ن – Δ ن)**. فالرأسمالي هنا حينما أقرض نقوده **(ن)** فإنما في الواقع قد اشترى **(ن)** في شكل حقوق دائنية، وهو يستطيع بيع هذه الحقوق ورهنها، والتصرف فيها بأنواع التصرفَات القانونية كافة. ويمكنه أيضاً الإنتظار إلى نهاية فترة القرض كَيْ يحصل على **(ن)** + **(Δ)**. وقانون الحركة هذا لا ينفرد به مجتمعنا الرأسمالي المعاصر، إنما وجِدَ كصيغة لحركة الصرافة في الهيكل في أورشليم زمن المسيح له السلام.

والَّذي يميز الصيغة الَّتي تحكم اقراض النقود **(ن – ن – Δ ن)** عن صيغة الحركة **(ن – س – Δ ن)** الَّتي تَحكم شراء السلع بغرض اعادة بيعها بسعر أعلى، هو شكل حقوقي بحت، وفقاً لتفرقة الشريعة اللاتينية بين الحقوق العينية والحقوق الشخصية، فقانون الحركة الأول يتضمن حقاً شخصياً للمقرِض تجاه المقترض. أما شكل الحركة الثاني فهو يتضمن حقاً عينياً للمشتري على السلعة الَّتي اشتراها وتجسدت في شكل وحدات النقود. ومن جانبنا فسوف نعتبر أن عملية شراء النقود والأوراق المالية، والمضاربات، خاضعة لصيغة الحركة **(ن – ن – Δ ن)**، أما دون ذلك من عمليات الشراء لأجل البيع فسوف نعتبرها خاضعة للصيغة العامة لحركة الرأسمال التجاري **(ن – س – Δ ن)**.

(٦)

حتّى الآن كنا نُعالج أشكالاً مجردة لحركة الأنواع المختلفة للرأسمال. ولكن يتطلب التحليل منا الآن التعرف إلى هذه الأشكال من واقع

التنظيم الرأسمالي المعاصر، وسنجد أنها، مع هذا التنظيم ، قد انصهرت جميعها في صيغة عامة واحدة/ قانون حركة واحد ، هذه الصيغة/ القانون هي: **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)**.

فمع التنظيم الرأسمالي فقدت الأشكال التاريخية للرأسمال هويتها التاريخية واندمجت في منظومة قانون حركة واحد يُهيمن على مجمل العملية الإنتاجية في المجتمع.

نعم قد نجد صغار البائعين في الأسواق، وتُجار المفرق، وصِغار تُجار التجزئة بوجه عام. بل وبعض المرابين في المناطق الأشد فقراً. ولكن القاعدة العامة مع التنظيم الرأسمالي المعاصر هي أن الصيغة العامة للحركة (قانون الحركة) الَّتي تحكم دورة الرأسمال **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** هي الصيغة العامة للقاعدة الَّتي تعمل عليها جميع الأشكال الَّتي يتخذها الرأسمال على الصعيد الاجتماعي. فكبار التجار (كِبار تُجار الجملة الَّذين يتحكمون في السلع والأسواق) يستخدمون**(ق ع)** أيْ العمال، كما يستخدمون **(و إ)** أَيْ وسائل الإنتاج الَّتي تتجسد في المنشأت والمخازن وسيارات النقل والخزائن والمكاتب والفواتير... إلخ، ويُنتجون **(س)** أيْ الخدمة الَّتي هي مع النظام الرأسمالي في حُكم السلعة، وكما يَستخدم كبار التجار**(ق ع)** و**(و إ)** ويُنتِجون **(س)** أَيْ خدمة، تَستخدم المصارف وسائر المؤسسات المالية والنقدية أيضاً قوة العمل **(ق ع)** ووسائل الإنتاج **(و إ)** على اختلاف أنواعها وتُنتِج أيضاً **(س)** تمثل في الخدمات الائتمانية والمصرفية المختلفة . أَيْ أن عملية الإنتاج السلعي أو الخدمي مع التنظيم الاجتماعي الرأسمالي أياً ما كان شكل الرأسمال تَخضع في مجملها لصيغة حركة واحدة. هي **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)**. ومن ثم يُمسي المجتمع

بأسره خاضعاً لهيمنة هذا القانون. خضوع الأشكال المختلفة للرأسمال لقانون حركة واحد على هذا النحو سيكون له التأثير المركزي والحاسم على ظهور العلم المنشغل بالقوانين الموضوعية التي تحكم الظواهر التي ترتبت على هذا الخضوع. هذا العلم هو علم الاقتصاد السياسي.

والآن، في ضوء ما تحقق لنا من وَعيْ بشأن الرأسمال وقانون حركته، فلننتقل إلى الكتاب الثاني بغرض استكمال الاقتصاد السياسي من جهة:

- كيفية تحديد القيمة الزائدة،

- وإتجاهها عقب التوزيع على الصعيد الاجتماعي،

- وأخيراً كيفية المقارنة بين العمل البسيط والعمل المركب.

الكتاب الثاني
استكمال الاقتصاد السياسي

الفصل السابع
طرح مشكلة القيمة

(١)

جرت المعالجة حتّى الآن للأشكال الثلاثة للرأسمال دون النظر إلى تجديد الإنتاج الاجتماعي، أَيْ بمعزل عن قانون القيمة الذي يَحكم الشروط الموضوعية لحركة هذه الأشكال على مستوى قطاعات الهيكل الاقتصادي، أَيْ القطاع الزراعي والقطاع الصناعي والقطاع التجاري. وقانون القيمة هو القانون الَّذي يَحكم الربح، كما يُحدد الشروط الموضوعية لتجديد الإنتاج الاجتماعي. ولن يكون من الممكن لأَيْ شكل من الأشكال الَّتي يتّخذها الرأسمال أن يقوم بمهامه في الدوران ومن ثم تجديد الإنتاج السِلعي أو الخدمي، إلا ابتداءً من الربح، فهو عصب النشاط الاقتصادي في النظام الرأسمالي بوجهٍ عام أياً ما كان شكل التنظيم السياسي أو الاجتماعي. كما أن الرأسمالي، بطبيعة تكونه التاريخي، لا يشغله بحال أو بآخر إِشباع الحاجات الاجتماعية؛ إنما كُل ما يهمه هو الربح، فأياً ما كان شكل الرأسمال الَّذي يقوم بالدوران فينبغي أن يقترن هذا الدوران بالربح. ولا يمكن تحليل الدورات أو البحث في جدلية تجديد الإنتاج الاجتماعي إلا ابتداءً مِن:

- الوَعيْ بالصيغة العامة لحركة الرأسمال (**ن - و أ + ق ع - س - Δ ن**)، الصيغة الَّتي تمكنت، عبر التطور التاريخي، من إِخضاع جميع أشكال الرأسمال، ومجمل النشاط الاقتصادي في المجتمع لقانون حركة واحد.

- فهم قانون القيمة، إنما فهماً ناقداً لوثنية الفكر وصنمية الرأي أياً كان مصدرهما.

وعليه، سوف ننشغل في هذا القسم باستكمال مباديء الاقتصاد السياسي، تحديداً كيف تتَحدد القيمة الزائدة، وما هو اتجاهها عقب توزيعها على الصعيد الاجتماعي، وما هو أساس مبادلة العمل البسيط بالعمل المركب؛ وذلك من خلال إعادة تحليل الصيغة العامة لحركة النظام الرأسمالي، الَّتي أخضعت لها جميع أشكال الرأسمال **(ن — س — Δ ن)** و**(ن — ن — Δ ن)**، ابتداءً من افتراض تمفصلها حول قانون القيمة؛ إنما بوَعيْ بإمكانية ظهور أيْ شكل من أشكال الرأسمال: التجاري والصناعي والمالي:

- في أيْ قطاع من قطاعات الهيكل. إذ يمكننا مثلاً أن نرى في القطاع الصناعي أو الزراعي أو الخدمي، الرأسمال الصناعي إلى جوار الرأسمال التجاري الَّذي يتوسط في تبادل السلع المنتَجة في هذا القطاع الصناعي. كما يمكننا أن نرى إلى جوارهما رأسمالاً مالياً يمول المشروع ويوفر له العملات المحلية أو الأجنبية اللازمة، أو يُضارب على أسهمه المتداولة.

- مُصاحباً لشكلٍ أو آخر من أشكال الرأسمال. إذ يمكننا أن نجد الرأسمالي الصناعي يُنتِج السلع ويحتكر تسويقها وبيعها من خلال شركات تابعة يتخذ رأسمالها شكل الرأسمال التجاري، ويكون للرأسمال المالي كذلك الدور الحاسم في التمويل أيضاً أو المضاربة على السندات أو الأسهم المتداولة في البورصات وأسواق المال على الصعيد المحلي أو العالمي.

يتعين أخيراً: أن نأخذ في الاعتبار أن الأشكال الثلاثة للرأسمال والَّتي تحكمها الصيغة العامة للحركة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** لم تكن لتخضع لهذه الصيغة العامة إلا مع التنظيم الاقتصَادي الرأسمالي. فقبل الرأسمالية، بعبارة أدق قبل هيمنة قانون حركة الرأسمال المتمثل في الصيغة العامة للحركة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** كانت الأشكال الثلاثة موجودة، كما سنرى، ولم تزل موجودة، ولكنها **لم تكن تخضع لقانون حركة واحد**؛ فقد كان لكُل شكل قانونه الخاص به الَّذي يحكم حركته على الصعيد الاجتماعي، دون أن يكون هناك مثل هذا الميل العام لإمكانية خضوع الأشكال المختلفة للرأسمال لقانون حركة واحد يعتمد على تركز الرأسمال، والتوسع النسبي في استخدام قوة العمل.

(٢)

فلنفترض الآن أن المجتمع في لحظة تاريخية معينة، وفي إطار ظروف اجتماعية محددة، يدخل العملية الإنتاجية على صعيد "الكُل" الاقتصادي بـ ٣٠ مليار وحدة من النقد (بالمعنى الواسع للنقود، بوصفها المظهر النقدي للقيمة) موزعة بين القطاعات الإنتاجية الثلاثة الَّتي يتركب منها الهيكل الاقتصادي (الزراعة، والصناعة، والتجارة) بواقع ١٠ مليارات وحدة لكُل قطاع ويتم توزيع هذه المليارات العشرة على النحو التالي: ٣ مليارات وحدة لشراء أدوات العمل، كالماكينات والآلات والمعدات، و٣ مليارات وحدة لشراء مواد العمل، مثل المواد الآولية والمواد الخام والمواد المساعدة، و٤ مليارات وحدة لشراء قوة العمل، وهكذا الأمر في كُل قطاع من قطاعات الهيكل، ومن ثم سيكون لدينا الأتي:

القطاع الزراعي: ٣ $^{\text{أدوات العمل}}$ + ٣ $^{\text{مواد العمل}}$ + ٤ $^{\text{قوة العمل}}$ = ١٠ مليار
القطاع الصناعي: ٣ $^{\text{أع}}$ + ٣ $^{\text{مع}}$ + ٤ $^{\text{قع}}$ = ١٠ مليار
القطاع التجاري: ٣ $^{\text{أع}}$ + ٣ $^{\text{مع}}$ + ٤ $^{\text{قع}}$ = ١٠ مليار

ولكن، لدينا هنا مشكلة. لقد بدأ المجتمع بـ ٣٠ مليار وحدة، وفي نهاية الفترة لم يزل لدينا نفس الـ ٣٠ مليار وحدة! فالمجتمع هنا لم يستفد من عملية الإنتاج على الإطلاق، فلم يحقق أيْ قطاع من قطاعات الرأسمال أيْ ربح، ومن ثم تجديد الإنتاج يُعد بلا فائدة، بل وربما خسر المجتمع طاقة إنتاجية وأهدر ثروة اجتماعية وموارد قومية مهمة، واقصى ما أمكن اجتماعياً تحقيقه في المثل أعلاه هو تداول الـ ٣٠ مليار وحدة بين أعضاء المجتمع منتجين ومستهلكين، بائعين ومشترين!

فمجموع الأجور ومقدارها ١٢ مليار وحدة سوف تذهب إلى القطاعات الثلاثة مرة أخرى في صورة تدفقات نقدية من قِبل العاملين في هذه القطاعات نتيجة عمليات الشراء للسلع والخدمات التي تُنتجها هذه القطاعات الثلاثة. كما سيقوم رأسماليو القطاع الصناعي بالشراء من بعضهم البعض للسلع الإنتاجية الَّتي يستخدمونها في الإنتاج مثل المعدات والآلات، والسلع الوسيطة مثل المواد الأولية والمواد المساعدة، في مرحلة أولى، ثم يَشترون في مرحلة ثانية السلع الأخرى الَّتي يورّدها لهم رأسماليو القطاع التجاري وتكون لازمة لعملية التصنيع، وفي المرحلة الثالثة نراهم يسددون الفائدة لرأسماليّ القطاع المالي عن النقود الَّتي اقترضوها منهم. ولن يَخرج رأسماليو القطاع الأخير عن الدائرة، إذ سوف يدفعون الأجور، ويعيدون ضخ النقود الَّتي حصلوا عليها من رأسماليّ القطاع الصناعي، ورأسماليّ القطاع التجاري، إلى نفس الدائرة مرة أخرى.

المجتمع إذاً لم يستفد أيْ شيء، كما ذكرنا. بل مثل هذه الطريقة قد تؤدي إلى إفقاره وليس نموه؛ فعدد السكان يتزايد وكمية السلع والخدمات والنقود والرأسمال واحدة! ولا يتم تحقيق أيْ أرباح! ومن ثم فلا فائدة تُرتجى من وراء تجديد الإنتاج الاجتماعي! وكما افترضنا أن المثل يخص اقتصَاد مجتمع ما، فيمكننا أن نَفترض أن المثل يَصدق على اقتصَاد العالم بأسره، فهو يبدأ السنة الإنتاجية بعدد معين من وحدات الرأسمال، وفي نهاية السنة يَجد بين يديه نفس العدد من الوحدات! فلا تجديد إنتاج، ولا أرباح،... إلخ، فكيف يمكن أن يتم حل هذه المشكلة على صعيد المجتمعات المحلية أو على الصعيد العالمي؟ أولاً، وقبل أن نفترض طريقة للإجابة، تتضمن إجابة، يتعين أن نتفق على أن الحل الَّذي يقول: أن المنتجين يبيعون السلعة بأغلى مما كلفهم إنتاجها[1]، يُعد حلاً خرافياً وليس له أيْ علاقة بالعِلم على الإطلاق؛ لأن الربح بهذا الشكل، أيْ بيع المنتَج بأغلى مما تكلف، يعني، في نهاية المطاف، أن هؤلاء الَّذين ربحوا اليوم، سوف يخسرون غداً! إذ سوف يفعل آخرون نفس الأمر، أيْ البيع بأغلى

---

(١) مِن الذين قالوا بهذه الفكرة، أيْ أن الرأسمالي يجني ربحه ببيع السلعة بأغلى من تكلفة إنتاجها، دستوت دي تراسي، في مؤلفه: **عناصر الايديولوجيا: الارادة وتصرفاتها** (باريس:١٨٢٦) حيث كتب:"لو سئلت كيف يَجني أصحاب المشاريع الصناعية هذه الأرباح الهائلة، لكانت إجابتي أنهم يحققون ذلك ببيع كل ما يقومون بإنتاجه بأغلى مما كلفهم إنتاجه...".

"One may ask me how these industrial capitalists can make such large profits and out of whom they can draw them. I reply that they do so by selling everything which they produce for more than it has cost to produce; and that they sell".

وقد قام ماركس، في المجلد الثاني من **رأس المال**، بالرد على هذه الفكرة وبيّن مدى فسادها، ولكننا نلاحظ أن رد ماركس ونقده للفكرة جاء متأخراً نسبياً، على الصعيد المنهجي في **رأس المال**، كما يمكننا ابداء ملاحظة أخرى تتعلق بالغموض الَّذي غلف ماركس به رده. ربما رغبة منه في عدم اختصار نظرياته في نظرية في النقود! وربما نتيجة عدم تيقن!

Marx, **Capital,** Vol II, op.cit p. 665.

مما كلفهم الإنتاج، من أجل استرداد ما سلبه منهم الأولون، وهكذا! إذ سوف تظل كمية النقود المتداولة ٣٠ مليار وحدة، وكُل طرف من أطراف المجتمع، طبقة. فئة. مؤسسة. هيئة. سوف يكون عليه أَن يَنتزع ما سبق أن إنتزعه منه الآخرون؛ بأن يبيع، سلعته، أو خدمته هو أيضا بأغلى مما كلفه إنتاجها. إذاً ما العمل؟ كيف يُنقِذ المجتمع، المحلي أو العالمي، نفسه؟ كيف يزيد السلع؟ ومن ثم: كيف يزيد كمية النقود المتداولة اجتماعياً على أساس إنتاجي حقيقي؟

على ما يبدو أنه يتعين من أجل تقديم طريقة للإجابة أن نعيد صياغة المثل كَيْ يكون على النحو التالي: نفترض أن المجتمع يدخل العملية الإنتاجية بـ ٣٠ مليار وحدة من النقد موزعة بين القطاعات الإنتاجية الثلاثة الَّتي يتركب منها الهيكل الاقتصادي، بواقع ١٠ مليارات وحدة لكُل قطاع ويتم توزيع هذه المليارات العشرة على النحو التالي: ٣ مليارات وحدة لشراء أدوات العمل، و٣ مليارات وحدة لشراء مواد العمل، و٤ مليارات وحدة لشراء قوة العمل، وهكذا الأمر في كُل قطاع مِن قطاعات الهيكل. وحينما يُفكر الرأسمالي فسيجد أنه لا يَستطيع أن يُغيّر مِن قيمة الآلات أو المواد. فهو يشتريها بقيمتها ويدفع بها إلى حقل الإنتاج دون أن تُغيّر من قيمتها. إذ سوف تَخرج الآلات والمعدات والمواد محاسبياً بنفس القيمة، الَّتي دخلت بها، في نهاية العملية الإنتاجية دون أن تُغيّر قيمتها (رأسمال ذو قيمة **ثابتة**) فماذا يَفعل الرأسمالي؟ الواقع أنه لا يوجد أمامه سوى النظر إلى هذه السلعة الَّتي يبيعها العُمال، وهي قوة العمل، فهي السلعة الوحيدة القادرة على تغيير قيمتها (رأسمال ذو قيمة **متغيرة**) فيدفع لها أجراً معيناً؛ ويتلقى منها عملاً يفوق هذا الأجر. أَيْ أن الرأسمالي في مثلنا، كما ذكرنا سلفاً، سوف يدفع لقوة العمل ٤ مليارات

وحدة ويتلقى مقابل هذه الـ ٤ مليارات وحدة عملاً يساوي ٨ مليارات وحدة؛ أيْ أَن الرأسمالي سيستأثر بـ ٤ مليارات وحدة قيمة زائدة. لقد تم حل المشكلة إذاً، وصار بالإمكان الآن تحقيق الأرباح. ومن ثم أمكن للمجتمع تجديد إنتاجه من السلع والخدمات من خلال العمل الإنساني، إذ لدينا الآن على صعيد الكُل الاجتماعي ما يلي:

القطاع الزراعي: ٣ $^{\text{أدوات العمل}}$ + ٣ $^{\text{مواد العمل}}$ + ٤ $^{\text{قوة العمل}}$ + ٤ $^{\text{قيمة زائدة}}$ = ١٤ مليار
القطاع الصناعي: ٣ $^{\text{أع}}$ + ٣ $^{\text{مع}}$ + ٤ $^{\text{قع}}$ + ٤ $^{\text{قز}}$ = ١٤ مليار
قطاع الخدمات: ٣ $^{\text{أع}}$ + ٣ $^{\text{مع}}$ + ٤ $^{\text{قع}}$ + ٤ $^{\text{قز}}$ = ١٤ مليار

ووفقاً لمثلنا أعلاه، زادت القيمة اجتماعياً، أيْ أنَّ المجتمع بدأ بـ ٣٠ مليار وحدة، وفي نهاية الفترة الإنتاجية صار لديه ٤٢ مليار وحدة. أيْ أنَّ المجتمع حقق ١٢ مليار وحدة كزيادة، ولقد قرر عِلم الاقتصاد السياسي صراحةً، أن هذه الزيادة هي نِتاج العمل الإنساني.(٢)

---

(٢) انظر، على سبيل المثال:

Richard Cantillon, **Essay on the Nature of Trade in General**, ed. and Trans Henry Higgs (London: Frank Cass and Co., Ltd 1959)"The Land is the Source or Matter from whence all Wealth is produced. The Labour of man is the Form which produces it: and Wealth in itself is nothing but the Maintenance, Conveniences', and Superfluities of Life. Land produces Herbage, Roots, Corn, Flax, Cotton, Hemp, Shrubs and Timber of several kinds, with divers sorts of Fruits, Bark, and Foliage like that of the Mulberry-tree for Silkworms; it supplies Mines and Minerals. To all this the Labour of man gives the form of Wealth "p.38. Adam Smith, **The Wealth of Nations**, op.cit."The greatest improvement in the productive powers of labour, and the greater part of the skill, dexterity, and Judgment with which it is any where directed, or applied, seem to have been the effects of the division of labour..."p.12. "The real value of all the different component parts of price, it must be observed, is measured by the quantity of labour which they can, each of them, purchase or command. Labour measures the value not only of that part of price which resolves itself into labour, but of that which resolves itself into rent, and of that which =

ولكن، الَّذي يجب أن ننشغل به، نحن أبناء الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، هو ما الاتجاه الَّذي سوف تسلكه هذه الوحدات الَّتي زادت على الصعيد الاجتماعي. أيْ: أين ستذهب الـ ١٢ مليار وحدة الزائدة الَّتي حققها العمل الاجتماعي؟ هل يُعاد ضخها في مسام نفس المجتمع المنتِج لها؟ أم تَتَسرب إلى خارج المجتمع من أجل شراء السلع والخدمات الَّتي تُنتج في الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي، وتتوقف عليها عملية تجديد الإنتاج الاجتماعي في الأجزاء المتخلفة؟

أولاً يَتعين أن نتَعرف إلى كيفية توزيع هذه الزيادة بداخل المجتمع المنتِج لها. فبعد أن تُبَاع السلعة سوف يتم توزيع حصيلة الأرباح على هيئة دخول للمشاركين في العملية الإنتاجية، فكما ذكرنا في الفصل الأول سوف يتم التوزيع إلى ربح (أيْ ثمن المخاطرة)، وريع (أيْ ثمن التخلي عن منفعة الأرض)، وفائدة (أيْ ثمن التخلي عن السيولة النقدية) إذ سوف يحصل الرأسماليون على الربح، والملاك العقاريون على الريع، والرأسماليون الماليون على الفائدة الَّتي أقرضوها للرأسماليين الصناعيين.

= resolves itself into profit..."p.195. "The manufacturer has his wages advanced to him by his master, he in reality, costs him no expense, the value of those wages being generally restored, together with a profit".p298. David Ricardo, **The Principles**, op.cit. "The value of a commodity, or the quantity of any other commodity for which it will exchange, depends on the relative quantity of labour which is necessary for its production, and not on the greater or less compensation which is paid for that labour".p.7.Thomas Robert Malthus, **Definitions in Political Economy**,op,cit.p.85."Land, labour, and capital The two original sources are land and labour; but the aid which labour receives from capital is applied so very early, and is so very necessary in the production of wealth, that it may be considered as a third source"p.29. Dugald Stewart **Lectures on Political Economy** (London: Macmillan &co, 1875) "Indeed, as Mr. "Hume in his Essay on commerce" has remarked, trade,artisanship,and manufactures, are nothing more than the public storehouses of labour"p.97.

نحن هنا نفترض، كما نفترض دوماً بغية الشرح، أن الأرض مستأجَرة، والرأسمال مقترَض. أما إذ لم تكن الأرض هكذا، أو الرأسمال كذلك، فسوف تذهب القيمة الزائدة بأكملها إلى الرأسمالي.

ولكن، أين الأجر؟ هل نقصد أن منتجي القيمة الزائدة لا يشاركون بسهمٍ فيها حين توزيعها؟ نعم نقصد ذلك، ولكن ما نقصده على هذا النحو لم يتضح إلا على يد كارل ماركس. فقد كان الكلاسيك يرون، كما ذكرنا في الفصل الثالث، أن القيمة الَّتي يضيفها العُمال إلى الناتج تنحل، بافتراض ضمني للاكتناز، إلى أجور وقيمة زائدة، ومن ثم يحصل العمال على الأجور، والرأسماليون على الربح. بيد أن ماركس أوضح، ووفقاً لتحليل ساكن، أن القيمة الزائدة لا يُعاد توزيعها على هيئة أجور وربح، إنما تنحل إلى ربح وفائدة وريع، إذ يُنتِج العامل مُعادل قيمة قوة عمله (الأجر) ولا يُشارك بحال أو بآخر في القيمة الزائدة الَّتي يستحوذ عليها الرأسماليون ومُلّاك الأراضي. اللهم إلا إذ ما أراد الرأسمالي زيادة عدد العمال لديه واستخدم جزء من القيمة الزائدة المتحققة في فترة إنتاجية سابقة من أجل اضافة عدد أكثر من العمال، وهذا كما نعرف لا يَحدث كُل يوم، بل الَّذي يَحدث كُل ساعة هو تقليص عدد هؤلاء العُمال! ومع ذلك، يكون من المتعيَّن الانشغال بتحليل العلاقة الجدلية بين الربح والأجر، في الحالة الَّتي يَحدث فيها تغيّر في قيمة قوة العمل أو القيمة الزائدة بفعل التغيّر في الإنتاجية أو التغير في التركيب العضوي للرأسمال.

(٣)

حسناً، عَلمنَا إذاً أن القيمة الزائدة المنتَجة اجتماعياً تذهب، للتبسيط، إلى الرأسمالي الصناعي. ويأخذ حُكم الرأسمالي الصناعي في

نموذجنا للتحليل مُلّاك العقارات والأراضي (الريع) و الرأسمالي المالي (الفائدة) فما هو إتجاه القيمة الزائدة، الّتي قد تتجسد في أحد تلك الصور بعد ذلك؟ من أجل تقديم طريقة إجابة، **تتضمن إجابة** تقصد، بوعي، تقديم فرضيات منهجية لاستكمال الاقتصاد السياسي، تحديداً بشأن كيفية تحديد القيمة الزائدة واتجاهها عقب التوزيع على الصعيد الاجتماعي، وكيفية المقارنة بين العمل البسيط والعمل المركب، فإنه يتعين أن يكون لدينا الوَعيْ بأربع ملاحظات جوهرية على النحو التالي:

أولاً: الطبيعة العِلمية لنظرية القيمة

ان نظرية القيمة هي نظرية تنتمي إلى النظريات الكمية في النقود[٣]، إذ لا يمكن فهمها إلا ابتداءً من الوَعيْ بأن لُب الفكرة المركزية في النظرية هي كم النقود، كمظهر نقدي للقيمة، على الصعيد الاجتماعي.

والنظرية بشكلها الحالي، كما يطرحها الاقتصاد السياسي الكلاسيكي وماركس، لا يمكن اعتبارها قادرة على تفسير أَيْ شيء سوى أن الرأسمالي يدفع للعامل جنيهاً مثلاً ويأخذ بدلاً منه عملاً يُساوي ٢، أو٣،... إلخ من الجنيهات. ولا تقول لنا النظرية على هذا النحو غير ذلك! بل ولا تخبرنا كيف ذلك؟ أو حتى لماذا ذلك؟

ولذلك، كان مِن اليَسير على الكثير، من أرباع المثقفين، نسف نظرية القيمة من أساسها بمجرد إشارتهم إلى مشاركة العُمال للرأسمالي في الأرباح السنوية! كما كان من اليَسير عليهم أيضاً إعلان انتصارهم المدوي على هؤلاء الّذين يعجزون عن الرد على السؤال الأتي: ولماذا تَفترضُون

(٣) قارن: Eric Roll, **History**, op, cit, p.294

أن الرأسمالي يَجني ربحه بالإقتطَاع من الأجور والمرتبات، ولا تفترضون، لأن هذا الواقع! ان الرأسمالي يَجني أرباحه ببيع إنتاجه بأغلى مما كلّفه إنتاجه؟ والواقع انه لا يمكن تقديم إجابة على هذا السؤال بمعزل عن النظرية الكمية في النقود الَّتي تدور في حقل الإنتاج والتداول والتوزيع على الصعيد الاجتماعي.

ثانياً: نقد تصور ماركس في ربح التاجر

إن القيمة الَّتي زادت، بفضل عرق الشغيلة، ليس حقل إنتاجها المصنع فحسب، كما تقول كراسات التعميم والموجزات الأولية ابتداءً من فهم قاصر لفكر الكلاسيك وماركس، الَّذين عاشوا في عصر الصناعة لا الخدمات، فلم يكن القطاع التجاري، بما يتضمنه من خدمات، بتلك الأهمية النسبية الَّتي يحتلها الآن (٦٤% من هيكل الاقتصاد العالمي). نقول إن القيمة الزائدة ليس حقل إنتاجها المصنع فقط إنما هي موجودة، كما ذكرنا سابقاً، في النظام الرأسمالي بأكمله، ليس في حقل الصناعة فقط، إنما كذلك في باقي القطاعات الَّتي يتركب منها الهيكل الاقتصادي، فلا فارق بين إنتاج القيمة الزائدة في مصنع لإنتاج الحديد والصلب، وبين إنتاجها في مكتب للمحاسبة يعمل فيه عشرات المحاسبين بأجر، فبعد أن يقوم هؤلاء المحاسبون بإنتاج معادل قيمة قوة عملهم، يقومون بإنتاج قيمة زائدة لرب عملهم، شأنهم في ذلك شأن عمال المصنع، فليس العامل، في المصنع، فقط هو الَّذي يُنتِج قيمة زائدة، وإنما يُنتِج المهني، كالطبيب، وغيره، أيضاً قيمة زائدة في المؤسسة الَّتي يعمل فيها بأجر، ويُقدم من خلالها الخدمة، وبالطبع في قطاع الزراعة أيضاً، بصفة خاصة بعد سيادة الميكنة، يُنتِج العامل الزراعي قيمة زائدة مثل العامل في قطاع الصناعة، وكالمهني في

قطاع الخدمات، ووفقاً لنفس القانون العام **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** وتلك هي القاعدة العامة في التنظيم الاجتماعي القائم على الرأسمال كظاهرة مهيمنة.

وعلى الرغم من أن ماركس كان يرى، ربما بتردد، ان إنتاج القيمة الزائدة يتم في حقل الإنتاج المادي كما يتم في حقل "الإنتاج غير المادي" ويضرب على ذلك مثلاً، في المجلد الأول من **رأس المال:**"وإذا ذكرنا مثالاً من خارج حقل الإنتاج المادي، لوجدنا أن المُعلم في المدرسة يُعد عاملاً منتِجاً حين ينهِك نفسه أثناء العمل من أجل إثراء مالك المدرسة بالإضافة إلى تعليم الأولاد. أما كون مالك المدرسة قد استثمر رأسماله في مدرسة للتعليم أم في مصنع لإنتاج المقانق، فذلك لا يُغيّر من الأمر شيئاً...".(٤)

أيّ أنَّ ماركس لديه الوعي بأن إنتاج القيمة الزائدة ليس بالمقصور على حقل الإنتاج المادي، أيْ الرأسمال الصناعي. إلا أنه وجد صعوبة، على ما بدا لي، حينما إنتقل، في المجلد الثالث، إلى مُنَاقشة الربح التجاري. وبصفة خاصة حين تسَاءل: كيف يُنتِج العمال في قطاع التجارة قيمة زائدة؟:"ما وضع العمال المأجورين الذين يستخدمهم الرأسمالي التجاري؟"(٥) إذ رأى ماركس، بشكل مرتبك، أن العمال في حقل الإنتاج غير المادي يُنتِجون قيمة زائدة، إنما"بشكل غير مباشر"! إذ بفضل عملهم، كما يقول، يحصل الرأسمالي التجاري، أيّ قطاع الخدمات، على القيمة الزائدة المنتَجة في حقل الإنتاج الصناعي، ويُقدم لذلك تفسيرين: الأول:"أن الرأسمال الصناعي يُنتِج القيمة الزائدة من خلال الاستيلاء مباشرة على عمل الآخرين غير مدفوع الأجر، أما الرأسمال التجاري فانه يستولي على جزء من القيمة الزائدة عن

(٤) Marx, **Capital**, Vol I, op.cit p. 65.

(٥) Marx, Vol III, op.cit p.565

طريق اجبار الرأسمال الصناعي على التنازل عن أحد أجزاء تلك القيمة له".(٦)

وهذا التفسير غير صحيح؛ لأن الرأسمال التجاري يدخل في حساب الرأسمال الاجتماعي الكُلي، بعد أن يفقد هويته أثناء الإنتاج، فكُتلة الرأسمال التجاري تنصهر فعلاً، ومن هنا تُشارك بنصيبها هي، في كُتلة الرأسمال الكُلي الَّذي يتم تداوله اجتماعياً في حقول الإنتاج والتبادل والتوزيع، ولا يَنبغي أن يضللنا تفاوت الدورانات واختلافها مِن نوع إلى آخر من الرساميل، إذ يَنحل الرأسمال الكُلّي إلى: رأسمال صناعي ورأسمال تجاري ورأسمال مالي. إنما بعد أن تفقد أنواع الرساميل هذه هويتها وتدخل برمتها في دورة الرأسمال الكُلي. ولكن حين توزيع الأرباح الكُلية على القطاعات (صناعي، تجاري، مالي) فإن كُل قطاع يحصل من الأرباح الإجمالية على كُتلة الأرباح الَّتي سبق أن تكونت بداخله هو، ومثلت أحد أجزاء الرأسمال الكُلّي، وفقاً لمثلنا التقليدي:

القطاع الزراعي: ٣ أدوات العمل + ٣ مواد العمل + ٤ قوة العمل + ٤ قيمة زائدة = ١٤ مليار
القطاع الصناعي: ٣ أع + ٣ مع + ٤ قع + ٤ قز = ١٤ مليار
القطاع التجاري: ٣ أع + ٣ مع + ٤ قع + ٤ قز = ١٤ مليار

ومن جهة أخرى من غير المفهوم ومن غير المبرر لماذا يتنازل الرأسمالي الصناعي عن أرباحه؟ وكيف يُجبر الرأسمالي التجاري صديقنا الرأسمالى الصناعي على هذا التنازل الدموي عن جزء من أرباحه؟ كان أولى بماركس حينما وجد قيمة زائدة تُنتَج في قطاع الخدمات أن يقول ان القيمة الزائدة هنا أنتِجَت طبقاً لنفس صيغة الحركة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** دون أن يُصور لنا معركة زائفة بين الرأسماليّين. ولكن يتعين أن يكون

(٦) Marx, op.cit p. 665

لدينا الوَعيْ بأن ماركس، ومن قبله الكلاسيك، لم يكن يشغلهم كثيراً، على أرض الواقع، قطاع الخدمات لعدم احتلاله، كما ذكرنا، مثل تلك الأهمية النسبية الَّتي يحتلها الآن مع النظام الرأسمالي العالمي المعاصر.

أما التفسير الثاني الَّذي يُقدمه ماركس، فهو:"أن العامل في قطاع الخدمات لا يَخلق قيمة زائدة مباشرة، بل يُساعد في تقليص تكاليف تحقيق القيمة الزائدة"[٧]. وهذا التفسير، وبما يكتنفه من ارتباك وغموض، أيضاً غير صحيح؛ فالعامل، في قطاع الخدمات، لا يُقلِص ولا يزيد من تكاليف تحقيق القيمة الزائدة، المنتَجة في قطاع الصناعة، وإنما يخلقها في قطاعه هو، وفقاً لصيغة الحركة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)**، ولا شأن له بقيمة زائدة منتَجة في قطاع آخر؛ إلا بقدر كَون ما يُنتِجَه من قيمة زائدة هو أحد الأجزاء الَّتي تتألف منها القيمة الزائدة الإجمالية الَّتي تُنتجها الأشكال الثلاثة الَّتي يتخذها الرأسمال.

إنني أرى أن التشوش في التفسيرين إنما يَرجع إلى الطريقة الَّتي تعامل بها ماركس مع الرأسمال التجاري، ومن ثم الربح التجاري؛ فبعد أن حلل ماركس القوانين الموضوعية الَّتي تحكم عمل النظام الرأسمالي، الصناعي تحديداً، أيْ **(ن – و أ + ق ع - س – Δ ن)** وجد لزاماً عليه أن يُحلل رأسمالاً، رآه هو، أيْ ماركس، له طبيعة مختلفة، وهذا غير صحيح، وهو الرأسمال التجاري الَّذي يَتَجسد في الصيغة **(ن — س — Δ ن)**

ولعل أبرز ما يمكننا ملاحظته في تحليل ماركس هو أنه لايستقر في هذا التحليل؛ إذ نَجده مرة يُناقش ربح التاجر ابتداءً من الشكل الأولي

(٧) Marx, op.cit p. 569.

للرأسمال التجاري، أيْ في صورته التقليدية المشهورة **(ن — س — Δ ن)** ومرة أخرى يُناقش هذا الربح في ظل وجود شغيلة في القطاع التجاري! أيْ إنتاج الخدمة من خلال الصيغة العامة للرأسمال الَّتي أخضعت الأشكال الأخرى لهيمنتها **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** ولكنه لا يَصل في الأولى إلى أنَّ رأسمال التاجر يدخل بنصيب في دورة الرأسمال الكُلّي، ومِن هنا يعود إليه الربح وفقاً لمعدلات الربح الوسطي السائد اجتماعياً. كما لا يَصل في الثانية إلى أن الربح قد أُنتِج وفقاً للصيغة العامة/ قانون الحركة **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)**[٨].

---

(٨) المثل الَّذي يضربه ماركس هو:"لنفترض ان الرأسمال الصناعي الكُلّي، خلال سنة، ٧٢٠ رأسمال ثابت + ١٨٠ رأسمال متغير = ٩٠٠، والقيمة الزائدة١٠٠%. ومن ثم فإن الناتج = ٧٢٠ + ١٨٠ + ١٨٠. فإذا رمزنا لهذا الناتج أو هذا الرأسمال السلعي الَّذي تم إنتاجه بالرمز(ب)، فإن ثمن الإنتاج = ١٠٨٠، ومُعدل الربح = ٢٠%". ثم يدخل ماركس، خلسة، ١٠٠ جنيه رأسمال تجاري، ويجعل له حصة مماثلة في الربح بما يتناسب مع حجمه، على الرغم من أن ماركس صرح، بوضوح، ان رأسمال التاجر لا يُسهم في إنتاج القيمة الزائدة، ولكنه يعود فيقول:"ان رأسمال التاجر يُسهم، كمحدد، في تكوين معدل الربح العام". وذلك حينما يفترض إضافة ١٠٠ جنيه، رأسمال تاجر، إلى الرأسمال الصناعي البالغ ٩٠٠ جنيه، ومن ثم تبلغ حصة الرأسمال التجاري ١ من ١٠ من القيمة الزائدة البلغة ١٨٠، فيحصل على مُعدل ربح مقداره ١٨%. والواقع أن الربح المتعين تقسيمه على بقية الـ ٩ من ١٠ من الرأسمال الكُلّي = ١٦٢ فقط، وعند تقسيمه على رأسمال ٩٠٠= ١٨%. وبذلك فإن الثمن الَّذي يبيع (ب) به مالكو الرأسمال الصناعي البالغ ٩٠٠ إلى تجار السلع = ٧٢٠ ث + ١٨٠ م + ١٦٢ ق ز = ١٠٦٢. ولو أضاف التاجر الربح المتوسط البالغ ١٨ إلى رأسماله البالغ ١٠٠، فإنه يبيع السلع بمقدار يساوي ١٠٦٢ + ١٨ = ١٠٨٠ أيّ يبيعها بموجب ثمن إنتاجها". المصدر نفسه، ص ٥٨٤. والسؤال هنا: ألم يُسهم رأسمال التاجر في عملية إنتاج القيمة الزائدة، حينما فقد هويته كرأسمال تجاري، واندمج مع الرأسمال الصناعي؟ وأصبح من ثم أحد أجزاء الرأسمال الكُلّي؟ إذ ما كانت الإجابة: نعم ساهم رأسمال التاجر في خلق القيمة الزائدة، فإن تقسيم الرأسمال، حين حساب مُعدل الربح الوسطي، إلى رأسمال إنتاجي كُلّي، ورأسمال تجاري، يكون عديم المعنى. فالقانون هو أن الرساميل النشطة في عملية التداول بصورة مستقلة، لا بد من أن تدر متوسط ربح سنوي شأنه شأن الرساميل الناشطة في مختلف فروع الإنتاج. فإذ ما در رأسمال تاجر متوسط ربح أعلى من رأسمال صناعي، فإن جزءً من الرأسمال الصناعي يتحول إلى رأسمال تاجر. وإذا در رأسمال التاجر متوسط ربح أدنى، جرت عملية معاكسة، فإن جزءً من رأسمال التاجر يتحول إلى رأسمال صناعي. أيْ أن المستويات العامة لمعدلات الربح الوسطي تكون تقريباً واحدة أياًكان نوع الرأسمال الموظف.

ان الارتباك يزول حين يُعاد النظر إلى الرأسمال التجاري كأحد أجزاء الرأسمال الكُلّي على الصعيد الاجتماعي، والَّذي يستحوذ على نصيبه من الربح وفقاً لمعدلات الربح الوسطي، من جهة، وحين ننشغل بحقل الرأسمال التجاري، بوصفه أعلاه، ونُحلل كيف تُنتَج القيمة الزائدة بداخله هو كحقل مُستَقل في نفس الوقت وفقاً للصيغة العامة/ قانون الحركة **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** مِن جهةٍ أخرى.

على كُل حال ليس من المناسب هنا إلا أن نذكر أننا نمد، بدون إلتواء، القوانين الموضوعية الَّتي تحكم عمل التنظيم الاقتصَادي الرأسمالي الصناعي، على القطاع التجاري. وكما يمكن استخلاص قيمة زائدة من عامل المصنع، فيمكن بالمثل استخلاص قيمة زائدة من الطبيب الَّذي يعمل في أحد المستشفيات مأجوراً طالما كنا بصدد الصيغة العامة للحركة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)**.

ثالثاً: نقد تصور ماركس في سعر الفائدة

علمنا من الاقتصاد السياسي ان مُعدل الربح الوَسطي يتكون مِن مجموع القيم الزائدة المنتَجة في كُلّ الفروع ÷ مجموع كُلّ الرساميل. وكما افترضنا سلفاً أن هناك ٥ مشروعات، رأسمال كُلّ مشروع = ١٠٠ جنيه. وكمية النقود (مجموع القيم الزائدة) الَّتي تُوزع كأرباح على المشروعات الخمسة = ١١٠ جنيهاً، فإن نصيب كُلّ مشروع من الربح سيكون ٢٢ جنيهاً. أيْ أنَّ كُلّ ١٠٠ جنيه على الصعيد الاجتماعي تُدر ربحاً قدره ٢٢ جنيهاً. وعلى الرغم من أن ماركس هو الَّذي توصل إلى ثمن الإنتاج ومُعدل الربح الوَسطي، إلا أنه لم يُساير منهجه وانحرف، دون سبب إلا ما سبق وذكرناه بصدد عدم أهمية قطاع الخدمات في نموذج

التحليل عنده ولذلك لم يتمكن، ومن قبله الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، من رؤية **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** في قطاع الخدمات، ، كتب ماركس: "لنفترض أن مُعدل الربح الوسطي يبلغ ٢٠%. وان آلة قيمتها ١٠٠ جنيه تدر عند استعمالها كرأسمال إنتاجي، ربحاً مقداره ٢٠ جنيهاً في ظل شروط متوسطة وعند مستوى متوسط من المهارة والنشاط الهادف. وعليه فإن انساناً يملك ١٠٠ جنيه، انما يمتلك بين يديه القدرة على أن يُحول ١٠٠ جنيه إلى ١٢٠ جنيهاً، أَيْ أن يُنتج ربحاً قدره ٢٠ جنيهاً... ولو أعطى هذا الإنسان هذه المائة جنيه إلى إنسان آخر مدة عام كَيْ يستخدمها فعلاً كرأسمال، فإنه يُسلفه القدرة على إنتاج ربح قدره ٢٠ جنيهاً... وإذ ما دفع هذا الأخير، في نهاية العام ٥ جنيهات على سبيل المثال، إلى مالك المئة جنيه، أيْ جزء من الربح الَّذي تم إنتاجه... إن هذا الجزء من الربح الَّذي يدفعه هذا لمالك النقد هو ما يدعى الفائدة، وهي ليست أكثر من اسم خاص، عنوان خاص لجزء من الربح يتعين للرأسمال النشط أن يدفعه إلى مالك الرأسمال بدلاً من أن يضعه في جيبه".[٩]

يمكننا هنا أن نلاحظ أن المثال الَّذي يضربه ماركس هو مثال جد سيء، فلماذا أُسلّف غيري "قدرة/ قوة" إنتاج ٢٠ جنيهاً، وأكتفي أنا بربح قدره ٥ جنيهات؟ فطالما ١٠٠ جنيهاً تُدر عليّ ٢٠ جنيهاً، فلمَ أُسلمها إلى آخر يجني بها ربحاً قدره ١٥ جنيهاً ويُعطيني ٥ جنيهات فقط؟ الإجابة تكمن في أن ماركس لا يرى بوضوح إمكانية إنتاج قيمة زائدة في قطاع التجارة بوجه عام. وكان يتعين على ماركس أنّ يدرس الفائدة (دخل الرأسمالي المالي) بنفس الطريقة التي درس بها الربح (دخل الرأسمالي الصناعي) وحينئذ سيصل إلى:

- تتكون الفائدة في حقل الرأسمال المالي على أساس ثمن الإنتاج المتحقق

---

(٩) Marx, op.cit p. 569.

في هذا الحقل نفسه، وليس خارجه. ووفقاً لنفس القانون.

- لا تتساوى مُعدلات الأرباح الوَسطية بين فروع القطاع الإنتاجي الواحد فقط (الحديد والصلب مثلاً) وإنما أيضاً بين القطاعات الإنتاجية الثلاثة (صناعة، وزراعة، وتجارة) فمائة جنيه في أي قطاع تدر ربحاً قدره ٣٠ جنيهاً، ولا مبرر لبقاء الرأسمال في قطاع يدر الإنتاج فيه أقل من هذه الـ ٣٠ جنيهاً. فإذ ما افترضنا أن كُل قطاع من القطاعات الثلاثة يستخدم ١٠٠ جنيهاً كرأسمال (ثابت، ومتغير) وتختلف مُعدلات القيمة الزائدة في كُل قطاع عن الآخر، فسوف تقوم حركة المد والجزر الَّتي تتخذها الرساميل بتعديل معدلات الربح الفردية (٢٠%+٣٠%+٤٠%) كَيْ تتوافق مع مُعدل ربح وسطي قدره ٣٠%.

- القاعدة هي أن يَتساوى مُعدل ربح (دخل) الرأسمالي المالي مع مُعدل ربح (دخل) الرأسمالي الصناعي. وحينما يَحدث أيْ تغيّر، أيْ ارتفاع دخل الأول (الفائدة) وانخفاض دخل الثاني (الربح) فسوف يحدث تدفق نحو القطاع الأول من قِبل القطاع الثاني. وبالعكس سوف يتجه الرأسمالي المالي صوب حقل الصناعة في الحالة الَّتي يَهبط فيها مُعدل ربحه ويرتفع مُعدل ربح الرأسمالي الصناعي.

- الَّذي يُفسر وجود القطاع المالي بجوار القطاع الصناعي، وعدم اختفاء احدهما وبقاء الآخر، هو مساواة مُعدلات الربح الوسطية بين القطاعات المختَلفة.

- في ظل الصراع الجدلي بين الربح والفائدة على الصعيد الاجتماعي، فإن الَّذي يُفسِر استمرار عملية اقتراض الرأسمال الصناعي من الرأسمال المالي،

هو أنَّ سعر الفائدة يُحدد عادةً، من قِبل السلطات النقدية، ممثلة عادة في البنوك المركزية، في الدولة، بأقل (نسبياً) مِن مُعدلات الربح الوسطية السائدة، بغرض تدعيم الاستثمار الصناعي، من جهة، وقيام المؤسسات النقدية نفسها بمنح الرأسمالي الصناعي، وربما التجاري كذلك، بعض التسهيلات (الزائفة) كمد آجال السداد أو التقسيط أو تخفيض نِسبي للفائدة المركبة مثلاً، بما يؤثر بشكل إيجابي (ظاهرياً) في دورة الرأسمال الصناعي، من جهة أخرى. والواقع أن الرأسمالي المالي، كما التجاري، لا يقنع في الغالب بمعدل ربح أقل من معدل الربح الَّذي يحصل عليه الرأسمال الآخر الموظَف في أيْ قطاع آخر في الهيكل. فالقانون، كما نعلم، هو أن الرساميل الناشطة في عملية التداول بصورة مستقلة، لا بد من أن تُدر متوسط ربح سنوي شأنه شأن الرساميل الناشطة في مختلف فروع الإنتاج. وفي الغالب ما يَعتمد الرأسمالي المالي على الفائدة المركبة الَّتي يحصل عليها، فهو يُعلِن أنّ سعر الفائدة ٩% مثلاً[١٠]، ولكن الواقع أنه يحصل في بعض الأحوال، وهي كثيرة في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي، على أضعاف أصل الدين!

القطاع	الرأسمال	القيمة الزائدة	مُعدل الربح الوَسطي (%)
مصرف ١	١٠٠	١٨	٢٢
مصرف ٢	١٠٠	٣٢	٢٢
مصرف ٣	١٠٠	٣٨	٢٢
مصرف ٤	١٠٠	١٧	٢٢
مصرف ٥	١٠٠	٥	٢٢

- مجموع القيمة الزائدة المنتجة في كُلّ المصارف =١٨+٣٢+٣٨+١٧+٥= ١١٠ وحدة.

-مجموع الرساميل الموظفة في كُلّ المصارف= ١٠٠+١٠٠+١٠٠+١٠٠+١٠٠= ٥٠٠ وحدة.

- مُعدل الربح الوَسطي= مجموع القيمة الزائدة ÷ مجموع الرساميل، أيْ: ١١٠÷٥٠٠= ٢٢%.

القطاع	الجزء المستهلك من الرأسمال الثابت	الرأسمال المتغير	مُعدل القيمة الزائدة (١٠٠%)	ثمن التكلفة	مُعدل الربح الوَسطي	ثمن الإنتاج
زراعي	٥٠	٢٠	٢٠	٧٠	٣٠	١٠٠
صناعي	٥١	٣٠	٣٠	٨١	٣٠	١١١
تجاري	٥١	٤٠	٤٠	٩١	٣٠	١٢١

- مجموع القيمة الزائدة المنتَجة في كُلّ القطاعات =٢٠+٣٠+٤٠= ٩٠ وحدة.
- مجموع الرساميل الموظَفة في كُلّ القطاعات= ١٠٠+١٠٠+١٠٠= ٣٠٠ وحدة.
- مُعدل الربح الوَسطي= مجموع القيمة الزائدة ÷ مجموع الرساميل، أيْ: ٩٠÷٣٠٠= ٣٠%.

رابعاً: القيمة الزائدة لا تنحل إلا إلى ربح

وفقاً لنظرية ثمن الإنتاج الَّتي توصل إليها ماركس يمكننا أنّ نُعيد النظر في انقسام القيمة الَّتي يخلقها العمل. فهي لا تنحل إلى أجور وأرباح وريع، كما تصور الكلاسيك وفقاً للظرف التاريخي، ولا تنحل، بعبارة أدق لم تعد تنحل، في الوقت الراهن، إلى ربح وفائدة وريع، كما تصور ماركس، إنما صارت القاعدة العامة أن القيمة الزائدة مع نمط الإنتاج الرأسمالي لا تنحل إلا إلى ربح في القطاع الَّذي تُنتَج بداخله؛ فهي حين تُنتَج في حقل الرأسمال الصناعي أو التجاري تكون دخلاً في صورة ربح. وحينما تُنتَج في حقل الرأسمال المالي تكون دخلاً في صورة فائدة.

(١٠) لأن كتابنا ينشغل بـ "الاقتصاد السياسي"، فلن نَهتم بمناقشة النظريات الَّتي نشأت عقب تهميش عِلم الاقتصاد السياسي وهجره من قِبل المؤسسة الرسمية بما تشتمل عليه من مدارس ومعاهد وجامعات. وبصفة خاصة وأنَّ جُل هذه النظريات والتصورات، مثل نظرية كينز في سعر الفائدة، تبدأ وتنتهي حيث السوق. السوق الَّذي لا يمكنه إلا تفسير تأرجحات الأثمان، بما فيها الفائدة كثمن التخلي عن السيولة النقدية، دون بلوغ ضفاف تفسير موضوعي لثمن الإنتاج.

فوفقاً لمثلنا التقليدي يَستقل كُلّ قطاع بإنتاج القيمة الزائدة بداخله طبقاً لثمن الإنتاج معتداً بمُعدل الربح الوسطي الناتج عن قسمة مجموع القيم الزائدة المنتَجة في كُلّ فروع القطاع على مجموع كُلّ الرساميل في نفس القطاع، وحين ارتفاع أو انخفاض هذه المعدلات، بين القطاعات، تأخذ حركة الرساميل في المد والجزر بما يتوافق مع مُعدّل ربح وَسطي يسود القطاعات الثلاثة الَّتي يتكون منها الهيكل الاقتصادي للمجتمع. ابتداءً من هذا الوَعيْ، المصاحِب للوَعي بالفارق بين القيمة الزائدة والربح، يُصبح على سبيل الاستثناء انقسام الربح إلى فائدة أو ريع. أيْ يُصبح على سبيل الاستثناء رؤية الرأسمالي المالي، أو غيره في باقي قِطاعات الهيكل، مكتفياً بمعدل ربح أقل من مُعدّل الربح الَّذي يحصل عليه الرأسمالي الصناعي أو الرأسمالي التجاري، دون أنّ يَتدفق صوب هذين القطاعين من أجل جَنيْ نفس معدّل الربح. أما القاعدة العامة فهي تَساوي مُعدَّلات الربح الوَسطية بين القطاعات الثلاثة.

ومن ثم لا تنّحل القيمة الزائدة المنتَجة في كُل قطاع، بعد خصم الضرائب الحكومية، إلا إلى دخل، أيْ ربح، للرأسمالي المستثمِر في هذا القطاع. ولن يكون ذلك إلا نتيجة منطقية لهيمنة أحد أشكال الرأسمال على الأشكال الأخرى. هيمنة صيغة الحركة **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** على صيغتَيْ الحركة **(ن – س – Δ ن)** و **(ن – ن – Δ ن)**.

وتلك الهيمنة، كظاهرة، ليست، وببساطة، سوى الرأسمالية. بل هي التحديد الدقيق للرأسمالية، أَيْ **النظام الاجتماعي المبني على الرأسمال** كظاهرة. انها اللحظة التاريخية الَّتي شهدت هيمنة شكل معين من الرأسمال على الأشكال الأخرى.

ولذا يكون من الطبيعي خضوع الرأسمال التجاري والمالي لنفس الصيغة المهيمنة على الصعيد الاجتماعي **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** وهو ما يستتبع الخضوع أيضاً للقوانين الداخلية الحاكمة للحركة بداخل نفس الصيغة.

(٤)

والآن، من المهم معرفة كيف تتحدد القيمة الزائدة في القطاعات الثلاثة. القيمة الزائدة الَّتي يتوقف عليها تحديد ثمن الإنتاج ومُعدل الربح الوسطي. محاولتنا التعرف إلى محددات القيمة الزائدة، في ضوء ما تحقق لنا من وَعيْ بشأن الإطار العام الَّذي يتعين أن تُطرَح من خلاله النظرية، يجعلنا مباشرة أمام أول مهمة في طريق استكمال الاقتصاد السياسي وهي المتعلقة بمحددات النظرية الَّتي تُعد مركز اهتمام عِلمنا. فلننتقل الآن إلى الفصل الثامن للتعرف إلى محددات القيمة الزائدة

الفصل الثامن
القيمة الزائدة الكُلّية[١]

(١)

القانون الَّذي وضعه ريكاردو، واعتد به ماركس، بعد إعادة صياغته، نصه كالآتي:"إن القيمة الزائدة وقيمة قوة العمل تتغيران في اتجاهين متعاكسين. فتغيّر قوة العمل المنتَجة، أيْ ارتفاعها أو انخفاضها، يولّد تغيراً معاكساً له في قيمة قوة العمل، وتغيراً طَردياً في القيمة الزائدة. إن القيمة المنتجة من جديد في يوم عمل مؤلف من ١٢ ساعة، هي مقدار ثابت، وليكن ٦ جنيهات مثلاً. إن هذا المقدار الثابت يُساوي مقدار القيمة الزائدة زائداً قيمة قوة العمل، والقيمة الأخيرة يعوض عنها العامل بما يُعادلها... فقيمة قوة العمل لا يمكن أنّ ترتفع من ٣ جنيهات إلى ٤ جنيهات، ما لم تنخفض القيمة الزائدة من ٣ جنيهات إلى جنيهين، وبالعكس لا يمكن للقيمة الزائدة أن ترتفع من ٣ جنيهات إلى ٤ جنيهات دون أن تنخفض قيمة قوة العمل من ٣ جنيهات إلى جنيهين. وبالتالي ففي ظل هذه الشروط لا يمكن أن يطرأ تبدل متزامن على مقداريهما النسبيين، إن ارتفاع إنتاجية العمل يولد هبوطاً في قيمة قوة العمل وارتفاعاً في القيمة الزائدة، في حين أن انخفاض هذه الإنتاجية يولد، بالعكس، ارتفاعاً في قيمة قوة العمل، وهبوطاً في القيمة الزائدة".[٢]

وفقاً للنص المذكور، فإن القيمة الزائدة (التي يَستأثر بها الرأسمالي) تَتَناقض مع قيمة قوة العمل (وهي القيمة التي يحصل عليها العمل المأجور) فحينما ترتفع قيمة قوة العمل لابد أن يُصاحب ذلك انخفاضاً في القيمة الزائدة، وبالعكس. ووفقاً للنص كذلك، وفي ظِل نفس الظروف، فإن

---

(١) نقصد هنا بالقيمة الزائدة الكلية مفهوماً مختلفاً عن ما يقصده ماركس في **رأس المال**، إذ يَقصد ماركس بالقيمة الزائدة الكُلية مجموع القيمة الزائدة في كُل قطاعات الصناعة، أو في كُل فروع قطاع ما، الحديد والصلب مثلاً.

(٢) K.Marx, **Capital,** op.cit p.65

حلول الفن الإنتاجي الجديد مِن شأنه الارتفاع في القيمة الزائدة والانخفاض في قيمة قوة العمل، فإنّ هذه الإنتاجية لا يمكن زيادتها إلا من خلال فن إنتاجي جديد يُمكن من إنتاج نفس الكمية من السلع في عدد ساعات أقل. وحين يحل هذا الفن الإنتاجي الجديد يستصحب معه، في جميع الأحوال، عدة فرضيات تتناقض فيما بينها على النحو التالي:

أولاً: ارتفاع إنتاجية العمل ← انخفاض في قيمة قوة العمل ← ارتفاع في القيمة الزائدة.
ثانياً: انخفاض إنتاجية العمل ← ارتفاع في قيمة قوة العمل ← انخفاض في القيمة الزائدة.

أولاً: ارتفاع إنتاجية العمل: والارتفاع هنا نتيجة استخدام فن إنتاجي جديد، بحيث تخرج إلى السوق الكمية المنتَجة ذاتها من السلع في عدد ساعات أقل، وهو الأمر الَّذي يؤدي إلى ارتفاع في القيمة الزائدة (الَّتي يتحصل عليها الرأسمال) ومن الناحية الأخرى يؤدي هذا الارتفاع في إنتاجية العمل إلى تقليص في قيمة قوة العمل، فلا يتحصل العامل على ما كان يحصل عليه قبل استحداث الفن الإنتاجي الجديد. وإنما أقل من ذلك بالنسبة لقيمة السلع الَّتي صار يُنتجها، وقيمة السلع الَّتي يمكنه الحصول عليها.

فإن افترضنا أن القيمة المنتَجة، الَّتي تساوي ٦ جنيهات، هي قيمة سلع منتَجة في يوم عمل مكوَّن من ١٢ ساعة، فإن الجنيهات تلك هي محل الارتفاع ومحل الانخفاض كذلك، لأنها تعوض عن القيمة الزائدة وقيمة قوة العمل. أيْ أنَّ القيمة المنتَجة هنا تساوي "القيمة الزائدة بالإضافة إلى قيمة قوة العمل". ولأن القيمة المنتَجة ثابتة ومحددة بالجنيهات الستة المذكورة، فحين ترتفع القيمة الزائدة كَيْ تُصبح ٤ جنيهات، مثلاً، يتعين، وبصورة مباشرة، تقلص قيمة قوة العمل إلى جنيهين اثنين.

ثانياً: انخفاض إنتاجية العمل: وحينما تنخفض الإنتاجية، يحدث انخفاض مماثل في القيمة الزائدة، وبالتالي ترتفع معدلات قيمة قوة العمل. فالرأسمالي لم يعد يتحصل على ما كان يحصل عليه قبل انخفاض الإنتاجية، وإنما يحصل على دون ذلك؛ فإن افترضنا، طبقاً لنفس المثال أعلاه، ان قيمة قوة العمل قد ارتفعت من ٣ جنيهات إلى ٤ جنيهات نتيجة انخفاض الإنتاجية، فإنَّ ذلك الارتفاع يَستصحب الانخفاض المباشر في القيمة الزائدة من ٣ جنيهات إلى جنيهين اثنين[٣].

(٢)

هذا هو القانون الَّذي وضعه ريكاردو، وعدَّله ماركس، وهو قانون يَنتمي إلى الجدلية بامتياز. بيد أنَّ ثمة ملاحظات بشأنه، بعد أن أعاد ماركس صوغه، وتتبدى في الآتي:

- وفقاً للقانون يؤدي الارتفاع في إنتاجية العمل إلى تغيّر في أمرين: أولهما: قيمة قوة العمل، أَيْ قيمة وسائل المعيشة الَّتي يستهلكها العامل من أجل تجديد إنتاج نفسه. وهي بمثابة حد الكفاف، وثانيهما: القيمة الزائدة،

(٣) "عند صياغة ريكاردو لهذا القانون، اغفل ظرفاً واحداً، وهو: رغم ان حدوث تغير في مقدار القيمة الزائدة أو العمل الزائد، يؤدي إلى تغير عكسي في مقدار قيمة قوة العمل، أو مقدار العمل الضروري، فهذا لا يعني اطلاقاً انهما يتغيران بنفس النسبة. حقاً انهما يرتفعان أو ينخفضان، بنفس المقدار، إلا ان نسبة ارتفاع أو انخفاض أيٍ من الجزئين اللَّذين تتكون منهما القيمة المنتَجة من جديد أو يوم العمل تتوقف على التقسيم الأصلي قبل حدوث التغيّر في قوة العمل المنتجة. فلو أن قيمة قوة العمل تساوي ٤ جنيهات، أو أن وقت العمل الضروري يساوي ٨ ساعات، والقيمة الزائدة تساوي جنيهين أو العمل العمل الزائد يساوي ٤ ساعات؛ وان هذه القيمة انخفضت إلى ٣ جنيهات، أو انخفض العمل الضروري إلى ٦ ساعات، أثر ارتفاع قوة العمل المنتجة، فإن القيمة الزائدة سترتفع إلى ٣ جنيهات، أو يرتفع العمل الزائد إلى ٦ ساعات. إن نفس المقدار وهو جنيه واحد أو ساعتان، يُضاف في الحالة الأولى ويُطرح في الحالة الثانية. إلا ان التغيّر النسبي في المقدار يختلف في كلا الطرفين". Marx, op.cit p.67.

أَيْ قوة العمل غير مدفوعة الأجر. ولكن هذا التغيّر لا يَحدث في اتجاهٍ واحد، إذ حين ترتفع قيمة قوة العمل، تنخفض القيمة الزائدة، والعكس؛ فحين تنخفض قيمة قوة العمل، يطرأ على القيمة الزائدة الارتفاع. والمحوري في هذا التغير بالارتفاع وبالانخفاض هو إنتاجية العمل الَّتي تُزيد القيمة الزائدة حين ترتفع، وتُقلصها حين تنخفض.

والقانون من تلك الوجهة لا يعدو أن يكون سوى أحد نماذج التغيّر الممكن حصوله مع نمط الإنتاج الرأسمالي، من دون أنّ يَصل إلى مرتبة التطوير الجدلي للنظام نفسه.

- ووفقاً للقانون كذلك، لا وجود لأَيْ حديث عن باقي ساعات يوم العمل؛ فكُل ما يُفتَرض هو أن سلعة ما كانت تُنتَج في عدد معيّن من الساعات، فظهر فن إنتاجي جديد جعلها تُنتَج في عدد ساعات أقل، ولكن لم نعرف مصير باقي ساعات يوم العمل. فالافتراض هو ما يَلي: إن يوم عمل مكوناً من ١٢ ساعة يُنتِج من السلع ما قيمته ٦ جنيهات، فلمّا ظهر الفن الإنتاجي الجديد، الَّذي زاد من إنتاجية العمل، جعل الـ ٦ جنيهات تلك تُنتَج في ٦ ساعات. فما هو مصير باقي ساعات يوم العمل المؤلَف من ١٢ ساعة؟ أَيْ ما مصير الـ ٦ ساعات المتبقية من اليوم؟ الإجابة عند نمط الإنتاج الرأسمالي، إذ يقول إن الـ ٦ ساعات المتبقية هي ساعات عمل غير مدفوعة الأجر، ومن ثم تُضاف إلى جانب القيمة الزائدة، فنكون أمام النسب الآتية:

١٢ ساعة = ٦ جنيهات = ٣ قيمة قوة عمل + ٣ قيمة زائدة.
٦ ساعة = ٦ جنيهات = ٣ قيمة قوة عمل + ٣ قيمة زائدة + ٦ قيمة زائدة إضافية نتيجة استخدام الفن الإنتاجي الجديد.

وفي حين أن الإنتاجية تنخفض، أَيْ أَنَّ الكمية نفسها من السلع تُنتَج بكمية عمل أكثر، فسنكون أمام النسب التالية:

١٢ ساعة = ٦ جنيهات = ٣ قيمة قوة عمل + ٣ قيمة زائدة.
١٢ساعة = ٦ جنيهات = ٤ قيمة قوة عمل + ٢ قيمة زائدة .

(٣)

وسأفترض، على غير اعتقادي، أن التغيّر النسبي بين قيمة قوة العمل والقيمة الزائدة، المؤسَس على التغيّر النسبي في قيمة قوة العمل أمام القيمة الزائدة، هو ما يُمثل الجدلية الَّتي انطلق منها ماركس بعد تعديله للقانون الَّذي وضعه ريكاردو. ولكن ما هو مدى اتساق هذا القانون مع مجمل البناء النظري لماركس؟ وعلى وجه التحديد ما هو مدى اتساق القانون المذكور مع قانون"ميل معدل الربح إلى الانخفاض" الَّذي قال به ماركس وصار من ركائز البناء النظري الماركسي؟ وبالتبع صار من المباديء الرئيسية في علم الاقتصاد السياسي، إذ يقف هذا القانون بالذات في تضاد وتناقض مع القانون الريكاردي المعدّل على يد ماركس، إذ يقول هذا القانون أن: مُعدل الربح يميل إلى الانخفاض كُلّما تم استحداث الفن الإنتاجي الجديد بإحلال الآلة، أَيْ تغير في الرأسمال الثابت، محل عنصر العمل.

علمنا حتى الآن أن استحداث الفن الإنتاجي الجديد يؤدي إلى ارتفاع في القيمة الزائدة، في الوقت الذي تنخفض قيمة قوة العمل. وقد افترضنا أن هذا الفن الإنتاجي الجديد يتمثل في إحلال الآلة، الأمر الَّذي كان مِن شأنه تَسريع وتيرة الإنتاج؛ فتنتج نفس الكمية في عدد ساعات

أقل، ويمسي صحيحاً أيضاً القول بإنتاج كمية أكبر في نفس عدد الساعات السابقة. ولكن ليس هذا كُل ما في الأمر؛ إذ لم يزل أمامنا نصف الطريق، وهو الَّذي لم يكمله ريكاردو، ومن ثم ماركس؛ فعلى الجانب الآخر، فإنه طبقاً لقانون ميل مُعدل الربح للانخفاض، فإن إدخال الفن الإنتاجي الجديد يؤدي إلى انخفاض مُعدل الربح (أَيْ النسبة بين القيمة الزائدة والرأسمال الكُلّي)، إذ يَعني دخول الفن الإنتاجي الجديد تحويل المزيد من المواد الأولية والمواد المساعدة إلى مُنتجات، وذلك بالعدد نفسه من العمال خلال المدة الزمنية نفسها، أَيْ ببذل عمل أقل.

ولأن الرأسمال ينقسم عند ماركس، كما بينا في الفصل الثالث، إلى نوعين:

- الرأسمال **الثابت**، وهو ذلك الجزء من وسائل الإنتاج (تحديداً وسائل العمل، والمواد الخام، والمواد المساعدة) الَّذي يَنقل جزءاً من قيمته (التبادلية) إلى الناتج، دون استهلاكه كُلياً في "عملية إنتاجية واحدةً".

- الرأسمال **المتغيّر**، وهو لا ينقل فقط قيمته إلى الناتج، وإنما يَنقل إليه كذلك قيمة زائدة. وهو ما يتمثل في قوة العمل. فالرأسمال من تلك الوجهة لا يمكنه استخلاص قيمة زائدة من الرأسمال الثابت، على حين يمكنه ذلك من الرأسمال المتغيّر، ومعنى دخول الآلة، الَّتي لا يستخلص منها الرأسمالي قيمة زائدة، حدوث انخفاض في مصدر هذه القيمة، الأمر الَّذي يستتبع الانخفاض في مُعدل الربح الَّذي هو حاصل النسبة ما بين القيمة الزائدة وبين الرأسمال الكُلّي.

على ذلك، نكون أمام قانونين متناقضين، يقول الأول إنَّ الفنَ الإنتاجي الجديد/الآلة تُزيد من القيمة الزائدة بالنسبة لقيمة قوة العمل، ويقول الثاني إنَّ الآلةَ تُخفض من القيمة الزائدة لتخفيضها الرأسمال المتغيّر بالنسبة للرأسمال الكُلّي! فماذا يعني ذلك؟

يعني، في تصوري، الديالكتيك. يعني التناقض الحقيقي. المستتر؛ يعني الجدلية في أوضح صورها، وهو المعنى الَّذي لم يحققه ريكاردو، وماركس بالتبعية؛ فحين تم استحداث الفن الإنتاجي، ربما تصور ريكاردو، وماركس من بعده، أن التناقض يقع بين القيمة الزائدة وبين قيمة قوة العمل، وفي الحقيقة يمكن تسمية ذلك تناقضاً، ولكنه تناقض أولي. وليس التناقض الحقيقي.

(٤)

فحين دخل الفن الإنتاجي الجديد، حدث تغيّر في القيمة الزائدة بالنسبة لتغيّر مماثل في قيمة قوة العمل. بيد أن ذلك ليس نهاية الطريق، إذ أن الفن الإنتاجي الجديد لا يؤدي فقط إلى **ارتفاع** في القيمة الزائدة بالنسبة لقيمة قوة العمل، وإنما يؤدي، وفي اللحظة نفسها، إلى **انخفاض** في القيمة الزائدة بالنسبة للرأسمال الكُلّي. أَيْ انخفاض في مُعدل الربح. ولكن، لماذا انخفضت القيمة الزائدة؟ ومن ثم انخفض مُعدل الربح؟ الواضح ان الانخفاض مرجعه تطور في الرأسمال الثابت (الفن الإنتاجي الجديد/الآلة) أدى إلى تراجع في القيمة الزائدة الَّتي كان يمكن للرأسمالي أن يستخرجها/يعتصرها من قوة العمل. ولأن هذا التراجع تم في نفس اللحظة الَّتي ارتفعت فيها القيمة الزائدة بالنسبة لقيمة قوة العمل؛ فإن القيمة الزائدة

(الكُلّية) على هذا الأساس تتحدد بالتناقض بين: التغيّر في القيمة الزائدة، وسنسميها الأوّلية (ق ز) بالنسبة لقيمة قوة العمل (ق ع) وبين: التغيّر في القيمة الزائدة نفسها بالنسبة للرأسمال الكُلّي (ر).

القيمة الزائدة "الكُلّية" إذاً هي:"حاصل التناقض بين: **القيمة الزائدة الأولية بالنسبة لقيمة قوة العمل،** وبين: مُعدل الربح، أَيْ **القيمة الزائدة الأولية بالنسبة للرأسمال الكُلّي**".

وتلك هي " **القيمة الزائدة**". الَّتي لم يصل إليها الاقتصاد السياسي، إذ توقف عند حدود افتراض أن معدل القيمة الزائدة دائماً يساوي١٠٠%، مكتفياً بتحديد هذا المعدل باعتباره النسبة بين القيمة الزائدة إلى الرأسمال المتغيّر، والمفترض أننا نعرف مُعدل القيمة الزائدة من حساب القيمة الزائدة أولاً، إذ أن القيمة الزائدة هي الَّتي تُحدد المعدل، ولا يُحدد المعدل القيمة الزائدة. فأياً ما كانت القيمة الزائدة الأوّلية مزاجية، وفقاً للرأسمالي، فهي ستخضع (عبر حركة النظام) لعلاقات التناقض الَّتي من شأنها تحديدها وتحديد مُعدلها الكُلّي. وحتى أيضاً بعد تحددها سوف تخضع لعلاقات التناقض الَّتي تُعيد تحديدها ولا يتوقف هذا التحديد كما لا تتوقف علاقات التناقض، لأنها حينما تتوقف، تتوقف الحياة، ويحل الموت.

(٥)

والقانون الَّذي أفترضه هو ما اسميه قانون "القيمة الزائدة الكُلّية". أَيْ أنَّ القيمة الزائدة، الَّتي أقصدها، وهي القيمة الزائدة **الكُلّية**، هي نِتَاج تناسب، في الواقع تناقض، بين كُتلَتين:

الكُتلَة I : وتحتوي على: التنَاقض ما بين القيمة الزائدة الأولية **(ق زا)** وقيمة قوة العمل **(ق ق ع)**.
الكُتلَة II : وتحتوي على مُعدل الربح، أيْ: التنَاقض ما بين القيمة الزائدة الأولية **(ق زا)** والرأسمال الكُلّي **(ر)**.
فإذ إفترضنا أن الكتلة I = **(١:٤)**
وإفترضنا أن الكتلة II = **(١:٢)**
فإن **(ق ز ك)** = **(١:٤)** : **(١:٢)** = **٢٥٪** : **٥٠٪** = **٥٠٪** من **(ر)**
ومُعدل القيمة الزائدة الكُلّية= **(ق زا : ق ق ع)** : **(ق زا : ر)** ÷ المتغيّر **(م)**.
ويكون مُعدل الربح الوَسطي(Δ ح)= **(ق ز ك)** ÷ **(ر)**.
كما يكون ثمن الإنتاج= ثمن التكلفة **(ك)** + **(Δ ح)**.
أما قيمة السلعة= **(ك)** + **(ق ز ك)**.

أَيْ أن قانون القيمة ليس اعتباطياً، ولا يعمل في الفراغ التخيلي، وليس في مقدور الرأسمال، **حتى في ظل الأسواق الاحتكارية**، أن يتحكم في القيمة الزائدة؛ إذ أنها تخضع كليةً لقانون موضوعي هو قانون جدلية حركة الرأسمال، ولا يمكن الوَعيْ، الناقد، بهذا القانون إلا من خلال ذهنية جدلية متجاوزة للرؤى الخطية والتصورات الميكانيكية الّتي تتشرب بها كراسات التعميم.

(٦)

وبتلك الكيفية فإنّ تاجر الفاكهة وكارفور (الرأسمال التجاري) أو صانع المربى وجنرال موتورز (الرأسمال الصناعي)، أو مُقرِض النقود والبنك التجاري الدولي (الرأسمال المالي)، قد عَرفوا على أَيْ أساس

تتحدد أرباحهم. فمؤسسات نَقل البضائع مثلاً، أو المصارف أو شركات البريد... إلخ، الَّتي تستخدم العمال والموظفين والسيارات والمنشآت والمعدات والآلات والمستندات والأوراق والأقلام والحواسب الآلية والمكاتب، أَيْ يخضع مجمل نشاطها للصيغة **(ن — و أ + ق ع — س — Δ ن)** إنما تُنتِج خدمة، والعمال بالضرورة طالما أنتجوا قيمة، فهم يُنتِجون قيمة زائدة، ومن مجموع هذه القيم الزائدة الكُلية (بكيفية تكونها على نحو ما رأينا أعلاه نِتاج التناقض بين الكُتلَتين) في القطاع تتحدد كتلة القيمة الزائدة الإجمالية، هذه القيمة، أَيْ القيمة الزائدة الإجمالية، حينما يتم قسمتها على مجموع الرساميل في قطاع النقل نحصل على الربح الوَسطي. هذا الربح الوسطي يضيفه، بوَعيْ أو بغير وَعيْ، الرأسمالي على تكاليف الإنتاج، كَيْ يكون لديه الثمن الَّذي يتخذ على أساسه قراره الإنتاجي أو الاستثماري. وهكذا الأمر بشأن الرأسمالي المالي، ومن باب أولى بشأن الرأسمالي الصناعي. إن تحديد مُعدل الربح الوسطي ليس مسألة مزاجية، تخضع للقرارت الشخصية للرأسماليين، إذ أن الربح لا يتكون في السوق، إنما يتكون في حقل الإنتاج. وبيع السلعة أو الخدمة في حقل التداول، أَيْ السوق، لا يُنشيء الربح، إنما فقط يَكشف عنه.

(٧)

يكون من المتعيَّن الآن أنّ نعيد معالجة ما إنتهى إليه الاقتصاد السياسي بشأن القيمة، والقيمة الزائدة، ومُعدل الربح الوَسطي، وثمن الإنتاج، في ضوء ما توصلنا إليه بشأن "القيمة الزائدة الكُلّية".

نموذج ماركس على أساس القيمة الزائدة الأوّلية

الرأسمال الثابت	الجزء المستهلك من الرأسمال الثابت	الرأسمال المتغيّر	القيمة الزائدة ١٠٠%	قيمة السلعة	ثمن التكلفة	مُعدل الربح الوَسطي (%)	ثمن الإنتاج
٨٠	٥٠	٢٠	٢٠	٩٠	٧٠	٢٢	٩٢
٧٠	٥١	٣٠	٣٠	١١١	٨١	٢٢	١٠٣
٦٠	٥١	٤٠	٤٠	١٣١	٩١	٢٢	١١٣
٨٥	٤٠	١٥	١٥	٧٠	٥٥	٢٢	٧٧
٩٥	١٠	٥	٥	٢٠	١٥	٢٢	٣٧

النموذج المعدَل على أساس "القيمة الزائدة الكُلّية"، كنسبة نِتاج التناقض بين:
"القيمة الزائدة الأوَّلية بالنسبة لقيمة قوة العمل،
والقيمة الزائدة الأوَّلية بالنسبة للرأسمال الكُلّي"

الرأسمال الثابت	الجزء المستهلك من الرأسمال الثابت	الرأسمال المتغيّر	القيمة الزائدة الأوّلية	القيمة الزائدة الكلّية (%)	قيمة السلعة	مُعدل الربح الوسطي (%)	ثمن التكلفة	ثمن الإنتاج
٨٠	٥٠	٢٠	٢٠	٥	٩٠	٧,٥	٧٠	٧٧,٥
٧٠	٥١	٣٠	٣٠	٣	١١١	٧,٥	٨١	٨٨,٥
٦٠	٥١	٤٠	٤٠	٢,٥	١٣١	٧,٥	٩١	٩٨,٥
٨٥	٤٠	١٥	١٥	٧	٧٠	٧,٥	٥٥	٦٢,٥
٩٥	١٠	٥	٥	٢٠	٢٠	٧,٥	١٥	٢٢,٥

فطبقاً للنموذج المعدل الَّذي ينشغل بحركة الاقتصاد الرأسمالي عبر الزمن، والَّذي يحسب القيمة الزائدة الكُلّية كنسبة، نِتَاج التنَاقض، بين: القيمة الزائدة الأوَّلية بالنسبة لقيمة قوة العمل، والقيمة الزائدة الأوَّلية بالنسبة للرأسمال الكُلّي، ومع استخدام التقريب، نجد الأتي:

الحالة الأولى: (٢٠:٢٠) : (٢٠: ١٠٠) % ١٠٠= ٥%.

الحالة الثانية: (٣٠:٣٠) : (٣٠: ١٠٠) % ١٠٠= ٣,٣% أيْ ٣ تقريباً.

الحالة الثالثة: (٤٠:٤٠) : (٤٠: ١٠٠) % ١٠٠= ٢,٥%.

الحالة الرابعة: (١٥:١٥) : (١٥: ١٠٠) % ١٠٠= ٦,٦% أيْ ٧ تقريباً.

الحالة الخامسة: (٥:٥) : (٥: ١٠٠) % ١٠٠= ٢٠%.

ويكون مُعدل الربح الوَسطي(Δ ح) (٥+٣+٢,٥+٧+٢٠) ÷٥= ٧,٥.

ولنعتد بأرقام نموذج ماركس، بحيث نُدخِل تغيرات على القيمة الزائدة وقيمة قوة العمل. فلنفترض وفقاً للجدول أدناه، ابتداءً من الحالة الثانية، دخول فن إنتاجي أدى إلى ارتفاع القيمة الزائدة وانخفاض في قيمة قوة العمل، ثم نفترض، في الحالة الثالثة، العكس، أَيْ انخفاض في القيمة الزائدة وارتفاع في قيمة قوة العمل. وفي الحالة الرابعة نفترض الارتفاع تارة أخرى في القيمة الزائدة والانخفاض في قيمة قوة العمل، وفي الحالة الخامسة نفترض العكس مرة أخرى، إذ ترتفع قيمة قوة العمل وتنخفض القيمة الزائدة.

الحالة	ق ز	ق ق ع	ق ز	ر	ق ز ك
الأولى (فرضية ماركس)	٢٠	٢٠	٢٠	١٠٠	٢٠ %
الثانية	٢٥	١٥	٢٥	١٠٠	٦٤,٤ %
الثالثة	١٥	٢٥	١٥	١٠٠	٤٠ %
الرابعة	٣٠	١٠	٣٠	١٠٠	١٠%
الخامسة	١٠	٣٠	١٠	١٠٠	٣٣,٣%

فوفقاً لفرضية ماركس يَتَعين أن تساوي القيمة الزائدة في الحالة الثانية ٢٥% (كَمعطى) أو ٢٥:١٥×١٠٠=١٦٦% بنسبتها إلى الرأسمال المتغيّر، ولكن ذلك غير صحيح، لأنها نِتاج التناقض بين القيمة الزائدة الأوَّلية

بالنسبة لقيمة قوة العمل، والقيمة الزائدة الأوَّلية بالنسبة للرأسمال الكلّي تساوي ٦٤,٦%.

ووفقاً لنفس الفرضية كان يتعين أن تساوي القيمة الزائدة، في الحالة الثالثة ١٥% كَمعطى، أو ١٥:٢٥×١٠٠=٦٠% بنسبتها إلى الرأسمال المتغيّر، وذلك أيضاً غير صحيح لأنها، نِتاج التناقض، تساوي ٤٠%.

وكان يتعين أنّ تساوي القيمة الزائدة، في الحالة الرابعة ٣٠%، كَمعطى، أو ٣٠:١٠×١٠٠=٣٠٠% بنسبتها إلى الرأسمال المتغيّر، وهذا أيضاً غير صحيح لأنها، نِتاج التناقض، تساوي١٠%.

وكان يتعين أن تساوي القيمة الزائدة في الحالة الأخيرة ١٠% كمعطى، أو ١٠:٣٠×١٠٠=٣٠% تقريباً، بنسبتها إلى الرأسمال المتغيّر، وذلك أيضاً غير صحيح لأنها، نِتاج التناقض كذلك، تساوي ٣٣,٣%.

(٨)

يمكننا على هذا الأساس استخلاص القانون الموضوعي الأتي: **كُلّما ارتفعت الإنتاجية كُلّما انخفض معدل الربح، والعكس، كُلّما انخفضت الإنتاجية كُلّما ارتفع معدل الربح.** وكَيْ نشرح هذا القانون نفترض ان العامل يعمل لدى الرأسمالي ٦ ساعات يومياً، ويتلقى أجراً قدره كيلو جراماً من الأرز. ويُنتِج ٦٠ متراً من النسيج. خلال الـ ٣ ساعات الأولى يُنتِج ٣٠ متراً تمثل مُعادِل قوة عمله، أما الـ ٣ ساعات الأخرى، وكذلك الـ ٣٠ متراً الأخرى، تمثل قيمة زائدة. ولنفترض الآن حدوث تطور تقني ما أدى إلى تعديل في طَرفيْ المعادلة، فوفقاً لهذا التطور صار الآن

بإمكان العامل أنّ يُنتِج مُعادِل قوة عمله أيْ الـ ٣٠ متراً من النسيج في نصف المدة، أيْ ساعة ونصف. أَيْ أن العامل سيتحصل على نفس كمية الأرز لقاء ساعة ونصف. أَيْ أن كيلو الأرز أمسى مساو لـ ساعة ونصف من العمل، وليس ٣ ساعات مثلما كان قبل ظهور الفن الإنتاجي الجديد. وعلى العامل الآن أن يتوجه بالأرز إلى السوق كَيْ يُبادله بسلعة أخرى لها قيمة استعمال معينة بالنسبة له. ولكنه لن يُبادِل الأرز بسلع تكلف إنتاجها ٣ ساعات عمل، إنما مقابل سلع تكلف إنتاجها ساعة عمل ونصف فقط. فقد صار معروفاً في السوق الآن أن الـ كيلو جرام من الأرز هي مقابل ساعة عمل ونصف في قطاع النسيج، ومن ثم في باقي القطاعات. وهذا يعني وفي نفس اللحظة أن قيمة الجزء المتغير من الرأسمال سوف تتقلص. فلم يعد كيلو الأرز يساوي ٣ ساعات عمل، إنما يساوي فقط ساعة ونصف.

هذا الانخفاض في الرأسمال المتغير (سر سعادة الرأسمالي) معناه ومباشرة الانخفاض في القيمة الزائدة الَّتي لا يستطيع اعتصارها إلا من هذا القسم من الرأسمال. وبقدر انخفاض هذا القسم تأخذ القيمة في الانخفاض على الرغم من أن هذه القيمة قد تأخذ في الارتفاع ظاهرياً، في حالة انخفاض قيمة قوة العمل. إلا ان علاقات التناقض كفيلة بتصحيح الوضع. ولكن نلاحظ هنا أن الأجور الحقيقية تتدهور، ومعدلات الربح تميل إلى الهبوط، والهدر الاجتماعي يزيد، والمزيد من العمال يزاحمون

---

(٣) " في إنجلترا مثلاً، صار تحويل كمية معينة من الغزل إلى نسيج بعد إنتشار الأنوال الآلية، يستلزم نصف العمل الذي كان يستلزمه قبل ذلك، ومن الطبيعي أن النساج اليدوي الإنجليزي ظل ينفق لهذا التحويل، بعد ذلك، نفس الكمية السابقة من العمل، ولكن ناتج ساعة عمله الفردية أصبح يمثل حالياً نصف ساعة عمل اجتماعية فقط، ولذلك فقد انخفضت قيمة هذا الناتج إلى النصف...". ماركس، **رأس المال**، نفسه، ص٩٧.

المزيد من التقنية والآلات. انه النظام الاجتماعي المبني على الرأسمال في أزهى صوره!

والآن، بعد أن حددنا[٤] القيمة الزائدة، يمكننا أن نتقدم خطوة إلى الأمام بقصد التعرف إلى خط سير هذه القيمة عقب توزيعها على الصعيد الاجتماعي، وبصفة خاصة: خط سير هذه القيمة الزائدة المنتَجة بفضل سواعد الشغيلة في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر.

---

(٤) إنّ أهم ما يمكن أن نؤكد عليه انّ فرضيتنا بصدد قانون القيمة الزائدة الكُلّية **إنما يتجاوز سوق المنافسة الكاملة إلى شرحه لكيفية تكون الأرباح ومُعدلاتها الوسطية، بل والأجور أيضاً، في ظِل الاقتصادات الاحتكارية**. فلم يعد الأمر متوقفاً على منافسة كاملة بين مشروعات متجانسة، خاضعة لأثمان سوق تنافسية، وتعتمد على حرية الدخول إلى الأسواق والخروج منها، كما لم يعد الأمر متوقفاً على مزاجية الرأسمالي، كما في القيمة الزائدة الأوّلية، في اعتصار كمية معينة من القيمة الزائدة. إنما صار الأمر متوقفاً، في ضوء "القيمة الزائدة الكُلّية" على: الصراع الجدلي الدائم بين القيمة الزائدة الأوّلية، **الّتي قد تكون، في لحظة ما، مُعدل الربح الوسطي نفسه**، بالنسبة لقيمة قوة العمل، والقيمة الزائدة الأولية بالنسبة للرأسمال الكُلّي.

الفصل التاسع
التبادل متكافيء

(١)

الفرضية الصائبة الَّتي يُقدمها الاقتصاد السياسي، في بداية تبلوره[١] كَعِلم مهمته الكشف عن قوانين نمط الإنتاج الرأسمالي، هي أنّ القيمة الزائدة، بمفهومها السابق تحديده، الَّتي يُنتجها المجتمع، بفضل العمل الإنساني، إنما تَتَوزع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، وليس بالضرورة أنّ يتم هذا التوزيع على قدر مساهمة كُلّ طبقة في العملية الإنتاجية، وإنما بالضرورة وفقاً للشروط الموضوعية المحدِّدة لهيمنة طبقة معينة على طبقة أخرى أو على باقي طبقات المجتمع.

ولقد كان الاقتصاد السياسي على صواب أيضاً حينما رأي هذا التوزيع بوضوح؛ إذ أرجع الربح والريع والأجر والفائدة، كدخول للطبقات المختلفة في المجتمع، إلى مصدر واحد هو العمل.

فالرأسمالي، كما عرفنا، إنما يَشتري **(ق ع)** من سوق العمل وافترضنا أنه اشتراها بـ ٤ وحدات، ويَشتري **(م ع)** (القطن مثلاً) بـ ٣ وحدات، ويَشتري **(أ ع)** (آلة الغزل مثلاً) وافترضنا أيضاً أنه إشتراها بـ ٣ وحدات، ثم يترك قوة العمل **(ق ع)** كَيْ تَتَفاعل مع مواد العمل**(م ع)** باستخدام أدوات العمل **(أ ع)** وحينما يَخرج الناتج (مِعطف مثلاً) يكون لدى

---

(١) نقول "في بداية تبلوره" أيْ قبل أن تمكن الصيغة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** من فرض هيمنتها على الأشكال التقليدية الأخرى للرأسمال، أيْ قبل أن تتبلور الرأسمالية بشكلها النهائي كنمط انتاج اجتماعي قائم على الرأسمال كظاهرة تمكنت من اخضاع جميع ظواهر النشاط الاقتصادي لسيطرتها.

الرأسمالي، قبل البيع أيْ قبل النزول تارة أخرى إلى السوق من أجل بيع المنتَج، ليس ١٠وحدات، وإنما (حتماً) أكبر منها، يُحدد على أساس قانون القيمة الزائدة "الكُلّية" على نحو ما شرحنا سلفاً. فلا يمكن للرأسمالي أن يُقدِم على إتخاذ قرار الإنتاج إذ ما كانت المحصلة النهائية لعملية الإنتاج مساوية للصفر؛ فهو يبدأ بـ ١٠ وحدات وينتهي بـ ١٠ وحدات؛ وهذه النهاية لا تُرضي الرأسمالي على الاطلاق، والرأسمالي، كما ذكرنا سابقاً، لا يستطيع أن يتفاوض مع المواد، ولا مع الآلات، على مستوى الأثمان على الأقل، ولا يستطيع أن يَحصل مِنهم على أكثر من القيمة المحددة لهم، فهو حينما اشترى مواد العمل (القطن في مثلنا) بـ ٣ وحدات يَعلم أنَّ القطن سوف يدخل العملية الإنتاجية ويخرج منها دون أن يُغيّر من قيمته (رأسمال ذو **قيمة ثابتة**)، وكذلك الأمر بشأن الأدوات والآلات، فهي تُستخدَم في العملية الإنتاجية بقيمتها ويُحسَب مُعدل استهلاكها وفقاً للفنون المحاسبية المعروفة (الأمريكية في الغالب)، أيْ أنّها تدخل العملية الإنتاجية بقيمتها وتخرج بقيمتها (رأسمال ذو **قيمة ثابتة**) ولذلك فلا مناص من أن يَتفاوض مع رأسمال يُغيّر من القيمة بالزيادة أثناء العملية الإنتاجية، أيْ يتفاوض مع رأسمال متغيّر (رأسمال ذو **قيمة متغيّرة**) أيْ مع هذه السلعة العجيبة الَّتي تطرح نفسها في السوق، وهي قوة العمل، فيعطيها ثمن استعمالها، ٤ وحدات في مثلنا، ويأخذ منها ما يساوي ٨ وحدات مثلاً، لِمَ؟ كَيْ يتمكن من دفع **الريع** لصاحب الأرض، ودفع **الفائدة** للرأسمالي المالي، ويتحصل هو نفسه على **ربح** للرأسمال الموظَف في عملية الإنتاج. وذلك بالطبع بعد أن تكون قوة العمل قد عوضته عن **الأجرة**.[٢]

---

(٢) لسنا هنا في حاجة كيْ نشير إلى أن المثال للتبسيط ولذا أغفلنا تعويض الرأسمال الثابت. أيْ مُعدل إستهلاك وإهلاك آلات العمل ومواد العمل.

هنا يتوقف الاقتصاد السياسي. إذ لم يُثْرْ إشكالية لا تقل أهمية في حقل التوزيع؛ وهي أين تذهب، بعد ذلك، تلك القيمة الزائدة الَّتي تتخذ من الربح والريع، وربما الفائدة، صوراً لها تعكس وجودها كدخول للطبقات الاجتماعية المختلفة؟

أَيْ أينَ تذهب تِلك الصور الَّتي تتخذها القيمة الَّتي زادت بفعل الإنتاج في الاقتصاد القومي خلال فترة زمنية معينة؟ فما هو اتجاه الريع الَّذي تَحصّل عليه مَالِك الأرض؟ وما هو إتجاه ربح الرأسمالي؟ أين تذهب تلك الوحدات الَّتي هي بمثابة الزيادة الَّتي حققها المجتمع على صعيد القيمة؟ ونحن هنا، طبعاً، نتساءل أين تذهب تلك القيمة الَّتي أنتجتها سواعد الشغيلة في وطننا العربي؟

(٢)

إنَّ سؤالنا عن اتجاه القيمة الزائدة نظن أنَّ له وجاهته، ليس فحسب على صعيد تعقب القيمة، وإنما أيضاً على صعيد مهم آخر وهو الَّذي يَنشغل بشرح (مَا الَّذي أتى بالقيمة الزائدة الَّتي أنتجتها سواعد الشغيلة في الأجزاء المتخلفة، إلى خزائن رجال المال في الأجزاء المتقدمة؟) لأن الإجابة على هذا السؤال هي الَّتي أدت إلى "إختراع" التبادل غير المتكافيء؛ كنظرية تحاول أن تشرح (بمزيد من اللف والدوران حول نصوص ماركس ولينين) كيف أتت القيمة الزائدة الَّتي أنتَجتها سواعد الشغيلة في القاهرة أو كمبالا إلى الرأسماليين في باريس أو لندن؟

ابتداءً من البحث في هذه الإشكالية يمكننا البحث في الأساس الَّذي يمكن معه إجراء المقارنة بين العمل البسيط والعمل المركب، إذ نفس

المنطق الَّذي نقترحه والفرضية الَّتي نقدمها للمقارنة بين ساعة عمل فلاح صيني وصانع ساعات سويسري، نقترحه، كمنهج، ونقدمها، كفرضية، بصدد التعرف إلى كيفية المقارنة بين العمل البسيط والعمل المركب.

والواقع ان الاقتصاد السياسي حينما ينشغل بتجدد الإنتاج الاجتماعي على نطاق متسع، عندما يصل إلى قمة نُضجه على يد كارل ماركس، فهو لا يَبحث تسرب القيمة الزائدة المنتَجة بداخل الاقتصاد القومي إلى خارجه، وهو ما سنفعله، وإنما يكتفي بتحليل عملية خَلق القيمة الزائدة وتداولها بين الطبقات في المجتمع والشروط الموضوعية لسيطرة طبقة أو طبقات معينة على هذه القيمة. وأفضل ما تحقق في تحليل تبادل أو/و تداول القيمة على الصعيد العالمي هو مساهمة ديفيد ريكاردو بنظريته في النفقات النسبية[٢]، ابتداءً من افتراضه سهولة تحرك

---

(٢) المثل المشهور الَّذي يضربه ريكاردو يتلخص في أن البرتغال متفوقة على إنجلترا، سواء في إنتاج الخمر (إذ تكفيها ثمانون ساعة عمل لإنتاج وحدة من هذه السلعة مقابل مائة وعشرين ساعة في إنجلترا) أو في إنتاج الجوخ (حيث تُنتج تسعون ساعة عمل في البرتغال ما تُنتجه مائة ساعة عمل في إنجلترا). لكنها أكثر تفوقاً على صعيد المقارنة، في إنتاج الخمر مما هي في إنتاج الجوخ بالنظر إلى النسب ٩٠/١٠٠، و٨٠/١٢٠؛ فمصلحة البرتغال هي في التخصص بالنوع الأول من هذين الإنتاجين وفي التزود بالجوخ من إنجلترا، رغم أن إنتاج هذا الجوخ، يُكلف بشكل مُطلق أقل مما يُكلف في إنجلترا. انظر:

D. Ricardo, **The Principles**, op.cit. P. 69-77.

وفي نقد النظرية الريكاردية في التبادل الدولي وتكوين الوعي بشأن التراكم على الصعيد العالمي، انظر:

A. Emmanuel, **Unequal Exchange. A Study of Imperialism of trade** (London: Monthly Review Press, 1972; NLB, pp.XIV-XVII and XXXVII, Fn 15. S. Amin, **Le change inegale et la loi de la valuer**, la fin d'un debat. Arthropods-IDEP, Paris, 1973. Rosa Luxembourg, **The Accumulation of Capital**, Translated from Germany by: A. Schwarzschild (London: Rutledge and Kegan 1963)

سمير أمين، **التراكم على الصعيد العالمي، نقد نظرية التخلف**. ترجمة وتحقيق حسن قبيسي. ط٢ (بيروت: دار ابن خلدون،١٩٨٧) ص ٧٥-١٠٢. سمير أمين، **التطور اللامتكافيء: دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية**، ترجمة برهان غليون (بيروت: دار الحداثة،١٩٨١) توماس سنتش، **نقد نظريات الاقتصاد العالمي**، ترجمة عبد الاله النعيمي، (دمشق: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي،١٩٩٠).

اليد العاملة، وسهولة تحرك الرأسمال (توزيع متساو لمعدل الربح) بيد أن ما تحقق على يد ريكاردو، وما لحق نظريته من تطوير على يد ايمانويل وبتلهايم وأمين وسنتش؛ لم يتعد حدود افتراض أن التبادل غير متكافيء، إلى ما هو أبعد وأهم وهو (تسرب) القيمة الزائدة المنتَجة في الأجزاء المتخلفة إلى خارجها لتغذية الصناعات المختلفة في الأجزاء المتقدمة، فالفرضية الَّتي يقوم عليها التبادل غير المتكافيء تعتمد على فهم التبادل على الصعيد العالمي ابتداءً من تفوق العامل في الأجزاء المتقدمة على العامل في الأجزاء المتخلفة؛ فما يُنتجه العامل الأوروبي في ساعة عمل واحدة ينتجه العامل الأفريقي في ١٢ ساعة عمل، ويتعلق الأمر هنا، وفقاً للتبادل غير المتكافيء بإنتاجية العمل؛ فالفلاح الأفريقي مثلاً، طبقاً لمثال د.سمير أمين، يحصل لقاء مئة يوم عمل شاق جداً، في السنة، على مُنتجات مستوردة لا تكاد تُعادل قيمتها قيمة عشرين يوماً من العمل العادي يقوم به عامل أوروبي ماهر[٣]. ونظرية التبادل غير المتكافيء لا تقول أكثر من ذلك، ولا يمكنها أن تقول أكثر من ذلك، والأخطر أنها لا تملك أن تقول، صواباً، لماذا ذلك! أيْ لماذا يحصل الفلاح الأفريقي لقاء مئة يوم عمل شاق جداً، في السنة، على مُنتَجات مستوردة لا تكاد تُعادل قيمتها قيمة عشرين يوماً من العمل العادي يقوم به عامل أوروبي ماهر؟

(٣)

ابتداء من محاولتنا تقديم إجابة على هذا السؤال يمكننا طرح منهجية تمكّنا من تكوين الوَعيْ ليس فحسب بصدد التبادل بين القيم على الصعيد

(٣) أمين، **التراكم**، المصدر نفسه، ص٩٤.

العالمي، وإنما أيضاً بشأن كيفية هذا التبادل بما يتضمنه من **عمل بسيط وعمل مُركَّب.** والواقع أننا نذهب خطوة أبعد برؤية الجانب الآخر، الأهم، من عملية التبادل على الصعيد العالمي. فما ننشغل به ليس التبادل غير المتكافيء؛ لأننا نتصور أن التبادل، كما سنرى، دائماً متكافيء؛ وإنما ننشغل بظاهرة التسرب في القيمة الزائدة؛ أيْ ننشغل بمحاولة تحليل جدلية تسرب القيمة الزائدة المنتَجة في داخل الأجزاء المتخلفة إلى الأجزاء المتقدمة كَيْ تُنمي صناعاتها المتطورة والمعقدة. فالَّذي يهمنا هو الذهاب أبعد من تصور التبادل على الصعيد العالمي كمجرد تبادل غير متكافيء للقيم بين أجزاء متخلفة وأجزاء متقدمة إلى حيث تركيز الضوء المباشر والساطع على عملية "تسبق" هذا التبادل غير المتكافيء، وهي عملية التسرب في القيمة الزائدة.

فطبقاً لمثلنا التقليدي أنتج الاقتصاد القومي في الجزء المتخلف ما مقداره ١٢ ملياراً وحدة زائدة، وفي مرحلة أولى مِن التوزيع سوف تختص كُل طَبقة بنصيبها، فالعامل سيحصل على الأجر (ولكن ليس من القيمة الزائدة وإنما من قوة عمله شخصياً) والرأسمال سيحصل على الربح، ومُلّاك الأراضي سيحصلون على الريع. والمصارف أيضاً، وربما المرابي، سوف تحصل على الفوائد. وفي مرحلة ثانية تبدأ كُل طَبقة في انفاق الوحدات الباقية بعد خصم الإدخار، و(الضرائب الحكومية) فما هو الطريق الَّذي سوف تسلكه تلك الوحدات؟انها سوف تتجه نحو الخارج. نحو الأجزاء المتقدمة. من أجل الحصول على منتجات استهلاكية (للطبقة العاملة، والطبقة الرأسمالية، والطبقة الريعية) ومنتجات صناعية (للرأسمال، لتجديد الإنتاج: آلات، ومعدات، ومواد) غالباً ما تتوقف عليها عملية تجديد هذا الإنتاج في الأجزاء المتخلفة، وسوف نُبرهن لاحقاً على

فرضيتنا المتعلقة بالتسرب في القيمة الزائدة، حينما ننتقل إلى اختبار مجمل فرضيتنا على أرض الواقع متخذين من الاقتصاد المصري، والاقتصادات العربية، أمثلة لهذا الاختبار.

وقبل أن تتم عملية التبادل تتم عملية أهم وأخطر، في الغالب لا يتم الإهتمام بها، وهي عملية خروج/تسرب القيمة الَّتي زادت بداخل الاقتصاد المتخلف خلال السنة إلى خارجه، وبدلاً من أن يُعاد ضخ تلك القيمة بداخل مسام الاقتصاد المتخلف الذي أنتجها من أجل مشروعات تنموية وإنتاجية وطنية، فإنها (تخرج/تتسرب) من أجل تدعيم الصناعات المختلفة في الاقتصاد المتقدم. فهم التسرب هنا إذاً يسبق مناقشة التبادل، بل أن المسألة برمتها (تسرب) وليس (تبادل) ولكن الوضوح في بعض الأحيان قد يكون أكثر الأشياء خداعاً. إن المهم هو التحكم في هذا التسرب؛ وَعياً بوجوده وخطورته، ومن ثم منعه، دون اللف والدوران حول نظرية، مضلَلة، ومن ثم مضلِلة، بسبب عدم التكافؤ في الأجور، فعدم التكافؤ في الأجورعلى الصعيد العالمي(٤) هو الَّذي ضلل، ومن ثم قاد أصحاب "التبادل غير المتكافيء" إلى إختراع هذه النظرية، لأنهم لم يستطعوا، ربما بدوافع إنسانية، أن يُعلنوا بوضوح أنَّ العامل هو آلة مرتدية "أفارول". ويستغربون كيف أن حلاق في باريس يتلقى أجراً أعلى من حلاق في دكار. ثم يزيلون دهشتهم، بافتراض (دون تعليل دائماً) أن الأجر في باريس أعلى، وأن القيمة تنتقل من حلاق دكار إلى حلاق باريس من خلال (تبادل غير متكافيء!). الدهشة الحقيقية تملكنا نحن؛ حينما نرى هذا التحايل التجريبي الفج، وتزداد دهشتنا حينما نرى

(٤) قارن: فؤاد مرسي، **التخلف والتنمية** (بيروت: الوحدة العربية، ١٩٨٢)، ص١٢٢.

كيف، إلى مثل هذا الحد، أن نفقة إنتاج حلاق دكار ملتبسة بنفقة إنتاج حلاق باريس!

(٤)

نحن نتصور، على الأقل في عصرنا الراهن، أن آلة باريس دائماً أفضل مِن آلة دكار، وبعبارة بسيطة نحن نعتقد أن آلة باريس (العامل الفرنسي) أغلى من آلة دكار (العامل السنغالي) ومن ثم يتعين أن لا تكون قيمتها فقط في السوق مختلفة، وإنما أيضاً ثمنها. ولكن لمَ آلة باريس (العامل الفرنسي) أغلى من آلة دكار(العامل السنغالي)؟ نحن نفترض أن آلة/عامل باريس دائماً أفضل من آلة/عامل دكار، لأن آلة/عامل باريس **تحتوي على عمل مختزن** (تربية، تعليم، ترفيه، طعام، ملبس، صحة، مسكن،...) يفوق **العمل المختزن** الَّذي تحتويه آلة/عامل دكار. ومن ثم يتعين أن لا تكون قيمتها فقط في السوق مختلفة، وإنما أيضاً ثمنها بالتبع. بيد أن الاقتصاد السياسي لا ينظر إلى العمل المختزن إلا بشأن الآلة! ولا يمد قوانينه إلى الآلة المرتدية جلد البشر! فهو لا يُساير منطقه حين يُدخِل في حساباته مأكل العامل (الخبز)، ومأكل الآلة (الطاقة) ثم يتوقف عند ذلك بشأن العامل، ولكنه يستكمل حساباته بشأن الآلة حين يَنظر إليها مرة كآداة لإنتاج عمل حَيْ (المنتَج) ومرة كآلة تحتوي على عمل مختَزن، وهذا يعد تقليداً متبعاً[٥] في الاقتصاد السياسي، من جهة إغفال العمل المختَزن بصدد العمل، فلا يَنظر الاقتصاد السياسي إلا إلى ما يحتاجه العامل كَيْ يُنتِج السلع، ويُجدد إنتاج نفسه (أيْ يُجدد إنتاج جنسه) ولا ينظر على الإطلاق إلى نفقة إنتاجه. تلك النفقة الَّتي جعلت منه عاملاً يمكن الدفع به إلى سوق العمل.

إن ماركس نفسه لم يُساير منطقه؛ فعلى الرغم من وعيه التاريخي والموسوعي إلا انه أغفل تماماً إعتبار العامل آلة مادية، وأدخل في حساباته، حين تعرضه للقيمة، ما يحتاج إليه العامل كَيْ يُنتِج، ولكيْ يُجدد إنتاج نفسه. لكنه، أيْ ماركس، لم يمد ما أخذه عن ريكاردو بشأن العمل المختَزن إلى العامل، فلم ير سوى ما يحتاج العامل إليه كَيْ يعيش، ولم ير كيف تكون هذا العامل بالأساس! فلقد نقل ماركس، في **رأس المال**، عن الصقلي:"انه لا يمكن أن نصدق كيف أن تربية الصغار لا تكلفهم سوى اليسير من التعب والنفقات، فهم يُطعمون هؤلاء الصغار أول غذاء بسيط يَقع تحت اليد، ويعطونهم الجزء السفلي من سيقان القصب كَيْ يأكلوه، بمقدار ما يصلح للشواء على النار، كما يقدمون لهم جذور وسيقان بعض نباتات المستنقعات، أما نيئة أو مسلوقة أو مشوية. ويسير أغلب الصغار حفاة عراة، بسبب اعتدال الهواء. لذا فإن تنشئة الصغار حتى يقوى عودهم، لا تُكلف الأبوين، بوجه عام، أكْثر من عشرين دراخماً. وهذا، بالدرجة الرئيسية، ما يُفسر لماذ نجد سكان مصر بهذه الكثرة، ولماذا يمكن بالتالي تشييد مثل هذا العدد من الصروح العظيمة".[٦] أيْ أن ماركس لديه الوَعيْ بأنَّ العامل نفسه له نفقة إنتاج. تِلك النفقة الّتي تَجعل منه عاملاً يصلح لبيع قوة عمله في السوق. ومع ذلك لم يستكمل ماركس منطقه. واعتد فقط بما يجب دفعه للعامل كَيْ يعيش ويُجدد إنتاج نفسه، أَيْ يُجدد إنتاج جنسه:"ان صاحب قوة العمل سوف يموت يوماً. وبالتالي يجب

---

(٥) على هذا الإغفال، بعد ماركس، انظر، على سبيل المثال: روزا لوكسمبورج، **تراكم الرأسمال** (١٩٦٣)، فرانك، **نمو التخلف** (١٩٦٦)، أوسكار لانج، **الاقتصاد السياسي** (١٩٦٦)، براون، **التجارة الدولية والإمبريالية** (١٩٦٧)، إيمانويل، **التبادل غير المتكافيء**(١٩٧٢)، **الربح والأزمات** (١٩٧٤) بيرو سرافا، **إنتاج السلع بواسطة السلع** (١٩٧٣)، ماندل، **النظرية الاقتصادية الماركسية** (١٩٧٣)، كاي، **التنمية والتخلف** (١٩٧٥)، أندرسن، **دراسات في نظرية التبادل غير المتكافيء بين الأمم** (١٩٧٦)، موريس دوب، **دراسات في تطور الرأسمالية** (١٩٧٨)، زيلكو، **القيمة الدولية والأثمان الدولية** (١٩٨٠)، سمير أمين، **التراكم على الصعيد العالمي** (١٩٧٨)، **قانون القيمة والمادية التاريخية** (١٩٨١)، **مستقبل الماوية** (١٩٨٢).

(٦) **رأس المال**، نفسه، ص٦٨.

على بائع قوة العمل، من أجل أن يظهر في السوق بصورة متواصلة، كما يتطلب ذلك تحول النقد إلى رأسمال بصورة متواصلة، أن يُخلّد نفسه، كما (يُخلّد نفسه أيْ فرد، أيّ عن طريق التكاثر) وان قوى العمل الَّتي تذهب من السوق بسبب الموت يجب أن تُبدل دائماً بنفس الكمية على الأقل من قوى العمل الجديدة. ولذا، يتضمن مجموع وسائل المعيشة الضرورية لإنتاج قوة العمل وسائل المعيشة لأولئك البُدلاء، أيْ أطفال العمال، وبذلك يُخلد في سوق السلع جنس مالكي السلع المتميزين هؤلاء".[٧]

وكلام ماركس على هذا النحو غير صحيح، فمن جهة أولى: إذ ما افترضنا أن الأجر ينشطر إلى شطرين: الشطر الأول: كَيْ يعيش العامل، والشطر الثاني: من أجل البُدلاء. يتعين أن يكون أجر العامل متغيراً وفقاً لعدد البُدلاء الَّذي أنجبهم! وهذا غير واقعي.

ومن جهة أخرى يتعين، وفقاً لكلام ماركس، أن نعترف بأنَّ الطبقة العاملة، القادمة، بأسرها مَدينة إلى الطبقة الرأسمالية بأسرها، قبل أن تطرح نفسها في السوق كسلعة، لأن الطبقة الرأسمالية هي الَّتي تكفلت بالانفاق عليها حتّى صارت جاهزة كَيْ يُدفَع بها في سوق العمل، ولا يقوم العامل (رب الأسرة) إلا بدور الوَسيط، وهذا أيضاً غير واقعي.

ومن جهة ثالثة: يتعين، وفقاً لكلام ماركس أيضاً، أن يكون أجر العامل الأمريكي مساو لأجر العامل المصري، إذ ما قام الأمريكي بالعمل في مصر، وهذا أيضاً غير واقعي، بلّ أن الأمريكي أو الأوروبي الَّذي يعمل في أحد المنشأت في مصر إنما يتلقى أجره بالعملة الأجنبية، ويكون أجره أعلى من نظيره المصري. أيْ أن العمل المختَزن بداخل العامل نفسه

---

(٧) Marx, op.cit p.281.

يُعد رَكيزة أساسية في تحديد قيمة قوة العمل.

هكذا صارت نظرية القيمة مهددة بإلقائها خارج نِطاق ما هو عِلمي لتلك الإنتقائية المفرطة الَّتي ترتع بداخلها. إن تلك الإنتقائية، أَيْ إغفال نفقة إنتاج العامل، أَيْ **إغفال العمل المختزن في داخل العامل نفسه**، هي الَّتي أدت إلى هذا التشوش بصدد حلّاق دكار، وحلّاق باريس. إن حلاق دكار يا أيتها السيدات، ويا أيها السادة، لا يتكلف منذ ولادته حتى يُمسِك بأدوات العمل وآلاته ومواده سوى كسرات خبز معدودة، وشربة ماء غير آدمية، ومسكن خرب، وتعليم إستعماري مشوه، وكُل ذلك يمكن حسابه بوحدات حسابية محددة منذ الميلاد وحتّى الممات. ليس بشأن حلّاق دكار فقط، وإنما أيضاً بصدد حلّاق باريس، الَّذي، وقبل أن يُدفع به في سوق العمل، يأكل ويشرب ويرتدي ويتعلم ويتدرب ويتنزه أفضل عشرات المرات من حلّاقنا السنغالي، رَديء الصنع.

مع ذلك، لم ير الاقتصاد السياسي سوى ما يجب دفعه للعامل كَيْ يعيش. كَيْ يُنتِج، كَيْ يُنجِب المزيد من العمال (أن تُجدد الطبقة إنتاج نفسها) ولم ير ما الَّذي يَجب دفعه للعامل عن العمل المكدس الَّذي يحتويه بداخل أعصابه وعضلاته وأنسجته وخلاياه.

وبصدد العمل الحَيْ، والمظهر النقدي لقيمة قوة العمل، فيجب الوَعيْ بأن التراكم الأوّلي للرأسمال (في أوروبا،ثم الولايات المتحدة، كوريث تاريخي للهيمنة الاستعمارية) كان له الدور الحاسم في ارتفاع الدخول النسبية، والمستوى العام للأثمان في هذه الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر.

ولنر الآن كيف يكون التبادل، وفقاً لتصورنا، متكافئاً. فطبقاً لقانون القيمة، ومن أجل إنتاج مِعطَف في مصر بأيدي عِمالة مصرية، ومِعطَف آخر في إنجلترا بأيدي عِمالة إنجليزية، فسوف نكون أمام الإفتراضين التاليين:

- من أجل إنتاج مِعطف مصري، بأيدي مصرية (اقتصَاد رأسمالي متخلف):
<u>ساعة عمل</u>
٥ أدوات العمل + ٣ مواد العمل + ٢ قوة العمل (حيّ ١)+(مختزن ١) + ٢ قيمة زائدة = ١٢
- من أجل إنتاج مِعطف إنجليزي، بأيدي إنجليزية (اقتصَاد رأسمالي متقدم):
نصف ساعة عمل
٥ أدوات العمل + ٣ مواد العمل + ٢ قوة العمل (حيّ ١)+(مختزن ١) + ٢ قيمة زائدة = ١٢

وبغض النظر عن أن الرأسمال سوف يُسارِع بالهروب (بتقنيته) ناحية مصر للإستفادة من العِمالة الرخيصة، وهو ما يحدث فعلاً على الصعيد العالمي، بل يُعد ذلك أداة تهديد دائمة من قِبل الرأسمال للطبقة العاملة في أوروبا بوجه خاص، فالمثال يوضح أن ساعة عمل في إنجلترا، تُعادِل ساعتين عمل في مصر، من جهة الأجر والإنتاجية.

فوفقاً للمثال أعلاه، وبافتراض أن المعطف يساوي ساعة عمل، يساوي كيلو جراماً من اللحم؛ فإن ساعة عمل في إنجلترا تساوي ساعتين من العمل في مصر، أيْ أنَّ العامل الإنجليزي يَستطيع أن يُبادل مِعطفه بكيلو جراماً من اللحم، في حين لا يكون للعامل المصري سوى نصف هذه الكمية لقاء ساعة عمل واحدة. ومن ثم فإن المعطف في إنجلترا يساوي كيلو جراماً لحم. على حين أنه ضعف هذه الكمية في مصر. وعلى العامل المصري أن يعمل ٢ ساعة عمل من أجل الحصول على كيلو اللحم

الَّذي يحصل عليه العامل الإنجليزي في مقابل ساعة عمل واحدة، فالتبادل إذاً متكافئ. وعادل. ويمسي واضحاً لمَ يعمل المصرى ١٠ ساعات، مثل صديقنا الفلاح الأفريقي، ولا يحصل في مقابل هذه الساعات العشر سوى على نصف أو ربع أو ثلث ما يحصل عليه عامل واحد من العمال في أحد الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر.

نحن نرى لذلك أنَّ التبادل دوماً متكافيء، ولا يكون دائماً إلا كذلك ابتداءً من الوَعيْ بالعمل المختَزن الَّذي يحتويه العمل الحَيْ. وهذا الأمر لم يعره الاقتصاد السياسي الإهتمام الكافي.

(٥)

بناءً عليه، وبنفس المنطق، يمكننا معرفة كيف نُقارِن بين العمل المركب والعمل البسيط. فلا نعتد بالعمل الحيْ المنفَق في سبيل إنتاج السلعة فحسب، إنما نأخذ فى اعتبارنا أيضاً العمل المختزن الَّذي تحتويه أنسجة العامل وأعصابه وخلاياه. وحينئذ سيمكننا المقارنة بين ساعة عمل مهندس معماري وساعة عمل عامل بناء. مثلما تماماً يمكننا المقارنة بين ساعة عمل عامل مصري وآخر إنجليزي.

(٦)

ويمكننا الآن أن نتخذ من الاقتصاد المصري، ومن الاقتصادات العربية، أمثلة، على وجه التطبيق؛ نُعمق من خلالها فكرتنا بشأن تسرب القيمة الزائدة، المنتَجة بفضل سواعد الشغيلة الأُجراء في الأجزاء المتخلفة، إلى خارجها من أجل شراء السلع والخدمات الَّتي تتوقف عليها عملية

تجديد الإنتاج الاجتماعي. وما سوف ندرسه بشأن الاقتصاد المصري، والاقتصادات العربية، إنما يمكن استخدامه، منهجياً، في سبيل دراسة باقي الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر.

الفصل العاشر
نموذجا التسرب في القيمة
مصر والعالم العربي

(١)

ولنبدأ بمصر. وضع البنك ستة معايير لمعرفة مدى اندماج دولة ما في السوق الدولية، وبالتبع مدى اندماجها في المنظومة الرأسمالية على الصعيد العالمي وهذه المعايير هي: (١) نسبة التجارة السلعية إلى الناتج المحلي الإجمالي. (٢) نسبة التجارة السلعية إلى الناتج المحلي السلعي الإجمالي. (٣) نسبة صادرات الخدمات إلى صادرات السلع. (٤) النمو في التجارة الحقيقية مطروحاً منه النمو في الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي. (٥) نسبة التدفقات الرأسمالية الخاصة إلى الناتج المحلي الإجمالي. (٦) نسبة الاستثمارات الأجنبية المباشرة إلى الناتج المحلي الإجمالي.

ووفقاً لهذه المعايير، بالتحديد وفقاً لأربعة منها، كما سنرى، يبدو الاقتصاد المصري في الفترة من عام ١٩٩٠ حتّى عام ٢٠١٢ أقل إندماجاً في الاقتصاد العالمي. فبالنسبة لمعيار نسبة التجارة السلعية، فقد انخفضت هذه النسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي من ٣٦,٨% في عام ١٩٩٠ إلى ٢٢% في عام ٢٠١١. وبالنسبة لمعيار التجارة السلعية إلى الناتج المحلي السلعي الإجمالي؛ فقد انخفضت أيضاً هذه النسبة من ٥٠% إلى ٤٦%. أما بالنسبة إلى المعيار الثالث وهو معيار نسبة صادرات

---

(١) تعد معالجة د. إبراهيم العيسوي من أفضل المعالجات الّتي ظهرت بشأن تحليل هذه المعايير، انظر: إبراهيم العيسوي، **الاقتصاد المصري في ثلاثين عاماً** (القاهرة: المكتبة الأكاديمية،٢٠٠٧)، ص٤٥-٧٦. وقد لاحظ، د. العيسوي، "أن البيانات المتاحة تُعاني حالة من الضعف والهشاشة والاضطراب تجعل البحث في واقع هذا الاقتصاد وتطوره عبر الزمن من الأمور العسيرة". الأمر الذي يوجب على الباحث الحرص.

الخدمات إلى صادرات السلع، فلقد أشارت الأرقام إلى تحقيق الاقتصاد المصري نسبة أعلى من الاندماج، حيث ارتفعت النسبة من ١٣٨% في ١٩٩٠ إلى ١٥٥% في ٢٠١١. وبالنسبة إلى النمو في التجارة الحقيقية مطروحاً منه النمو في الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي، فإن هذا المعيار يعكس الفارق السلبي (-٢,٤%) بين حجم التجارة المصرية بالأسعار الثابتة ونمو الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي. ويُشير المعيار الخامس، وهو نسبة التدفقات الرأسمالية الخاصة، إلى ازدياد درجة اندماج الاقتصاد المصري في الاقتصاد العالمي، حيث ارتفعت النسبة من ٦,٨% فى ١٩٩٠ إلى ٨,٦% في ٢٠٠٣. وأخيراً، وهو معيار نسبة الاستثمارات الأجنبية المباشرة إلى الناتج المحلي الإجمالي. فلقد انخفضت نسبة إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر إلى الناتج المحلي الإجمالي من ١,٧٠% في عام ١٩٩٠ إلى ٠,٤٧% في عام٢٠١٢.

(٢)

معنى ما سبق أن الاقتصاد المصري، وفقاً لمعايير البنك الدولي، أقل اندماجاً في الاقتصاد العالمي، وأقل انفتاحاً على السوق الرأسمالية العالمية، على الأقل من جهة التجارة الخارجية والاستثمارات الأجنبية المباشرة! ولكن، هل هذا الوضع يُعد إيجابياً أم سلبياً؟ أتصور أن الّذين يُحذروننا ليلاً ونهاراً من الرأسمالية وخطورة الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي؛ أعتقد أنهم في ورطة فكرية!

فالبنك الدولي يقول لهم أن الاقتصاد المصري يُعد من الدول غير المندمجة في الاقتصاد الرأسمالي العالمي؛ بل ولديه ميل تاريخي لعدم الاندماج وعدم الانفتاح على السوق الدولية، على الرغم من هذا الكم

الهائل من التشريعات القانونية واللوائح والتعليمات الوزارية والمصلحية الَّتي سُنت وصدرت بقصد تشجيع الاستثمار واجتذاب المستثمرين الأجانب ورساميلهم دولية النشاط! فكيف الخروج من هذه الورطة الفكرية؟

أتصور أن السبيل هو اعادة النظر في معايير البنك الدولي ذاتها، ابتداءً من كون البنك الدولي نفسه أحد أدوات الرأسمال الدولي الَّتي يستخدمها استقداماً واستبعاداً في سبيل تحقيق مصلحته. ونحن من جانبنا نستبدل هذه المعايير بمعيار آخر هو معيار "**مدى التبعية**" أو (**مدى الاعتماد على الرأسمالية العالمية، من أجل تجديد الإنتاج الاجتماعي، بل ومن أجل الحياة اليومية المعيشة**) وحاصل معيارنا المقترح، **الَّذي يعتمد على قانون القيمة**، هو معرفة مدى اعتماد المصريين على الرأسمالية العالمية إنتاجاً واستهلاكاً، من خلال التعرف على **نسبة متوسط نصيب الفرد من الواردات السلعية، الَّتي تلتهم القيمة الزائدة، إلى نسبة متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي السلعي الإجمالي**، وهو معيار يقيس مدى التبعية الاقتصادية للخارج؛ بقياسه لمقدار **التسرب في القيمة الزائدة** المنتَجة بفضل سواعد الشغيلة الأُجراء في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي.

(٣)

وقد توصلنا إلى أن متوسط نسبة تبعية المجتمع المصري في الفترة (٢٠٠٠-٢٠١٣) مقدارها ٣٩,٧٦%، أيْ أن متوسط استخدام المواطن المصري لسلع السوق الرأسمالية العالمية، ومن ثم اعتماده عليها في حياته

اليومية، يُقدر بأكثر من الثلث من جُملة استخدامه للسلع المختلفة؛ فأكثر من ثُلث السلع الَّتي يَستخدمها المصرى في حياته اليومية هي سلع السوق الرأسمالية العالمية. بل في بعض سنوات الفترة المذكورة تجاوزت نسبة "**التبعية**" هذا المتوسط بكثير وحققت نحو ٦٣% تقريباً في عام ٢٠٠٨. فهل صار الآن واضحاً أكثر أين إتجهت الـ ١٢ ملياراً في مثلنا التقليدي ؟

القطاع الزراعي: ٣ $^{\text{أدوات العمل}}$ + ٣ $^{\text{مواد العمل}}$ + ٤ $^{\text{قوة العمل}}$ + ٤ $^{\text{قيمة زائدة}}$ = ١٤ مليار
القطاع الصناعي: ٣ $^{\text{أع}}$ + ٣ $^{\text{مع}}$ + ٤ $^{\text{قع}}$ + ٤ $^{\text{قز}}$ = ١٤ مليار
القطاع التجاري: ٣ $^{\text{أع}}$ + ٣ $^{\text{مع}}$ + ٤ $^{\text{قع}}$ + ٤ $^{\text{قز}}$ = ١٤ مليار

هل علمنا أين اتجهت القيمة الزائدة المنتَجة بفضل سواعد الشغيلة في مصر ؟ وهل اتضح ما نعنيه بالتبعية ؟ لقد اتجهت الـ ١٢ ملياراً، في مثلنا التقليدي، لتمويل متوسط "مدى التبعية"ونسبته (٤٠% تقريباً) من خلال شراء السلع المنتَجة في الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي.

أيْ أنَّ ما يُنتجه الشغيلة في مصر، وبالمثل باقي الشغيلة في بلدان الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، إنما يذهب لتدعيم صناعات معقدة ومتطورة في الأجزاء المتقدمة.

(٤)

ومعيارُنا الَّذي نقترحه لقياس التبعية، **ابتداء من قانون القيمة**، على أساس **نسبة متوسط نصيب الفرد من الواردات السلعية**، الَّتي تلتهم القيمة الزائدة، **إلى نسبة متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي السلعي الإجمالي**، من أجل قياس مقدار تسرب القيمة الزائدة المنتَجة بفضل

سواعد الشغيلة في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، إنما يختلف **جوهرياً** عن المساهمات الَّتي ادعت انشغالها بقياس التبعية، على الرغم مِن أن بعض هذه المساهمات، مثل مساهمة د. إبراهيم العيسوي على سبيل المثال، تعتد ضمن عشر مجموعات، بنسبة الواردات إلى الناتج المحلي الإجمالي، إلا أن هذا الاعتداد إنما ينبني، مثل جُل المساهمات[٢]، بعيداً عن قانون القيمة، ومن ثم تمسي النتائج مختلفة؛ فعلى الرغم من أن المعيار الَّذي نقول به هو، ظاهرياً، نفس المعيار تقريباً، من ضمن معايير أخرى، الَّذي تقول به المساهمات المختلفة، إلا ان النتيجة مغايرة؛ لأننا نخلص، وفقاً لمعيارنا المرتكِز على قانون القيمة، إلى أن الاقتصاد تابع لأنه يعتمد على الرأسمالية العالمية في سبيله لتجديد إنتاجه الاجتماعي، ومن ثم فهو فاقد للسيطرة على الشروط الموضوعية الَّتي تمكّنه من هذا التجديد دون اعتماد على الخارج. في حين أن المساهمات الأخرى لا تستطيع أن تضع يدها على بيت الداء، لأنها في الواقع لا تستهدفه بالأساس، وتنطلق، بكُل حرية، ربما مفرطة، على صفحات النيوكلاسيك والكينزيين والنقديين كَيْ تدرس مفردات الاقتصاد القومي ككُل[٣]. وفي المنتهى لا تقول لنا إلا ما نعلمه، كأناس عاديين أو باحثين،

---

(٢) انظر في التصورات المختلفة: ابراهيم العيسوي، **قياس التبعية في الوطن العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية: جامعة الأمم المتحدة، مشروعات المستقبلات العربية البديلة، ١٩٨٩) نادر فرجاني، **هدر الإمكانية: بحث في مدى تقدم الشعب العربي نحو غاياته** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١) ط٥. ص٨١ وما بعدها. محمد محمود الإمام، في: **الوطن العربي ومشروعات التكامل البديلة**، أعمال المؤتمر الثالث للجمعية العربية للبحوث الاقتصادية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،١٩٩٧)، ص١٧-٣٥. يوسف صايغ، **موجبات البحث في موضوع الوطن العربي ومشروعات التكامل البديلة**، المصدر نفسه، ص٤٣-٦٥. سمير أمين، **حول التبعية والتوسع العالمي للرأسمالية**، في: التنمية المستقلة في الوطن العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧)، ص١٤٩-١٨٩.

(٣) من هذه المفردات على سبيل المثال: درجة التركز الجغرافي للصادرات، نسبة الواردات الوسيطة إلى الاستهلاك الوسيط، نسبة الواردات الاستهلاكية غير الضرورية إلى الواردات، نسبة واردات الطاقة إلى =

من ان الاقتصاد سيء الآداء، مُشوّه الهيكل، والشعب فقير جاهل، والعملة الوطنية متدهورة القيمة، والتضخم مستشر، والأستثمار متراجع، والركود متزايد، بل ربما قالت لنا ان درجات الحرارة غير مستقرة... إلخ. فإن أفضل ما لدى جُل المساهمات في التبعية، كما تراها هي، كَيْ تقوله هو أن الاقتصاد واهن سقيم، ونحن نَعلم ذلك! يجب أن تتكاتف الجهود الوطنية المخلصة كَيْ تنقذه وتقيله من عثراته، ونحن نعلم ذلك أيضاً ولا جديد! وعلى الفور نقرأ ونسمع السيل من المقترحات (من خارج عِلم الاقتصاد السياسي، كَعِلم مُنشَغل بقانون القيمة) توصي وتنصح أولاً بمسح شامل للاقتصَاد (تقريباً وفقاً لمؤشرات البنك الدولي!) فإذ ما وجدت، وحتماً ستجد، الاقتصاد القومي المتخلف يُعاني من التضخم والكساد والبطالة والركود،... إلخ، إنتقلت إلى المرحلة الثانية الَّتي توصي فيها، ولو ضمناً، بالنظر إلى ما هو متبع من سياسات اقتصادية في الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي والمناداة، ربما العُصابية أحياناً، بتطبيقه حتى يمكن إصلاح الاقتصاد! ويكون من لوازم هذا النداء، بطبيعة الحال، النداء الموازي بضرورة الاندماج في السوق الرأسمالية العالمية. على الرغم من أن نفي التبعية مرتهن بمدى رفض الاعتماد على السوق الدولية من أجل تجديد الإنتاج الاجتماعي في الاقتصاد المتخلف، التابع، أيْ أنَّ نَفيْ التبعية يكون بالتنمية المستقلة

= جملة الواردات، مدى قوة العلاقة القائمة بين الدول المعنية وهيئات التمويل الرأسمالية الدولية مدفوعات خدمة الدين الخارجي كنسبة من حصيلة الصادرات، نسبة مساهمة الموارد غير المتجددة والقطاعات الحساسة في النمو الاقتصادي، درجة التركز الجغرافي للدين القائم، نسبة استثمارات الدولة في الخارج إلى جملة ايراداتها الجارية من النقد الأجنبي، درجة التركز القطاعي لمساهمة الأجانب في رساميل الشركات العاملة في الدولة. العيسوي، **قياس التبعية في الوطن العربي**، نفسه، ص٦٦-٧٣. وهي جميعها "وسائل وصفية ذات قدرة تحليلية محدودة". سمير أمين، **حول التبعية والتوسع العالمي للرأسمالية**، نفسه، ص١٥٧.

المعتمدة على الذات. بيد أن ما نستنتجه من المساهمات الَّتي تعتنق التصورات الحدية، أو الكينزية في أفضل الأحوال، هو أن الخروج من التبعية يكون باتباع سياسات الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر! إن التبعية، كما نفترضها، هي أن **يفقد المجتمع الاستقلالية الاقتصادية. يفقد القدرة على السيطرة على الشروط الموضوعية لتجديد إنتاجه الاجتماعي.**

والمجتمع يفقد الاستقلالية الاقتصادية حينما تتسرب القيمة الزائدة المنتجة بفضل عرق الشغيلة في الأجزاء المتخلفة صوب الأجزاء المتقدمة.

كما يفقد المجتمع القدرة على **السيطرة على الشروط الموضوعية لتجديد إنتاجه الاجتماعي** حينما يمسي عاجزاً عن الإنتاج دون أن يعتمد على السوق الرأسمالية العالمية الَّتي تحتكر إنتاج وسائل الإنتاج الَّتي يعتمد عليها المجتمع المتخلف، التابع، في سبيله إلى تجديد إنتاجه السنوي، بل وفي سبيله إلى تحقيق وجوده الإنسانى اليومي. الأمر الَّذي يجعلنا نسأل سؤالاً واحداً محدداً هو: ما مقدار اعتمادنا، نحن أبناء الأجزاء المتخلفة، على الرأسمالية العالمية في سبيلنا إلى تجديد إنتاجنا الاجتماعي السنوي، وتحقيق وجودنا الإنساني والاجتماعي اليومي؟

هذا السؤال هو ما نعتبره "سؤال التبعية". وهو السؤال الَّذي لا يمكن، في تصوري، مناقشته إلا ابتداءً من قانون القيمة. وربما قانون القيمة فقط. أما البحث في مفردات الاقتصاد القومي ككُل، وفقاً لنظريات البنك الدولي، والمؤسسة التعليمية الرسمية، فنحن في الواقع لا ننكره ولا نرى مبرراً لاهدار نتائجه، وإنما لا نتجاوز به حدوده الَّتي لا ينبغي له أن

يتعداها كبحث ينتهج التصورات الحدية ولا يرى الاقتصاد القومي إلا من خلال معدلات التضخم، وبيانات البطالة والفقر، ونسب الجوعى والمرضى، واحصاءات الدخل والناتج... إلخ، لأن هذه الأبحاث تنشغل بعمل بحث، إنما نيوكلاسيكي/ حدي/ آني، في مشكلات مفردات الاقتصاد المعني ككُل. ودون أن تُثير الكيفية التاريخية الَّتي شكلت الواقع، (الَّذي تبحثه)، بجميع تفاصيله.

(٥)

إنَّ دراسة الاقتصاد بوجه عام جداً من الأمور السديدة منهجياً بلا شك، إنما بشكل جزئي، بل من الواجب علمياً، في مرحلة منهجية أولى، أن يُدرَس الاقتصاد القومي، آنياً، من جوانبه كافة، إنما غير الصحيح، في تصوري، هو أن نُسمي هذا البحث الشامل بحثاً في التبعية، لأن **التبعية كمقياس لظاهرة تجديد إنتاج التخلف الاقتصادي والاجتماعي** إنما يتعين أن تقيس مدى اعتماد الاقتصاد القومي على الرأسمالية العالمية في سبيل تجديد إنتاج المجتمع لإنتاجه السنوي. تقيس مدى فقد المجتمع للسيطرة على الشروط الموضوعية لتجديد إنتاجه الاجتماعي. تقيس مدى فقد المجتمع للقدرة على الإنتاج المستقل المعتمد على الذات. تقيس **مدى تسرب القيمة الزائدة** المنتَجة بفضل سواعد الشغيلة في الاقتصاد القومي المتخلف إلى خارجه صوب الأجزاء المتقدمة من أجل شراء وسائل الإنتاج اللازمة لتجديد الإنتاج الاجتماعي. وحينئذ يمكننا تحديد الإشكالية المركزية، ومن ثم تحديد طبيعة الحل. أما البحث في مفردات الاقتصاد القومي ككُل، ابتداءً من تصوراتٍ نيوكلاسيكية/حدية/ آنية، وفقاً لمؤشرات البنك الدولي والنظرية الرسمية، كيْ نصل إلى أن الاقتصاد واهن كاسد متصدع

الهيكل، ثم نُسمي ذلك تبعية! فهو ما نتصوره في حاجة إلى مراجعة، على الأقل من أجل تصحيح فهم التبعية نفسها فهماً ناقداً بغرض الخروج منها. وهو ما يتطلب فهمها فهماً متجاوزاً للرؤى الخطية والتصورات الميكانيكية. فهمها إنما ابتداءً من قانون القيمة. فقانون القيمة بمفرده، ودون ادعاء امتلاك ناصية الحقيقة الاجتماعية، هو القادر على أن يشرح بدقة التبعية بمعناها المفترض أنه صحيح، ومن ثم يمكنا من النَفيْ التاريخي لها كمقياس لتجديد إنتاج التخلف الاقتصادي والاجتماعي. وهو ما يمكنا بالتبع من ترسيم حدود النَفيْ التاريخي للتبعية كمقياس للقيمة الزائدة المتسربة إلى خارج الاقتصاد القومي المتخلف، التابع، المنتِج لها.

(٦)

يرتبط هذا التسرب في القيمة الزائدة المنتجة في داخل الاقتصاد الوطني، التابع، إلى خارج الاقتصاد القومي من أجل تمويل نسبة "مدى التبعية"، أَيْ من أجل شراء السلع والخدمات الَّتي تتوقف عليها عملية تجديد الإنتاج الاجتماعي، بمفهوم التخلف ارتباطاً وثيقاً، حيث أننا نرى أن التخلف الاقتصادي والاجتماعي هو:"**عملية اجتماعية من ارتفاع معدل إنتاج القيمة الزائدة المتناقض مع ضعف آليات إنتاجها، ومن خلال هذا التناقض تتبلور ظاهرة تسرب القيمة الزائدة المنتَجة داخلياً في الأجزاء المتخلفة من الاقتصاد الرأسمالي العالمي المعاصر إلى الأجزاء المتقدمة**". أيْ تتسرب هذه القيمة الزائدة من أجل تمويل نسبة "مدى التبعية".

وهذا التحديد لمفهوم تجديد إنتاج التخلف الاقتصادي والاجتماعي، ووفقاً لقانون التناقض، يُشير إلى أن الرأسمالية في الأجزاء المتخلفة وعلى حين يهمها الابقاء على معدلات إنتاج القيمة الزائدة المرتفعة، بل ورفع تلك المعدلات (لأنها سر حياتها) فهي تقع في التناقض حين تسعى، وفي نفس الوقت، إلى تطوير قوى الإنتاج، المتخلفة بالأساس، في تلك الأجزاء، والَّتي تتلقى الفنون الإنتاجية من الأجزاء المتقدمة بعد استهلاكها هناك، ومعنى تطوير قوى الإنتاج هو إحلال الآلة؛ ويعني إحلال الآلة (من أجل الحصول على أكبر قدر من السلع في أقل وقت عمل، مع دفع أقل أجر) التقليص من مُعدلات إنتاج القيمة الزائدة. هنا يقع التناقض ما بين ارتفاع معدلات إنتاج القيمة الزائدة وضعف آليات إنتاجها.

وإلى حين حل هذا التناقض تأخذ القيمة الزائدة المنتَجة داخلياً في التسرب إلى خارج مسام الاقتصاد القومي كَيْ تُغذي صناعات معقدة ومتطورة في الأجزاء المتقدمة (ولا نُغفِل الأجزاء الَّتي إتخذت منها الأجزاء المتقدمة مصدراً للعمالة الرخيصة فنقلت مصانعها إليها) والَّتي تمد الأجزاء المتخلفة بالسلع كثيفة التكنولوجيا والرأسمال، وهي السلع الَّتي تتوقف عليها شروط عملية تجديد الإنتاج الاجتماعي في الأجزاء المتخلفة.

أيْ أن القيمة الزائدة المنتَجة داخلياً تأخذ في التسرب إلى خارج الاقتصاد القومي من أجل تمويل نسبة "مدى التبعية".

(٧)

والجدول أدناه يُبيّن الميل العام لتبعية الاقتصاد المصري للسوق الرأسمالية الدولية في الفترة من ٢٠٠٠ إلى ٢٠١٣.

وإذ نراعي الوَعيْ بأن المتوسط الحسابي عادة ما يُخفي أكثر مما يظهر، فلن نعتد إلا بالميل العام على وجه الاسترشاد لفهم أداء الاقتصاد على صعيد التبعية الاقتصادية بوجه خاص.

السنة	متوسط نصيب الفرد من الواردات السلعية	متوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي السلعى الإجمالي	معدل التبعية
٢٠٠٠	٠,٧٦	٢,٦	٢٩,٢٣
٢٠٠١	٠,٧٧	٢,٦٧	٢٨,٨٣
٢٠٠٢	٠,٨٤	٢,٩٣	٢٨,٦٦
٢٠٠٣	٠,٩٤	٣,٣٢	٣٢,١٢
٢٠٠٤	١,١٥	٣,٦٥	٣١,٥٠
٢٠٠٥	١,٦٢	٤,١١	٣٩,٤١
٢٠٠٦	١,٦٢	٤,٧٠	٣٤,٤٦
٢٠٠٧	٢,٠٨	٥,٩	٣٥,٢٥
٢٠٠٨	٣,٨٦	٦,١	٦٣,٢٧
٢٠٠٩	٣,٢٨	٦,٧٢	٥٣,٧٧
٢٠١٠	٣,٨٢	٧,٦٧	٤٩,٨٠
٢٠١١	٤,٦١	٨,٥٢	٥٤,١٠
٢٠١٣/٢٠١٢	٣,٨٠	١٠,٤	٣٦,٥٣
المتوسط العام للتبعية الاقتصادية في الفترة ٢٠٠٠ / ٢٠١٣ = ٣٩,٧٦%			

المصدر: حسبت بالإعتماد على المقارنة والمقاربة والترجيح بين الأرقام الواردة في التقارير الآتية:

Report of the World Development (1993) (1998) (2010) (2011) (2012) (2013). **CIA-The world fact book** (2008) (2009) (2010) (2011) (2012) (2013). **Human Development Report** (2010) (2011) (2012). **Report of the World Social Situation** (2009) (2010) (2011) (2012) (2013). **World Economic Outlook** (2010) (2011) (2012) (2013). **International Financial Statistics** (March 2010) (May 2011) (May 2012) (March 2013) **Education for All by 2015.Will we make it?** (2008).**Yearbook of Labour Statistics** (2009) (2010) (2011) (2012).

(٨)

وليكن عالمنا العربي نموذجنا الثاني. والجدول التالي يوضح مقدار التسرب. تسرب القيمة الزائدة الكلّية في قطاع واحد، ربما الأهم، من القطاعات الثلاثة الَّتي يتركب منها الهيكل الاقتصادي لبلدان العالم

العربي، وهو القطاع الزراعي (٢٠١٣/٢٠١٢) لتكوين تصور أكثر وضوحاً عن الاتجاه العام.

البلد	عدد السكان (بالمليون نسمة)	القوة العاملة في قطاع الزراعة (%) من إجمالي العاملين، وما بين القوسين عدد العاملين في القطاع الزراعي منسوباً إلى عدد السكان	الناتج الزراعي (بالمليون دولار)	الصادارت (بالمليون دولار)	الواردات (بالمليون دولار)
الأردن	٦,٢٠٠	٨,٨ (٠.٥٤٥)	٧٣٠	٦٠٦	٢٥٠٠
الإمارات	٨,٢٦٤	٥,٢ (٠.٤٢٩)	٢,٦٥٥	١٧٩٠	٤٧٠٠
البحرين	١,٣٠	٢,٤ (٠.٠٣١٢)	٩٣	٢٥٧	٥٩٠
تونس	١٠,٥٠٠	١٦,٢ (١.٧٠١)	٣,١٧٥	٢٩٠٠	٢٤٤٩
الجزائر	٣٥,٨٠٠	١٣,١ (٤.٦٩٠)	١٣,٤٨٥	٢٦٠	٧٥٨٥
جيبوتي	٩٢٣	٧٤,٩ (٦٩١.٣٣٠)	٣٦	٢٢	١٥٠
السعودية	٢٧,٥٢٢	٤,١ (١.١٣٠)	١١,٢٠٤	٢٨٠٠	١٨٨٢٢
السودان	٤١,١٦٠	٤٤,٥ (١٨.٣٢٠)	٢٢,٧٨٥	١٧١	٤٨٠
سورية	٢٠,١٢٥	١٣,٩ (٢.٧٨٠)	١٢,٢١٥	٢٢٦٥	٣٢٥٤
الصومال	١٠,٤٩٠	٣٥,٥ (٣.٧٢٣)	.....	٢٢	٥٩٠
العراق	٣٣,٤٠٨	١٤,٠(٤.٦٧٧)	٧,٢٩٨	١٠	٢٠٠٠
عُمان	٣,٤١٥	٢٠,٥ (٠.٧٠٠٠٨)	٨٥٧	٣٥٠	٢٥٨٩
فلسطين	٧,٩٠٠	.....	.....	٧٢	٣٥٤
قطر	١,٦٩٩	١,٦(٠.٠٢٧١٨)	٢٨١	١٠	٤١٥
القمر	٧٠٠	.....	.....	.....	.....
الكويت	٣,٥٥٤	١,٨(٠.٠٦٣٩٧)	٢٦٢	١٨٠	١٩٢٠
لبنان	٤,٠١٨	٢,٢ (٠.٠٨٨٤)	١,٩٦٣	٣٦٠	٢٢٦٥
ليبيا	٧,٧٧٤	٤,٩(٠.٣٨٠٩٣)	١,٦٣٢	٧	٢٠٦٩
مصر	٨٣,٦٨٢	٢٩,٩(٢٣.٥٢٥)	٢٩,١٣٥	٣٦٠٠	٦٩٤٠
المغرب	٣١,٥٨٩	٤٢,٦ (١٣.٤٥٦)	١٢,٥١٠	٣٨٠٠	٤٢٣٣
موريتانيا	٥,٧	٤٦,٥ (٢٦.٥٠٥)	٥٧٥	٦٤	٩٥
اليمن	٢٣,١٥٤	٣٦,٩ (٨.٥٤٣)	٣,٤٩٢	٣٨٩	٢٢٥٦

المصدر: نفسه.

وعلى هذا الجدول لنا الملاحظات الآتية:

- من العبث أن يُدرس الاقتصاد العربي ككُل واحد، إذ الواقع يؤكد عدم تجانس الاقتصادات العربية، وإن الأخذ بالمتوسطات الحسابية، الَّتي تُخفي أكثر مما تُظهِر، يُعد خطأً علمياً فادحاً. إذ ما تم استخلاص نتائج (نهائية) بناء عليها؛ فثمة بلدان تُحقق فائضاً نسبياً، وأخرى لديها نقص شديد. وثمة بلدان تِعداد سكانها يفوق عشرات المرات تِعداد سكان بلدان أخرى. وثمة بلدان يكون نصيب الفرد فيها مرتفعاً، وأخرى منخفضاً للغاية. وثمة بلدان يعمل جُل سكانها بالزراعة، وبلدان أخرى يَندر بها النشاط الزراعي. فكيف يتم درس اقتصادات غير متجانسة بهذا الشكل وإفتراض تجانسها؟ إذ الشائع في درس الاقتصادات العربية هو درسها ككُل. كوحدة واحدة. والاعتماد على الأرقام الإجمالية الَّتي قد تقدم صورة وردية في بعض القطاعات والبنود، وإنما عبثية!

- بعد خصم قيمة الواردات، في قطاع الزراعة، فإن الناتج الزراعي الكُلّي لا يفي بحاجات السكان في غالبية بلدان العالم العربي. ربما بإستثناء، وبشكل نسبي: بلدان الإمارات والبحرين وجيبوتي والسعودية وعُمان وقطر والكويت ولبنان وليبيا وموريتانيا.

- الفوائض الزراعية المنتَجة في بعض بلدان العالم العربي مثل: السودان، ومصر، ولبنان، والعراق، وسورية، تمثل غالبيتها في الأسماك، وبعض أنواع الفواكه، وبعض أنواع الخضروات. مع نقص، أحياناً شديد، في المنتجات الزراعية الرئيسية: الحبوب، والدقيق، والأرز، والشعير، والبطاطس، والبقوليات، واللحوم، والزيوت، والألبان ومنتجاتها.

- ثمة بلدان مثل جيبوتي يعمل بها نحو ٧٤,٩% من السكان بالزراعة والنشاطات المرتبطة، ومع ذلك تستورد طعامها من الخارج.

- توجد بلدان تتوقف عملية إطعام السكان فيها على ما يحدث في النظام الرأسمالي العالمي مثل: الأردن والإمارات والبحرين والسعودية وعُمان وقطر والكويت ولبنان وليبيا، فهي بلدان تستورد طعامها من الخارج بنسبة كبيرة؛ إذ لا يَفِي إنتاجها بحاجات السكان. وتلك البلدان إنما تمول عملية الاستيراد من خلال القيمة الزائدة المنتَجة بسواعد العرب، ربما في قطاعات أخرى، مثل الصناعة، الاستخراجية عادةً، والخدمات، الرديئة نسبياً. وذلك بالنظر إلى إجمالي الصادرات والواردات للهيكل كَكُل، كما سنرى لاحقاً.

- تفاوت مستوى الإنتاجية، مع الأخذ في الإعتبار عنصر الجغرافيا، من الخصائص اللصيقة بالدراسة المقارنة للاقتصادات العربية، فعلى سبيل المثال: ما يُنتجه مزارعو وفلاحو الأردن يُنتَج في الإمارات ضعفه تقريباً. وما يُنتَج في تونس يُنتَج ثلاثة أضعافه في المملكة السعودية، وما يُنتج في العراق يُنتَج ضعفه في الجزائر. وما يُنتَج في موريتانيا يُنتَج في مصر ستة أضعافه تقريباً!

- يؤدي إختلاف كُل مِن سعر صرف العملة، والإنتاج من إجل السوق، وإنما السوق الرأسمالية الدولية، الدور المحوري في هيكل الزراعة العربية، فالرأسمال المستثمِر في قطاع الزراعة لا يهمه سوى الربح، سواء تحقق بإطعام أهل البلد الَّذي يستهلك أرضه، أو خارجه. ومن هنا كان الإنتاج دائماً من أجل السوق، وليس من أجل تأمين الاكتفاء الذاتي للمجتمع، أو

تنمية معتمدة على الذات، وفك الروابط مع الإمبريالية العالمية. إذ في بعض البلدان، تونس مثلاً، يكون إجمالي الإنتاج الزراعي قادراً على تأدية دوره النوذجي في خلق الشخصية الوطنية المستقلة في مواجهة الرأسمالية الدولية في توسعها المستمر، إذ يُقدر الإنتاج الزراعي، وفقاً لأرقام ٢٠١١، بنحو ٣,١٧٥ مليار دولاراً، يصدر تونس منهم ٢,٩٠٠ مليار دولاراً، ويستورد في المقابل نحو ٢,٤٤٩ مليار دولاراً! يتعين هنا الوَعيْ بعلاقات الملكية العقارية، وتركيبة الطبقات المهيمنة وتكونها التاريخي في ركاب الرأسمال الأجنبي.

- ثمة بلدان، مثل: السعودية (يتعين هنا الوَعيْ بتفاصيل عقود التخصيص الَّتي تحصلت عليها المملكة في الأراضى السودانية) قُدّر ناتجه الزراعي، وفقاً لأرقام ٢٠١١، بنحو ١١,٢٠٤ مليار دولاراً، كما قدرت قيمة صادراته بنحو٢,٨٠٠ مليار دولاراً، في الوقت الَّذي قدرت قيمة الواردات بما يقارب ١٩ مليار دولاراً. أَيْ أن المجتمع السعودي يحصل على جُل غذائه من السوق الدولية.

- بلد أخر مثل السودان، قُدر ناتجه الزراعي في عام ٢٠١١، بنحو ٢٢,٧٨٥ مليار دولاراً، وبعد خصم الصافي الزراعي، وقدره ٣٠١ مليون دولاراً، فيكون السودان قد حقق نحو ٢٢,٤٨٤ مليار دولاراً! ولم يزل السودان يُجدد يومياً تخلفه. لماذا؟ لأن جُل هذا الناتج لصالح رأسمال أجنبي يَستَهلِك أرضه (سعودي، إماراتي، كوري جنوبي، حتّى الآن) هذا من جهة. ومن جهة أخرى لأنه يعد مثالاً نموذجياً للتسرب، ليس الفائض كما هو شائع، وإنما لتسرب القيمة الزائدة الَّتي تم إنتاجها بداخله، من أجل

استيراد كُل ما هو ضروري من أجل تجديد الإنتاج على الصعيد الاجتماعي.

وبمناسبة الفائض؛ فثمة دراسة قام بها د. عبد الهادي النجار[٤]، بحث من خلالها ظاهرة تعبئة الفائض المنتَج في القرية، كما بحث ظاهرة فصل الريف عن المدينة، والتناقض بينهما، في إنجلترا والولايات المتحدة ومصر، ولكن لا تتجاوز الدراسة حدود الإنتاج الزراعي بل هي تجد الفائض الزراعي مرادفاً للفائض الاقتصادي. الأمر الَّذي يوحي، وهو غير صحيح، بأن الفائض لا يولد إلا في القطاع الزراعي، وإن صح ذلك تاريخياً بحكم الأهمية النسبية الَّتي احتلتها الزراعة في خطط الاستعمار، فالطرح في حاجة إلى إعادة نظر، لأن المدينة وإن كانت تؤدي دور الموزع للفائض الَّذي تتحصل عليه من الريف وتُعيد ضخه إلى الاقتصاد الأم (المتبوع)، فهي الآن تفعل الأمر نفسه، ولكن بطريقة أخطر، وهي تسريب، بلا وَعي غالباً، القيمة الزائدة الَّتي تُنتَج بسواعد الطبقات المطحونة داخلياً، وبصفة خاصة في قطاع الزراعة والصناعة، إلى الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي. ونشفق كثيراً على هؤلاء الَّذين يرون أن الأجزاء المتخلفة تُعاني من (هدر الفائض!) أو (استغلاله من الإمبريالية للفائض!) فهم يستشعرون، ويعرفون أن بلادهم منتهكة خيراتها، ولكن لا تُسعفهم الأرقام والبيانات! إذ أن الواقع يقول أن الأجزاء المتخلفة تُعاني من العوز، بل والعوز الشديد، وليس الفائض؛ فنراهم يعملون جاهدين من أجل لَيْ عُنق الواقع لإثبات هدر الفائض! على الرغم من أن نظرية القيمة بامكانها أن تمد هؤلاء بفكرة واضحة وحقيقية وواقعية

---

(٤) عبد الهادي علي النجار، **الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لتعبئة الفائض الزراعي نحو المدينة**، مجلة مصر المعاصرة؛ العدد٣٧٦ (القاهرة: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع،١٩٧٩)

عن التسرب، وبإمكانهم أن يسمونه، حينئذ، بما يحلو لهم من فائض أو غيره. إنما دون احتيال لا نتحرك به إلا إلى الوراء!

- وللإنتقال خطوة أكثر تقدماً، يتعين أن نُعاين هيكل الصادرات والواردات ٢٠١٢/٢٠٠٩ في ضوء الناتج المحلي الإجمالي، أيْ ننتقل إلى جدول يُبيّن لنا قيمة الصادرات والواردات، والتركيب السلعي. وذلك من خلال تكوين الوَعىْ بإجمالي ما أنتج في داخل الاقتصاد القومي. وسوف نعتد في الجدول أدناه بالناتج المحلي الإجمالي في قطاعات الإنتاج السلعي (أَيْ: الزراعة والصيد، والصناعات الاستخراجية، والتشييد، والكهرباء، والغاز، والماء) من دون الاعتداد بقطاع الخدمات مثل التجارة والمطاعم والفنادق والتمويل والتأمين والمصارف، وقطاع الخدمات الاجتماعية (الإسكان والمرافق، والخدمات الحكومية) إذ يعكس الإنتاج المادي، السلعي، صورة أوضح نسبياً تسعفنا في سبيل شرح فرضيتنا، لتسرب القيمة الزائدة.

البلد	الناتج المحلي الإجمالي من السلع (من دون الخدمات بالمليار دولار)	الدين الخارجي بالمليار دولار	الصادرات بالمليار دولار	نوعية السلع المصدرة	الواردات بالمليار دولار (تسرب)	نوعية السلع الواردة	الانفاق العام بالمليار دولار (تسرب محتمل)
الأردن	٧,٩٠٥	٨,٣٤٥	٨,٢١٨	ملابس، أسمدة، بوتاس فوسفات، خضروات، فواكه، مواد صيدلانية	١٧,٧٣	نفط خام، آلات، معدات النقل، إتصالات سلكية ولاسلكية، حديد، حبوب، مواد غذائية، سلع رأسمالية	٨,٠٥١

تونس	١٤,٧٦٨	٢٤,٥٠	١٧,٨٧	ملابس، سلع نصف مصنعة، منسوجات، مُنتجات زراعية، فوسفات، مواد كيميائية، هيدروكربونات	٢٣,٤٩	منسوجات، آلات، معدات نقل وأجزائها، مواد هيدروكربونية، مواد كيميائية، مواد غذائية، ألكترونيات، سلع رأسمالية، مواد لصناعة الورق	١٣,٤٦٦
جيبوتي	١٢٤ مليون دولار	٨٠٢,٩ مليون دولار	١٠١,٧ مليون دولار	جلود، بن	٤٦٥,١ مليون دولار	أطعمة، مشروبات، معدات النقل وأجزائها، آلات، كيماويات، مُنتجات بترولية، أسلحة، زخائر وأجزاؤها	٤٢٤ مليون دولار
سوريا	٣٢,٢٨٠	٨,٨٩٠	٤,٩٨١	نفط خام، معادن، منتجات نفطية، فواكه، خضروات، ألياف، قطن، منسوجات، ملابس، لحوم حية، قمح	١٧,٦	آلات، معدات النقل، آلات الطاقة الكهربائية، مواد غذائية، ثروة حيوانية معادن، منتجات معدنية، كيماويات، مُنتجات كيماوية،بلاستيك، غزل، أسلحة	١٥,١٩٦
الصومال	٥,٨٩٦	٣,٢٥٤	٥١٥.٨ مليون دولار	ثروة حيوانية، معادن الخردة، موز، جلود، أسماك، فحم	١,٢٦٣	آلات، معدات، مُنتجات نفطية، مواد غذائية، أسلحة، زخائر وأجزاؤها،	.....

لبنان	٩,٥٤٣	٣٢,٦٤	٥,٦٥٥	مجوهرات، معادن، موادكيميائية، فواكه، خضروات، تبغ، ألياف النسيج، جلود وفراء ومُنتجاته، نسيج	٢٠,٧٣	منتجات بترولية، سيارات، آلات معدات نقل، مُنتجات طبية، ملابس، لحوم، سلع استهلاكية، مواد صناعة الورق، أقمشة،	١١,٣٠٨
مصر	١٠٧,١٣٢	٣٤,٨٨٩	٢٨,٣٧	نفط خام، مُنتجات نفطية، قطن،منسوجات، منتجات معدنية، مواد كيمائية، أغذية المصنعة، جلود، حيوانات حية	٦٩,٨٤	آلات، معدات، مواد غذائية، مواد كيمائية، مُنتجات خشبية، ألكترونيات، مواد صيدلانية، ملابس، منسوجات، منتجات معدنية،	٦٦,٢٧٢
المغرب	٣٧,٣١٥	٢٩,٤٢	٢٢,٢٣	ملابس ومنسوجات، معادن خام، مُنتجات نفطية، حمضيات، أسماك وخضروات	٤٢,٤٩	بترول خام، نسيج، معدات وآلات إنتاج، إتصالات سلكية ولاسلكية، قمح، غاز، كهرباء	٢٩,٩٢٠
موريتانيا	٢,٠٤٧	٢,٩٤٢	٢,٨٧٨	خام الحديد، أسماك، منتجات سمكية، ذهب، نحاس، نفط	٤,١٥٢	آلات، معدات، منتجات بترولية، سلع رأسمالية، مواد غذائية، سلع استهلاكية، سلاح	١,٠٣٠
اليمن	١٣,٢٩٨	٦,٧٢٤	٧,٩٥٨	نفط خام، غاز طبيعي، أسماك جافة ومملحة	١٢,٨٩٣	مواد غذائية، منتجات بترولية، أسلحة، زخائر وأجزاؤها	١٠,٢٨٨

المصدر: نفسه.

وعلى هذا الجدول بعض الملاحظات:

- لقد تعمدنا الاعتداد بالأرقام في الفترة من ٢٠٠٩ إلى ٢٠١٢ للتعرف إلى الإتجاه العام للحركة، في المدى القصير، والَّذي يعكس خلاصة الإتجاه الطويل في الفترة السابقة، وفي نفس الوقت يُعطي مؤشرات واقعية إلى حد كبير على الإتجاه العام في الفترة التالية على سنوات التحليل.

- لم تزل بلدان العالم العربي، حتى بعد خروج الاستعمار الأجنبي، تمثل بالنسبة للأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي المصدر العام للمواد الأولية والخام، غير المصنعة غالباً. كما يظهر في بند نوعية السلع المصدرة.

- لم تزل بلدان العالم العربي، وحتّى بعد خروج الاستعمار الأجنبي، تعتمد على السلع الإنتاجية والاستهلاكية الَّتي تُنتَج في مصانع الغرب الرأسمالي. وخطورة هذه السلع تكمن في كونها السلع الَّتي تتوقف عليها عملية تجديد الإنتاج الاجتماعي نفسه في داخل الاقتصاد القومي، مثل الآلات والمعدات عالية التقنية، كما يتضح من بند نوعية السلع الواردة.

- يتضح من الجدول أعلاه أن الواردات تلتهم جُل قيمة الناتج المحلي الإجمالي، الواهن أساساً، مع الأخذ في الإعتبار أن قيمة ما تُنتجه الطبقة العاملة في داخل الاقتصاد القومي عادة ما تكون أحد أجزاء قيمة استيراد هذه الواردات.

- ومن ثم تمثل الواردات أزمة حقيقية لغالبية بلدان العالم العربي أمام القدرة على الوفاء بالديون الخارجية، من جهة، والقيام بالدور الاجتماعي للدولة، المتمثل في الانفاق العام، من جهة أخرى. والانفاق العام يمثل في

نفس الوقت مثالاً للتسرب المحتمل في القيمة المنتَجة في داخل الاقتصاد القومي إلى خارجه نحو الأجزاء المتقدمة من أجل استيراد السلع والخدمات الَّتي تقوم الدولة بتوفيرها، مدّعمة غالباً، للمواطنين في المجتمع.

مع الأخذ في الاعتبار تحفظنا على التحليل الاقتصادي للعالم العربي وفقاً للنظريات المبنية على المتوسط الاحصائي. فإذ ما أردنا التعرف إلى مدى تبعية البلدان العربية، غير النفطية، للأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي، وفقاً لقانون القيمة، في عام واحد، وليكن عام ٢٠١٠، فسوف نجد أن تبعية هذه البلدان تعكس صورة واضحة للغاية لعملية التخلف الاقتصادي والاجتماعي كعملية اجتماعية قوامها تسرب القيمة الزائدة المنتَجة بفضل عرق الشغيلة في هذه البلدان العربية.

فإذ ما قمنا، وفقاً لمقترحنا، بحساب نصيب الفرد من الواردات السلعية المنتَجة غالباً في الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي، ونسبته إلى نصيب الفرد من الناتج المحلي السلعي الإجمالي، في بعض البلدان غير النفطية، فسنجد أن معيار مدى التبعية يُسجل متوسط مقداره ٦٧,٦١%، وفقاً للجدول أدناه.

البلد	نصيب الفرد من الواردات السلعية	نصيب الفرد من الناتج المحلي السلعي الإجمالي
الأردن	٢,٨٥	١,٢٧
تونس	٢,٢٣	١,٤٠
جيبوتي	٠,٥٠	٠,١٣
سوريا	٠,٨٧	١,٦٠
الصومال	٠,١٢	٠,٥٧
لبنان	٥,٨	٢,٢٣
مصر	٠,٨٤	١,٢٩

المغرب	١,٣٣	١,١٨
موريتانيا	٠,٧٢	٠,٣٥
اليمن	٠,٥٥	٠,٥٧
المجموع	١٥,٨١	١٠,٦٩
نسبة متوسط مدى التبعية (%)	٦٧,٦١	

المصدر: نفسه

ومن أجل أن نرى الصورة الأكبر أوضح، فلننتقل إلى الجدولين أدناه، الأول: يوضح حجم الناتج القومي الإجمالي وحجم الصادرات والواردات في بعض الدول المتقدمة طبقاً لأرقام ٢٠١٢، والثاني: يوضح التركيب السلعي كما في حركة الصادرات والواردات لنفس الدول طبقاً لأرقام نفس العام.

حجم الناتج القومي الإجمالي وحجم الصادرات والواردات في بعض الدول المتقدمة طبقاً لأرقام ٢٠١٢

البلد	الناتج القومي بالتريليون دولار	الصادرات بالتريليون دولار	الواردات بالتريليون دولار
ألمانيا	٢,٨٣٤	١,٣٣٧	١,١٢٠
الولايات المتحدة	١٥,٦٢٩	١,٦١٢	٢,٣٥٧
اليابان	٤,١٨٧	٧٩٢,٢٠٠ (بليون دولاراً)	٦٣٦,٨٠٠ (بليون دولاراً)
فرنسا	٢,٢١٧	٥٠٨,٧٠٠ (بليون دولاراً)	٥٧٧,٧٠٠ (بليون دولاراً)
كوريا الجنوبية	١,٤٦٧	٤٦٦,٣٠٠ (بليون دولاراً)	٤١٧,٩٠٠ (بليون دولاراً)
إيطاليا	١,٨٣٤	٤٧٨,٤٠٠ (بليون دولاراً)	٤٣٣,٧٠٠ (بليون دولاراً)
كندا	١,٣٣٥	٤٥٦,٨٠٠ (بليون دولاراً)	٤٠٦,٤٠٠ (بليون دولاراً)
المملكة المتحدة	٢,١٢٧	٤٠٥,٦٠٠ (بليون دولاراً)	٥٤٦,٥٠٠ (بليون دولاراً)

المصدر: نفسه

التركيب السلعي كما يتضح من حركة الصادرات والواردات لبعض الدول المتقدمة طبقاً لأرقام ٢٠١٢

البلد	نوعية السلع المصدّرة	نوعية السلع الواردة
المانيا	آلات، معدات، سلع رأسمالية، سيارات، منسوجات	آلات، سيارات، مواد غذائية
الولايات المتحدة	منتجات زراعية، امدادات صناعية، ترانزستورات، طائرات، سلاح، سيارات، قطع غيار السيارات، الكترونيات، أجهزة الكمبيوتر، معدات الاتصالات السلكية واللاسلكية، أدوية	نفط خام، ملابس، سيارات، أثاثات، أدوية، لعب الأطفال، معدات الاتصالات
اليابان	امدادات صناعية، سيارات، قطع غيار السيارات، الكترونيات، أجهزة كمبيوتر، معدات الاتصالات السلكية واللاسلكية، أشباه الموصلات	نفط خام، وقود، مواد غذائية، مواد خام
فرنسا	آلات، معدات النقل، طائرات، سلاح، الكترونيات، منتجات صيدلانية، حديد وصلب، مشروبات، سيارات	نفط خام، لدائن، مواد كيميائية
كوريا الجنوبية	أشباه الموصلات، الكترونيات، معدات الاتصالات السلكية واللاسلكية، أجهزة كمبيوتر، سفن، بتروكيمياء، وأسلحة	نفط، آلات، معدات، كيماويات عضوية، بلاستيك
إيطاليا	منتجات هندسية، منسوجات، ملابس، آلات، سيارات، معدات نقل، أغذية، مشروبات، تبغ، معادن غير الحديد	نفط، منسوجات، ملابس، آلات، سيارات، معدات النقل، أغذية، مشروبات
كندا	سيارات، آلات، معدات، قطع غيار السيارات، نفط، غاز الطبيعي، ألكترونيات، أخشاب، لب الخشب	سيارات، نفط خام، سلع استهلاكية معمرة
المملكة المتحدة	آلات، معدات، سلع مصنعة، أسلحة، وقود، مواد كيميائية، أغذية، المشروبات	نفط خام، مواد غذائية، سلع مصنعة

المصدر: نفسه

ويتضح من الجدولين، باختصار:

- ان الأجزاء المتقدمة لا تسمح بتسرب القيمة الزائدة المنتَجة في داخل اقتصاداتها القومية إلى خارجها، إذ لا يغطي الناتج القومي فحسب قيمة الواردات، وإنما تغطيها، عادة، قيمة الصادرات. الأمر الَّذي يعني المزيد من التراكم الرأسمالي الممكن من اعتبار العالم بأسره حقل عمليات الرأسمال التابع لتلك الأجزاء.

- إذ يتضح أن الأجزاء المتقدمة تتفوق تفوقاً هائلاً بالنظر إلى إجمالي الناتج المحلي، الأمر الَّذي يعني صلابة وقوة هيكل الاقتصاد القومي، والتعاون والتكامل ما بين قطاعاته.

- وتتميز هذه الأجزاء أيضاً بالتوازن النسبي بين قيمة الصادرات والواردات، وحينما يحدث تغيّر فيكون غالباً في مصلحة الصادرات، الأمر الَّذي يعني ضخ، لا تسرب، المزيد من القيمة الزائدة المنتَجة في داخل الاقتصادات القومية لهذه الأجزاء المتقدمة في مسام الاقتصاد العالمي، بما يحتوي هذا الضخ على تصدير للتضخم، وربما الافلاس والكساد لشركات ودول تنتمي إلى الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي.

- وبعد خصم قيمة الصادرات والواردات، نجد أن تلك الأجزاء المتقدمة تحقق من الفائض الاقتصادي ما من شأنه تدعيم توسعها المستمر في تجديد إنتاجها الاجتماعي على نحو مستقل معتمد على الذات.

- كما يتضح أن تلك الأجزاء إنما تتخصص في السلع كثيفة التكنولوجيا والرأسمال؛ الأمر الَّذي يعني هيمنتها على الصعيد العالمي في حقل إنتاج

السلع الَّتي يتوقف عليها تجديد الإنتاج الاجتماعي في الأجزاء المتخلفة الَّتي تعتمد كليةً تقريباً في تجديد إنتاجها على أدوات العمل الَّتي تُنتجها هذه الأجزاء.

- تنحصر غالبية واردات الأجزاء المتقدمة في المواد الأولية والخام، التي تفتقر إليها، أو الَّتي تحتفظ منها بمخزون استراتيجي، ولا ترغب في استخدامه. وفي الواقع ان الافتقار لا يَعني الاحتياج والاعتماد المتبادل في ضوء تثوير عملية تخليق البدائل الاصطناعية، وفي ظل الثورة العلمية والتكنولوجية، والتدويل المستمر للإنتاج.

(٩)

نستنتج من تحليلنا أعلاه أن:

- القيمة الزائدة هي حاصل التناقض بين: الارتفاع في القيمة الزائدة الأولية بالنسبة لقيمة قوة العمل، وبين: الانخفاض في القيمة الزائدة الأولية بالنسبة للرأسمال الكُلّي. ومن ثم، لا تعد القيمة الزائدة خاضعة لأهواء الرأسماليين. وإنما:

- خاضعة لقانون موضوعي يرتكز على جدلية الصراع بين قوى الإنتاج. وبالتبع الصراع بين الطبقات الاجتماعية المشاركة، وغير المشاركة، في الإنتاج على الصعيد الاجتماعي. وعليه، يصبح مفهوماً أساس تحديد (كمية) و(معدل) القيمة الزائدة. وليس الاكتفاء، كما فعل الاقتصاد السياسي، بافتراض أن مُعدل القيمة الزائدة = ١٠٠٪. ومن ثم :

- يمكننا اعادة طرح مباديء الاقتصاد السياسي الَّتي تتمفصل حول قانون القيمة، وفي مقدمتها مفهوم القيمة الزائدة نفسها، وقيمة السلعة، وثمنها، ومعدل الربح الوسطي، وثمن الإنتاج. الأمر الَّذي يمكنا من اعادة فهم أساسيات تجديد الإنتاج الاجتماعي المستقل والمعتمد على الذات. وبصفة خاصة تجديد الإنتاج الاجتماعي في الأجزاء المتخلفة، ونحن منها، والَّتي صارت مندمجة في الاقتصاد الرأسمالى العالمي كاقتصادات تابعة تعتمد في تجديد إنتاجها على ما يحدث خارجها في باقى أجزاء النظام. ومن ثم تتميز بفقدانها للسيطرة على الشروط الموضوعية لتجديد إنتاجها. وعليه يمكننا:

- تحليل الاتجاه الَّذي تتخذه القيمة الزائدة المنتجة بفضل سواعد الشغيلة في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر. بما يمكنا من مواجهة التسرب في القيمة الزائدة وإعادة ضخها في مسام الاقتصاد القومي المتخلف المنتِج لها. ولن يكون ذلك ممكناً بدون الوَعيْ بضرورة النظر إلى التبادل على الصعيد العالمي كَتبادل متكافيء ابتداءً من النظر إلى قيمة العمل المختزن الَّذي يحتويه العامل المنتِج للقيمة الزائدة التي تأخذ طريقها إلى الأجزاء المتقدمة.

(١٠)

وعليه، يصير محدداً:

- ماهية القيمة الزائدة. ومن ثم كيفية تحديد الأرباح الوسطية، على الصعيد الاجتماعي، وبصفة خاصة في إطار **الأسواق الاحتكارية**.

- الاتجاه الَّذي تسلكه هذه القيمة. عقب توزيعها اجتماعياً بين الطبقات المشاركة، وغير المشاركة، في عملية الإنتاج الاجتماعي، وبصفة خاصة في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي.

- كيف نُقارن، في ضوء الوَعيْ بالعمل المختزن في العامل نفسه مثل الآلة تماماً، بين العمل البسيط والعمل المركب، بنفس الطريقة الَّتي نقارن بواسطتها بين عمل عامل في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي وعامل آخر في الأجزاء المتقدمة من هذا النظام.

(١١)

والآن، بعد أن قدمنا **فرضية** تتعلق باستكمال مباديءالاقتصاد السياسي؛ يمكننا الانتقال خطوة فكرية إلى الأمام بغرض مناقشة الإشكالية الثانية الَّتي ننشغل بها في أبحاثنا الراهنة، وهي المركزية الأوروبية. فلننتقل إلى الكتاب الثالث المنشَغِل بنقد المركزية الأوروبية، إنما ابتداءً مما انتهينا إليه بشأن مفهوم الرأسمال والأشكال الَّتي يتخذها في عملية الإنتاج والتداول، والوَعيْ بالصيغة العامة للحركة على الصعيد الاقتصادي في المجتمع.

الكتاب الثالث
نقد المركزية الأوروبية

الفصل الحادي عشر
ماقبل هيمنة الرأسمال

(١)

لم تكن المجتمعات قبل هيمنة قانون حركة الرأسمال على الأقل بألفي عام، مجموعات بشرية هائمة في وديان سحيقة أو قابعة في بطون جبال تسكنها الأشباح، إنما كانت حضارات مجيدة، مفعمة بالحياة الاجتماعية بأشكالها كافة، متأججة بالنشاط الإنتاجي على الصعيد المادي والخدمي، المدني والعسكري. حضارات عظيمة منتِجة لمعرفة كونية وفنون خالدة وثقافات مبهرة. وما نظن، نحن أبناء القرن الواحد والعشرين، أنه من ابتكارتنا على صعيد مفردات الحياة اليومية في النشاط الاقتصادي، إنما هو على أقل تقدير محض نسخ مطورة، وربما مكررة، من نفس مفردات نشاط الحياة اليومية التي عاشتها أمم قبلنا منذ آلاف السنين[١]. فلعل الشائع أنَّ ذكر "الرأسمالية" و"الرأسمال" و"الرأسمالي"، في وقتنا الحاضر، إنما يستتبع في الأذهان، ابتداءً من هيمنة المركزية الأوروبية، مجموعة من المفاهيم الَّتي تُشير إلى خصائص عديدة ومتباينة، ومن ثم مشوشة لأنها غير محددة؛ فقد تشير إلى: المنافسة والاقتصاد الحر، وقد تشير إلى ظهور بيع قوة العمل، وقد تشير إلى تحول الأرض إلى سلعة، وقد تشير إلى نظام كف فيه الإنسان عن الإنتاج بغرض الاشباع المباشر، وأصبح

(١) "... هناك في تاريخ العالم القديم فترات عديدة بلغ فيها التطور الاقتصادي مستو رفيعاً: في مصر وبابل وفارس... وعصر الملوك الهيلينستيين وعهد الجمهورية الرومانية في عصرها المتأخر والإمبراطورية الرومانية في أيامها الأولى... ففي كُل هذه الأزمنة ظهرت أطوار مختلفة من الحياة الاقتصادية وأطوار متباينة من الرأسمالية. ولم يكن لاقتصادات المنزل الغلبة في أيّ فترة منها". انظر: م. رستوفتزف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي**، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧)، ج١، ص٦٤٥.

يُنتِج من أجل السوق، وقد تشير إلى ظهور ذلك الرجل المغامر أو المخاطر من أجل الأرباح الطائلة، وقد تشير إلى سيادة النقود في المبادلات اليومية، وقد تشير إلى نظام تمتلك فيه طبقة معينة الثروة على حساب باقي طبقات المجتمع الَّتي أَنتجت هذه الثروة، وقد تشير إلى عصر كُل ما فيه صار محلاً للبيع والشراء، حتّى الأخلاق! وقد تشير إلى حقبة هيمنة الصناعة على الهيكل الاقتصادي، وقد تشير إلى أن النمو الاقتصادي يرتكز على المزاحمة، على فن شراء كُل شيء بأرخص ثمن وبيعه بأغلى ثمن. وقد تشير إلى كُل ذلك، أو بعضه. وربما غيره! ولكن، لا يمكن في الواقع أن نطمئن إلى أنَّ أحد هذه السمات أو الخصائص المذكورة أعلاه بامكانه أن يُميِّز النظام المعاصر المسمى بالرأسمالية عن غيره من نُظم اجتماعية واقتصادية وأنماط إنتاجية عبر مراحل التاريخ البشري. لماذا؟ لأننا حين نبحث، بعمق وتأمل، في آثار ووثائق ومراجع العالم القديم والوسيط، حتّى القرن الخامس عشر، على الأقل في: بلاد بابل، ومصر القديمة، وفينيقيا، وأثينا، وروما، وبيزنطة، والقيروان، وقرطبة، وشمال أفريقية، سنجد مادة معرفية خصبة للغاية نعي من خلالها كيف كانت مجتمعات هذين العالمَيْن، القديم والوسيط، تعرفان، ودون التباس، الإنتاج، والتبادل، والتراكم، والفائض، والمضاربة، والربح، والتجارة، والنقود، والصكوك، والسندات، والأسهم، والتمويل، والاعتمادات المصرفية، والأثمان، والثروة، والأسواق، والرأسمال، والتضخم، والاحتكار، والتوريد، والسلع، والفائض، والاستيراد، والتصدير، والحرفيين، والفلاحين، والعُمال، والصنّاع، وتُجار الجملة وتجُار التجزئة، ورجال المال، وأرباب الأعمال، والصيارفة، والصراع الطبقي، والملكية الفردية، وملكية الدولة، والمصنوعات على اختلاف أنواعها، والصناعات

الحربية الثقيلة، والعمل المأجور، والعمل الزائد، والأجور، والمرتبات،...، إلى أخر ظواهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية اليومية في عالمنا الرأسمالي المعاصر. فإذ ما تساءلنا: ما الَّذي يميز إذاً النشاط الاقتصادي في عالمنا اليوم أَيْ ما الَّذي تميز به الرأسمالية كنمط إنتاج سائد اليوم على الصعيد الاجتماعي العالمي؟ وقِيل لنا: إنَّ الَّذي يميز الرأسمالية هو سيادة ظاهرة الأثمان، أو ظاهرة انفصال الريف عن المدينة، أو أنَّ الإنتاج يتم من أجل السوق، أو أنَّ النشاط الاقتصادي في الحياة اليومية تُهيمن عليه المبادلات النقدية، أو وجود ظاهرة بيع قوة العمل. أو أن المؤسسات المالية والنقدية والعمليات المصرفية صارت تمارِس أدواراً مهمة في حقلي التجارة والصناعة. إذ قِيل لنا ذلك؛ فلا بد أن نَشك في صحة هذه الأمور جميعها كمحددات للنظام المعاصر، ويتعين أن لا نطمئن على الإطلاق لكونها من قبيل الإجابات المقنعة. لأن كُل هذه الأمور، كما سنرى، مسبوقة تاريخياً، وعرفتها، وبوضوح، المجتمعات السابقة على عالمنا المعاصر. وفي مقدمة هذه الظواهر الرأسمال نفسه.(٢)

وللحقيقة!، فالأمر الوحيد الَّذي يمكن أن يجعلنا نركن، إنما بلا وَعيْ بالتأكيد، لأَيْ إجابة مما سبق على السؤال عن الأمر الَّذي يميز عالمنا الرأسمالي المعاصر، هو أن نقتفي أثر المؤرخ الأوروبي الَّذي أرخ للعالم ابتداءً من تاريخ أوروبا؛ فحينئذ سوف تقودنا الانتقائية، كما قادت

---

(٢) الواقع أن البعض من كبار المؤرخين، مثل مومزن وبيرين، قد استخدما، وهما محقان، اصطلاح الرأسمال حين تأريخهما للحضارات القديمة، وذهبا إلى أن: "الرأسمال كان متطوراً للغاية في العالم القديم"، ولكن ماركس، ابتداءً من المركزية الأوروبية، لم يكن راضياً عن هذا الإتجاه:

"In encyclopedias of classical antiquities we find such nonsense as this- that in the ancient world capital was fully developed, "except that the free labourer and a system of credit were wanting." Mommsen also, in his "History of Rome," commits, in this respect, one blunder after another". Karl Marx, **Capital,** Vol I, p.122.

مؤرخي المركزية الأوروبية، نحو ايجاد ظواهر، في القرن الخامس عشر، تُعتَبر جديدة على أوروبا الغربية، من وجهة نظرهم، جعلت الرأسمالية تمثل ظاهرة غير مسبوقة في التاريخ ذِي المركزية الأوروبية، ومن هذه الظواهر الرأسمال الصناعي، والإنتاج من أجل السوق، وبيع قوة العمل.

أما إذ ما اتخذنا من تاريخ العالم القديم والوسيط حقلاً للتحليل؛ ابتداءً من مبدأ وحدة المعرفة الإنسانية والتراث المشترك للبشرية؛ فمن المؤكد أن النتائج سوف تتغير تماماً. إذ سنعرف أنَّ كُل الأمور الَّتي انتقاها، المؤرخ الأوروبي، كَيْ تميز التاريخ الحديث لأوروبا الغربية هي أمور مسبوقة تاريخياً وعرفتها حضارات العالم القديم والوسيط، ولئن تفاوتت الأشكال والدرجات. ولكن تظل دائماً قوانين الحركة واحدة. والاختلاف هو في مدى الهيمنة الَّتي تمكنت قوانين الحركة من فرضها على عصور التاريخ الإنساني عبر حركته الملحمية البطيئة والعظيمة.

(٢)

إنَّ ما نرغب في التأكيد عليه هو أن الرأسمالية كنظام اجتماعي واقتصادي معاصر لا تنفرد بمظاهرها ومفرداتها. والاقتصاد السياسي، كَعلم منشغل بقوانين حركة الرأسمال، ابتداءً من قانون القيمة، وما يتعلق بهذه القوانين من ظواهر على صعيد النشاط الاقتصادي في المجتمع (الإنتاج، والتداول، والتوزيع) لم يظهر بظهور الرأسمال، وإنما ظهر فقط حينما **هيمن** الرأسمال وأخضع جميع أشكال الرأسمال الأخرى لقانون حركة واحد، ومن ثم أخضع مجمل النشاط الاقتصادي في المجتمع لنفس قانون الحركة، وهو: **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن).**

(٣)

والفرضية المركزية الَّتي نُحاول البرهنة عليها هي أن ثمة خدعة معرفية انطلت علينا نحن أبناء الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي، فقد انسقنا وراء السراب! قالوا لنا أن الرأسماليةَ نظامٌ جديد. وان الرأسمال ظاهرة غير مسبوقة، وإن أردنا حياة أفضل وغد مُشرق فلنحارب هذا النظام ولننسف هذه الظاهرة. وطمأنونا؛ وقالوا لنا انها أمور طارئة، وبإمكانكم إزالتها وإرجاعها إلى مكانها في غياهب العدم الَّتي أتت منه. ولكن، لم يقل لنا كثير من المناضلين! أو أساتذة الجامعات! ان **أشكال/قوانين حركة الرأسمال** لا يَستقل بها، بمفرده، عالم الـ ٥٠٠ عام الماضية، العالم المصبوغ بالصبغة الأوروبية، وإنما هي أشكال للحركة، وظواهر، تضرب بجذورها في أعماق تاريخ النشاط الاقتصادي للبشرية.

وحينما تمكنت الصيغة/القانون **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** من إخضاع الأشكال المختلفة للرأسمال، وما يتعلق بها من ظواهر، لهيمنتها، تبلورت الرأسمالية، كتنظيم اجتماعي قائم على الرأسمال كظاهرة؛ وحينئذ كان من الضروري ظهور العِلم الَّذي ينشغل بالكشف عن القوانين الموضوعية الَّتي تحكم هذه الظواهر. العِلم الَّذي ينشغل، تحديداً، بالإجابة على الأسئلة الَّتي تُثيرها الظواهر المتعلقة بالرأسمال. والكشف عن قوانينها الموضوعية.

ويمكننا، عند مستوى معين من التجريد، بلورة الحد الأدنى من هذه الظواهر في:

- ظواهر الرأسمال التجاري **(ن – س – Δ ن)** مثل: الربح، والثمن، والسوق.

- ظواهر الرأسمال الصناعي **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** مثل: القيمة، ومصدر القيمة، ومقياس القيمة، ومنظم القيمة، والقيمة الزائدة الأولية، والقيمة الزائدة الكُلّية، والتركيب العضوي للرأسمال، والرأسمال الثابت، والرأسمال المتغيّر، والرأسمال النقدي، والرأسمال الإنتاجي، والرأسمال السِلعي، والأجر، والعمل الإنساني، والعمل المختَزن، والعمل الاجتماعي، وثمن الإنتاج الاجتماعي، ومعدلات الربح الوسطية، وميل معدلات الربح للإنخفاض، والنمو غير المتوازن، وقوى الإنتاج، وعلاقات الإنتاج.

- ظواهر الرأسمال المالي**(ن – ن – Δ ن)** مثل: الفائدة، والاستثمار، والمضاربة، والإئتمان.

(٤)

وقبل أن ننتقل للبرهنة على فرضيتنا المركزية، يمكننا، في إطار الوَعيْ بمراحل تاريخ النشاط الاقتصادي، أن نرصد أربع مراحل تقليدية مر بها الجنس البشري وهي الشيوعية البدائية والعبودية والإقطاع والرأسمالية.[٣] والَّذي يهمنا في إطار هذا الحكي التاريخي لهذه الأطوار الأربعة أن يكون لدينا الوَعيْ الناقد بما يلي:

(٣) من النظريات الَّتي على ما يبدو أنها صارت رائجة لدى بعض التيارات المهيمنة في حقل اليسار بوجه خاص، نظرية "نمط الإنتاج الآسيوي"، فوفقاً لهذه النظرية يوجد تكوين اجتماعي اقتصادي في بعض المجتمعات يختلف عن العبودية وعن الإقطاع. أيْ ان هذه النظرية توجِد نمط إنتاج جديد يُضاف إلى أنماط الإنتاج الأربعة المذكورة بالمتن. أهم ما يميز هذا التكوين الاجتماعي، الَّذي هو نمط الإنتاج الآسيوي، من وجهة نظر القائلين به، انه يتركب من مجموعة قرى مكتفية ذاتياً، مع انعدام التبادل التجاري تقريباً فيما بينها. والدولة هي الَّتي تملك الأرض من الناحية النظرية والمادية، ولموظفيها سلطة قهر فعلية. وتستولي أجهزة الدولة المركزية على فائض ناتج العمل في صورة الضريبة أو الجزية الجماعية، فتصبح الدولة بموظفيها هي الطبقة المستغِلة، أما الفلاحون فهم ليسوا عبيداً لفرد ما، بل للدولة صاحبة الأرض. وهكذا تكون الدولة هي المالكة للعبيد بدلاً =

= من أن يكون فرد من الأفراد مالكاً لعدد من العبيد كما في النظام العبودي النموذجي! ومن جهة أخرى يختلف هذا التكوين الاجتماعي، الَّذي يسمونه نمط الإنتاج الآسيوي، عن التكوين الإقطاعي، من ناحية أن صاحب الأرض، في التكوين الأخير، هو الَّذي يمارس سلطة القهر ويستولي على فائض الإنتاج، بدلاً من الدولة. وحيث يسمح التنظيم الإقطاعي بالتوسع في الإنتاج يقف التكوين الآسيوي في مواجهة هذا التوسع لانعدام التبادل تقريباً، كما يقولون. الأمر الَّذي يعني أن مستوى تطور القوى الإنتاجية في الإقطاع أعلى منه في التنظيم الآسيوي! وأخيراً نجد أن الفلاحين والحرفيين والبورجوازيين يبدون استعداداً للاتفاق معاً والنضال المشترك للوقوف في وجه السيد الإقطاعي! أما النظم الآسيوية فتميل ناحية الثبات الاجتماعي! يمكن للقارىء أن يجد تلخيصاً وافياً لهذا الاتجاه الفكري لدى: أحمد صابر سعد، **تاريخ مصر الاجتماعي- الاقتصادي: في ضوء النمط الأسيوي للإنتاج** (بيروت: دار ابن خلدون،١٩٧٩)، ص٥٤. ونحن من جانبنا نرى أن نمط الإنتاج الآسيوي هذا ليس نمط إنتاج، إنما إشارة إلى المكان الذي يقوم فيه نمط إنتاج ما، أياً ما كان عبودي أو إقطاعي أو حتى شيوعي لا طبقي، بتأدية دوره. والمكان المشار إليه هنا هو حضارات الشرق القديم، وبصفة خاصة الصين والهند وفارس وبلاد بين النهرين ومصر القديمة. والواقع ان هذه المجتمعات أنتجت سلعها وخدماتها وحضارتها وثقافتها بفضل العمل الإنساني، تحديداً العمل العبودي. أما أن تكون العبودية معنوية، أيْ للدولة، أم مادية، أي للفرد، فذاك محض قفز فوق الأحرف والكلمات؛ فالقول أن الفلاحين، في نمط الإنتاج الآسيوي، ليسوا عبيداً لفرد ما، بل للدولة صاحبة الأرض، غير صحيح لأنه إذا كان للدولة الحق، المطلق، على ناتج عمل الفلاح، فهي من ناحية أخرى لم تكن تملك بيع هذا الفلاح أو مبادلته. فالفلاح في الواقع، وفقاً لهذه النظرية، حر. أما أن يكون عبداً للدولة فيتعين أن يكون من أسرى الحروب أو مُشترَى من تجار العبيد. وفي هذه الحالة سوف نصبح أمام حالة عبودية صرفة (نموذجية) فإذ ما نظرنا إلى الحالة الَّتي يكون فيها للدولة الحق على ناتج عمل الفلاح، حيث يكون الفلاحُ حراً، وإن خضع معنوياً أو لفظياً ربما، فسنكون أمام قانون حركة يحكم نمط الإنتاج الإقطاعي الذي يدور حول الأرض. والقول أن الدولة، في نمط الإنتاج الآسيوي، هي التي تمارس سلطة القهر وتستولي على فائض الإنتاج بدلاً من السيد الإقطاعي في النظام الإقطاعي، لا يُقدم ولا يُؤخر من الأمر شيئاً؛ فلم نزل أمام نمط إنتاج إقطاعي. الفلاح حر. يملك غالباً أدوات إنتاجه. يؤدي ريع الأرض. يدفع بالفائض إلى خزانة الإمبراطور. ونستطيع أن نستبدل كلمة الإمبراطور بكلمة الخليفة أو السيد الإقطاعي دون أن يحدث أيْ تعديل في جوهر التنظيم الاجتماعي أو قانون الحركة الحاكم لهذا التنظيم. والقول أن القصور المنيفة والصروح المهيبة لم تكن لتتم دون نمط الإنتاج الآسيوي الَّذي ينهض على القهر وتركيز السلطة في يد الملك أو الفرعون، يعد خلطاً ساذجاً بين المظاهر السياسية لمباشرة الحكم في الدولة والطريقة الَّتي تُنتج بها السلع والخدمات. لقد أصبح من المؤكد تماماً أن النظام العبودي والنظام الإقطاعي قد سادا فعلاً في عدد كبير من البلدان (العالم الشرقي القديم، أوروبا القديمة، أوروبا القرون الوسطى، أجزاء من آسيا) ولكن لا يمكننا أن نقتنع، علمياً بالأمثلة الَّتي يُقدمها أصحاب نظرية نمط الإنتاج الآسيوي من حضارات الشرق القديم، أو الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. لأن حضارات الشرق القديم كانت تعتمد على عمل العبيد في سبيل إنتاج خيراتها المادية وفي الخدمات الَّتي يحتاج إليها النُخب ورجال القصر وكبار جنرالات الجيش. أي نمط إنتاج عبودي. أما الحضارة الإسلامية، فالأرض بأكملها لم تكن ملكاً إلا لخليفة المسلمين، يملك على الأقل نصفها، والآخر يقطعه إلى أمرائه ووزرائه وكبار قواده، الذين يحصلون على الريع من الفلاحين الأحرار الذين يزرعون الأرض دون أن يملكوها. أيْ نمط إنتاج إقطاعي. أما أن الدولة تعيش على الخراج =

أولاً: إن تقسيم التاريخ الاقتصادي، كما هو مذكور أعلاه، هو تقسيم سليم من جهة رصده للظاهرة الَّتي هيمنت على المجتمع فدمغت الحقبة التاريخية الَّتي سادت فيها كظاهرة باسمها، ولكن قولنا بسلامة التقسيم يتعين أن يَتناغم مع رؤية ناقدة تتجاوز حدود أوروبا الغربية، كَيْ ترى العالم بأسره عبر مراحل تطوره من البدائية المشاعية إلى الرأسمالية. فلقد مر العالم بأُكمله، بوجه عام، بنفس المراحل ولو بأشكالٍ متباينة وبدرجات متفاوتة، وليس غرب أوروبا فحسب. مع الأخذ في الإعتبار أن لكُل جزء من أجزاء العالم خصوصيته التاريخية والاجتماعية.

ثانياً: ولذلك يتعين أن لا نتوقف في أبحاثنا عند قلب أوروبا كما تفعل أغلب الدراسات، وإنما يجب أن نوسع دائرة البحث في أرجاء العالم الوسيط، بل والقديم. إذ يجب أن يكون لدينا الوَعيْ بأن التاريخ الَّذي بين أيدينا، بشأن الاقتصاد السياسي بوجه عام، وتاريخ الفكر الاقتصادي بوجه خاص، هو تاريخ أوروبا، الَّتي أرَّخت للعالم ابتداءً من تاريخها. ولعل توسيع نطاق البحث كَيْ يشمل العالم بأسره من شأنه إثراء

= فهو أمر يصدق أيضاً تماماً على الكنيسة والملك ورجال القصر في القرون الوسطى، بل وجمهورية مصر العربية، في القرن الواحد والعشرين، الَّتي تعد المداخيل الريعية أهم مواردها على الإطلاق. ولكننا لم نسمع، ولن نسمع باحثاً أصيلاً، يمكنه أن يقول أن نمط الإنتاج في مصر هو نمط إنتاج آسيوي! إن نظرية نمط الإنتاج الآسيوي تصرف أنظار الباحثين عن التحليل الفعلي/العلمي للمسائل المعقدة في تاريخ بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وفي أوضاعها المعاصرة. كتب كاتشانفسكي: "ربما كان ليس من الحكمة أن نطلب من أنصار نظرية أسلوب الإنتاج الآسيوي الآن في الحال جواباً كاملاً، أيْ نظرية جاهزة... لقد طُرحت نماذج كثيرة ترتكز على أساس سمات شديدة الاختلاف. وتُولي أهمية خاصة للمشاعة الزراعية والسلطة الحكومية الاستبدادية، ولكن هاتين السمتين لا تنتميان إلى العناصر الجوهرية لأسلوب الإنتاج، وإنما فقط إلى الخصائص المميزة للنظام الاجتماعي ولشكل الدولة في بلدان الشرق. ان فرضيات أنصار النظرية الآسيوية ليست موجهة نحو الكشف عن العناصر المبدئية لأسلوب الإنتاج وإنما نحو وصف الخاصية الخارجية لمجتمعات الشرق". انظر البحث الأصيل ليوري كاتشانفسكي، **عبودية، إقطاعية، أم أسلوب إنتاج آسيوي؟** ترجمة عارف دليلة (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٠)، ص٢٤٤.

موضوع الاقتصاد السياسي نفسه. والظواهر الَّتي ينشغل بدراستها، وفي مقدمتها الرأسمالية ذاتها.

ثالثاً: لا يتطور التاريخ بشكل خَطي، كما أن أحقاب التاريخ ليست منفصلة، إنما في أيْ حقبة من أحقاب التاريخ، قد نجد الخصائص المميزة للحقبة السابقة والحقبة اللاحقة جنباً إلى جنب، وقد نجد تلك الخصائص، السابقة واللاحقة، ممتزجة مزيجاً فريداً. إذ تتكون خصائص المجتمع الجديد في رحم المجتمع القديم، كما أن آثار هذا المجتمع القديم قد تبقى لفترة طويلة يتعين الوَعيْ إذاً بأن أطوار التاريخ ليست أطواراً خالصة، وأنماط الإنتاج الَّتي يعرفها تاريخ عالمنا ليست نقية دائماً. بل وحتّى الرأسمالية الَّتي صارت نمط الإنتاج المهيمن كونياً لا يمكن أن نقول بأنها نمط إنتاج نقي غير مختلط ببعض مظاهر الأنماط السابقة على الرأسمالية، وبصفة خاصة الرأسمالية التجارية، ضمن المجتمع الجديد. ويمكننا أن نجد لدى ابن خلدون القاعدة لهذا التطور الجدلي للتاريخ والمجتمعات، فقد كتب، وباقتدار شديد:"ومن الغَلط الخَفي في التاريخ الذهول عن تَبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب مُتطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة والسبب الشائع في تَبَدل الأحوال والعوائد أن عوائد كُل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يُقال في الأمثال الحِكْمِيّة الناس على دين المَلِكِ وأهل الملك أو السلطان إذْ استولوا على الدولة والأمر فلابد مِن أن يفزعوا إلى عوائد مَن قبلَهم ويأخُذوا الكَثير منها ولا يُغفلون عَوائد جيلِهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالَفة لعوائد الجِيل الأول فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم مَزجت مِن عوائِدهم وعوائِدهَا وخَالَفتْ أيضاً بعض الشيء وكانت للأولى أشد مُخَالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتّى ينتهي إلى المُباينة بالجُملة فما دَامت الأمم والأجيال تتعاقبُ في المُلك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة

ومن الغَلط غير مأمونة تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصدِه وتَعوَج به عن مرامه فَلرُبما يَسْمع السامعُ كثيراً من أخبارِ الماضيَّن ولا يَتفطن لما وقع من تغيُّر الأحوال وإنقلابِها فيُجريّها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط".(٤)

في بعض البقاع من عالمنا المعاصر في شرق أسيا ووسط وغرب أفريقيا وشرق أمريكا اللاتينية ووسطها، نجد، وبوضوح، أنماط الإنتاج المشاعية، وربما العبودية أو الإقطاعية. أما ان الرأسمالية في طريقها لاجتياح العالم بأسره، فتلك مسألة أخرى تحتاج إلى مستقبل بعيد جداً، إن أتى!، كَيْ يُثبت مدى صحة الفرضية. والمرجح أن هذه الفرضية لديها مشكلاتها الخاصة الَّتي أبسطها أنها ترى الرأسمالية نظاماً كونياً نهائياً خالداً غير خاضع لأحكام قانون التناقض على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي. ومن ثم لا يمكنها، ابتداءً من هذه المشكلة، أن ترى الرأسمالية كنظام يحمل بداخله عوامل فنائه، ويضم في أحشائه جنين نظام تال له.

رابعاً: ان اتفاق الغالبية من المؤرخين والباحثين على تسمية عصر إنما يأتي لاحقاً على تبلور سمات وخصائص معينة تبدو مميزة لهذا العصر، فحينما أطلق المؤرخون، الأوروبيون!، على القرون الممتدة من القرن السادس حتّى القرن الخامس عشر اسم عصور الإقطاع، كان أهم ما يميز هذه القرون، في أوروبا! هو التنظيم الاجتماعي المبني على الملكيات الزراعية الكبيرة والإنتاج الزراعي القائم على علاقات تراتبية راسخة بين الفلاحين الأحرار أو الأقنان، الَّذين يمتلكون عادة وسائل الإنتاج، وكبار الملاك العقاريين من النُخب وكبار رِجال الكَنيسة والقصر. وستحكم هذه

---

(٤) ابن خلدون، **المقدمة**، المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٨.

القاعدة، بطبيعة الحال، أَيْ بحث عِلمي في سبب تسمية عالمنا المعاصر بالعالم الرأسمالي؟ ولِمَ هذه التسمية تحديداً؟ على الرغم من أن الرأسمال، بأشكاله الثلاثة، كان من الظواهر المعروفة في التاريخ الإنساني.

فلننتقل الآن، في ضوء الوَعيْ بالملاحظات أعلاه، إلى معاينة الرأسمال وقانون حركته والأشكال المختلفة الَّتي اتخذها عبر مراحل التاريخ الَّتي مرت على البشر، بصفة خاصة في العالم القديم والعالم الوسيط، الَّذين يمتدان جغرافياً من فارس شرقاً إلى إسبانيا وشمال أفريقيا غرباً. بقصد البرهنة على عدم تفرد العالم المعاصر بالظواهر المدعى بأن الرأسمالية تستقل بها عن غيرها من التنظيمات الاجتماعية السابقة عليها. وهي، على وجه التحديد، بيع قوة العمل، والإنتاج من أجل السوق.

الفصل الثاني عشر
العالم القديم (العبودي)

(١)

نعني بالعالم القديم، في تاريخ النشاط الاقتصادي، الفترة التاريخية الممتدة، على أقل تقدير، من الألف الثانية قبل المسيح، له السلام، إلى القرن السادس الميلادي. وهو العالم الَّذي هيمنت عليه ظاهرة الرق، وارتكز الإنتاج في جُلّ مجتمعاته، بوجه عام، على قوة العمل المستعبَدة. ومن الناحية المكانية يتحدد حقل البحث بالأجزاء الممتدة من بلاد بابل ومصر القديمة شرقاً إلى آثينا وروما غرباً.

وإذ ما بدأنا رحلتنا إلى هذا العالم القديم، الَّذي تُهيمن عليه ظاهرة العبودية، من أرض بابل، ابتداءً من القرن التاسع عشر قبل الميلاد؛ بغرض اعادة النظر في المركزية الأوروبية الَّتي سيطرت على الاقتصَاد السياسي بوجه خاص، كَيْ نعرف مقدار فاقتنا الفكرية نحن أبناء الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، الَّذين تلقفنا الاقتصاد السياسي من أوروبا الغربية دون أدنى مراجعة. وما فعلناه مع الاقتصَاد السياسي فعلناه بتفوق أيضاً مع ما يسمونه "عِلم الاقتصاد!". تلقفناه هو الآخر وأنتشينا بتسميم عقول الطلبة به في المدارس والمعاهد والجامعات في عالمنا العربي، ودون ما خجل!

نقول إذ ما بدأنا رحلتنا إلى هذا العالم القديم فسنجد أن القانون البابلي قد نظم بدقة ووضوح شديدين مجموعة من العقود الَّتي تحكم العلاقات القانونية والاقتصادية والمالية والشخصية...، بين أفراد المجتمع

من جهة، وبين أفراد المجتمع والدولة من جهة أخرى؛ فنجد تنظيماً رائعاً لكُل من البيع، والمقايضة، والكفالة، والقرض، والرهن الحيازي، والرهن العقاري، والضمان، والشركة، والإجارة، والعارية، والإئتمان، والوكالة العادية، والوكالة بالعمولة، وعقود العمل، وهو ما يعني أمراً في منتهى الأهمية، وهو أننا أمام مجتمع متطور إلى حد كبير على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي وتسوده علاقات التبادل، ويتبدى تطوره بصفة خاصة على صعيد علاقات الرأسمال الَّتي استحقت اهتماماً تشريعياً خاصاً ينظم أسعار الفائدة(١) وتوزيع الأرباح بين الشركاء في عقود الشركات والمضاربات التجارية.

وتدل الوثائق على أن المجتمعات السومرية والأشورية قد تجاوزت أيضاً مرحلة المجتمع البدائي واقتصادات المنزل منذ عهود بعيدة، وتطورت من النقود السلعية إلى النقود المعدنية، أيْ التبادل النَقدي، على الأقل منذ الألف الأول قبل الميلاد(٢). فنجد تقنين أشنونا(٣)، في أواخر الألف

---

(١) "... لدينا مثال من عصر أور، وآخر من العهد البابلي بلغ فيها سعر الفائدة لقرض من الفضة ٢٥ بالمئة وغالباً ما رضى الرأسمالي بفائدة أقل وهو في هذا النهج كان ينهج نهج الدولة الَّتي كانت تمنح القروض المالية بفائدة ١٢بالمئة ... أما إذا كان القرض بدون فوائد فإنه في حالة عدم سداد الدين في التاريخ المحدد للسداد فإنه يقدر على الرأسمال من هذا التاريخ فائدة بسعر٤٠ بالمئة أو١٠٠ بالمئة، وأحياناً ١٤١ بالمئة". انظر: ل. ديلايورت، **بلاد ما بين النهرين: الحضارتان البابلية والأشورية**، ترجمة محرم كمال (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧)، ص١٥٧.

(٢)"... هذه الصفات الَّتي تثبتها لوحات القيود والمحاسبة المكتشفة، يحملنا على الشعور بأنها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية". أندريه إيمار وجانين أبوايه، **تاريخ الحضارات العام: الشرق واليونان القديمة**، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان (بيروت: عويدات للنشر والطباعة،٢٠٠٣) ج١، ص١٨٦. ويكتب و. ديورانت وصفاً لواقع المجتمع نفهم منه صراحة أننا أمام مجتمع طبقي، وينبض بالنشاط الاقتصادي الصناعي والتجاري:"... ونشأت بين الأغنياء والفقراء في سومر طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة... وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار ويُشرف عليها مراقبون يعينهم الملك على أحدث طراز من الاشراف الحكومي على الصناعات عرف حتى الآن... وكان لديهم عقود مكتوبة موثقة يشهد عليها الشهود، ونظام للإئتمان تقرض بمقتضاه البضائع والذهب والفضة وتؤدي عنها فوائد عينية يختلف سعرها من ١٥ بالمئة=

الثالث قبل الميلاد، يُحدد في المادة الأولى والثانية الأثمان النقدية لمجموعة من السلع الضرورية مثل السمن والزيت والصوف والنحاس والملح، وتحدد المادة الثالثة والرابعة أجرة الأشياء مثل السفينة والعربات، كما تتضمن تحديد أجرة الملاح، وأجرة سائق العربة.

والمادة الخامسة عشرة، من التقنين نفسه، تمثل لنا دليلاً حاسماً على معرفة المجتمعات في العالم القديم للرأسمال، العيني بصفة خاصة؛ فقد نصت المادة المذكورة على أنه:"لا يجوز للتاجر أو بائعة الخمرة... أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوباً أو صوفاً أو زيتاً أو سلعاً أخرى كرأسمال من أجل التجارة بها".

وتكرر المادة الواحدة والعشرون استخدام كلمة الرأسمال؛ فقد نصت المادة على:"إذا أقرض رجل رأسمال من الفضة، فسوف يقبض ماله وفائدته بنسبة ٦/١ شيقل وست حبات للشيقل الواحد من الفضة". أَيْ أننا نصادف هنا أحد أشكال الرأسمال، وهو الرأسمال المالي في الشكل النقي لحركته(ن — ن — Δ ن).

ومن جهة أخرى، يمكننا أن نعرف كيف كان تقسيم العمل المأجور، وبصفة خاصة في مجال النشاط الزراعي، الَّذي كان يمارس على نطاق

= إلى ٣٣ بالمئة... وقد وجدت في المقابر كميات كبية من الذهب والفضة منها ما هو حُلي ومنها ما هو أوان وأسلحة وزخارف، بل أن منها ما هو عدد وآلات... واستطاع كُتّاب سومر أن يحتفظوا بالسجلات، ويدونوا العقود والمشارطات ويكتبوا الوثائق الرسمية، ويسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع... وظلت الكتابة قروناً عدة تستخدم في الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك، وقوائم البضائع الَّتي تنقلها السفن، والايصالات ونحوها..." و. ديوارنت، **قصة الحضارة: نشأة الحضارة، الشرق الأدنى**، ترجمة فؤاد أندروس (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ج١،ص٢٥٩.

(٣) الترجمة العربية لنصوص التقنين في: عبد الحكيم الذنون، **التشريعات البابلية** (دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع، ١٩٩٩)، ص٢١٠-٢٧٢.

متسع، فالمادة السابعة من نفس التقنين تحدد أجرة الحاصد، والمادة الثامنة تحدد أجرة من يذرو الحنطة أو الشعير. والمادة الحادية عشرة واضحة في تنظيمها للعمل الحر المأجور، الّذي يبيع قوة عمله، إذ نصت على:"إن أجر الأجير لمدة شهر مقداره شاقل من الفضة".

وعلى الرغم من أن المادة الرابعة عشرة، للأسف، لم تصل إلينا كاملة، إلا أنه من الممكن أن نفهم منها أنها تُعالج أجرة عن عمل بالإنتاج، أو أجرة على أساس نسبة من الربح، إذ نصت المادة على أن:"أجرة ... شيقل واحد من الفضة إذا جلب خمسة شيقلات من الفضة، وإذا جلب عشرة شيقلات من الفضة فتكون أجرته شيقلين من الفضة".

واهتم قانون حمورابي[٤] (١٧٩٢ق.م-١٧٥٠ق.م) بإجارة الخدمة؛ فقد نصت المادة ٢٥٣ على:"إذا استأجر رجل آخر ليشرف على حقوله...".

---

(٤) انظر:

La Loi De Hammourabi (Paris: Ernest Leroux, Editeur, 1906)
وهي الطبعة الّتي اعتمدت عليها في العرض والاستشهاد بالنصوص. والواقع أن قانون حمورابي يكشف لنا عن بجلاء بنية المجتمع البابلي في ذلك العصر. فكان أفراد الطبقة العُليا من الأحرار(الاميلو) يتمتعون بالحقوق كافة. ومنهم أصحاب العبيد وملاك الأراضي. ومنهم تتشكل المجالس المحلية ويؤخذ الموظفون والكهنة... وتتألف الطبقة العامة (الموشكينو) من فقراء الأحرار ومن الأرقاء الّذين تحرروا... وكان الموشكينو يمارسون مختلف المهن ولهم الحق في التملك. وكان الموشكينو الفقير يضطر إلى استدانة أدوات الإنتاج والبذار والفضة وغيرها من الأغنياء بفائدة مرتفعة. ويمكن أن تدرج في طبقتي الاميلو والموشكينو فئات عديدة من المواطنين الأحرار كأعضاء المشاعيات، والزراع الملكيين الّذين يدفعون الضريبة العينية، والمحاربين الّذين يتسلمون من الملك أراضي غير قابلة للبيع في مقابل خدماتهم العسكرية، والحرفيين، و(التامكاروم) الّذين كانوا تجاراً ومرابين معاً، وأخيراً الكهنة والارستقراطية العليا. أما طبقة العبيد (أردو) فقد ازداد عددها نتيجة لتوسع الفتوحات وتجارة الرقيق... وأصبح العبيد يشكلون القوة الرئيسية في استثمارات الملك والمعابد في ممتلكات نبلاء البلاط والارستقراطية المدنية والعسكرية. برهان الدين دلّو، **حضارة مصر والعراق: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي** (بيروت: دار الفارابي،١٩٨٩).

Marc Van de Mieroop, **A history of the Ancient Near East ca.3000-323 BC**(Oxford: Blackwell publishing, 2004). Ame'lie Kubrt, **The Ancient Near East** (London: Routledge,1995).

كما كان يمكن استئجار رجل لزراعة الأرض بأجر سنوي، ويقدم المالك أدوات العمل كالماشية، ومواد العمل كالبذور، الأمر الَّذي قد يمثل نموذجاً لبيع قوة العمل الحرة، والنشاط الزراعي على أساس رأسمالي.

وبوجه عام نجد لدى حمورابي التنظيم المبكر لأجور بعض الحرفيين مثل البنائين والخياطين والنجارين والبحارين والرعاة؛ فقد نصت المادة ٢٧٣ من تقنينه على:"إذا كان رجل قد استأجر أجيراً فسوف يعطيه ٦ شي من الفضة يومياً من بداية السنة حتى الشهر الخامس، وأما من الشهر السادس حتى نهاية العام فسوف يدفع ٥ شي من الفضة يومياً".

وعددت المادة ٢٧٤ من التقنين بعض أنواع الصناع، وحددت أجورهم، وعلى الرغم من أن بعض الأجزاء من نسخة التقنين غير واضحة إلا أن الأجزاء الباقية كافية في استخلاص الواقع بوجه عام:"إذا أراد رجل أن يستأجر صانعاً فإنه يدفع يومياً كأجر... من الفضة، وكأجر لصانع الطوب ٥ شي من الفضة، وكأجر للنساج... شي من الفضة، وكأجر لصانع الأختام... شي من الفضة، وكأجر لصانع الجلود... شي من الفضة، وكأجر لصانع السلال... شي من الفضة، وكأجر للبناء... شي من الفضة".

والمادة ٢٥٧ تعالج استئجار رجل لمزارع، والمادة ٢٥٨ تنظم استئجار رجل لراعي غنم. أَيْ شراء قوة عمل. و"الرأسمال" نجده مذكوراً بوضوح في المادة ٩٣ الَّتي نصت على:"أما إذا كان التاجر... ولم يحسم من أصل المبلغ الكمية الكافية من الحبوب الَّتي تسلمها ولم يكتب عقداً جديداً بالباقي من المبلغ أو إذا أضاف الفائدة على الرأسمال فعلى التاجر في هذه الحالة أن يعيد ضعف الكمية الَّتي تسلمها من الحبوب إلى المدين".

ويتعين أن نلاحظ أن تقنين حمورابي يفرق بوعي بين البيع والشراء والمقايضة، وبين الأملاك الخاصة وممتلكات الدولة. وبين السلع والأموال (م٤) كما يفرق بين أجرة الطبيب البشري والبيطري (م٢١٥-٢٢٥).

وطبقة الصناع مذكورة أيضاً بوضوح، فنقرأ في المادة ١٨٨ :"إذا أخذ عضو من طبقة الصناع ولداً متبنى وعلَّمه حرفته فله الحق أن لا يرده...".

ولم يغفل التقنين إجارة الأشياء، وحدد أيضاً أثمان استئجارها. والمادة ٢٧٢ تُعالج استئجار العربة فقط دون السائق. وتنظم المواد من ٢٦٩ حتّى ٢٧١ إستئجار أدوات الإنتاج في الحقل، إذ يمكن أن يستأجر الرجل ثوراً للدرس والتذرية، أو حماراً، أو نعجة.

والأهم، أننا نعرف من تقنين حمورابي كيف كانت الأرض بوجه خاص، والثروة العقارية بوجه عام، محلاً للتداول والتصرفات القانونية من بيع وشراء وإجارة، فالنظام الرأسمالي، كما فهمه الاقتصاد السياسي الأوروبي، لا يستقل إذاً، وفقاً لمحور ماركس- روزا- هيلبرونر، بتداول الثروة العقارية، كما لا يستقل ببيع قوة العمل، أو الإنتاج من أجل السوق؛ فلقد جاء في المادة ٣٧:"إذا ابتاع رجل حديقة أو بيتاً...". والمادة ٤١ جاء فيها:"إذا بادل رجل حقلاً أو حديقة أو بيتاً...". والمادة ٤٢ جاء فيها: "إذا استأجر رجل حقلاً للزراعة...". والمادة ٤٤ جاء فيها: "إذا استأجر رجل أرضاً بورا...". والمادة ٧٨ تنص على:"إذا سكن مستأجر في بيت رجل وأعطى لصاحب البيت إيجاره السنوي الكامل ثم أمر صاحب البيت المستأجر أن يذهب قبل انتهاء المدة المحددة يخسر صاحب البيت الفضة الَّتي أعطاه إياها المستأجر لأنه أُكره المستأجر على مغادرة البيت قبل انقضاء المدة المحددة".

(٢)

ونعرف من الكتاب المقدس[٥] بعهديّه (١٦١٠ق.م-١٥١٢ق.م) إن إبراهيم، له السلام، اشترى مقبرة بأربع مئة شاقل فضة (تكوين٢٤:١٥).

كما نعرف أن اتمام عملية البيع والشراء بواسطة النقود الموزونة كان سائداً، على الأقل في العهد القديم (تكوين٣٧:٢٧).

ونتعرف أيضاً إلى الأوزان الّتي تستخدم في تحديد وزن السلع: الجيرة (خروج٣٠:١٣) والبقع (تكوين ١٢:٢٤) والوزنة (خروج٣٨:٢٥) والمنا (حزقيال ٤٥:١٢) وشاقل الملك (صمويل ١٤:٢٦).

كذلك نقابل مكاييل الحبوب: الحفنة (اشعياء٤٠:١٢) واللج (لاويين١٤:١٠) والفورة (حجي٢:١٦) والحومر (لاويين١٦:٢٧) والصاع (ملوك الثاني٢٥:٦) والهين (خروج٤٠:٢٩).

أيضاً نجد قياسات الأطوال مثل: الإصبع (أرميا٥٢:٢١) والشبر (حزقيال١٦:٢٨) والذراع (التثنية٣:١١).

نجد أيضاً العملات المستخدمة في التعامل اليومي. لكننا، وفقاً للعهد

---

(٥) **الكتاب المقدس: أيّ كتب العهد القديم والعهد الجديد** (القاهرة: دار الكتاب المقدس بمصر،١٩٩٩)
"In Old Testament times, people engaged in practices which have counterparts in modern capitalism. They engaged in some trade and commerce, created small surpluses, owned private property, practiced, made profits, took losses, and so on. In general, their problems were the same as those of a more complex economy and differed mainly in degree. Human wants had to be satisfied and the materials to satisfy those wants were indeed scarce". John Fred Bell, **A History of Economic Thought** (New York: The Ronald press company, 1953) p.13.

القديم، لم نزل أمام العملات الموزونة[٦] مثل: الشاقل(ملوك الأول ١٠:١٧) والقسيطة (يشوع٢٤:٣٢) والمنا(أيوب٩:١٦).

ومع العهد الجديد ننتقل إلى النقود المعدودة: الفلس (مرقس١٢:٤٢) والدينار(متى ٢٠:٢) والدرهم (لوقا١٥:٨)

والنصوص التاريخية تؤكد أن اليهود، في الشرق القديم، قد مارسوا البيع والشراء، والصيرفة (**ن — ن — Δ ن**)، في هيكل أورشليم وفقاً لما جاء في إنجيل مرقس:"... ولما دخل يسوع الهيكل ابتدأ يخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام. ولم يدع أحداً يجتاز الهيكل بمتاع. وكان يُعلم قائلاً لهم: أليس مكتوباً: بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الأمم. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص".[٧]

والواقع أن اليهود كانوا يمارسون في الهيكل أعمال النهب وليس أعمال البيع والشراء، بطريقتين، نفهم منهما معرفة المجتمع آنذاك لمجموعة من الظواهر الَّتي تخص النشاط الاقتصادي مثل النقود، والأثمان، والمبادلة النقدية، وبيع قوة العمل، والأجور، والصيرفة. أيْ يمكننا أن نرى قانون حركة الرأسمال المالي(**ن - ن - Δ ن**) وكذلك قانون حركة الرأسمال التجاري(**ن — س — Δ ن**) كتب وليم باركلي:"كان النهب يسير بطريقتين: الأولى عندما يدفع اليهودي ضريبة الهيكل. فقد كانت لا تدفع إلا بشاقل القدس، وكان على كل فرد يهودي أن يدفع هذه الضريبة كل سنة، وهي تساوي عشرة

(٦) فالوزنات لم تكن مسكوكة كما العملة بل كانت أوزاناً. لذلك نجد، في العهد القديم، نهياً عن أن يكون في كيس الإنسان أوزان مختلفة كبيرة وصغيرة (**تثنية**٢٥:١٣) وكانت عادة اليهود أن يعلقوا موازينهم في وسطهم من أجل وزن الفضة التي كانوا يتعاملون بها، بصفة خاصة في الهيكل، وكانت عادة الكنعانيين أن يمسكوا بها في أيديهم (**هوشع**١٢:٧).

(٧) **إنجيل مرقس**، إصحاح١١.

قروش، وهي مبلغ كبير إذا ذكرنا أن أجر العامل اليومي في ذلك الوقت لم يكن يتعدى القرشين يومياً، وبالطبع كان المعيدون يحملون أموالاً من جهات متعددة من العالم، وكان عليهم أن يستبدلوها بعملة القدس ليدفعوها؛ فكان الصيارفة يفعلون ذلك لهم في مقابل قرشين لكل ضريبة، وإذا زاد المبلغ فيدفع قرشين آخرين أما الطريقة الثانية: فكانت أكثر بشاعة وهي تكمن في بيع الحمام. فقد كان الحمام يدخل في بند الذبائح وكان على المعيدين أن يشتروا زوج الحمام من داخل منطقة الهيكل. وهنا يحدث الاستغلال البشع. فزوج الحمام الذي كان يمكن أن يشتري بعشرة قروش من خارج الهيكل كان يبيعونه في الهيكل بمبلغ جنيه أيْ أنهم يضيفون على الثمن الحقيقي حوالى عشرة أضعافه وقد يزيد أحيانا".[٨]

ويمكننا، وفقاً لمخطوطات البحر الميت[٩]، أن نستكمل صورة ولو تقريبية عن بعض مظاهر النشاط الاقتصادي في المجتمع آنذاك وبعض أدواته. فنعي أن المجتمع يعرف ظاهرة الأثمان، وأن المعاملات تتم بالفضة كوسيط في التبادل:"وقد دفع بالفضة الثمن الكامل للأرض".[١٠]

وكذلك نعرف أن الجزاءات المالية كانت تدفع بالفضة:"مَن يُشنّع بسمعة عذراء يتم تغريمه مئة شاقل من الفضة"[١١]."الرجل الذي يُضاجع فتاة يُعطي

(٨) وليم باركلي، **تفسير العهد الجديد** (القاهرة: دار الثقافة المسيحية،١٩٨٦)، ص٣٢٢.

(٩) **التوراة: كتابات ما بين العهدين، مخطوطات قمران- البحر الميت**، ٣ ج (دمشق: دار الطليعة، ١٩٩٨) "اختلف الباحثون على زمن اكتشاف هذه المخطوطات، قال بعضهم وقع في عام ١٩٤٧، بينما أصر بعضهم الآخر على العام ١٩٤٦، ... أما المكان فمتفق عليه: منطقة نائية موحشة تنخفض عن سطح البحر بألف وثلاثمائة قدم، تقع بمحاذاة البحر الميت على بعد بضعة أميال من أريحا، تعرف حالياً بقمران... في نيسان/ أبريل ١٩٤٨، أعلنت جامعة ييل الأمريكية عن اكتشاف أقدم مخطوط باللغة العبرية لسفر أشعيا، يسبق بنحو ألف عام النسخة المعروفة للعالم من العهد القديم... تضاعفت دهشة العالم، حين أخذت اللفائف الجلدية الداكنة اللون في التدفق الواحدة تلو الأخرى من كهوف قمران. وغدت المنطقة النائية المقفرة ملتقى الباحثين الغربيين لقرابة عشر سنين. وما لبث أن أدرك هؤلاء أن اللفائف هذه هي بقايا مكتبة عامرة تعود إلى جماعة لم تكن معروفة للعالم من قبل...". انظر للمزيد من التفصيل الكتاب المهم: هالة العوري، **أهل الكهف: قراءة في مخطوطات البحر الميت** (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠).

(١٠) مخطوطات البحر الميت، **الحسينات** XIX، ج١، ص١٦٠.

لوالدها خمسين شاقل من الفضة"[١٢]. كما يعرف المجتمع البيع والشراء ومبادلة السلع بالذهب:"ففتح المخازن حيث كان يوجد قمح السنة الأولى وباعه لأهل البلد مقابل الذهب"[١٣]. ويعرف المجتمع أيضاً التجارة والأرباح:"في السبت لا تُناقش مسائل الأموال والأرباح"[١٤] كما أن ظاهرة الأجر، ومن ثم بيع قوة العمل، كانت ظاهرة معروفة:"أجر يومين على الأقل في كل شهر، إنما عليهم أن يدفعوه للمفتش وللقضاة". [١٥] أما بالنسبة للأموال، فبوجه عام نجد أنها مكروهة[١٦] كقاعدة عامة:"ويل لكم، أيها الخطأة، لأن ثروتكم كانت تجعلكم تظهرون عادلين، في حين أن قلبكم كان يقنعكم بالخطيئة". [١٧]."إن حب المال يقود إلى عبادة الأصنام". [١٨] وجرائم الأموال لها اعتبار خاص:"إذ كان يوجد شخص يكذب فيما يخص الأموال، ويقوم بذلك عن دراية، فإنه يفصل عن وسط طهارة الكثيرين مدة عام، وسيعاقب بربع غذائه". [١٩]

---

(١١) المخطوطات، **مدرجل الهيكل** LXVI، ج١، ص٢١٥

(١٢) المخطوطات، **الخمسينات** XLII، ج٢، ص١٤٥.

(١٣) المخطوطات، **كتاب دمشق** XI، ج٢، ص٢١٥.

(١٤) المخطوطات، **كتاب دمشق**. القوانين، ج٢، ص٢٩٩.

(١٥) نجد العديد من العبارات في الكتاب المقدس، بعهديه، تذم الغنى والثراء وتنهي عن اكتناز المال:"السهر لأجل الغنى يذيب الجسم، والاهتمام به ينفي النوم"(**يشوع** ١:٣١)،"محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة" (**رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس** ١٠:٦)،"مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله"(**متى**١٩:٢٤؛ **مرقس** ٢٥:١٠)، "لتكن سيرتكم خالية من محبة المال. كونوا مكتفين بما عندكم، لأنه قال: لا أهملك ولا أتركك"(**رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين** ٥:١٣). وبناء عليه سوف يحدث الصدام، في أواخر العصور الوسطى، بين التعاليم الدينية والواقع الاقتصادي. إذ بدأ النشاط الاقتصادي في النمو المتسارع بالاعتماد على الملكية الفردية لوسائل الإنتاج، كما حدث التوسع فى المعاملات التجارية مع ظهور المدن وتزايد الأسواق. وسيكون للقديس توما الأكويني الدور المهم في سبيل التوفيق، ربما التلفيق، بين مستجدات النشاط الاقتصادي والتعاليم الكنسية.

(١٦) المخطوطات، **أخنوخ**، XCVI، ج٢، ص٣٦٥.

(١٧) المخطوطات، **يهوذا**، XIX، ج٢، ص٢٣٦.

(١٨) المخطوطات، **دستور الجماعة**، VII، ج٢، ص٨٦.

(١٩) المخطوطات، **مدرجل الهيكل**، LVXI، ج٣، ص٥٦٣.

(٣)

وفي مصر القديمة، نجد أن الفرعون يتربع بمفرده على رأس النظام، يليه مباشرة وزيرا الجنوب والشمال، ويأتي بعدهما باقي وظائف الدولة العليا، يلي هؤلاء في الهرم الوظيفي رجال الصف الثاني في قطاعات الدولة والأقاليم مع العمد والرؤساء المحليين وهيئات المعابد الصغرى، حتّى نصل إلى كاهن القرية.

وكان بجوار هؤلاء الموظفين الرسميين من مختلف الدرجات مجموعة كبيرة من الحرفيين المتخصصين في مختلف المجالات كالفنانين والمثالين والصياغ والزجاجين وصنّاع الأدوات المعدنية والنجارين والاسكافية والخزافين ممن تحتاج إليهم ظروف المعيشة اليومية. هؤلاء تُضاف إليهم فئة الجنود اللازمين للحروب والدفاع.

ونعرف من الصقلي (القرن الأول ق.م) كيف عرف المجتمع الحرف والصناعات المختلفة:"وهناك ثلاث طبقات أخرى، إضافة إلى الملك والكهنة والمحاربين، في الدولة، وهي الرعاة والفلاحون والعمال. فالفلاحون يؤجرون الأرض الخصبة الخاصة بالملك والكهنة والمحاربين نظير أجر بسيط. وهم يقضون كُل حياتهم في فلاحة الأرض، ويتفوقون في المهارة على فلاحي سائر الشعوب؛ لأنهم يتدربون دائماً على الأعمال الزراعية منذ صغرهم. وهم أيضاً أكثر منهم علماً بطبيعة الأرض وطرق ريها، ومواقيت البذر والجني وجميع عمليات جمع المحصول... وينطبق الوصف هذا على طبقة الرعاة، فقد كانوا يخلفون آباءهم على حرفة رعي الماشية كما لو كان ذلك وفقاً لقانون، فيقضون حياتهم كلها في الرعي وقد أخذوا عن أجدادهم معلومات وفيرة عن أحسن طرق رعي الماشية وتربيتها... ان المجتمع في مصر هو الوحيد الَّذي لا يُسمح فيه للصناع بممارسة عمل آخر، أو التدخل في شئون السياسة، بل يلتزمون ما ورثوا عن آبائهم من حرف طبقاً لنصوص القانون".[٢٠]

إن هذا النظام الهرمي الراسخ يتعين أن يُجدد إنتاجه اللازم لحياته من مأكل ومشرب وملبس... إلخ، ولما كانت مصر القديمة تنحصر ثروتها الرئيسية في الأرض الزراعية في المقام الأول فقد كانت طبقة الفلاحين بنوعيها، مزارعين ورعاة، هي الَّتي تكون القاعدة العريضة الَّتي تستند إليها هذا الهرمية الاجتماعية في تدبير حياتها اليومية. ويعني كُل ذلك أن الزراعة تمثل النشاط الزراعي السائد، وفي الوقت نفسه يعني أن عدداً لا يُستهان به من المصريين لا يُنتِج طعامه بنفسه، إنما يَعتمد على غيره، في المجتمع، في سبيل هذا الإنتاج. وبالتبع تجد علاقات التبادل السلعي مساحة واسعة جداً كيْ تفرض وجودها.

وتوضح المراسيم الملكية كيف كانت إجارة قوة العمل، فلم يكن كُل العمال أرقاء، ولم يكن كُل العمال أو الفلاحين عبيداً للدولة أو للفرعون، إنما وجد أيضا العمال الأحرار؛ فالعمال الزراعيون الأحرار، في مقابل أجر، كانوا يؤجرون (يبيعون) قوة عملهم لصالح رب العمل، سواء كان الدولة أو أحد الأشخاص العاديين.

وتؤكد لنا النقوش والوثائق أن الكثير من التماثيل، الخاصة بالفرعون أو المعابد، كان يُعهد إلى أحد الفنانين بعملها. وهذا الفنان المكلف بإتمام عملية التمثال يجمع في مصنعه عدداً من ذوي المهن المختلفة يعملون بالأجرة (النقاش، والنجار، والرسام،... إلخ) كما نجد لوحة تذكارية، في عهد رمسيس الثاني، كُتبت بمناسبة أحد الاكتشافات المهمة في محاجر الجبل

---

(٢٠) انظر:

Diodore De Sicile, **Bibliotheque Historique**, Livre I, introduction generale par Francois Chamoux et Pierre Bertrc, Traduit par Yvonne Verniere (Paris: Les Belles Lettres, 1993)

الأحمر، كُتب عليها:"... لقد دفع لكل منكم أجره كاملاً لمدة شهر".[٢١] وتحدثنا بردية[٢٢] يرجع تاريخها إلى نهاية الدولة القديمة عن الصور المختلفة للنشاط الاقتصادي: إذ نجد الحداد، والفلاح، والصائغ، والنجار، وقاطع الأحجار، والحلاق، ومقتلع البردي، والفخاري، وعامل البناء، والبستاني، وعامل الحقل الأجير، والنساج، والصياد، والوقاد، والاسكافي. وهؤلاء عادة ما يستخدمون أدوات عمل يملكونها. ولكن الناتج لا يمثل بالنسبة لهم أيْ قيمة استعمالية، إنما الناتج من أجل السوق. أَيْ ان الّذي يهم المنتِج هو قيمة المبادلة. ووجود هؤلاء لا يُعبر فحسب عن تجاوز المجتمع اقتصاد المنزل، أيْ الإنتاج بقصد الاشباع المباشر، وإنما أيضاً يشير إلى قوة عمل

---

(٢١) انظر: بيير مونتيه، **الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسة**، ترجمة عزيز مرقس منصور، مراجعة عبد الحميد الدواخلي (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥)

(٢٢) تتخذ هذه البردية الشكل التقليدي لنصائح الأب في مصر القديمة إلى ابنه الذي يعده للمستقبل. حيث يحمس الأب ابنه كي يتعلم، ويتقن الكتابة بالذات، لكي يعمل مستقبلاً في وظيفة الكاتب؛ لما للكاتب من مكانة مرموقة في المجتمع وقصر الفرعون، ويستعرض له باقي المهن بشكل نقدي إلى حد كبير مبرزاً له مساويء كل منها. انظر نص ترجمة البردية في: كلير لالويت، **نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة**، ترجمة ماهر جويجاتي (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦) ج١، ص٢٧١-٢٧٤. ويتعين أن نلاحظ أن وظيفة الكاتب لم تكن حكراً على الذكور دون النساء في مصر القديمة:" أما النساء اللّاتي كن يتلقين التعليم الذي يؤهلهن لشغل وظيفة (كاتب) فقد استطعن الالتحاق بالإدارة... ولقد قام عالم المصريات فيشر بجمع أكثر من خمسة وعشرين لقباً من هذه الألقاب منها: المديرة، رئيسة المخازن، مراقبة المخازن الملكية، مفتشة غرفة الطعام، مفتشة الخزانة، أمينة الخزانة، المشرفة على الملابس، مديرة قطاع الأقمشة، مديرة الكهنة الجنائزيين، المسئولة عن الضياع الجنائزية...مهما كان عمر أو جنس الموظفين، في عمل ما، فانهم كانوا يحصلون على أجور متساوية". انظر للمزيد من التفصيل: كريستيان ديروش نوبلكور، **المرأة الفرعونية**، ترجمة فاطمة عبد الله محمود (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٩)، ص٢٣١. ونلاحظ أيضاً إمكانية تعيين عضوات الحريم الملكي رئيسات لورش النسيج بالقصر الملكي. كما أن سيدات المجتمع الراقي كن يستطيعن إدارة مصانع النسيج الكبرى المحلية. والبعض الآخر منهن، كن يبدن على مقدرة تؤهلهن ليكن مديرات لقاعة الشعور المستعارة، وكان عليهن، إذاً، أن يشرفن على صناعة هذه العناصر المهمة لتزيين سيدات البلاط الملكي، بل والفراعنة أيضاً، بصفة خاصة مع بداية الدولة الحديثة. انظر: أدولف إرمان وهرمان رانكه، **مصر: الحياة المصرية في العصور القديمة**، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال(القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٢٥)، ص٥٦٩.

مأجورة. وسلع وخدمات تُنتَج من أجل السوق. كما يشير إلى التخصص وتقسيم العمل. والأهم أنه يشير إلى أن المنتِج المباشر لم يعد دائماً مالكاً لما يُنتِج، وإنما أصبح الإنتاج يتم من أجل المبادلة من خلال السوق، وفقاً لقانون موضوعي، (تُقيَّم) على أساسه (قيمة) السلع المنتَجة، المراد مبادلتها. وبوجه عام، يمكننا أن نشاهد في مصر القديمة حياة يومية لا تختلف روحها وهمومها عن حياتنا المعاصرة، بالتوازي مع مشاهدتنا لشتى أنواع الحرف والصناعات المتطورة، والورش الضخمة الَّتي كانت تستخدم العبيد وأيضاً العمال الأجراء، إذ كما نجد تجار الجملة، وتجار التجزئة، والصناع الأحرار، نجد العمال في كُل النشاطات الاقتصادية المرتبطة بالفرعون أو المعبد أو الأشخاص العاديين. وبغض النظر عن مشكلات العملة، الَّتي لن تتبلور إلا خلال النصف الثاني من الألف الأولى قبل المسيح[٢٣]، فلا شك في أن المجتمع المصري القديم في مرحلة

---

(٢٣)"كان الاقتصاد المصري بصفة عامة والتجارة بصفة خاصة، يقوم بدوره استناداً إلى وحدات مرجعية لم تكن تستخدم المادة في سداد الثمن، ولكنها كانت تستخدم فقط في تحديد قيمة عناصر المبادلات والمهور والرسوم والغرامات... إلخ. كانت هذه العملة مجرد عملية محاسبية ظلت وحداتها المرجعية سارية لمدة طويلة جداً. كان يتم التعبير عن هذه الوحدات بواسطة الحبوب والفضة ثم أضيف إليها النحاس اعتباراً من الدولة الحديثة. كانت الوحدات المعتمدة على الحب تستخدم في حساب المبالغ المتواضعة، في حين كانت أثقال البرنز أو النحاس تناسب المنتجات العادية، أما أثقال الفضة فكانت تستخدم في المنتجات الفاخرة. ومع هذا كانت هذه الوحدات الثلاثة قابلة للتعاوض فيما بينها وفقاً لمعدل لم يتغير إلا في حدود نسب معقولة". جونيفييف هوسون ودومينيك فالبيل، **الدولة والمؤسسات في مصر: من الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان**، ترجمة فؤاد الدهان (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ص١٤٢. وكتب كيمب:"كانت طرق التعاملات الاقتصادية صغيرة الحجم معروفة جيداً للدولة الحديثة... وكانت الأسعار تتفاوت من مناسبة لأخرى، وكانت نسبة قيمة السلع تتغير... وفي إحدى المعاملات التقليدية نجد شرطي يشتري من أحد العمال ثوراً ويدفع ثمناً له جرة من العسل قيمتها ٣٠ دبن، وثوبين قيمتهما ١٠ دبن، وخردة من النحاس وتساوي ٥ دبن، و١٠ هن من الزيوت النباتية قيمتها ١٠ دبن، أي أن المجموع ٥٠ دبن... وكان هذا النظام من القيم =

متطورة عرف ظاهرة الثمن، ومن ثم المبادلة، كما عرف ظاهرة الأجر، ومن ثم عرف بيع قوة العمل، ومختلف الظواهر المرتبطة بالتجارة والمضاربة.

ويتعين أن نذكر بشأن قوة العمل أن الجدل قد ثار حول وقت ظهور نظام الرق الخاص في مصر، أيْ تملك فرد لفرد. إذ أننا لم نجد أيْ أثر لذلك. ولم نصادف تصرفاً واحداً يتناول أشخاصاً بالبيع أو الشراء، في عصر الدولة القديمة. وفي تقدير البعض، أن عدم العثور على أية إشارة فى التصرفات القانونية إلى وجود الرقيق لا يعتبر دليلاً كافياً. إذ يمكن تصور أن التصرفات ما كانت تذكر سوى الرجال الأحرار وتتغاضى عن الإشارة إلى الأرقاء في حالة بيع الأراضي مثلاً باعتبارهم مجرد ملحقات، ولا يتمتعون بحقوق أو أموال خاصة. بيد أنه إذا كان هذا الفرض صحيحاً، فإنه كان يتعين ذكر هؤلاء الأرقاء، باعتبارهم من عناصر الذمة المالية، في الوثائق الاحصائية للأموال، أيْ الوثائق التي تحوي بياناً لأنواع الأموال الَّتي تُفرض عليها الضريبة، والَّتي كان يتعين على الملاك تحريرها. فهذه القوائم كانت تتضمن جرداً تفصيلياً دقيقاً للأراضي، والديون المختلفة،

= يغطي ثمن العمل والمواد الخام... وكان شد الحبال على السرير الخشبي يكلف ١ خار من الغلال، بينما كان صنعه يتكلف حوالي ٥ خار، وكان تجميله يتكلف ١.٥ خار، وكان الخشب يتكلف ٣ دبن، وحيث أن ١ خار من الغلال يساوي ١ دبن؛ فإن الإجمالي يكون ١٨ دبن. وكان شراء السرير الجاهز يكلف ما بين ١٢ و٢٥ دبن، وهو تجسيد منطقي للعمل مضافاً إليه تكاليف المواد المستعملة في الإنتاج".

B. Kemp, **Ancient Egypt: Anatomy of Civilization** (London: Routlede, 1991) p.369.

ونلاحظ أن باري كيمب يعتنق نظرية المنفعة في القيمة، إذ يرجع، مثل النيوكلاسيك، كما سنرى في الفصل الخامس عشر، قيمة السلعة إلى المنفعة، وليس لكمية العمل المبذول في سبيل إنتاجها! بل ويخرجها من نطاق الاقتصاد بالأساس! فقد كتب:" ويمثل مفهوم القيمة، وهو مفهوم شديد الشخصية حداً عاماً للتسويق، تعمل في إطاره علاقة العرض والطلب بكثافة تتفاوت تبعاً للظروف والطريقة الَّتي تتكون بها. القيمة مسألة شخصية إلى حد كبير تقع خارج مجال الاقتصاد تماما"! Kemp, **Ancient Egypt**,op,cit,p.368

والمواشي، بل وحتّى الدواجن، وكُلّ شوال غلال قدم للطحان، وكُلّ رغيف عيش تم استلامه من الخباز. ولو كان هناك رقيق لشملته هذه البيانات لأنها تحصي جميع الأموال المملوكة للشخص. بل وهناك من الوثائق الَّتي يمكن أن نستقي منها دليلاً مباشراً على أن الدولة القديمة لم تعرف نظام الرق الخاص. وفيما يتعلق بنظام الرق العام، فليس لدينا نص واحد يؤكد صراحة أن الدولة كانت تستخدم أسرى الحروب كرقيق عام، أَيْ رقيق للدولة. وإذا كانت مصر لم تعرف نظام الرق الخاص بالمعنى الصحيح في عصر الدولة القديمة ولا حتّى في العصر الإقطاعي الأول فإنه يمكن قول نفس الشيء بالنسبة للدولة الوسطى.[٢٤]

(٤)

أما الفينيقيون[٢٥] في القرن السادس قبل الميلاد، الَّذين تميزوا بالتجارة البحرية[٢٦] على نطاق واسع، وبسطوا سلطانهم على بحار العالم القديم، حتى صار البحر الأبيض المتوسط بحيرة فينيقية، من سواحل لبنان حتى إسبانيا، الَّتي استعمروها[٢٧]، فقد كانوا يرتحلون بتجاراتهم من ميناء إلى آخر مستبدلين بجزء من حمولتهم منتجات البلد الَّذي يبيعون فيه. فإذا

(٢٤)"تدل الوثائق الديموتيقية، من القرون الأخيرة الَّتي تسبق الفتح المقدوني، على أنه إذا كانت تربط الزراع بأراضيهم والعمال بمصانعهم روابط قوية مختلفة، فإنه لم يوجد في حياة مصر الاقتصادية عبيد قبل مجيء الإغريق". إبراهيم نصحي، **تاريخ مصر في عصر البطالمة** (القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٨٨)، ج٣، ص٢٩.

(٢٥) "جاء الفينيقيون... وهم قوم يشتهرون بسفنهم، وبأنهم أوغاد جشعون...". **أوديسة هوميروس**: الترجمة الكاملة عن الأصل اليوناني، ترجمة أمين سلامة (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨)، ص٣٧٩.

(٢٦)"انتقلت التجارة من البابليين إلى أيدي الفينيقيين الذين تخصصوا في التجارة البحرية وجابوا البحر المتوسط... وقد ترك الفينيقيون نظاماً قانونياً أصيلاً هو نظام الرمي في البحر وهو أصل نظرية الخسارات البحرية... فإذا ألقيت بضاعة أحد الشاحنين في البحر لتخفيف حمولة السفينة وانقاذها من الخطر الَّذي يهددها، التزم مالك السفينة ومُلاك البضائع الَّتي أنقذت بفضل هذه التضحية بتعويض صاحب البضاعة الَّتي ألقيت في البحر". مصطفى طه، **القانون التجاري** (الإسكندرية: مطابع رمسيس، ١٩٥٦)، ج١،ص٦٧.

نزلوا ببلد أبعد باعوا ما اشتروه، وكانت هذه السفن ترسو عند هذه النقطة أو تلك من نقط الساحل وتبقى بها أياماً أو شهوراً أو سنين حتّى تتخفف من حملها، وما كان يزيد الإقبال على تجاراتهم نوع السلع الراقية والثمينة والنادرة الّتي كانوا يعرضونها، مثل الزجاج الدقيق والحُلي والأقمشة وأدوات الترف[٢٨]، فلقد عرف الفينيقيون كيف يطورون السلع المعدة للتصدير كالزجاج والنسيج، كما عملوا على تطوير صناعة المعادن المختلفة المصنعة من مواد خام مستوردة رخيصة الثمن. وفهموا كذلك كيف يكيّفون أنفسهم ببراعة مع متطلبات السوق، على غرار ما يفعله عادة مُنتج، هو، في الوقت نفسه، تاجر. فلم يتخصصوا في إنتاج سلع مرتفعة الأثمان وحسب، بل قدموا كذلك عرضاً سلعياً متنوعاً يُغطي حاجات عموم الناس. وأنتجوا سلعاً رخيصة يرجح أنها قامت على المحاكاة والتقليد، بيعت إلى جانب أقمشة الأرجوان النفيسة. كما عرفوا كيف يزيدون تصريف منتجاتهم بالبحث المستمر عن أسواق جديدة وفتحها. كما استخدموا خبراء يعملون في الخارج لإدارة شكل أو آخر من أشكال الاقتصاد الخارجي.[٢٩]

لا شك إذاً أننا أمام عدة ظواهر تسترعي انتباه الباحثين في تاريخ النشاط الاقتصادي. فنحن أمام حركة تصدير واستيراد، وتجارة هدفها

---

(٢٧) "كان شائعاً عند الفينيقيين الإسبان صيد السمك وتصنيع منتجاته، وكذلك صناعة الخزف... والتعدين وصناعاته، والمجوهرات، والتماثيل، وأدوات العبادة كالمحاريب والتمائم، كما ظهرت دور السك ووضعت النقود في قرطاجة في التداول ابتداءً من القرنين الخامس والرابع...". يولي بركوفيتش تسيركين، **الحضارة الفينيقية في إسبانيا**، ترجمة يوسف أبي فاضل(بيروت: جروس برس، ١٩٨٨)، ص١٢٥.

(٢٨) ج. كونتنو، **الحضارة الفينيقية**، ترجمة محمد شعيرة (القاهرة: مركز الشرق الأوسط،١٩٤٨)، ص٣٢٠.

(٢٩) كارلهاينز برنهردت، **لبنان القديم**، ترجمة ميشيل كيلو (دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ١٩٩٩)، ص١٢١.

الربح وليس تبادل سلع بسلع بغرض الاشباع المباشر، على الأقل من جانب الفينيقيين. كذلك نحن أمام عملات مسكوكة من الذهب أو من الفضة، وسلع مصنّعة، وعلى درجة عالية من الجودة. وسوق، وبائعين ومشترين ووسطاء في هذا التداول، هم في الواقع تجار مستثمرون. والأثمان الاتفاقية موجودة، كما الأثمان الرضائية، بين البائعين والمشترين والمشاركين في النشاط التجاري بوجه عام. كتب جان مازيل:"... كان الرأسماليون وأصحاب السفن الكبار قد أتقنوا دون شك كل فنون التجارة الدولية الكبيرة. حيث كانت أعمالهم تشتمل على كل ما هو معروف في عصرنا هذا من تأمينات ساحلية واعتمادات مصرفية وقروض من كُل الأنواع وتمويل بالمساهمة أو بالحساب وكُل أشكال الحسومات والإجراءات التجارية. وفي قرطاجة ظهر أول قرض له صفة دولية. ولم يفسح الفينيقيون مجالاً لتقدم الإغريق عليهم في سك العملة، فقاموا في ورشاتهم بسك عملتهم من الفضة والذهب... إنَّ البورصة الَّتي كانت تحدد الأسعار العالمية للمواد الأولية الَّتي صارت تمول العمليات الحربية كان لها دور في سقوط قرطاجة..."[٣٠].

ويمدنا سفر حزقيال[٣١] بمادة، ولو أولية، إنما ثرية، تمكنا من التعرف إلى كيف كانت حركة التجارة، وأنواع السلع، والأسواق في"صور" الَّتي كانت أهم المدن الفينيقية على ساحل البحر الأبيض المتوسط آنذاك. فنعرف، من سفر حزقيال، أن صور كانت من أجمل وأعظم مدن العالم

---

(٣٠) جان مازيل، **تاريخ الحضارة الفينيقية "الكنعانية"**، ترجمة ربا الخش (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٨)، ص١٦٨.

(٣١) **سفر حزقيال**، الإصحاح ٢٧و٢٨، ص٩٠٣-٩٠٥." كانت صور ساكنة عند مدخل البحر. وقد توافدت إلى مينائها السفن من جميع الأمم، ومن هنالك انطلق أسطولها إلى جميع أنحاء العالم المعروف يومئذ. وطالما افتخر شعبها بغناها... فما من شيء كان يعز عليهم...". هـ. آ. أيرنسايد، **نبوة حزقيال: تفسير لسفر حزقيال**، ترجمة س. ف. باز (القاهرة: دار الإخوة للنشر،٢٠٠٩)، ص١٤٩. ومن المعروف تاريخياً أن هيرودوت حكى انه ذهب إلى صور في فينيقيا؛ ولاحظ أن هناك معبد مقدس لهيراكليس قد زينته نصب كثيرة، ومن بينها عمودان، أحدهما من الذهب المصقول والآخر من حجر الزمرد.

القديم، على الاطلاق، وأن التجارة العالمية الَّتي اتخذت من مدينة صور مركزاً، كانت تجارة عالمية بالمعنى الدقيق للكلمة، فنجد تجارة واسعة في المنسوجات والمصنوعات على اختلاف أنواعها من حُلي وأواني وكماليات، نجد أيضاً أفخر أنواع العطور والأخشاب والتوابل والبخور والمعادن والأحجار الكريمة والأدوية والحبوب والأغنام... إلخ.

كما نعرف، من نفس المصدر، كيف كانت أسواق هذه المدينة العظيمة ملتقى صناع وعمال وتجار وسلع، بل ونقود العالم، وأهم مكان عالمي متحضر لتصدير واستيراد أرقى وأنفس منتجات العالم الشرقي القديم، عبر أساطيل بحرية عملاقة متخصصة في النقل التجاري الدولي بقيادة الفينيقيين الَّذين ملكوا البحر الأبيض المتوسط. أيْ أن رأسمالية المركزية الأوروبية في حاجة إلى المراجعة؛ من أجل إعادة كتابة تاريخ الفكر الاقتصادي بوجه خاص.

(٥)

وفي بلاد اليونان، في القرن السادس والخامس قبل الميلاد، ظهرت عملية سك النقود المعدنية. وكادت أثينا أن تحتكر النقد الدولي المتداول، في العالم القديم، بعد أن صارت أكبر مصدّر للمسكوكات الفضية في هذا العالم[٣٢] ونحن نعرف أن صولون قرر تخفيض قيمة العملة حينما قرر إلغاء الرهون العقارية الَّتي تقررت على صغار الفلاحين وعجزوا عن سدادها[٣٣]. لقد كان الإغريق تجاراً مهرة، وهم أول من أبتدع نظام قرض

(٣٢) "... أدخل الإسكندر الأكبر في جميع الأراضي الَّتي فتحها نظاماً موحداً لسك العملة على أساس النظام الآثيني... لقد أطلقت فتوحات الإسكندر مقادير كبيرة من الذهب والفضة والكنوز المختزنة لدى الحكام الَّذين أخضعهم، وإن هذه الزيادة المفاجئة في تدفقات النقود أدت إلى ارتفاع شديد في الأسعار". فيكتور مورجان=

المخاطرة الجسيمة، ومؤداه أن رأسمالياً يقرض مالك السفينة ما يَحتاج إليه من نقود لتجهيز السفينة وشراء البضائع. فإذا وصلت السفينة إلى بر الأمان استوفى المقرض مبلغ القرض وفائدة مرتفعة قد تصل إلى ٢٠ بالمئة أما إذا غرقت السفينة لم يكن للمقرض أن يُطالب مالك السفينة بشيء ويعفى الأخير من رد ما اقترضه.

وكانت الإسكندرية البطلمية تُنتِج للعالم المتحضر كله آنذاك الورق والكتان والعطور والفخار وبعض أنواع المنسوجات والسلع الزجاجية، والأنوع المختلفة من الحُلي والمجوهرات والأواني الفضية الَّتي عم استعمالها

= **تاريخ النقود**، ترجمة نور الدين خليل (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٣) ص١٧. "وأصبحت البلاد مركزاً لتجارة عظيمة بين آسيا وأوروبا وكانت على الدوام بلاداً منتجة غنية بالذهب. واشتهرت ليديا بأنها أولى أقطار العالم في إنتاج النقود المسكوكة، وفي إعداد الفنادق للمسافرين والتجار... وقد بلغ نظام المصارف (البنوك) والمالية شأواً لا بأس به". هـ.ج. ولز، **معالم تاريخ الإنسانية: تاريخ الإغريق والرومان ومَن عاصروهما**، ترجمة عبد العزيز جاويد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤)، ج٢، ص٣٤٧. ولقد تم إنتاج العملة، لأول مرة في ليديا، في مدينة سروخسان من خليط الالكتروم وهي مزيج طبيعي في التربة يتركب من الذهب الأبيض بمقدار ٣/٢ والفضة ٣/١ أو من الذهب الحاوي على ٣٥/٢٠ بالمئة، وفي رأي آخر عبارة عن مزيج من ٩٦% من الذهب، و٤% من الفضة، وكانت النقود في ليديا تسك بواسطة أقراص مصبوبة من المعدن توضع فوق سندان وفوقها قالب محفور بالرسم المطلوب يضرب بواسطة مطرقة فينطبع الرسم على القرص. انظر:

Percy Gardner, **A History of ancient Coinage 700-300 B.C** (Oxford University Press, 1918) p.74-87.

وللمزيد من التفاصيل، انظر: قتيبة الشهابي، **نقود الشام: دراسة تاريخية للعملات التي كانت متداولة في الشام** (دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية،٢٠٠٠)، ص١٥. ويذكر د. فيليب حتّى، أن الشاقل العبراني في القرن الخامس قبل الميلاد هو أقدم نقود معروفة! انظر: فيليب حتى، **تاريخ لبنان: منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر**، ترجمة أنيس فريحة (بيروت: دار الثقافة للنشر، ١٩٧٢) ص١٥٧. وأعتقد أن رأي د. حتّى تعوزه الدقة.

(٣٣)

"Plutarque raconte qu a Megare, après une insurrection, on decreta que les dettes seraient abolies, et que le creanciers outré la perte du Capital, seraient tenus de rembourser les interest déjà payes".Fustel De Coulanges, **La Cite Antique** (Paris: Librairie Hachette, 1900) p.400.

في العالم القديم. أيْ أن الإنتاج لم يكن بغرض الاشباع المباشر إنما كان من أجل التصدير. من أجل السوق الدولية. ومن ثم الخضوع لسيطرة الأثمان الدولية. وكُل ذلك إنما يفترض منتجين، وغزارة في الإنتاج، كما يفترض التخصص والتقسيم الدقيق للعمل. كما يفترض من باب أوّلى التنظيم الصارم لعملية الإنتاج والضبط المحكم للنشاط التجاري. والمؤكد تاريخياً ان ازدهار الصناعة في المدن أدى إلى هجرة الكثيرين من الريف.

وكانت الإسكندرية، أيضاً، في مقدمة المدن الَّتي اجتذبت إليها آلاف العمال والصناع (المأجورين) وكان القانون يُقرر لعمال استخراج الزيت مكافأة تشجيعية تضاف إلى الأجور الَّتي يحصلون عليها. وإذا امتنع الموظف المختص عن اعطاء العمال أجورهم ومكافأتهم، فإنه يُعاقب بأنّ يدفع للخزانة العامة ٣٠٠٠ دراخمة، وللعمال أجورهم وجميع مستحقاتهم.

ونشك كثيراً في كون المنتجين لهذه الروائع الفنية الَّتي تجلت في المنتجات الإغريقية كالأواني والأقمشة والحلي وأعمال الزجاج والرخام والمعادن على سبيل المثال، كانوا من العبيد! بل نفترض أن الصيغة الخاصة بالرأسمال الصناعي **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** قد نشطت في بعض الأحوال بداخل المجتمع المنتِج لمثل هذه الروائع الفنية.

فلقد وجدت الورش على إختلاف أعمالها وأشكالها الَّتي استخدمت ليس العبيد فحسب، إنما الأجراء الأحرار أيضاً، في الصناعات الَّتي تحتاج إلى دقة وعلى درجة عالية من الحرفية والفنية. وبصفة خاصة أن كُل العمال في آثينا لم يكونوا من العبيد، والأجر كظاهرة نراها معروفة، بل وحتّى

العبيد كان يُسمَح لهم بالعمل الحر كيْ يشتروا حريتهم من أسيادهم بالمال الَّذي كسبوه.

إن السمة الَّتي يعتبرونها حاسمة في المجتمع الرأسمالي المعاصر والمتعلقة بانفصال الريف عن المدينة ويكتبون الرسائل الجامعية، الهزلية أحياناً، في دور الرأسمالية في هذا الفصل، نجد أن هذه الظاهرة بارزة بوضوح في آثينا ومعبرة تعبيراً دقيقاً عن الطبقية كنظام اجتماعي راسخ. ونجد أنفسنا مباشرة أمام نفس الإشكالية الفكرية الَّتي سوف يتعرض لها ديفيد ريكاردو، كما ذكرنا، بالتحليل في مطلع القرن التاسع عشر، كفكرة مركزية في بنائه النظري، وهي الصراع بين رجال الصناعة الَّذين يريدون خفض أثمان المنتجات الزراعية ورجال الزراعة الذين يرغبون في رفع أثمان هذه المنتجات. كتب ديورانت:"كانت نار الحرب القديمة العهد بين الريف والمدينة بين الَّذين يريدون أثماناً عالية للغلات الزراعية وأثمانا منخفضة للسلع المصنوعة، وبين الَّذين يطلبون أثماناً منخفضة للسلع المصنوعة وأجوراً عالية أو أرباحاً كبيرة في مجال الصناعة، وبينما كانت الصناعة والتجارة تعدان من أعمال العامة الَّتي تزري بصاحبها في نظر المواطن الآثيني، كانت الأعمال الزراعية في اعتقاده مشرفة للمشتغل بها لأنها أساس الاقتصاد القومي، وكان أهل الريف ينزعون إلى احتقار سكان المدن ويرون أنهم إما طفيليون مستضعفون أو عبيد أدنياء".[٣٤]

وعلى الرغم من ارتكاز المجتمع الآثيني على العمل العبودي، كظاهرة سادت العالم القديم بوجه عام[٣٥]، إلا أن العبيد الأرقاء في اليونان كانوا إلى حد ما، في بعض الفترات التاريخية، أسعد حالاً؛ فكما كان للرجل

---

(٣٤) ديورانت، المصدر نفسه، ج٤، ص٤٥.

(٣٥) بينت الاحصاءات أن عدد المواطنين، في أثينا، بلغ نحو ٢١ ألفاً، في حين بلغ عدد العبيد ٤٠٠ ألفاً تقريباً. أيْ نحو ٢٠ عبداً لكُل مواطن. انظر: =

الأثيني العادي أن يملك عشرات العبيد يعملون في منزله أو حقله أو حانوته، كان للعبد، وهذه ملحوظة مهمة، أن يبيع قوة عمله بالأجرة في وقت فراغه من عمل سيده ليكسب من المال ما يمكنه، كما ذكرنا، من شراء حريته من سيده. كتب روبنسون: "ولدينا نقش كتابي عن تشييد هيكل اركتيوم وفيه وصف جليّ واضح يبين لنا وجه المقابلة، من حيث المراتب الاجتماعية بين مختلف الطبقات. ذلك أننا نجد ذكراً لعشرين مواطناً وخمسة وثلاثين عبداً معتقاً وستة عشر عبداً، وكل منهم، ويدخل في ذلك المهندس المعماري نفسه، يتقاضى أجراً يومياً قدره درهم واحد، والدرهم نسبة إلى قوته الشرائية آنذاك، يمثل ضعفي نفقات المعيشة لرجل عازب".(٣٦)

وظاهرة الأجر، على هذا النحو، واضحة في المجتمع الآثيني، على الرغم من هيمنة العمل العبودي على مجمل النشاط الاقتصادي في المجتمع، فيمكننا أن نجد الأطباء والمثالين والمعلمين يتلقون الأجور مثل البناءين والنجارين والنحاسين والنقاشين والخزافين والنحاتين والخراطين وغيرهم من الحرفيين

= Robin Osborne, **The Economics and Politics of Slavery at Athens,** in: the Greek World, Edited by Anton Powell (London: Routledge, 1995)p. 195.

ويرجع تشارلز ورث مصدر الثروة في المجتمع اليوناني إلى عمل العمال، كتب ورث:"من المؤكد ان جانباً من الثروات الطائلة الّتي كانت في حوزة أصحاب الملايين الّذين عاشوا في القرن الثاني في اليونان، قد توافرت لهم نتيجة لاستغلالهم للعمال الّذين يشتغلون في ضياعهم الواسعة". تشارلز ورث، **الامبراطورية الرومانية**، ترجمة رمزي عبده جرجس (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩)، ص١٤٢.

(٣٦) تشالز الكسندر روبنسون، **أثينا في عهد بركليس**، ترجمة أنيس فريحة (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٦٦)،ص١٦٥. ومن المعروف أن صولون قسم المجتمع إلى أربع طبقات وجعل الأجراء في أدنى الطبقات معنى ذلك أنه يسلم بوجودهم لدرجة تكوينهم طبقة بأكملها: "ولقد ألف صولون السلطات كلها من طبقة الأعيان والموسرين: من طبقة الّذين يملكون خمس مئة مِدْمِن، ومن الّذين يقنون أفدنة، ومن طبقة الفرسان. وأما الطبقة الرابعة، وهي طبقة الأجراء، فلم يكن لها نصيب في سلطة ما". انظر: أرسطو، **في السياسة**، نقله عن الأصل اليوناني وعلق عليه الأب أوغسطينس برباره البولسي، ط٢ (بيروت: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع الإنسانية،١٩٨٠)، ص١٠٨.

والصناع الأحرار الأجراء.(٣٧) أَيْ أن الأجور تُدفع لِمَن يقدمون الخدمات كما تُدفع لِمَن يُنتجون السلع. عرف المجتمع الآثيني إذاً إجارة الخدمة. أيْ أن مقولة ماركس وإنجلز:"لقد جعلت البورجوازية الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم في عداد الشغيلة الأجراء"، تحتاج إلى مراجعة!

وتوجد بردية تعود إلى القرن السادس، محفوظة في متحف مكتبة الإسكندرية، تحت رقم ٥٧٢، عبارة عن "عقد تدريب على حرفة"، وعلى الأجر النقدي. أَيْ ظاهرة بيع قوة العمل. ويُصبح من المؤكد، في ضوء الآثار والوثائق العديدة، أن الجزء الأكبر من الإنتاج لم يكن من أجل الاشباع المباشر، إنما كان يتم من أجل السوق. وطالما كنا في السوق فيتعين أن نجد مباشرة أمامنا منظومة الظواهر المرتبطة بالأسواق مثل ظاهرة الأثمان والنقود والمبادلة والطلب والعرض وتُجار التجزئة وبالطبع الرأسمال، والرأسمالي الَّذي يَستثمر أمواله.(٣٨)

---

(٣٧) ورث، **الامبراطورية**، المصدر نفسه. ديورانت، المصدر نفسه.

(٣٨) في هذه المرحلة التاريخية نقابل مساهمة أرسطو بصفة خاصة في القيمة والنقود والفائدة، ونجد أنه في سبيل البحث في أبواب الرزق الطبيعي وغير الطبيعي، يتخذ من العائلة، كوحدة إنتاجية، حقلاً للتحليل. ويفرّق، في هذا السياق، ما بين فن الاقتناء لأنه طبيعي، وفن الكسب لأنه مغاير للطبيعة، ثم يذهب إلى أهمية العمل الإنساني المنتج في دائرة طرق المعاش، الَّتي حصرها في: الرعي، والزراعة، والتلصص(لم يكن من الأمور الشائنة في بلاد اليونان) وصيد الأسماك، وقنص الوحوش والطيور. ويَعتبر أرسطو أن الغنى الحقيقي صادر عن أبواب الرزق الَّتي حصرها على نحو ما ذكرنا. وحين حديثه عن القيمة، نرى لديه الوَعْيَ بكُل من قيمة الاستعمال وقيمة المبادلة، دون أن يصل إلى مقياس التبادل:".... **فيبدلون النوافع بما هو من نوعها، لا أكثر ولا أقل، فيقدمون الخمر مثلاً ويأخذون عوضه الحنطة. وهكذا في كل من الأشياء الأخرى المتجانسة"** أرسطو، **في السياسة**، المصدر نفسه، ص٢٧. وهو يصل إلى ما هو أبعد من ذلك بكشفه عن المنفعة كشرط للقيمة، كما سيرى ريكاردو بعد ذلك، إذ يرى أرسطو أن الأشياء القابلة للمقايضة، أيْ التداول، هي فقط الَّتي يُمكن أن تكون محلاً للاستعمال. ويضرب مثالاً على ذلك بالحذاء الَّذي يَستخدمه صاحبه في الاستعمال، أو بمادلته بسلعة أخرى. ولكنه لم يتقدم أبعد من ذلك، كما ذكرنا، فهو يقول:" **لكل قنية إستعمالان، وكلاهما ذاتيان، ولكن دون مماثلة في ذاتيتها، إذ الواحد مختص بالشيء والآخر غير مختص به. فالحذاء مثلاً يحتذى =**

= به ويتجر به، وهذا الوجه من الانتفاع وذاك الوجه هما استعمالان له. والذي يقايض غذاء أو نقداً مَن كان محتاجاً إليه استعمله كحذاء ولكن لا استعمالاً خاصاً إذ لم يُجعل للمقايضة". المصدر نفسه، ص٢٦. ثم ينتقل أرسطو إلى الصعوبات الَّتي أدت إلى ظهور وحدات النقد، تلافياً لعيوب المقايضة، واعتبار تلك الوحدات المتخذة من الحديد والفضة وسيطاً في المبادلة، وحينما هيمنت وحدات النقد في التبادل منحّية المقايضة جانباً، ظهر على المسرح الاجتماعي نشاط التجارة، الَّذي يدينه أرسطو ويَعتبره خارج الكسب الطبيعي، لأنه يقوم على البيع والشراء بمعنى أدق بيع منتجات فائضة بالنقد، ثم شراء منتجات يُفتقر إليها، بالنقد كذلك، وهو التبادل الَّذي يراه أرسطو ذميماً. أما عن نظرية أرسطو في النقود فهي تتلخص في أن حياة أيْ مجتمع (غير بيتي، أيْ غير شيوعي بدائي) تتطلب تبادل السلع والخدمات، وهذا التبادل يأخذ صورة مقايضة في مبدأ الأمر، يتم ذلك بصورة طبيعية، ولكن الصعوبات الَّتي تواجه عملية المقايضة والرغبة في تفاديها تجعل الناس تلجأ بطريق الاتفاق الضمني، أيْ العرف، أو عن طريق التشريع إلى إتخاذ سلعة واحدة كوسيط للتبادل. وهو الأمر الَّذي قاد إلى ظهور معدن من نوع ما كَيْ يلعب هذا الدور في التبادل، أيْ أن أرسطو توصل إلى الوظيفة الأولى من وظائف النقود:"... **النقد عنصر التبادل**"، المصدر نفسه، ص٢٩. وحين يدين أرسطو احتفاظ الإنسان بأية ثروة تزيد عن حاجته، فهو في الواقع يصل إلى وظيفة أخرى من وظائف النقود، وهي المتعلقة بمخزن القيمة، وأخيراً حين يتحدث عن التبادل والبيع والشراء، فإنما يفتح باب المناقشة حول مقياس القيمة، وتلك وظيفة ثالثة تقوم وحدات النقود بتأديتها. وبشأن الفائدة الَّتي تكون على الاقراض، يقول أرسطو:"**يوجد نوعان من فن تكوين الثروة: أحدهما يتعلق بالتجارة، والآخر بالاقتصاد؛ وهذا الأخير ضروري وجدير بالمدح، أما الأول فيقوم على التبادل ولذلك يندد به عن حق وصواب، وهكذا يكره الجميع الربا بحق، لأن النقد بالذات يُعتَبر هنا مصدر الكسب ويستخدم ليس من أجل الغاية الَّتي تم اختراعه من أجلها. فهو قد نشأ من أجل التبادل البضاعي، بينما تصنع الفائدة المئوية من النقد نقداً جديداً. ومن هنا تسميتها بالمولود، لأن المولود شبيه بالوالد. إلا أن الفائدة المئوية هي نقد من نقد، ولذا فإن فرع الكسب هنا أشد مناقضة للطبيعة من بين سائر فروع الكسب**". المصدر نفسه، ص٣٢. ولعل أهم ما قدمه أرسطو، في تصوري، في الباب الَّذي خصصه لبحث أبواب الرزق الطبيعي وغير الطبيعي، هو رؤيته **للقيمة الزائفة للنقود**، ووعيه بكون وحداتها غير معبّرة عن القيمة الطبيعية للأشياء، أيْ إنه ينظر إلى النقود، كظاهرة طارئة على المجتمع، نظرة متقدمة جداً بالنسبة إلى عصره، ويرى أن النقد(المصنوع من الحديد ومن الفضة) لا يُعبّر، في المقام الأول، عن قيمة ما يحتويه هو نفسه من حديد أو فضة كسلع، وأن البشر هم الَّذين جعلوا من المعادن نقوداً يبيعون من خلالها ويشترون، ويقول:"**وما النقد، على ما يبدو لنا، إلا هذيان وعادة مرعية، وما هو على شيء من القيمة الطبيعية. إذ لو عدل مستعملوه عما إصطلحوا عليه لأضحى شيئاً زرياً لا يعتد به ولا يقضي حاجة، ولأمسى مَن قامت ثروته على النقود في أمس العوز إلى القوت**". إن تتبع مساهمة أرسطو، لا شك تقودنا إلى الاعتراف بأنه قد تمكن من الوصول إلى قيمة الاستعمال وقيمة المبادلة، ولكن من منظور يتعين أن ننتظر مئات القرون حتّى يُعاد النظر من خلاله على نحو أكْثر نضجاً. كما أن تتبع ارسطو ربما يقودنا كذلك إلى الاعتراف بإحتمالية وصوله إلى ضفاف نظرية عامة في القيمة، ولكنها غير واضحة وربما غامضة، إلا أن أرسطو يظل أول من أشار إلى طبيعة السلع ودور النقود في الحياة اليومية بشكل تجريدي يُمكن أن يُبنى عليه بناءً نظرياً صحيحاً عن السلع والتبادل والنقود.

(٦)

وحينما ننتقل إلى روما في القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد، فسنجد أن النساجين الأحرار والأرقاء[٣٩] **(ن — و أ + ق ع — س — Δ ن)** قد جُمعوا في مصانع صغيرة لا تُنتج للأسواق المحلية وحدها بل تُنتج بغرض التصدير، وكانت الصناعة في أيدي صناع مستقلين يشتغل كُل منهم في حانوته الخاص، وكان معظم هؤلاء الصناع من الأحرار، ولكن كان إلى جانبهم، بحكم التكوين الاجتماعي، عدد من المحررين وعدد آخر من الأرقاء. ونرى بوضوح كيف كان التنافس شديداً بين الصناع الأحرار والصناع الأرقاء وهو الأمر الَّذي أدى، في بعض الأحيان، إلى خفض أجور الصناع الأحرار، ومن ثم انخفاض مستوى معيشتهم، وبالتبع تدني جودة المنتَج النهائي نفسه. فيمكن القول إذاً أن هذه المنافسة لم تأتْ بنتائج جيدة:"لأنها قد أضرت في الدرجة الأولى بالعمال الأحرار الَّذين يؤجرون سواعدهم للملاكين".[٤٠]

ويمكننا أن نرى أيضاً منافسة المؤسسات الصناعية الكُبرى، الَّتي نشأت ونمت في بعض الضياع الزراعية الكبيرة، لحوانيت المدن ومصانعها، فبعض هذه الملكيات الَّتي يستحوذ عليها الأغنياء[٤١]، أخذت في القرن الثاني في انشاء المصانع وتنظيمها لإنتاج السلع لا بقصد استهلاكها

---

(٣٩) ألفريد زيمرن، **الحياة العامة اليونانية: السياسة والاقتصاد في أثينا في القرن الخامس**، ترجمة عبد المحسن الخشاب (القاهرة: لجنة البيان العربي،١٩٥٨)، ص٥٤٩.

(٤٠) "كان من مصلحة التاجر أو صاحب المصنع أن يشتري العمال بدلاً من استئجارهم...". بيع قوة العمل إذاً كانت ظاهرة معروفة تاريخياً.

Edward Gibbon, **The Decline and fall of the Roman Empire**, An Abridgement by D. M. Low (London: Chatto and Windus, 1961) p.259.

(٤١) إيمار وأبوايه، **تاريخ الحضارات العام**، المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٣.

محلياً في المزرعة، بل من أجل بيعها وتداولها. أيْ أن الإنتاج كان من أجل السوق وليس بغرض الاشباع المباشر. فكما كتب ديورانت:"وكانت الأعمال الّتي يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كُل الاختلاف، وكان أكثر ما يُنتجون للسوق لا للعميل الخاص... وكان للأحرار من العمال اتحادات أو جماعات طائفية".(٤٢)

وعلى الصعيد النقدي والمالي كان اصدار العملة المضمونة من أهم مقومات الأعمال المالية في روما، والّتي ستصبح أهم مركز مالي آنذاك، وستصبح عملة روما هي سيدة العملات على الصعيد العالمي، حتّى صارت عملة التداول العالمية حتّى آقاصي آسيا.

وكان اقراض المال (ن — ن — Δ ن) من أقدم الأعمال في روما، وكان أقل سعر للفائدة لا يقل عن ١٢%، ومع الوقت أصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة حَي رجال المصارف، وازدحمت فيه حوانيت المقرضين والصيارفة مبدلي النقود(٤٣)؛ فقد ظهر على نطاق واسع احتراف أعمال المصارف واقراض الأفراد العاديين الأموال. وكان الائتمان وما يتعلق به من عمليات مصرفية ومالية قد اكتمل تطوره في مدن الامبراطورية. تساوق كُل ذلك مع تحول الاقتصاد إلى اقتصاد المبادلة النقدية المعممة.

---

(٤٢) "... تم الكشف عن مصنع كبير لإنتاج الصوف في منزل ريفي يقع في جنوب فرنسا على مقربة من تولوز، وعن آخر في منزل ريفي ايطالي، كما كشف عن أفران الفخار في منزل ريفي في بلجيكا، ومن المعروف جيداً أن مصنعاً للأدوات البرونزية المطلية بالميناء كان يشغل جزء من منزل ريفي شهير في أنثي في بلجيكا. والطابع الرأسمالي في مثل هذه المشروعات جلي بين...". م. رستوفتزف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي**، ص٢٤٠.

(٤٣) ديورانت، المصدر نفسه، ج٥، ص١٦٨.

وقد تطلب نمو التجارة والصناعة وتزايد عدد كبار ملاك الأراضي الَّذين يقطنون المدن مقادير من النقد استمر تزايدها لإمكان استغلالها في إنماء أيْ مشروع أو مؤسسة، وفي ادخال وسائل التحسين اللازمة لهذه المنشآت الاقتصادية.

ومن ناحية أخرى، تكدست في أيدى كثيرين من رجال المال مقادير كبيرة من النقد؛ ومن ثم أصبح اقراض المال حرفة يزاولها كُل من الأغنياء ورجال المصارف العاديون، فانتشرت المصارف الحقيقية، وأعمالها المتطورة، في جميع أرجاء الامبراطورية سواء ما كان منها للأفراد أو للبلديات.(٤٤)

أما الأرض فقد كانت محلاً للتصرفات القانونية؛ إذ كان في وسع المواطنون أن يقترضوا بضمان الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية والعقود الحكومية، كما كان في وسعهم أن يقترضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية.

وكانت هناك شركات مساهمة أهم ما كانت تقوم به من الأعمال هو تنفيذ العقود الحكومية الَّتي يبرمها الحاكم بعد أن تقدم إليه العطاءات. وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من أوراق حكومية وسندات للجمهور في صورة أجزاء صغيرة، أيْ أسهم.

---

(٤٤) "... كانت الساحة العامة القديمة في روما مركزاً حقيقياً يتفق فيه على القروض والديون ووثائق التحويل على الثروات البعيدة والمساهمات في المشاريع المالية والتجارية". إيمار وأبوايه، **تاريخ الحضارات العام**، المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٣.

وكان الغالب أن يُعهد إلى **رأسماليين** بتنفيذ أعمال الإنشاءات الحكومية، وحينئذ يمكننا أن نرى الصيغة **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** لأن قوة العمل لم تكن دائماً في هذه المرحلة مستعبَدة، بل كان منها المأجور في أحيان كثيرة جداً.

وكان نظام الضرائب محكماً بفضل التجارب والخبرات المتراكمة من العصر الهيلينيستي. فكانت الضرائب تُجبى عن الأرض الواقعة في نطاق المدينة، وعن العقار المقام فيها، ثم عن الوارد والصادر، ثم نظير احتراف التجارة وابرام العقود والمعاملات التجارية والانتفاع بالأسواق، كما كانت تُجبى في صورة أجرة للحوانيت الَّتي تملكها المدينة، وعن مختلف الأملاك الثابتة التابعة للبلدية. وهو الأمر الَّذي أدّى إلى ارتفاع ايرادات المدن وبصفة خاصة المدن الكبيرة، بيد أن جانباً كبيراً من هذه الايرادات كان يذهب إما كأجور لصغار الموظفين وإما كمرتبات للموظفين الأحرار. وكان من الشائع قيام الأغنياء وكبار رجال الأعمال بتحمل نصيب من النفقات العامة للمدينة. وما يمكن التأكيد عليه تاريخياً هو أن القرن الثاني قد شهد ظهور الأغنياء الَّذين انتشروا في أرجاء الامبراطورية ولم يكونوا ملاكاً للأراضي على نحو متواضع بل كانوا من كبار الشخصيات وأصحاب رساميل على نطاق واسع[٤٥]. ولم تكن التجارة فقط **(ن — س — Δ ن)**، أو المضاربات المالية وإقراض النقود **(ن — ن — Δ ن)**، أهم مصدر لهذه

---

(٤٥) "... وكان يحل محل التأمين الصناعي السائد في أيامنا الحاضرة نظام الإقراض التعاوني؛ وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف في تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن ينفرد واحد منها بتمويله... وقد اضطلعت هذه الشركات المؤلفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير في تموين الجيش والأسطول... وكان رجال الأعمال هم الَّذين يديرون هذه المشروعات الكُبرى، أما مَن كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون، وكان هؤلاء يدبرون لأنفسهم ما يلزمهم من المال". ديورانت، المصدر نفسه، ج٥، ص١٦٢.

الثروات الطائلة الَّتي ظهرت في هذه المرحلة التاريخية، إنما كان للصناعة أيضاً (ن – و أ + ق ع – س – Δ ن) ، في بلاد الغال بالأخص، الدور المهم في تكوين هذه الثروات.

فلقد أظهرت بلاد الغال منذ العصور الأولى مقدرة منقطعة النظير على التوسع في الصناعة، فلما أصبحت تحت الحكم الروماني تابعت المسير وسرعان ما بدأت، بوصفها منافسة جديدة لإيطاليا، في إنتاج السلع الَّتي كانت من احتكار الأخيرة... وعندئذ بدأت المنتجات الإيطالية تتوارى من الأسواق الكلتية والألمانية. فما كادت الحياة المالية والتجارية تدب في بلاد الغال حتّى صارت، بفضل نمو التجارة والزراعة والصناعة، المستهلك الرئيسي للسلع المحلية والأجنبية الَّتي وصلت بسهولة إلى أقصى أرجاء بريطانيا.[٤٦]

إن نقوش ليون، على سبيل المثال، لتدل على ما كان للدور الَّذي قامت به تلك المدينة من أهمية بالغة في الحياة الاقتصادية لبلاد الغال، بل وفي حياة الامبراطورية الرومانية بوجه عام. ولم تكن ليون هذه مركزاً عظيماً للتوزيع والمقاصة في تجارة القمح والنبيذ والزيت والأخشاب فحسب، بل كانت كذلك أحد أهم المراكز الكُبرى في الامبراطورية الرومانية لصناعة أكثر السلع الَّتي كانت تستهلكها بلاد الغال والمانيا وبريطانيا ثم تقوم بتوزيعها.

وقبل أن نغادر العالم القديم، فلنذهب إلى الشرق البيزنطي[٤٧] في القرن السادس، إذ سنجد أن هذا القرن كان من أعظم عهود الاقتصاد

(٤٦) رستوفتزف، **تاريخ الإمبراطورية الرومانية**، المصدر نفسه، ص٢٤٦.

عبر البحر المتوسط، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية على عهد انسطانيوس، والسنوات الأولى من حكم بيت يوستينوس في حالة من الرخاء والانتعاش الاقتصادي؛ فقد تدفقت البضائع من كُل مكان إلى أسواق القسطنطينية، فقد جاء الحرير والأواني البورسلان من الصين، وجاءت الجواهر والتوابل من الهند، والسجاد من بلاد الفرس، واللآلىء من الخليج الفارسي، والعاج والأبنوس من أفريقيا، والنسيج والحبوب من مصر، والزجاج والحديد من سوريا، والفراء والعنبر من روسيا، والمصنوعات الجلدية من مراكش، وكذلك الأرقاء من كُل لون وشكل من كُل بقعة من بقاع العالم؛ كُل ذلك تدفق إلى المدينة العظيمة سلعاً للبيع والتجارة، وإلى جانب ذلك تطورت صناعات متعددة حتّى أن الفنانين والممتازين من أصحاب الحرف في البلاد المجاورة وجدوا لهم مكاناً في العاصمة الفنية. وكان المهرة من الصناع المأجورين يقومون بصناعة العطور والملابس المزركشة والمذهبة من البروكار، خاصة ملابس الكهنة، كما كانوا يحفرون على العاج ويقومون بأعمال الموزايكو. والأعمال الفنية الّتي تتطلب درجة عالية من المهارة والاتقان. وكان يهرع أثرياء العالم إلى القسطنطينية من أجل التسوق، كما يفعلون الآن في باريس. ومن جهة أخرى، فقد انشغل الأباطرة البيزنطيون الأوائل بصفة خاصة دقلديانوس

---

(٤٧) "سيطرت بيزنطة على جزائر صقلية وكريت وقبرص وسردينية وجزر البليار وتحكمت في المضايق ذات القيمة الحربية الهامة الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب، وصار إشراف القسطنطينية البحري دقيقاً وكاملاً بفضل قيام أسطولها بدورات تفتيشية على سواحل الأعداء". عزيز سوريال عطية، **الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب**، ترجمة فيليب صابر سيف (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٠)، ص١٥٣. للمزيد من التفاصيل، انظر: أرشيبالد لويس، **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠- ١١٠٠م)**، ترجمة أحمد محمد عيسى ومحمد شفيق غربال (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨)، ص٤٨٢، وانظر أيضاً الكتاب المهم:
Warren Treadgold, **A History of the Byzantine State and Society** (California: Stanford University Press, 1997)

وقسطنطين الأول بمشكلات تثبيت العملة. فبعد حدوث التضخم المالي وارتفاع الأسعار في نهاية القرن الثالث الميلادي وضع الإمبراطوران نظاماً مالياً صارماً وقام قسطنطين باعتبار"الصلدي" الذهبي معياراً للعملة، وهي عملة من الذهب الخالص تزن أربعة جرامات وثلاثة وأربعين جزءً من الجرام تقريباً، وقد ظل هذا النظام قائماً حتّى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.

ويمكننا تقسيم نظام العملة في الإمبراطورية إلى أربع مراحل، تبدأ من عهد الإمبراطور أناستاس حتّى سقوط الإمبراطورية في عام ١٤٥٣، وتبدأ المرحلة الأولى منذ عام ٤٩١ حتّى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، واعتمدت هذه المرحلة على معادن الذهب (النوميسا) والفضة (الميليارسون) والنحاس (الفولس) بنسب ثابتة في كُل عملة؛ مما جعلها ذات قيمة ثابتة وواضحة. وفيما يتعلق بالمرحلة الثانية التي بدأت بعملية اصلاح العملة الَّتي بدأها الإمبراطور ألكسوس كومنين (١٠٨١-١١١٨) فقد استمرت حتّى نهاية القرن الثالث عشر. وخلال الفترة الثالثة، الَّتي استمرت من عام ١٣٠٠ حتّى منتصف القرن الرابع عشر، فقد بدأ التعامل بعملة فضية عرفت باسم البازيلكون، وكانت تزن حوالي جرامين، وإلى جانبها عملة نحاسية صغيرة عرفت باسم أساريون، وكانت تزن جرامين إلى ثلاثة جرامات. وفيما يتعلق بالمرحلة الرابعة التي استمرت حتى سقوط الإمبراطورية فقد اختفت تماماً العملة الذهبية، وتم التعامل بالعملة الفضية، وكانت تُسمى استفروس، وهي كلمة يونانية تعني الصليب، وكانت تزن حوالي ثمانية جرامات ونصف جرام، وهي كبيرة الحجم وثقيلة الوزن عما سبقها من عملات فضية.

وانشغلت الإدارة في بيزنطة بمشكلة خروج الذهب من الإمبراطورية في المدفوعات الدولية، فاتخذت عدة إجراءات حاسمة لمنع هذا الخروج، وفي مقدمتها إصدار القوانين، فقد نص قانون جستينيان صراحة على منع خروج الذهب في المعاملات الدولية، بصفة خاصة بمناسبة التعامل التجاري مع الهمجيين! ونجد نفس المنع في المجموعة القانونية الّتي أصدرها الإمبراطور ليو السادس(٨٨٦-٩١٢) المشهورة باسم بازيلكا. إلا أننا نجد في الواقع في فترات كثيرة خرقاً لهذا المنع من قِبل الإدارة الحكومية نفسها في الإمبراطورية.

وكان الحرير لا يزال يسير براً بصفة رئيسية خلال فارس إلى محطتي المكوس الإمبراطوريتين عند نصبين ودارا، ومن ثم ينقل ليصنّع في مصانع القسطنطينية أو في المصانع الموجودة بصور وبيروت.

والأثمان، كظاهرة يقول البعض أنها تخص نمط الإنتاج الرأسمالي المعاصر فقط، نجدها معروفة بوضوح، كما النقود، حيث نجد في مقدمة الباب الثالث والعشرين من مدونة جستنيان:"يتم البيع بمجرد الاتفاق على الثمن ولو لم يتم نقده ولا دفع شيء على سبيل العربون؛ إذ العربون ليس سوى دليل على حصول العقد...".[٤٨]

وفي الفقرة الأولى:"يجب أن يكون هناك ثمن، فإن البيع لا يتم أبداً بدون ثمن. كما يجب أن يكون الثمنُ محدداً. ولقد اختلف المتقدمون شديد الاختلاف في اتفاق ذكر فيه أن ثمن المبيع يحدده تيتوس، أيتضمن بيعاً تاماً أم لا ؟...". أما الفقرة

---

(٤٨) انظر:

Justinian's Institutes, Translated by Peter Birks & Grant McLeod (London: Duckworth, 1987) p.357. وهي الطبعة الّتي اعتمدت عليها في الاستشهاد بالنصوص

الثانية فقد أوجبت أن يكون الثمن نقداً، تمييزاً عن التبادل عن طريق المقايضة، إذ نصت المادة على:"يجب أن يكون الثمن من النقود المضروبة، ولكن لمَ لا يجوز أن يكون ثمن الشيء شيئاً آخر؟ لمَ لا يجوز أن يكون عبداً أو عقاراً أو رداءً ثمناً للشيء المبيع؟ لقد كانت هذه المسألة مثار خلاف وجدل عظيم...".

وتُعالج المادة الرابعة من الباب الرابع والعشرين إجارة العمل، إذ نصت على:"إذا اتفق تيتوس مع أحد الصاغة على أن يأتي الصائغ بذهب من عنده ويصنع له منه خواتم بوزن مخصوص وشكل معين، وأن يكون للصائغ في نظير هذا مبلغ عشرة دنانير مثلاً، فقد جرى التساؤل عن هذا الاتفاق أبيع هو أم إجارة؟ وقد ارتأى كاسيوس أنه يتضمن عقدين: بيعاً للذهب، وإجارة للعمل...".

وكان كُل شيء محدداً. فلم يكن يجوز تسليف النقود إلا بنسبة محددة من الأرباح. وكانت نسبة الأرباح قبل عهد يوستنيانوس اثني عشر بالمئة. ولم يكن يوستنيانوس يسمح بنسبة الإثني عشر بالمئة إلا على الأموال المقترضة للاستثمار في الأعمال التجارية والبحرية. ولا يجوز لمقرضي الأموال المحترفين، وهم الصياغ عادة، أن يسلفوا إلا بربح قدره ثمانية بالمئة، فأما الأشخاص العاديون فيسمح لهم بستة بالمئة، على حين لا يُسمح لكبار الأثرياء إلا بأربعة بالمئة فقط. وكانت الرقابة الَّتي تمارسها سلطات الدولة على الأعمال التجارية والتجار **(ن - س - Δ ن)** والصناعة **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** تتم عن طريق نظام للنقابات.[٤٩]

---

(٤٩) يرى برنارد لويس (١٩١٦-   ) أن هذا النظام من النقابات سوف ينتقل بدوره من بيزنطة إلى دولة الخلافة الإسلامية ابتداءً من القرن العاشر الميلادي. برنارد لويس، **النقابات الإسلامية**، ترجمة عبد العزيز الدوري (القاهرة: مجلة **الرسالة**، ١٩٤٦) السنة ٨، ص٦٩٦. وسوف نعالج مسألة النقابات ببعض التفصيل لاحقاً.

وكان لكُل صناعة نقابتها، ولا يجوز لأيْ إنسان أن يَنتسب إلى نقابتين في وقت واحد. وكُل نقابة تعيّن رئيسها. وكانت النقابة تفرض هيمنتها على الصعيد الفني كما الإداري، فهي الَّتي تقوم بشراء المواد الأولية والمواد الخام، وربما الأدوات، الَّتي تلزم الصناعة المعنية وتقوم بتقسيمها بين أعضائها الَّذين كانوا يبيعون السلع الَّتي صنعوها في مكان عام محدد من قبل النقابة مقابل سعر محدد سلفاً بديوان الوالي. وكانت عدد ساعات العمل وعدد العمال تقرر بنفس الطريقة.

وكان الخبازون والجزارون (الأجراء) الذين كان تموين المدينة يعتمد على كفايتهم خاضعين لإشراف دقيق. وكان يحافظ على انخفاض أسعار المواد الغذائية قسراً حتى في أيام المجاعات. وكانت المخابز احتكاراً للدولة.

أَيْ يمكننا إن أطلنا الإقامة قليلاً فى بيزنطة أن نجد الصيغ الثلاث لقوانين الحركة المعروفة للرأسمال. فلدينا مضاربات وتمويل وإئتمان وصرافة **(ن – ن – Δ ن)** كما نجد حركة تجارية مزدهرة **(ن - س - Δ ن)**

وبشأن الصيغة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** فيمكننا أن نتلمس من الدور الَّذي لعبته النقابات أبعاد ظهور العامل المأجور الَّذي يؤتى له بمواد العمل وأدوات العمل، ويُنتج السلع من أجل السوق في مقابل الأجر المحدد من قبل النقابة نفسها، كما يتحدد من قبل الدولة الآن.

(٧)

من غير التاريخي إذاً إختزال العالم القديم في ظاهرة العبودية، وتملك المستغِل لشخص المستغَل، من أجل البرهنة على استقلال الرأسمالية،

ذات المركزية الأوروبية، بظاهرة بيع قوة العمل أو الإنتاج من أجل السوق.

ومن غير العِلمي إذاً إنكار النشاط الاقتصادي المتطور جداً الَّذي ساد الأجزاء المختلفة من العالم القديم وفقاً لانتقال مراكز الثقل الحضارية آنذاك.

ومن غير الصحيح إذاً القول أن ظواهر النشاط الاقتصادي اليومي في عالمنا المعاصر كانت مجهولة بالنسبة للعالم القديم؛ فلقد عرف هذا العالم، على نحو ما ذكرنا، جُل الظواهر الَّتي يدّعي أصحاب المركزية الأوروبية أنها ظهرت فقط مع الرأسمالية ابتداءً من القرن الخامس عشر، وفي مقدمتها بيع قوة العمل، والإنتاج من أجل السوق، وتداول الثروة العقارية. وعلى الرغم من ذلك؛ إلا أننا لا نرى أفكاراً يمكن تحليلها بشأن الرأسمال والأرباح والأسواق والتداول والأثمان... إلخ؛ لأن المجتمعات آنذاك، كما ذكرنا، سيطرت عليها ظواهر أخرى كانت أكثر جوهرية وأهمية على الأقل بالنسبة لمجتمعات هذا الزمان، مثل: الفرس، والكلدانيين، والأشوريين، واليونانيين، والروم، والترك وغيرهم، وفي نفس الوقت لم يكن الرأسمال، كظاهرة، قد تمكن من اخضاع باقي الظواهر على الصعيد الاجتماعي لقانون حركة واحد.

ونجد أن صاعد الأندلسي(١٠٢٩-١٠٧٠) قد أفاض في شرح العلوم الَّتي اتقنتها هذه الأمم، ولكننا لا نجد أنهم أتقنوا سوى علوم الفلك والنجوم والهندسة والحساب والجغرافيا والطبيعة والفلسفة[٥٠] أيْ أن الإنشغال

---

(٥٠) انظر: صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، تحقيق حسين مؤنس (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٣)

الرئيسي للذهن كان منصباً في محاولة تحديد الوجود الإنساني وعلاقة هذا الوجود بالطبيعة. وحينما يفرغ الذهن، ولو جزئياً أو مؤقتاً، من هذا الإنشغال سوف نراه يبحث في محددات الربح، وتحليل جدلية تجديد الإنتاج الاجتماعي.

فلنستكمل إذاً برهنتنا على عدم تفرد الرأسمالية، ذات المركزية الأوروبية، وفقاً لمحور (ماركس- روزا- هيلبرونر) بالظواهر المدَّعى بأنها طارئة على المجتمعات المعاصرة. فلننتقل إلى العالم الوسيط.

الفصل الثالث عشر
العالم الوسيط (الإقطاعي)

(١)

ونعني بالعالم الوسيط، المجتمعات الَّتي تكونت في رحم العالم القديم، وتميزت بالملكيات العقارية الكبيرة، ودوران النشاط الإنسانى فيها حول الأرض الزراعية، وسيطرة النشاط الزراعي، وما يرتبط به من حرف، على مجمل النشاط الاقتصادي للسكان. ويمكننا أن نحدد العالم الإقطاعي زمنياً بالفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر.

(٢)

فلنتوجه أولاً نحو شمال أفريقيا في القرن التاسع[١]، ولسوف نجد مجتمعاً متطوراً فعلاً يسود فيه الإنتاج من أجل السوق، والتبادل، كما تهيمن فيه النقود على مجمل النشاط الاقتصادي. سوف نُقابل مجتمعاً غادر منذ قرون بعيدة جداً اقتصادات المنزل، وصار يعتمد على الريف في غذائه بشكل أساسي، وسنرى حركة السلع القادمة من المناطق الزراعية للبيع في المدينة، أَيْ أن هناك ثمة فصل تاريخي ما بين الريف والمدينة. لقد أصبحت الحوانيت، المنظمة حكومياً، هي الأماكن الرسمية كَيْ يعرض التاجر بضاعتِه، ومن المحتمل أن يكون هو الذي صنعها باستخدام قوة العمل المأجورة **(ن - و أ + ق ع - س - Δ ن)** أو ربما يكون اشتراها ويُعيد

(١) انظر على سبيل المثال: يحيى بن عمر الكناني الأندلسي، **كتاب أحكام السوق**، في: أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريشي، **المعيّار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب** (بيروت، الرباط: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية للمملكة المغربية، دار المغرب العربي،١٩٨١)، ج٦، ص٤٠٠-٤٣٠.

بيعها رغبةً في استرداد نقوده الَّتي دفعها في سبيل هذا الشراء، بالإضافة إلى ربح محدد (ن — س — Δ ن)، وقد نجد السلع الَّتي يعرضها تخص مُنتِج آخر. كما نلاحظ حركة السلع، أياً ما كانت أشكالها، يُصاحبها ظهور عُمال أُجراء وربما بالمعنى الَّذي سوف يطرح نفسه بعد ذلك بعدة قرون، أي ثمة إمكانية لوجود العمل المأجور، مثل عمال الطحن والخبازين والخياطين. وهؤلاء قد يعملون بأيديهم كصناع مستقلين، أو يستخدمون عمالاً مأجورين يستعملون أدوات ومواد صاحب الحانوت، في سبيل الإنتاج، ولا يشاركون إياه في الربح. إنما لهم فقط الأجر. وليس هناك ما يعطل عمل قانون الحركة(ن – و أ + ق ع – س - Δ ن) أن نرى صاحب العمل يعمل بيده مع مستأجريه، طالما كنا بصدد قوة عمل مأجورة من جهة، وان المنتَج ليس مِلك منتجه في النهاية من جهة أخرى. فبغض النظر عن طبيعة العمل المأجور، في ظل نظام الطوائف الحرفية، وأنه يتم من أجل التعليم وإعداد العامل المأجور كي يكون معلماً أو أستاذاً بعد أن يتقن الصنعة، فبغض النظر عن ذلك فنحن أمام الصيغة العامة لقانون حركة رأسمال الصناعة (ن — و أ + ق ع — س — Δ ن) والتصور الَّذي يرى المُعلم يعمل بيديه مع أجرائه، ولا يربح أكثر منهم بعد سداد الأجور والضرائب، يغفل البحث في مصدر الأرباح الَّتي سدد منها الضرائب! فقد جاءت هذه الأرباح من عرق الشغيلة لدى المعلم! والمعلم الَّذي لا يستخدم شغيلة، مصدر الربح والتراكم، ويعمل بيديه لا يحصل على أرباح، إنما يتلقى الأجر في مقابل بيع قوة عمله للزبائن بعد حساب ثمن مواد العمل والمستهلَك من أدوات العمل.

نجد أيضاً الخراز الَّذى يصنع الخف. إن هذا الصانع إنما يُنتِج سلعته، أيْ الخف، ليس من أجل الاشباع المباشر، وإنما ينتِج للسوق، ويتأكد

ذلك، بوجه عام، حين نُلقي النظرة على حوانيت مدينة القيروان في القرن التاسع، فسنجد حانوتاً يبيع أثواباً، أي أن هناك ثمة إنتاج للسوق وليس للاشباع المباشر، فتتبدى هنا قيمة المبادلة بجوار قيمة الاستعمال، بل ومن الممكن أيضاً أن نرى الأثواب المنتَجة للسوق مكدسة بداخل الحانوت لدرجة احتوائها لحشرات نتيجة هذا التكدس الراجع لفيض إنتاجي من نوع ما. باختصار، نحن أمام سوق وتداول نقدي وريف ومدينة وفصل تاريخي بينهما، مع وجود مجتمع مواز يمتهن الصيد، وبصفة خاصة صيد الحيتان، وثمة عُمال وأُجراء ورعاة وصناع، وأجور، وفنادق، ومطاعم، وتوريد، وضرائب، ودولة قوية تَبسط رقابتها على النشاط الاقتصادي والمالي في المجتمع من أجل الحفاظ على الاستقرار، وثبات الأسعار في الأسواق وضمان إلتزامات المتعاملين من خلالها على إختلاف صفاتهم، من مشترين وبائعين، وموردين، وصيارفة، وتجار، وأجراء، وصناع، وعمال وأصحاب الأعمال ومُلّاك الحوانيت.[٢]

---

(٢) في تدخل الدولة للتسوية بين الموازين والمكاييل أنظر كتاب السقطي **في الحسبة**، حيث يُفصل المسألة ويضع لها قوانين دقيقة، وبعد أن يوضح حيل الفاسدين من الكيالين يقول:"وشأن المحتسب مع هؤلاء أن يختبر عليهم الطعام والمائعات بكيال من أهل الثقة يستعمله مقدماً عليهم قد خبرَ منه النصح والتنبيه على المكايد والخدع والغيرة على المسلمين... وقيل في ذلك كله مثال يكون كالقانون في جميع الأكيال بتنبيه على الجاري الآن بمالقه فالقدح يصدق من الكزير اليابس الصحيح الطيب أحد عشر رطلاً والرطل ست عشرة أوقية والأوقية عشرون درهماً فضة إمامية، وثُمن الربع الجاري بمالقه في الكيل يصدق من العسل الطيب الأندلسي في الغالب ثلاثة أرطال ونصف ومن الطيب العدوى ثلاثة أرطال وست أوقيات إلى ثلاثة أرطال، وربع من الزبيب رطلين وربع ومن الخل ثلاثة أرطال إلا ربع إلى رطلين ونصف ومن لبن الأغنام ثلاثة أرطال وربع ومن لبن الماعز ثلاثة أرطال وثلاث أواق...". انظر:

Provençal, **Un Manuel Hispanique De Hisba**, op, cit, 29.

ويُعد كتاب السقطي، في تصوري، بمثابة نقلة نوعية هامة في فكر الحسبة بوجه خاص، والتفكير المالي والاقتصادي آنذاك بوجه عام، وأهم ما يميز هذه النقلة هو التحرر من سلطة الفقه بوجه عام، والفقه المالكي بوجه خاص. والجدير بالذكر أن عمل المحتسبين قد تجاوز مراقبة الأسواق، والتلاعب بالأسعار، فشمل عملهم الريف، ومراقبة الطرقات، وتفتيش القوافل التجارية واستغلال العُمال، ورجال الدولة لنفوذهم. انظر للمزيد =

(٣)

والآن، فلنتوجه صوب المشرق الإسلامي في القرن العاشر، العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. إذ سنجد اعتناء الخلفاء العباسيين بتحسين الصناعة[٣]؛ فلقد شيد الخليفة المعتصم مصانع لصناعة الصابون بالدهون والعطور، وكانت بغداد تُنتِج شتّى أنواع الزيوت، كذلك أنشأ العباسيون مصنعاً للورق في بغداد، وجلبوا له الصنّاع وأرباب الحرف من مصر الّتي اشتهرت بهذه الصناعة، وكان ببغداد عدد كبير جداً من المصانع حتّى قيل أنه كان بها أربعمائة رَحى مائية وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، وبضعة آلاف معمل لصنع الخزف. وقد عمل بهذه المصانع والمعامل مئات بل آلاف العمال والصناع والموظفين، الّذين يتلقون الأجور والرواتب، أَيْ **يبيعون قوة عملهم** فى مقابل وحدات النقد. كما ازدهرت في بغداد صناعة الأدوات الحديدية والخشبية المختلفة، كذلك كانت تصنع السفن والقوارب

= من التفصيل: الحبيب الجنحاني، **المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرن العاشر الميلادي** (تونس: الدار التونسية للنشر،١٩٧٧)، ص٧١

(٣) كتب د. عبد العزيز الدوري:"... والشيء المعتاد في الصناعة هو حانوت يديره صانع واحد أو عائلة أو عدد من الشركاء. وقد يعمل الصانع في بيته، وقد يعمل بمفرده أو يكون معه عدد من المبتدئين يتدربون عليه ويساعدونه. وتتوقف سعة الحانوت من حيث عدد العاملين على نوع الصناعة وإمكانيات الصانع. فبعض المنسوجات مثلاً والسكر تحتاج صناعتها إلى عدد من المشتغلين. والمألوف بين الصناع المشاركة لا التشغيل، إذ يفضل أي صانع ذلك ولا يعمل أجيراً عند صانع آخر. وبينما يشتغل الصناع عادة لحسابهم ويبيعون إنتاجهم فهناك صناع يشتغلون لحساب الغير من المستهلكين مقابل أجور يومية أو حسب وحدة الإنتاج. ومن المهم للصانع أن تكون لديه الأدوات اللازمة والمواد الأولية، ولكن بعضهم، من الأجراء خاصة، قد يشتغل بأدوات ومواد مؤجريهم". عبد العزيز الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥)، ص٨٧ . وكنا نود أن يثبت د. عبد العزيز الدوري في كتابه المذكور ما سبق وأن كتبه في بحثه المنشور في عام ١٩٥٩، حيث كان أكثر وضوحاً حين أجرى التفرقة بين الصناع الأحرار أو الّذين يمتلكون حوانيت صغيرة ويستعملون أجراء، والصناع المأجورين من قبل الدولة. انظر: عبد العزيز الدوري، **نشوء الأصناف والحرف في الإسلام** (بغداد: مجلة كلية الآداب، ١٩٥٩)، ص١٥٣. فالمشكلة أننا نجد البعض من الباحثين الجادين ينقلون عن د. الدوري دون مراجعة ناقدة، انظر مثالاً على =

سواء الحربية أو التجارية أو الترفيهية. كما أنشأ العباسيون، مثلما فعل الأمويون في دمشق من قبل، دور الطراز الَّتي كانت تُنتج ثياب الخليفة والوزراء وكبار رجال الدولة، كما كانت تنتج أيضاً للسوق الدولية، ويمكننا أن نلمس بداخل هذه المصانع قانون الحركة **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** وسوف نرى ذلك بشيء من التفصيل حينما نذهب إلى مصر المحروسة. وبوجه عام، لدينا نص مهم، كتبه الفراء (١٠٥٩- ١١٣١) توضح لنا معرفة المجتمع للعمل المأجور، بل والقيمة الزائدة النسبية والمطلقة، فقد كتب:"... وإذا تعدى مستأجر على أجير في نقصان أجر أو استزاده عمل... ولو قصر الأجير في حق المستأجر فنقصه من العمل أو استزاده في الأجرة".[٤] ولدينا نص آخر في غاية الأهمية أيضاً؛ ورد في كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر(القرن العاشر) إذ لا نجد فقط إشارة واضحة لقوة العمل المأجورة، إنما أيضاً إشارة إلى القيمة الزائدة، الَّتي يتم إقتطاعها من الأجور، فقد كتب ابن قدامة:"لما أخذ أمر الفرس يضمحل. ودولتهم تضعف، وسلطانهم يهن، وتدابيرهم تفسد، وسياستهم تضطرب، فسدت نقودهم، فقام الإسلام ونقودهم من العين والورق، غير خالصة فما زال الأمر على ذلك إلى أن اتخذ الحجاج دار الضرب، وجمع فيها الطباعين، فكان المال يضرب للسلطان مما يجتمع له من التبر... ثم أذن للتجار في أن تضرب لهم الأوراق، واشغل الدار من فضول ما كان يؤخذ من الأجور وختم على أيدي الصناع والطباعين".[٥]

وسوف نجد لدى محمد القرشي (١٢٥٠- ١٣٢٩) ما يُفهم منه أن

= ذلك النقل دون وعي ناقد: أحمد عبد الباقي، **معالم الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص٢٥٤.

(٤) أبو يعلى الفراء الحنبلي، **الأحكام السلطانية** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص٣٠٢.

(٥) قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨١)، ص٥٩.

العمل المأجور، قد يكون مأجوراً مياومة، أو، بمفهوم الموافقة، بالإنتاج أو بالقطعة:"فقد يوافق أكثر الصناع على أجرة معلومة كُل يوم فيتأخرون عند الغدو وينصرفون قبل المساء".(٦)

ولدينا كذلك نص للسرخسي(٨٩٩-١٠٩٦) نفهم منه ليس إجارة قوة العمل فحسب، إنما معالجة أعمق لطبيعة الأجرة ذاتها، فقد كتب في **المبسوط**:"وإن استأجر أجيراً بذهب أو فضة يعمل له في فضة معلومة يصوغها صياغة معلومة فهو جائز، وكذلك الحُلي والآنية وحلية السيف والمناطق وغيرها؛ لأنه استأجره لعمل معلوم ببدل معلوم، فلا تشترط المساواة بين الأجرة وبين ما يعمل فيه من الفضة في الوزن؛ لأن ما يشترط له من الأجرة، بمقابلة العمل، لا بمقابلة محل العمل".(٧)

(٤)

وفي فارس، في القرن العاشر والحادي عشر، نجد المراكز الصناعية الكبيرة؛ فنسيج الكتان في كازرون، ومعامل السكر وصناعة القطن في خوزستان، وفي مرو ونيسابور نسج الحرير. وفي سابور صناعة العطور.

كما وجدت مصانع الورق بدمشق وطبرية بفلسطين، وبطرابلس

---

(٦) محمد بن الأخوة القرشي، **كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦)، ص٤٥٢. ولدى الشيزري:" ويكون غلمانهم وأجراؤهم صبياناً دون البلوغ، لأنهم يدخلون بيوت الناس على نسائهم". عبد الرحمن بن نصر الشيزري، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦)، ص٢٤. ولتكوين الوَعي بشأن الخدمات المأجورة، بصفة خاصة في الأندلس، انظر: ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**، في: **ثلاث رسائل أندلسية: في آداب الحسبة والمحتسب**، مما اعتنى بتحقيقه ودراسته الفنية واللغوية والتأريخية الاجتماعية إ. ليفي بروفنسال (القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥)، ص٢٣،٢٢.

(٧) أبو بكر السرخسي، **كتاب المبسوط**، تحقيق عبد الله محمد حسن الشافعي (بيروت: دار الكتب العلمية،٢٠٠١)، ج١٤،ص٥٩.

بالشام. وبوجه عام كانت المدن الكُبرى، مراكز صناعية منتجة لمختلف أنواع السلع من أجل السوق المحلية، والدولية أيضاً، وكانت الوحدات الإنتاجية الّتي يمتلكها صاحب الرأسمال صغيرة إلى حد ما، ولكننا نجد أيضاً العمال المأجورين الّذين يعملون في هذه الوحدات الإنتاجية، أما الصناعات على نطاق واسع، ويعمل فيها آلاف العمال المأجورين، فهي الّتي تُنتج للحكام أو للجيش كالترسانات والمشاغل الملكية، ومعامل السكر.[٨]

(٥)

ومن المهم قبل أن نُغادر المشرق الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية أن نوضح أن الحركات الدينية قد بلغت أوجها في القرنين العاشر والحادي عشر. فقد كان الشعور الديني قوياً، آنذاك، بين الطبقات العامة، وقد تجلى هذا الشعور بظهور سلسلة فرق متزندقة منشقة منذ القرن الثامن حتّى الحروب المغولية، وقد اتصفت جميع هذه الفرق تقريباً بفلسفة اجتماعية ثورية وبصفة خاصة في القرنين العاشر والحادي عشر. فقد كانا مرحلتي تطور صناعي وتكتل حضري. فظهور نظام راق للبنوك في بغداد، تغطي فروعها الإمبراطورية، ساعد على تجهيز الدولة بالنقود، وعلى حفظ النقود بصورة عامة أساساً للاقتصاد. وقد أثر هذا على النمو

---

(٨) انظر:

Albert Hourani, **A History of the Arab peoples** (Cambridge: Harvard University press, 1991)

"The great cities were centres also of manufacture, producing staple goods for local market-textiles, metalwork, pottery, leather goods and processed foods- and goods of quality… In general, units of production were small. The master would have a few workers and apprentices in his workshop; larger-scale industries were those producing for a ruler or aramt-arsenals, and royal workshops for textiles and the sugar factories of Egypt and some other places…" p.112.

الصناعي، فأنتج تمركزاً في الرأسمال والعمل. كما ولّد النمو السريع في الرأسمال مشاكل اجتماعية خطيرة، وحركات تحررية هددت عرش الخلافة نفسه، وفي مقدمة هذه الحركات كانت الحركة الإسماعيلية أو حركة القرامطة تبعاً لاسم أهم شعبها وأكثرها أهمية. ويمكننا أن نلاحظ الاهتمام الشديد الَّذي أولته هذه الحركة لطبقات العمال وأصحاب الحرف؛ فمثلاً خصص فصل كامل في **رسائل إخوان الصفا**، كما ذكرنا، للنظر في الحرف اليدوية وتبويبها وتصنيفها.

وأهم ما يمكننا ملاحظته هو الفرق في وضعية أصحاب الحرف والنقابات تحت حكم الفاطميين، إذ كانت تتمتع برخاء عظيم. فقد كانت معترفاً بها من قبل الدولة، ويظهر أنها كانت تتمتع بامتيازات كثيرة، وأنها لعبت دوراً مهماً في النشاط التجاري الَّذي حصل في العهد الفاطمي، وحينما قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ١١٧١، وأعيدت مصر إلى الحكم السني، جردت في الحال الطوائف الحرفية من أكثر حقوقها وامتيازتها وأخضعت لرقابة صارمة. فصارت النقابات تحت الحكم السني مضطهدة وخاضعة لقيود لا تعد، ومحرومة من حقوق قانونية. ولن يختلف الأمر تحت تحكم المماليك كما سنرى. ومن هنا يمكننا أن نفهم دور المحتسب كموظف حكومي تتركز مهمته الرئيسية في مراقبة أصحاب الحرف والطوائف الحرفية وقتل أية محاولة للعمل المستقل فيها منذ البداية، وتمدنا كتب الحسبة الَّتي تم تأليفها بالأساس لتنبيه المحتسب لخطر أهل الصنائع وأحسن الطرق للسيطرة عليهم، بمادة ثرية نفهم منها عدم ثقة الدولة/النظام في الطوائف بوجه عام.[٩]

(٩) برنارد لويس، **النقابات**، المصدر نفسه، ص٦٧٢.

(٦)

وإذ ما توجهنا غرباً ناحية قرطبة[١٠] في حدود القرن العاشر والقرن الحادي عشر، فسوف نجد أسواقاً متطورة تسودها مبادلة نقدية معممة من جهة، وتخصص وتقسيم للعمل من جهة أخرى؛ فلقد وجدت الأسواق في أرجاء الأندلس؛ فهناك أسواق الزياتين، والعطارين، والخبازين، والسماكين، والشوائين، كما سنجد أسواقاً كاملة متخصصة في تجهيز وبيع الأطعمة الجاهزة للعاملين بالأسواق من عمال وحرفيين وتجار.

في الوقت نفسه نجد شتى أنواع الصناعات والحرف، فهناك الصاغة والنجاريين والصباغين والخياطين والفخارين وغيرهم من أرباب الصناعات والحرف. وهؤلاء يستخدمون أجراء. يدفعون لهم أجوراً نقدية. وكل ذلك يعني أننا أمام رأسمال، ومبادلة نقدية[١١] وإنتاج، وبيع وشراء، وأجر، وربح، وريع، وفائدة،... إلى آخر المظاهر الَّتي نراها بوضوح في أسواقنا اليوم. بل يمكننا أن نقول وبمنتهى الاطمئنان أننا أمام تناقض جلي بين اقتصاد حر بالمعنى الدقيق للكلمة من جهة، ورقابة صارمة للدولة من جهة أخرى.

---

(١٠) "وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة وليس بجميع المغرب لها شبيه ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق". ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض** (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص١١١.

(١١) قدّر بدرو شلميطا كمية النقد المتداول بنحو ١٨ مليون دينار سنوياً. كما قدر المدخول الكلي الأندلسي في مطلع القرن التاسع ما بين ٣٦ و ٥٤ مليون دينار. انظر: بدرو شلميطا، **صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي**، في: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، ترجمة مصطفى الرقي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨)، ج٢، ص١٠٤١-١٠٦١.

(٧)

وتمدنا الوثائق الخاصة بالحملات الصليبية على الشرق الإسلامي، الَّتي امتدت من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر، بمادة خصبة لتكوين الوَعيْ بشأن الدور التاريخي الجوهري الَّذي لعبته هذه الحروب في التقابل التجاري والأهم التقابل الثقافي والمعرفي والحضاري[١٢] بين الشرق الإسلامي بحضارته العالمية، والغرب المسيحي الوريث التاريخي للمجد الإغريقي والروح الرومانية العظيمة. فلقد توغلت أساطيل البندقية وجنوه[١٣] والمدن التجارية في إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط حتى تفي بالحاجات الملحة لنقل الأعداد المتزايدة للصليبين من أوروبا (وغالبيتهم من الأقنان)، وفي نفس الوقت جاء استئناف التجارة مع الشرق نتيجة طبيعية للحروب الصليبية؛ لأن التجار الأوروبيين كانوا إما أن يصاحبوا الحملات المختلفة وإما أن يتبعوها ويفتتحوا أسواقاً جديدة في كُل ميناء يتم فتحه في الشرق.

---

(١٢) "وإنما اشرنا لهاته الحروب والفرسان لبيان ما لها من الدخل في التمدن الأورباوي فإن مؤرخيهم يقولون أن تلك الحروب وان هلكت فيها نفوس عديدة وأموال لهم منها انهم من ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم لأهل المشرق صناعة التجارة والزراعة ونحو ذلك وتخلقوا بأخلاق الحضر وتعودوا بالأسفار لاستكشاف أحوال الأقطار فاطلعوا على أحوال آسيا المتوسطة وأحوال الصين... وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالطة الأورباويين للأمة الإسلامية المتقدمة عليهم في التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عندهم لا سيما في القرن الثالث عشر ثم تهذب حتّى وصل إلى ما هو مشاهد اليوم". خير الدين التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك** (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١)، ص٥٢.

(١٣) "وجمع أهالي جنوا ثروات ضخمة نافست ثروات البندقية. وتعطينا مؤرخة من جنوا في القرن الرابع عشر أمثلة على ثراء جنوا فيما وراء البحار. فقد كان حجم سفينتين من جنوا في مياه البحر الأسود في ١٣٣٠، ١٣٤٤ يكشف عن مظاهر مذهلة لمدى ثراء تجار جنوا فيما وراء البحار. فقد كان هناك سفينة تحمل بضائع قيمتها ٤٦٠ ألف جنيه إسترليني، وأخرى تحمل ما قيمته ٤٧٠ ألف جنيه إسترليني. وفي ظل الظروف العادية استطاع بعض التجار أن يضاعفوا ثرواتهم أو أكثر في سنة واحدة. وكان ممثلون من مصر يقيمون في البندقية وفي بعض المراكز التجارية الأخرى، ليصدروا خطابات توصية نظير أجر معين وهو ما يعادل جواز السفر في النظام القنصلي". انظر: سوريال، **الحروب الصليبية**، المصدر نفسه، ص ١٦٩.

وبينما خصصت البندقية أسطولها التجاري للتعامل مع المركز التجاري في سوريا ومصر في الشرق، احتكرت جنوا المعاملات مع شمال أفريقيا والبحر الأسود. وعلى الرغم من أن الاتصال المباشر بين الشرق والغرب بدأ عن طريق الحرب فإنه كان مقدراً له أن يخضع لطريق السلام في مجالي التجارة والثقافة. فقد تم اخضاع القراصنة العرب أو على الأقل أوقفت هجماتهم عندما استعيدت جزائر سردينيا في عام ١٠٢٢ وكورسيكا في عام ١٠٩١ وصقلية في ١٠٥٨-١٠٩٠، وكانت هذه تستخدم كقواعد وخلايا للراحة لسفن الرحالة المسلمين من شمال أفريقيا وإسبانيا. كل ذلك أدى إلى ازدهار بعيد المدى في المدن التجارية، كما أدى إلى نهضة المجتمعات في جنوب أوروبا، وكذلك إلى اقامة اتحادات تجارية في الشمال لتوزيع السلع عبر أوروبا، وكانت البندقية وجنوه وبيزا في مقدمة هذه المدن في شمال إيطاليا. أما اتحاد ميلانو الَّذي ضم مدن سهل لمبارديا الأخرى مثل برجامو، وبرشه، وكريما، فقد قام أساساً لمعارضة الإمبراطور فريدريك بربارت، ولكنه لعب دوراً اقتصادياً في النهضة التجارية. وفي جنوب ايطاليا انتعشت نابولي، وسالرنو، وأمالفي، وباري. على حين اكتسبت بالرمو في جزيرة صقلية موقعاً بالغ الأهمية. وفي فرنسا بلغت مارسليا، ومونبلييه، وناربون، مبلغ الشهرة في تاريخ متأخر، وكذلك برشلونه، وكتالونيا في شمال إسبانيا.

(٨)

ولنبطيء السير الآن قليلاً في مصر المحروسة؛ كي نبدأ رحلتنا بالدولة الطولونية (٨٦٨-٩٠٥) فلقد قامت في مصر في عهد الطولونيين مجموعة من الصناعات الَّتي تُبرهن بجلاء على الرواج الاقتصادي في هذه الفترة،

ومن أهمها هذه الصناعات كانت صناعة النسيج. هذه الصناعة نمت في مدن تنيس وبهنسا والأشمونيين ودمياط وأخميم وأسيوط، وفيها كان يُنسج الكتان والصوف والقطن، أما الأقمشة الحريرية فكانت تصنع في الإسكندرية وديبق. وقد ذكر ابن عبد ربه، في **العقد الفريد**:"ان في تنيس الَّتي كان بها خمسة آلاف مغزل، مصنعاً يعمل من أجل الخليفة".(١٤)

وسوف يحدثنا ابن بسام المحتسب، فيما بعد، عن تنيس بما يمكننا أن نعرف منه كيف كان استخدام قوة العمل المأجورة يتم على نطاق متسع في هذه الصناعة، إذ كتب ابن بسام:"وفيها من المناسج الَّتي تعمل فيها الثياب خمسة آلاف منسج: عدد عمالها عشرة آلاف نفس".(١٥)

كما كانت هناك المصانع حكومية، إلى جوار المصانع الخاصة، يطلق عليها دار الطراز تقوم بنسج ثياب الأمراء وكبار رجال الدولة، وكان لهذه

---

(١٤) مشار إليه في: **دائرة المعارف الإسلامية** (الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨)، ج٢٢، ص٦٨٢٣.

(١٥) محمد بن بسام المحتسب، **أنيس الجليس في أخبار تنيس** (القاهرة: مكتبة الثقافة،٢٠٠٢)، ص٣٧. ونستطيع أن نعرف من ابن ميسر كيف كان يتم تعبئة وتغليف المنتجات الَّتي تخرج من تنيس، وكيف كان يوضع على كُل صندوق كل البيانات التجارية التي تتعلق بمحتواه من نوع المنتج ومواده وتاريخ صنعه. انظر: تاج الدين بن ميسر، **المنتقى من أخبار مصر**، انتقاه تقي الدين أحمد المقريزي، حققها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨١)، ص٨١. ولكن المقدسي يوضح أن الضرائب كانت قاسية فلم يقتصر الأمر على مراقبة عمال السلطان للجودة أو سلامة التعبئة والتغليف الَّتي يقوم بها العمال المأجورون، إنما الأصل في وجودهم هو تحصيل الضرائب عند المنبع. انظر: المقدسي المعروف بالبشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة ليدن، ١٩٠٩). كتب المقدسي:" أما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي أن ينسج شيئاً منها الا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ولا أن تُباع إلا على يد سماسرة قد عقدت عليهم وصاحب السلطان يثبت ما يُباع في جريدته ثم تحمل إلى مَن يطويها ثم إلى مَن يشدها بالقش ثم إلى مَن يشدها في السفط وإلى مَن يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه، ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضاً شيء وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند اقلاعها ويؤخذ بتنيس على زف الزيت دينار ومثل هذا واشباهه ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال...". ص٢١٣.

المصانع، الَّتي كانت تستخدم عدداً كبيراً من العمالة المأجورة[١٦]، مديرون فنيون يتقاضون مرتباتهم من الدولة. وكانت هذه المصانع، العامة والخاصة، مصدر ثراء للدولة بوجه عام، فلم تكن كل المنتجات التي تُنتَج في مصانع الحكومة توزع ككساء للخليفة وأعوانه وكبار الرجال في الدولة من ساسة وعمال وفقهاء ورجال إدارة... إلخ، إنما كان جزء كبير من الإنتاج يخصص للتصدير.

ويَحكي لنا المقريزي (١٣٦٤-١٤٤٢) الذي أفاض في الحديث عن تنيس بالذات، أن دور الطراز كانت تدر على الدولة الأموال الطائلة بفضل منتجاتها النفيسة. فقد تمكنت مدن تنيس ودمياط والأشمونيين أن تؤدي من بيوت مالها لخزينة الدولة في يوم واحد ٢٠٠ ألف ديناراً، وذلك في عهد الوزير الفاطمى ابن كلس، وكان المصروف على خيوط الذهب يبلغ عادة ٣١ ألف دينار، وقد بلغ في عهد الآمر بأحكام الله ٤٣ ألف دينار.[١٧]

والظاهر أن الأمور قد تبدلت بعض الشيء في عهد سلاطين المماليك، إذ نجد ابن خلدون يذكر أن المنسوجات وثياب الطراز لم تعد تصنّع في المصانع ودور الطراز في القصر، فقد أوقفت الدولة إنتاجها في منشآتها الخاصة، وأصبحت تطلب حاجتها، الَّتي اقتصرت على الكساوي المنسوجة من الحرير والذهب الخالص، من بيوت النساج، أي انها صارت تعتمد على الموردين. ولكننا في جميع الأحوال نجد عند ابن خلدون

---

(١٦)"وكان أجر الفرد منهم نصف درهم كل يوم وهو مبلغ لا يكفي للوفاء بأقل الحاجات الضرورية للمعيشة" **دائرة المعرف الإسلامية**، المصدر نفسه، ص٦٨١٧.

(١٧) المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧)، ج٢، ص٦.

وصفاً دقيقاً نفهم منه أن دار الطراز كانت مشروعاً رأسمالياً، بالمعنى الفني للكلمة، مملوكاً للدولة ويستخدم العُمال الأجراء الَّذين يُشرف عليهم ويدفع لهم أجورهم أحد رجال الدولة المقربين من مؤسسة الحكم، كتب ابن خلدون: "... وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تُسمى دور الطراز. وكان القائم على النظر فيها يُسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصباغ والآلة والحاكة فيها واجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم".(١٨)

ولدينا نص مهم لابن المأمون (القرن الحادي عشر) نعرف منه مقدار الأجرة التي يقبضها النساج:"... بدلة خاص جليلة مذهبة ثوبها موشح مجاوم مذايل عدتها باللفاتين إحدى عشرة قطعة السلف عنها مائة وستة وسبعون ديناراً ونصف، ومن الذهب العالي المغزول ثلاثمائة وسبعة وخمسون مثقالاً ونصف كل مثقال أجرة غزله ثُمن دينار".(١٩)

وبخصوص الأجر، بوجه عام، فلدينا نص مكتوب على ورق بردي، لا يقل أهمية عن نص ابن المأمون، يرجع تاريخه إلى القرن التاسع، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية (لوحة ١٢) وهو عبارة عن عقد استخدام عامل مأجور، أيْ بيع لقوة العمل، فالأمر إذاً على ما يبدو له أهمية اجتماعية تستدعي التوثيق، كما تتبدى أهمية النص من جانب آخر في أنه يمثل وثيقة مهمة نعرف منها قيمة الدينار آنذاك:"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما استأجر سعيد بن عيسى استأجر هارون بن بقام شهرين كاملين على أن يعمل له عمل الفول وعلى أن يعطيه في هذين الشهرين سدس دينار لكل شهر درهمين

---

(١٨) ابن خلدون، **المقدمة**، المصدر نفسه، ص٥٤٥.

(١٩) ابن المأمون البطائحي، **نصوص من أخبار مصر**، حققها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٨٣)، ص٥٦.

وأول يوم من الشهر أول يوم من كهيك من شهور العجم من سنة متين وسبعة وعشرين شهد على ذلك أيوب بن موسى وكتب شهادته ومحمد بن أيوب وكتب بخطه وليد بن مسلم القرشي وكتب شهادته بخطه".(٢٠)

كما توجد لدينا بردية أخرى (لوحة ١٣)، ترجع إلى القرن العاشر الميلادي توضح أن الخدمات أيضاً كانت مأجورة نقداً، إذ نجد بردية تعيين خادم مسجد حددت أجرته السنوية بثلاثة دنانير ونصف، كما حددت واجباته واختصاصاته بدقة.(٢١)

ولدينا أيضاً بردية ثالثة (لوحة ٢٢)، تعود إلى القرن العاشر كذلك نجد أن أحد العمال يتقاضى أجراً عن عمله مقداره ديناراً في الشهر.(٢٢)

ومن الصناعات المهمة أيضاً التي عرفت في عهد الدولة الطولونية صناعة الأسلحة، وكانت دار الصناعة، والتى كانت بالأساس تتخصص في صناعة السفن، هي الَّتي تقوم بصناعتها. كما عرفت مصر في ذلك العهد صناعة الصابون وصناعة السكر. وكان أكثر الصناع المأجورين من المصريين.(٢٣)

ونعرف من المقريزي، وهو يَحكي قصة ضرب الدينار الأحمدية في عهد الدولة الطولونية. كيف كان العمل مأجوراً؛ إذ كتب المقريزي:" ثم

---

(٢٠) أدولف جروهمان، **أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية**، ترجمة حسن ابراهيم حسن (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٤)، ج٥، ص١٥٩.

(٢١) **أوراق البردي العربية**، المصدر نفسه، ج٢، ص٩٩.

(٢٢) **أوراق البردي العربية**، المصد نفسه، ج٢، ص١٠٢.

(٢٣) على إبراهيم حسن، **مصر في العصور الوسطى: من الفتح العربي إلى الفتح العثماني** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧)، ص٣٦١-٣٦٥.

أمر لكُل رجل كان يعمل بمائتي دينار منه، وأنفذ بأن يُوفى الصناع أجرهم...".[٢٤]

وفي عهد الفاطميين (٩٥٣-١١٧١) استخدمت أساليب جديدة في الصناعة، ولم يعد عمل المصانع مقصوراً على إمداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربي والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت المنتجات لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم. واحتلت صناعة السكر مكانة متميزة.[٢٥] وكانت صناعة النسيج أيضاً من الصناعات الَّتي تابعت ازدهارها بعد أن تنوعت أصنافها وأشكالها. وكانت القاهرة في عهد الفاطميين مركزاً رئيسياً لصناعة المنسوجات الحريرية. وعمل فى هذه المصانع آلاف العمال المأجورين نقداً. ويمكن القول أن أجور الحرفيين لم تكن واحدة؛ إنما تفاوتت تبعاً لنوع النشاط وأهميته عند الحكام الفاطميين من جهة، وتبعاً للملكية الخاصة أو التبعية للدولة من جهة أخرى، فقد كانت أجور الصناع المأجورين في دار الطراز الحكومي أفضل بكثير مما يقبضه زملائهم العمال في الدور الأهلية.[٢٦] كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف وكانت الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج. ومن البلاد الَّتي اشتهرت بهذه الصناعة أيضاً الفيوم والأشمونيين والإسكندرية.[٢٧] وكان لكُل طائفة من الصناع وأرباب الحرف عريف[٢٨] يتولى أمورهم، ويشترط

---

(٢٤) المقريزي، **شذور العقود**، المصدر نفسه، ص١٣٧. وانظر أيضاً: **اغاثة الأمة بكشف الغمة: تاريخ المجاعات في مصر** (حمص: دار ابن الوليد، ١٩٥٦)، ص٤٨.

(٢٥) "وكانت صناعة السكر في ظل الفاطميين ذات طابع رأسمالي أكيد". أيمن فؤاد سيد، **الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد** (بيروت: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠)، ص٤٨١.

(٢٦) للمزيد من التفاصيل: زكي محمد حسن، **كنوز الفاطميين** (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٧)

(٢٧) محمد جمال الدين سرور، **الدولة الفاطمية في مصر: سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٥)، ص١٥٣-١٧٦.

(٢٨) المقريزي، **اغاثة الأمة**، ص١٨.

فيه أن يكون على دراية بأمور الصناعة أو الحرفة الَّتي يشرف عليها ومشهوداً له بالثقة والأمانة، وكان العريف، نظراً للوضع المختلف للنقابات في المشرق كما سنرى، بمثابة عين للمحتسب يطلعه على أخبار أهل صنعته، ويدله على مواطن الغش والتدليس الَّتي قد يلجأ إليها البعض لغش الصنعة أو السلعة. وكانت الدولة تستخدم الأجراء من أرباب الحرف من غير موظفيها، وفي هذه الحالة كان يحصل العامل على أجر مقابل ما أداه من عمل.

وفي عهد الدولة الأيوبية (١١٧٤-١٢٥٢)، كان الشكل السائد للملكية الإقطاعية للأرض يتميز بالملكية الحكومية؛ فالحكومة لم تقم بدورها العادي كمالك أعلى للأرض فقط، بل إنها قامت أيضاً بدور المستغل المباشر للمنتجين المباشرين، وكما نفهم من كتابات المقريزي، فإن الوسيلة الرئيسية للانتفاع بأرض الدولة هي التأجير مقابل الالتزام، ولكن مع بداية حكم الأيوبيين تحول إقطاع الالتزام إلى الإقطاع الَّذي يَعني المنح الإقطاعية الحربية.

ويمكن القول أن النظام الإقطاعي الحربي في مصر في ذلك العهد شأنه في ذلك شأن دول الشرق الأدنى الأخرى في العصور الوسطى؛ كان يتميز تقريباً بالغياب الكامل لحيازة الملكية الخاصة للإقطاعي، فعلى سبيل المثال من المعروف أن السلطان صالح نجم الدين أيوب ألقى في السجون بكثير من الأمراء المشتبه في ثقتهم، وذلك عند اعتلائه العرش، ثم قام بإعادة توزيع إقطاعاتهم على المماليك.[٢٩]

---

(٢٩) ل. أ. سميمنوفا، **صلاح الدين والمماليك في مصر**، ترجمة حسن بيومي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ١٩٩٨)، ص٤٣-٥٩.

وعلى الرغم من سيادة الإقطاع على هذا النحو إلا أننا نجد جميع مظاهر التداول النقدي والسلعي، والأرباح، والرأسمال[٣٠]،... إلخ، فقد تجاوزت الأرض الدور الّذي تؤديه في غرب أوروبا كمظهر للثراء الاجتماعي والسلطة، إلى تأدية دور اقتصادي أكثر إيجابية.

وفي عهد دولة المماليك(١٣٨٢- ١٥١٧) كانت مصر "إقطاعية بمعنى الكلمة"[٣١] فقد قسمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين بكل قيراطاً،

---

(٣٠) فبشأن أثمان السلع كما تطرح في السوق، فلسوف يتناول القلقشندي (القرن الرابع عشر) الظاهرة، موضحاً أن الأثمان على ثلاثة أنواع: النوع الأول: الدنانير المسكوكة مما يضرب بالديار المصرية، أو يأتي إليها من المسكوك في غيرها من الممالك من الذهب أو دنانير الروم والبلاد الإفرنجة. النوع الثاني: الدراهم النُقرة، ويكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتُطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية. النوع الثالث: الفلوس، وهي صنفان: مطبوع بالسكة، وغير مطبوع، فأما المطبوع فيعتبر كل ثمانية وأربعين فَلْساً منها بدرهم من النُقرة. أما غير المطبوعة فنُحاس مكسر من الأحمر والأصفر." وحين ينتقل إلى الأسعار يقرر أن لكل سلعة سعرها الخاص بها، إذ ينقل عن المقر الشهابي قوله:" وأوسط أسعارها في غالب الأوقات أن يكون الإردب القمح بخمسة عشر درهماً، والشعير بعشرة، وبقية الحبوب على هذا الأنموذج؛ والأرز يبلغ فوق ذلك؛ واللحم أقل سعره الرطل بنصف درهم، وفي الغالب أكثر من ذلك؛ والدجاج يختلف سعره بحسب حاله، فجيدُه الطائر منه بدرهمين إلى ثلاثة، والدُّونُ منه بدرهم واحد؛ والسكر بدرهم ونصف، وربما زاد، والمكرر منه بدرهمين ونصف." أبو العباس بن علي القلقشندي، **صُبح الأعشى** (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣) ج١٣، ص ٤٣٦-٤٤٣. ويذكر ابن تغري بردي (١٤١٠-١٤٧٠) حوادث سنة خمس وخمسين وثمانمائة؛ ويرصد أسعار السلع في مصر:" والأسعار في زيادة عن الحد، فالقمح بألف وخمسمائة درهم الأردب والفول والشعير بنحو ألف درهم الأردب... والدقيق العَلامة بخمسمائة درهم، والتبن بخمسمائة درهم، والجبن الأبيض الجاموسي بأحد عشر درهماً الرطل، وأجرة طحن الاردب القمح بمائة وعشرين درهماً الأردب، والثمن بثلاثين الرطل، والعسل النحل بنحو ذلك. والأرز بأربعة وعشرين درهماً القدح والخبز بثمانية دراهم". جمال أبو المحاسن بن تغري بردي، **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، تحقيق فهيم محمد شلتوت (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٠)، ص٢٥٨. بل وحتّى على الجانب الآخر، أي في أوروبا، (في أظهر نُظم الإقطاع) يمدنا الجدول الاقتصادي لفرنسوا كينيه بفكرة ممتازة عن دور الرأسمال**(م ع + أ ع + ق ع)** وقانون حركته **(ن – و أ + ق ع – س – Δ ن)** في الاقتصاد الإقطاعي نفسه، إذ يعد الجدول الاقتصادي، كما ذكرنا، النموذج الأعمق تعبيراً عن تحول النقود إلى رأسمال حتّى في ظل النظام الإقطاعي المبني على الزراعة، الّتي يعتبرها كينيه العمل الوحيد المنتج. إذ على مستوى البدء في النشاط الاقتصادي يوضح كينيه أنه من اللازم وجود قدر من الرأسمال Avances Annulles للحصول على المواد الأولية الّتي يجري تحويلها أثناء عملية الإنتاج وقدر آخر من الرأسمال Avances Primatives=

اختص السلطان منها بأربعة قراريط، واختص الأمراء بعشرة، والعشرة الباقية كانت نصيب الجنود.[(٣٢)]

وكان الإقطاع، كما جاء في الشروح على المقريزي، أمراً شخصياً لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضاً في المقطع أن يحل محل السلطان في أن يتمتع بغلات الإقطاع وإيراده

= للحصول على أدوات الإنتاج المعمرة الَّتي تستخدم في أكثر من عملية إنتاجية كالمباني والأدوات، وقدر ثالث من الرأسمال الَّذي يلزم لإستصلاح الأرض وتحسينها وشق الترع والمصارف. وعقب إتمام العملية الإنتاجية يتمكن العمل الزراعي من تحقيق فائض. هذا الفائض سيتم توزيعه من خلال نوعين من التدفقات: تدفق عيني، وآخر نقدي. ويتم توزيع وتداول الناتج بشكليه بين الطبقات الاجتماعية الثلاث الَّتي حددها كينيه، وهي الطبقة المنتجة والَّتي اعتبرها ممثلة في طبقة المزارعين، وطبقة كبار الملاك وهم الملك والحاشية وكبار رجال الكنيسة، والطبقة العقيم وهي الَّتي تضم أصحاب المهن والحرف وغيرهم من الذين لا يضيفون على الناتج. فالنجار مثلاً، يمكننا أن نراه في نظر كينيه، غير منتج لأنه لا يضيف على الناتج، فكُل ما يفعله هو اعادة تشكيل مادة موجودة سلفاً في الطبيعة، على العكس من العامل الزراعي الَّذي يضيف إلى الناتج الاجتماعي السنوي ويحقق بعمله فائض زراعي، يستخدم جزء منه في تجديد الإنتاج، وجزء آخر يستخدم، بعد بيعه وتحويله إلى نقود، في دفع الريع إلى كبار الملاك العقاريين. إن ما نستخلصه من الجدول الاقتصادي، بوجه عام، هو وجود النقود الَّتي سوف تكتسب صفة الرأسمال، كما توجد قوة عمل مأجورة، وطبقة منتجة للفائض، وطبقة أخرى تعيش على هذا الفائض، العيني والنقدي، دون مشاركة في العملية الإنتاجية. انظر:

Francois Quesnay, **Tableau Economique** (Paris: A La Institut National de Etudes d Emographiques, 2005) p.421.

وفي الأفكار المركزية لفكر الطبيعيين، الَّتي يمكن حصرها في: القانون الطبيعي، والناتج الصافي، وتداول الثروة، مع شرح واف للجدول الاقتصادي، انظر:

Henri Denis, **Histoire De La pensee Economique** (Paris: Presses Universitaires de France, 1966) p169-177.

(٣١) سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦)، ص٣٦٠.

(٣٢) "إن أرض مصر كانت قد قسمت على أربعة وعشرين قيراطاً، أُفرد منها للسلطان أربعة قراريط، وجعل للأمراء وبرسم الاطلافات والزيادات عشرة قراريط، وجُعل لأجناد الحلقة عشرة قراريط". تقي الدين المقريزي، **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة (القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦)، ج١، ق٣، ص٨٤٢. وذكر ابن إياس:" ان الجند عندما اشتكوا قلة نصيبهم زادهم السلطان قيراطاً على العشرة فأصبحوا أحد عشر قيراطاً وللرعية تسع ضمها السلطان إليه واستحلها لنفسه فكأن نصيبه كان في الواقع ثلاثة عشر قيراطاً". **تاريخ ابن إياس**، ص١٣٧.

فحسب، فإذا مات المقطع أو أخل بشروط الإقطاع، جاز للسلطان أن يستولي على إقطاعه فوراً.(٣٣)

(٣٣) الفرضية المنهجية الّتي يمكن تقديمها هنا هي أن الإقطاع في الشرق لا يختلف، كما يدَّعىَ، عن الإقطاع في الغرب. بل هو نمط إنتاج واحد. إقطاعي. إذ يمكننا أن نعقد مقارنة بين الإقطاع في الشرق الإسلامي والغرب اللاتيني في ضوء ما لدينا من مصادر تؤكد لنا أن جوهر الإقطاع لا يختلف في الشرق عنه في الغرب. مُنتِج مباشر مستغَل. نخبة حاكمة مستغِلة. ريع عيني ينقل إلى مخازن الملاك. ريع نقدي يتدفق إلى خزائنهم. قد يتغير الشكل. قد يتغير اسم المستغل وصفته. قد يختلف مكان الاستغلال. قد تتبدل الالتزامات. ولكن تظل الروح واحدة لا تتغير، والقواعد الكُلّية واحدة لا تتبدل. "المجتمع الإقطاعي حيثما يكون في الشرق أو الغرب مجتمع جامد طبقي البنيان والمظهر والمخبر، وحقوق الفرد في هذا المجتمع تختلف بحسب الطبقة التي ينتمي إليها الفرد نفسه، والعلاقة بين الطبقات نفسها تختلف باختلاف وضعها في المدرج الإقطاعي، ولذا استطاع السبكي والقلقشندي والمقريزي تقسيم المجتمع المملوكي في سهولة، ومن زوايا مختلفة". انظر: إبراهيم على طرخان، **النظم الإقطاعية: في الشرق الأوسط في العصور الوسطى** (القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨)، ص٢٩٩. ولمن يهوون القول باختلاف الإقطاع في الشرق عن الإقطاع في الغرب، يمكننا بوجه عام أن نسايرهم، ونلاحظ أمرين: الأمر الأول بشأن الحيازة، والأمر الثاني بشأن إنتقال الأرض بالوفاة إلى الورثة. والأمران نتصور أنهما في غاية الشكلية. ولا بأس من إيضاحهما، وقبل ذلك نذكر أن الماوردي (٩٧٤-١٠٥٨) كتب:"وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره، ولا يصح فيما تعين فيه مالكه وتميز مستحقه. وهو ضربان: إقطاع تمليك وإقطاع استغلال. فأما إقطاع التمليك فتنقسم فيه الأرض المقطعة ثلاثة أقسام: موات وعامر ومعادن، فأما الموات فعلى ضربين: أحدهما ما لم يزل مواتاً على قديم الدهر فلم تجز فيه عمارة ولا يثبت عليه ملك... والضرب الثاني... ما كان عامراً فخرب فصار مواتاً عاطلاً وذلك ضربان: أحدهما ما كان جاهلياً كأرض عاد وثمود فهي كالموات الذي لم يثبت فيه عمارة ويجوز إقطاعه... والضرب الثاني ما كان إسلامياً جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب حتى صار مواتاً عاطلاً... وأما العامر فضربان: أحدهما ما تعين مالكه للسلطان فيه إلا ما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال. والقسم الثاني من العامر: أرض الخراج... والقسم الثالث: ما مات عنه أربابه ولم يستحقه وارثه بفرض ولا تعصيب". الماوردي، **الأحكام السلطانية والولاية الدينية** (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص١٩٥-٢٠٠. وقارن: إبن إياس، **نزهة الأمم في العجائب والحكم**، تحقيق محمد زينهم محمد عزب (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥)، ص١٣٥. فمن الواضح، وفقاً لنص الماوردي، أن الإقطاع في الشرق يجد له سنداً تنظيمياً وغطاءً أيديولوجياً، على خلاف الإقطاع في الغرب الذي فرضه الظرف التاريخي. وإذ كان هذا وجه إختلاف، فوجهان آخران لدينا: فبصدد الحيازة: لم يكن للحائز في الشرق سوى سلطة استغلال وانتفاع دون التصرف؛ لأن المالك الوحيد للأرض جميعها، فيما عدا بعض الاستثناءات، هو الخليفة. الّذي يستطيع أن ينزع الملكية وقتما شاء ممن يشاء، فمثلاً كانت بعض أراضي الشرقية والبحيرة موهوبة بمثابة إقطاعات للبدو من قبيلتي جزام وصليب اللّتين كانت فرقهما تدخل في عداد الجيش النظامي، غير أن السلطان صلاح الدين نزع هذه الإقطاعات منهما عقاباً لهم على عقد صفقة سرية من الحبوب مع الصليبيين . المقريزي، **السلوك** (القاهرة: مطبعة دار الكتب =

= والوثائق القومية، ٢٠٠٦) ج٢. ص٦٤، ٦٥. كما نزع السلطان الكثير من إقطاعات الأكراد كعقاب لها على هزيمتها في الرملة في عام ١١٧٧. المقريزي، **الخطط**، المصدر نفسه، ج٢، ص٧١. أما عن انتقال الحيازة بالوفاة إلى الورثة، فقد كانت الأرض، في غرب أوروبا، تنتقل إلى أكبر الأبناء الذكور، وهو الأمر الذي كان له نتائج غاية في الخطورة على النظام الإقطاعي نفسه. أما في الشرق فالإقطاع سواء كان في مصر أو سوريا يمكن أن يتحول وفقاً للوظيفة الحربية، ويخبرنا ابن عبد الظاهر أن إقطاع الأمير شهاب الدين القمري انتقل لابنه بعد موته، ولكن إقطاع الأمير شرف الدين الّذي وقع في الأسر على يد الصليبيين في بداية ١٢٦١، استبقاه السلطان لإخوته. والمقريزي في عام ١٢٦٥ يستشهد بنص مرسوم بيبرس الخاص بتوزيع الإقطاعات على الأمراء في الريف والقرى الّتي تقع حول المناطق التي تم نزعها من الصليبيين في قيسارية وأرسوف؛ علاوة على أنه يؤكد على الطبيعة الوراثية لهذه الأوضاع. وإعادة توزيع الإقطاعات بالشكل الوراثي يرجع في الأغلب للعادات الموجودة الخاصة بأمراء المماليك الكبار، الّذين لا يمكنهم أن يرثوا وظائف أبائهم وبالتالي إقطاعاتهم. والمصادر تؤكد أن عزل الأمير أو وفاته تستتبع إعادة توزيع إقطاعه على الآخرين، وكان المحاربون يتعرضون لفقد إقطاعاتهم إذا ما ارتكبوا ما يخالف القواعد المتوارثة. على ذلك، قد يتبدى الاختلاف في النشأة ربما أو التنظيم أو عوامل التطور والإنهيار، ومع ذلك يمكننا أن نرى نشأة الإقطاع في الشرق مشابهة، في بعض الأحيان، لما حدث في الغرب اللاتيني؛ إذ نجد أن من أهم الأسباب الّتي أدت إلى ازدياد عدد الضياع عند الخلفاء وذويهم، نظام الإلجاء؛ فقد كان الأهالي الضعفاء يقومون بإلجاء ضياعهم إلى الأقوياء من أقارب الخليفة أو الوزراء أو كبار رجال الدولة، للتخلص من جباة الخراج الذين كانوا يغضون النظر عن هذه الأراضي الملجأة فلا تخضع لجبايتهم. وبذلك يخف الخراج عن أصحاب الضياع الضعفاء، وبمرور الزمن تُصبح هذه الضياع ملكاً للملجأ إليه، في حين أن وضع المالك الأصلي يتبدل إلى حالة مزارع في الأرض. وترجع هذه الطريقة، فيما يبدو، إلى العصر الأموي، حيث ألجأ الكثير من الفلاحين أراضيهم إلى مسلمة بن عبد الملك بن مروان في أثناء ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق. كما توجد أمثلة أخرى بعد قيام الدولة العباسية، ففي عهد المنصور، على سبيل المثال، ألجأ رجل من أهل الأهواز ضيعته إلى الوزير سليمان بن مخلد المعروف بأبي أيوب المرياني. "جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبي أيوب، وهو وزير، فقال له: إن ضيعتي بالأهواز قد حمل عليّ فيها العمال، فإن رأى الوزير أن يُعيرني اسمه اجعله عليها، وأحمل إليه في كل سنة مئة ألف درهم؟" انظر: أبو عبد الله الجهشياري، **كتاب الوزراء والكتاب**، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨)، ص١١٨.كما أننا نجد تشابهاً آخر؛ إذ كانت ملكية الأرض في عهد الدولة الأيوبية تقوم في أغلبها على النظام الفئوي الهرمي الشبيه في أساسه بالأشكال السائدة في غرب أوروبا في العصور الوسطى، وكانت الفئات الحاكمة تتكون في أغلبها من الأعيان المحاربين الذين ينحدرون من الأصل التركي. ونذكر أخيراً أن د. زكريا نصر يذكر وجهين آخرين للاختلاف بين الإقطاع الأوروبي والإقطاع في الشرق، وبصفة خاصة في العهد المماليكي، ولكنها أيضا شكلية:" أولاً: إن الفرق شاسع بين طبقة الإقطاع في أوروبا وجلهم من أحفاد أمراء ورؤساء القبائل البربرية وبين طبقة من الأرقاء المستوردين... ثانياً: كانت المدن الأوروبية تتمتع بحريات انتزعتها من أمراء الإقطاع فأصبحت مجالات لنظم تغاير أساساً النظام الإقطاعي القائم على التبعية الشخصية ورق الأرض، الأمر الّذي هيأ الفرصة في مرحلة معينة من التطور لظهور نظام اجتماعي جديد كان مصيره القضاء على الإقطاع نهائياً. أما المدن المصرية فقد =

والجدير بالذكر ان الأمراء المماليك حال حكمهم لمصر كانوا فاحشي الثراء بالمقارنة مع بقية الشعب، ففيما كان العامل أو الموظف الديني الصغير يستطيع أن يجني درهمين في اليوم، كان دخل الأمراء، في القرن الرابع عشر، يبلغ نصف مليون درهم أو مليوناً من الدراهم سنوياً، أيْ ما يُعادل الدخل السنوي لمليوني عامل تقريباً.[٣٤] وكان جنود المماليك السلطانية شأنهم في ذلك شأن الأمراء الكبار، يتسلمون شهرياً من الخزانة رواتب نقدية ويعطون منحاً عينية.

وفي عهد المماليك يمكننا أيضاً أن نرى حياة اقتصادية معقدة كالمضاربات المالية وانفلات الأسعار والتضخم والكساد والركود والفائض، والثراء الفاحش والفقر الموحش، والتنظيم الدقيق والفوضى العارمة! وإذ ما نظرنا لقوة العمل، فلكي نتفهم التنظيم النقابي للعمل في مصر المماليكية فيتعين أولاً أن نتفهم الاختلاف بين نظام النقابات الّذي كان موجوداً في الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الغربية. فقد كانت الاتحادات البيزنطية تنظم بواسطة سلطات الشرطة في الدولة، وليس بالتلاقي الارادي بين أعضائها. ومع أنها انشئت للقيام بوظائف اقتصادية محددة،

= كانت هي أيضاً كالأرياف خاضعة خضوعاً كبيراً لسلطان المماليك، فهؤلاء كانوا وعسكرهم يقطنون المدن ويملكون فيها لا القصور فحسب بل والعقارات والحوانيت والأسواق الّتي تدر دخلاً من تأجيرها...". زكريا أحمد نصر، **تطور النظام الاقتصادي: مقدمة لدراسة الاقتصاد السياسي** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٥)، ص٢٥٩.

(٣٤) إيرا لابدوس، **مدن إسلامية في عهد المماليك**، ترجمة علي ماضي (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧)، ١٦٦. كتب المقريزي:"وفي غمار هذا البذخ، أثرت حواشي القصور شأنها شأن الغالبية من حواشي الطبقات الأرستقراطية؛ فيقال إن متحصل الحاج علي الطباخ في سنة ٧٤٦هـ- ١٣٤٥م، أيام السلطان إسماعيل بن الناصر بلغ من المعاملين وهم المتعهدون في كل يوم ٥٠٠ درهم ولابنه أحمد ٣٠٠ درهم، وهذا عدا الأطعمة وما يصيبه في الحفلات، ففي حفلة عمله للأمير بكتمر الساقي بلغ ما ناله فقط من ثمن الأكارع والرءوس وسقط الدجاج والأوز: ٢٢٠٠ دينار، ولما صودر وأوقعت الحوطه على موجوده وجدوا له ٢٥ داراً على شاطيء النيل". انظر: المقريزي، **الخطط**، ج٢، ص٢٣٠-٢٣١.

ومنها عدم الاحتكار، فقد كانت تمنح احتكارات ضمن إطار أعمالها. ومع ذلك لم تكن أبداً سيدة نفسها ولم يكن لديها أيْ مالية خاصة أو أيْ موظفين رسميين يُنتَخبون وفقاً لمشيئة مجموع الأعضاء. وكانت قواعد أعمالها توضع وتفرض من خارجها، ولكن ذلك لم يحل دون قيام تضامن داخل الاتحاد، إلا أنه أزال الرقابة من أيدي الحرفيين والتجار. أما في الغرب، فقد لعبت النقابات، التجارية في مرحلة أولى، ثم الحرفية في مرحلة ثانية، دوراً مهماً في سبيل ترسيخ الاستقلال قبل السلطة الإقطاعية من جهة والسلطة الكنسية من جهة أخرى، وقامت النقابات الحرفية بتأدية الدور الحاسم في الصراع بين طبقة التجار وطبقة الصناع، وكانت الوظائف الرئيسية لنقابات الحرف هي:"تحقيق الخير لأعضائها وضمان تشغيلهم بالكامل بأعلى الأجور".[٣٥]

أما مصر، فهي لم تعرف أياً من النموذجين النقابيين البيزنطي والغربي، بالمعنى الدقيق لكلمة النقابة[٣٦] إذ أن التجارات والحرف في العهد المماليكي كانت شأنها شأن النقابات البيزنطية خاضعة لمراقبات خارجية صارمة ترمي إلى الاحتفاظ بنشاطات العمال ضمن بعض الحدود السياسية والاقتصادية والمالية والأخلاقية. إلا أن الإشراف لم يؤد بالنتيجة إلى تأسيس نقابات. وبصفة خاصة أن نظرة مؤسسة الحكم، باستثناء الدولة الفاطمية كما ذكرنا، إلى العمال والحرفيين كانت يكتنفها

---

(٣٥) زينب أبو الأنوار، **أسواق وتجار أوروبا العصور الوسطى** (القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠١٢)، ص٢٥٣.

(٣٦) لابدوس، **مدن إسلامية**، المصدر نفسه، ١٦٩، وهو ما أكد عليه برنارد لويس:"... يمكن أن نستنتج أن الأمراء المسلمين احتفظوا بأشكال السيطرة العامة الّتي كانت للإدارة البيزنطية على الحرف... وعلى كل حال فإننا نجد في القرن العاشر تطوراً فيما يُسمى بالأصناف الإسلامية، وحنئذ نجدها من نوع لا يصح تعليله بالتأثير أو التراث البيزنطي". برنارد لويس، **النقابات**، المصدر نفسه، ص٦٩٧.

الريب والشك. ولذلك فوضت المراقبة الأساسية على العمال والحرفيين في المدن الإسلامية، بوجه عام، للمحتسبين. ولكن، وبمناسبة أننا نتحدث عن الحرف وطوائفها، لماذا أخذت الحرف في الشرق في التدهور، في الوقت الَّذي انطلقت مثيلاتها في أوروبا؟ ثمة إجابة، نشايعها، قدمها شارل عيسوي[٣٧]، ترجع هذا التدهور أو التخلف إلى عدة عوامل أهمها:

أولاً: ضعف قاعدة الموارد في الشرق وافتقاره إلى الخشب (وهو مادة أساسية في فجر الثورة التقانية) وافتقاره إلى الأنهار الصالحة للملاحة وإلى الطاقة المائية وإلى المعادن، وهي الَّتي أقيمت عليها مشروعات ضخمة جداً في أوروبا في العصور الوسطى المتأخرة.

ثانياً: كان هناك فقر في الابتكارات الآلية، وفشل في استحداث مصادر الطاقة غير البشرية.

ثالثاً: كان هناك ما يتعلق بهيكل الحكومات المختلفة وسياساتها (المماليك، والعثمانيون، والصفويون)، ففي كُل هذه الحكومات، كانت السيطرة في يد العسكريين الَّذين كانوا عادة من أصول أجنبية. أما أفراد الطبقة البرجوازية من أصحاب المشروعات من تجار وحرفيين ونقاباتهم فلم يحصلوا أبداً على التنظيم الكافي للضغط على الحكومة أو اقناعها بأخذ مصالحهم وحاجاتهم في الاعتبار. ونتيجة ذلك، كانت الملكية الخاصة معرضة دائماً للخطر أكثر منها في أوروبا، وكان أيْ مشروع ناشيء أكثر عرضة للدمار.

---

(٣٧) شارل عيسوي، **تأملات في التاريخ العربي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص٨٨، ٨٩.

(٩)

والآن، فلنذهب إلى فاس في شمال أفريقيا، في القرن السادس عشر، ولسوف نترك الحسن الوزان، المعروف باسم ليون الأفريقي(١٤٩٥-١٥٥٠) يحكي لنا ماذا رأى في الأسواق هناك:"... نقابات الحرفيين بفاس مفصول بعضها عن بعض، وأشرفها يوجد حول الجامع وبالقرب منه... وإلى الغرب من ذلك نحو ثلاثين دكاناً للكتبيين، وإلى الجنوب بائعو الأحذية الَّذين يشغلون قرابة مائة وخمسين دكاناً، يشترون الأحذية والخفاف بالجملة من الخرازين، ثم يبيعونها بالتقسيط. ولا يبعد عنهم كثيراً الخرازون الَّذين يصنعون أحذية الأطفال، ويبلغ عدد دكاكينهم نحو خمسين دكاناً. وفي شرقي الجامع مكان باعة أواني النحاس... وأمام الباب الرئيسي للجامع في الجهة الغربية يوجد باعة الفواكه الذين يشغلون نحو خمسين دكاناً... وبعدهم الشماعون... ثم العقادون... وبعد ذلك تجد بائعي الأزهار يبيعون الليمون والحامض أيضاً... ويبلغ عدد دكاكينهم نحو العشرين... ويأتي بعد بائعي الأزهار بائعو اللبن... يشترون اللبن من البقارين الَّذين يعلفون الأبقار لهذه التجارة ويرسلون كُل صباح اللبن... فيبيعه اللبانون في دكاكينهم، وما بقي لهم منه في المساء والصباح، اشتراه منهم تجار ليصنعوا منه الزبد من بعضه، ويتركوا البعض الآخر يتحمض ليبيعوه للزبائن لبناً حامضاً ورائباً... يأتي بعد اللبانين بائعو القطن الَّذين يبلغ عدد دكاكينهم ثلاثين. وإلى الشمال منهم بائعو مصنوعات القنب. يأتي بعد ذلك صانعو النطق الجلدية والخفاف والأزمة الجلدية المطرزة بالحرير للخيل أيضاً. وتجد بعدهم صانعي المشدات الَّذين يصنعون أغمدة السيوف والمواسي وأغطية صدور الخيل، فبائعي الملح والجبص يشترونها بالجملة ويبيعونها بالتقسيط، ثم بائعي الأواني الخزفية ذات الصنعة المتقنة والألوان الزاهية... ويبلغ عدد دكاكينهم مائة... ثم نصل إلى مجمع الحمالين، ويبلغ عددهم ثلاثمائة حمال، ولهم أمين أيْ رئيس، يَختار كُل أسبوع من يجب عليهم أن يشتغلوا ويكونوا رهن إشارة الجمهور طوال الأسبوع. يجمع هؤلاء الرجال ما ربحوه من مال في صندوق... ويُقسَم المال بين الَّذين اشتغلوا عندما ينتهي الأسبوع. ويشتغل هؤلاء

وهم لابسون ثياباً قصيرة ذات لون واحد، ويلبسون خارج أوقات عملهم ما يشاؤون... ويأتي إلى جهة الشمال سوق الخضر... ثم سوق الدخان حيث تُباع الفطائر المقلية في الزيت... ولبائعي الفطائر في دكاكينهم عدة آلات وغلمان، لأنهم يصنعونها بعناية فائقة، ويبيعون منها يومياً كمية كبيرة... ويُباع كذلك في السوق اللحم والسمك المقليان... ويأتي بعد ذلك باعة الزيت والسمن المالح والعسل والجبن الطري والزيتون والليمون والجزر... ودكاكينهم مليئة بأواني الخزف المايورقي، تفوق قيمتها قيمة ما تحويه من بضاعة. وتُباع جِرار الزبد والعسل بالمزاد، والدلالون حمالون مختصون يكيلون الزيت عندما يُباع بالجملة. وتسع هذه الجِرار مائة وخمسين رطلاً، والخزافون ملزمون بصنعها في حجم هذه السعة تماماً، فيشتريها منهم رعاة المدينة ويملأونها ثم يبيعونها من جديد... وعلى مسافة قريبة يوجد الجزارون في نحو أربعين دكاناً مرتفعة على شكل دكاكين الحرف الأخرى، يفصلون اللحم ويزنونه في الموازين. ولا تُذبح البهائم في دكاكين الجزارين، بل في مجزرة بجوار النهر حيث تسلخ وتحمل إلى الدكاكين بواسطة حمالين تابعين للمجزرة. ولكن قبل أن تحمل الذبائح لا بد من عرضها على المحتسب الَّذي يأمر بفحصها ويسلم بطاقة مكتوباً عليها السعر الَّذي يجب أن يُباع به اللحم. ويلزم الجزار أن يلصق هذه البطاقة على اللحم بحيث يتمكن الجميع من رؤيتها وقراءتها. ونجد بعد الجزارين سوق الأقمشة الغليظة البلدية محتوياً على نحو مائة دكان. وإذا أتى أحدهم بقطعة قماش ليبيعها، فعليه أن يُسلمها لدلال يضعها على كتفه ويذهب من دكان إلى آخر منادياً على الثمن. وعدد هؤلاء الدلالين ستون... ويحقق هؤلاء أرباحاً طيبة. ويأتي بعد ذلك صقالو الأسلحة من سيوف وخناجر ورماح... ويقوم بعضهم بصقلها وبيعها، ثم الصيادون يصطادون السمك... ويوجد بعيداً من هناك بائعو الصابون السائل. ولا يصنع هذا الصابون في المدينة، بل في الجبال المجاورة... وعلى مسافة أبعد نجد باعة الدقيق... ثم جماعة بذور الحبوب والخضر... وبعدهم باعة التبن... ثم سوق خيط الكتان. فإذا سرت من سوق الدخان على خط مستقيم وجدت صانعي الدلاء الجلدية الَّتي تستعمل في المنازل الَّتي بها آبار، ويشغلون نحو أربعة عشر دكاناً. ثم صانعي الظروف الَّتي يُخزن فيها الدقيق والقمح، ولهم نحو ثلاثين دكاناً، ثم

الإسكافيين وبعض الخرازين الّذين يصنعون نعالاً خشنة للفلاحين وعامة الشعب، ويشغلون نحو مائة وخمسين دكاناً. وبعدهم صنّاع التروس... ثم الّذين يغسلون الثياب، وهم من فقراء القوم، لهم معامل ثُبّتت فيها أوان كالأحواض في الكبر...".[٣٨]

ويمكننا أن نستخلص من حَكي الوزان: أننا أمام مجتمع تجاوز منذ عهود بعيدة جداً اقتصاد المنزل. وأصبح الإنتاج، كقاعدة عامة، من أجل السوق وليس من أجل الاشباع المباشر. كما أن الرأسمال يؤدي الدور الحاسم في تبادل السلع في السوق. والمهم أن عالمنا المعاصر لا ينفرد بالتخصص وتقسيم العمل، أو ظاهرة بيع قوة العمل[٣٩]، إنما نفس الظواهر نجدها بوضوح في السوق الفاسي. وبصفة خاصة انفصال الريف عن المدينة، والبادية عن الحضر. كما نفهم أيضاً أن الدولة مارست رقابة

(٣٨) الحسن بن محمد الوزان، **وصف أفريقيا**، المصدر نفسه، ج١،ص٢٣١-٢٤٥. ونجد أيضاً عند المقريزي وصفاً موسعاً ودقيقاً لأسواق مصر وحال تجاراتها في القرن الرابع عشر. انظر: المقريزي، **الخطط**، المصدر نفسه، ج٢، ص٥٨٠-٦١٢.

(٣٩) "... وكان أرباب العمل هم المسؤولون عن المؤسسة... يؤدون أجور المستخدمين... وكان العمال مستأجرين يتقاضون أجرة يومية ثابتة... وكان المساعدون شباناً أو حتى صبياناً يتعلمون الحرفة، يكتفون في البداية بمشاهدة المعلم والعمال يشتغلون... وبعد مدة متغيرة جداً حسب الحرف واستعدادتهم الشخصية، كانوا يصبحون عمالاً، أي يتقاضون أجرة يومية". انظر: روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢)، ج١، ص٤٣٤."كان العامل لدى رب الحرفة يتلقى منه أجراً معيناً لمدة زمنية محددة عادة ما كانت تصل أسبوعاً يتلقى في نهايته أجراً، وقد تكون الأجرة المدفوعة للحرفي مقابل عمل يوم واحد إذا كان مياوماً أو يعمل بصفة مؤقتة، وقد اعتمد أرباب الحرف في تحديد الأجور على مدى اكتساب هؤلاء للخبرات والتقنيات، حيث يرتفع الأجر كلما أتقنوا حرفتهم، لذلك كان الأجر رمزياً عند المبتدئين، ومرتفعاً عند الصناع ثم المعلمين. كما أن الأجور تباينت في حجمها بين الحرف حسب طبيعة التقنيات والمهارات المعتمدة فيها، وحسب تكاليف تصنيعها، إذ ارتفعت أجور العاملين في الحرف المركبة والمرتفعة التكاليف، في حين انخفضت في الّتي ميزتها التقنيات البسيطة والتكاليف الإنتاجية المنخفضة". انظر، للمزيد من التفصيل: عبد اللطيف الخلابي، **الحرف والصنائع وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والوطاسي"٦٦٩-٩٦٠هـ/١٢٧٠-١٥٥٠م"** (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية،٢٠١١)، ص٤١٠.

الجودة، وبسطت سلطانها على الأسواق وأحكمت رقابتها بصفة خاصة على الأسعار والحيلولة دون انفلاتها من جهة، ومنع الاحتكار من جهة أخرى.

ولقد لخص ابن الحاج (١٢٥٠- ١٣٣٥) تصنيف صنّاع النسيج من جهة الاستقلال والتبعية، فكتب: "إما أن يكون صانعاً يعمل بالأجرة عند غيره، وإما أن يكون يعمل لنفسه وهو أيضاً على قسمين أحدهما أن يكون الناس يأتونه بالغزل ينسجه لهم والقسم الثاني أن يشتري الغزل وينسجه لنفسه ويبيعه".(٤٠)

(١٢)

في العصر الوسيط إذاً، كما في العصر القديم، عرف العالم بيع قوة العمل، والإنتاج من أجل السوق، وتداول الثروة العقارية، كما عرف التبادل النقدى المعمم، ولم يكن، وفقاً لمحور ماركس-روزا- هيلبرونر، مجرد مجموعة قرى أو ضياع أو إقطاعات مكتفية ذاتياً تجهل النقود والتبادل، ويحكمها سيد قاس غارق في الملذات، جُل همه امتلاء مخازنه بالحنطة! إنما كان عالماً يعرف، كما ذكرنا، الصيغ الثلاث الّتي تتخذها حركة الرأسمال على الصعيد الاجتماعي. ومن ثم كان يعرف بيع قوة العمل، كما عرف الإنتاج من أجل السوق، **قد يتغير الشكل. شكل العامل. شكل العمل. شكل الآلة. شكل السلعة. شكل السوق. ولكن الصيغ واحدة. وحينما تمكنت أحد هذه الصيغ من اخضاع باقي الصيغ لهيمنتها كان من الحتمي ظهور العِلم الّذى يشرح هذه الهيمنة ويكشف عن القوانين الموضوعية**

(٤٠) ابن الحاج، **المدخل** (القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩)، ج٤، ص١٥.

الَّتي تحكم هذا الاخضاع لقانون حركة واحد؛ فحينما تمكنت الصيغة العامة لحركة الرأسمال (ن — و أ + ق ع – س — Δ ن) من فرض هيمنتها على باقي الصيغ (ن — س — Δ ن)، (ن — س — Δ ن) تبلور نظام إنتاجي، لا يعتمد على العبد، أو الأرض، إنما على الرأسمال، لكن كظاهرة تمكنت من فرض هيمنتها، عبر صراع جدلي تاريخي طويل مع باقي الظواهر الأخرى، وليس كظاهرة غير مسبوقة، كما تقول كراسات التعميم أوروبية الصنع، والموجزات الأولية سوفيتية المنشأ! حقاً من المأساة مناهضة نظام دون معرفة مما يتركب هذا النظام، والانسياق وراء تاريخه المصطنع، ومن البَله حقاً النِضال من أجل اسقاط نظام بدون وَعيْ بماهيته. وحقيقته. وقانون حركته. إن الأزمة ليست في الرأسمال. إنما في النظام الاجتماعي المبني على الرأسمال. الإشكالية الرئيسية ليست في الإنتاج، إنما في توزيع هذا الإنتاج. المشكلة ليست في التاريخ، إنما في كتابة تاريخ الأجزاء المتخلفة، ونحن منها، ابتداءً من تاريخ أوروبا الاستعمارية. فلا شك في أن نهضتنا، كأجزاء متخلفة من النظام الرأسمالي، إنما تعتمد على اعادة النظر في تاريخ الرأسمال، كظاهرة، وتاريخنا نفسه. فلنقرأ تاريخ الظاهرة، أيْ ظاهرة، ابتداءً من تاريخنا العظيم الضائع، وليس ابتداءً من تاريخ أجزاء أخرى فرضت هيمنتها الاستعمارية العسكرية والثقافية... فلنستلهم من تراثنا الثري كيفية تجاوز الرأسمال نحو غد لديه مشروع حضاري لمستقبل آمن... رحيم. حقاً ندهش لذلك البله الفكري؛ تلقينا من مفكري أوروبا فهم الظاهرة. ظاهرة الرأسمالية. واتبعناهم في صمت مريب! ثم تلقينا منهم نظريات ورؤى الخروج من هذه الظاهرة وتبعناهم أيضاً، إنما في خَرس كئيب. هل صرنا إلى هذا الحد من الفاقة المعرفية؟

الفصل الرابع عشر
العالم الحديث (الرأسمالي)

(١)

ونعني بالعالم الحديث، المجتمعات الَّتي تكونت في رحم العالم الوسيط، وهي المجتمعات الَّتي تميزت بهيمنة قانون حركة الرأسمال واخضاعه مجمل النشاط الاقتصادي لقانون حركة واحد **(ن – و أ + ق ع – س – Δن)** ويمكننا أن نُحدد العالم المعاصر/الحديث زمنياً بالفترة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى الآن. وتاريخ أوروبا الحديث المتزامن مع هيمنة الصيغة العامة/ قانون حركة الرأسمال، هو تاريخ دموي حافل بحروب المجازر وحملات الإبادة؛ فهو تاريخ استعماري نهبوي أصيل. وسوف نتخذ من أمريكا اللاتينية حقلاً للتحليل؛ لأنها تمثل حقيقة النموذج الأمثل لأعمال السلب والنهب والإبادة الَّتي قامت بها أوروبا الاستعمارية في فجر تاريخها الحديث.

(٢)

عادةً ما يجري تقسيم تاريخ أمريكا اللاتينية إلى أربع مراحل: المرحلة الأولى (١٤٩٢– ١٥٤٢) وهي مرحلة الغزو والاستعمار. المرحلة الثانية (١٥٤٢–١٨١٠) وهي مرحلة المستعمرات. المرحلة الثالثة (١٨١٠–١٨٢٤) وهي مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال السياسي. المرحلة الرابعة (١٨٢٤وحتّى الآن) وهي مرحلة الحياة السياسية المستقلة[١]. ومن

---

(١) أوخينيو تشانج رودريجث، **ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية**، ترجمة عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ١٩٩٨)، ص٣٨.

الواضح أن التقسيم على هذا النحو هو تقسيم سياسي بالدرجة الأولى؛ ولأن ما ننشغل به هو الاقتصاد السياسي للرأسمالية؛ فسوف نعتنق تقسيماً مختلفاً نسبياً، إذ سنقسم، ضمناً، تاريخ أمريكا اللاتينية إلى مرحلتين: الأولى: مرحلة ما قبل هيمنة الرأسمال. والثانية: مرحلة هيمنة الرأسمال. ولتكوين الوَعي بملامح المرحلة التاريخية الَّتي شهدت مولد التاريخ الأوروبي الحديث، على جماجم ملايين البشر، وتبلور عصر النهضة، بإبادة قارة واستعباد الأخرى؛ فيتعين أن نتزود منهجياً بالأتي(٢):

١- الوَعيْ بالعدوانية المباشرة للرأسمال الأوروبي الاستعماري (الإسباني والبرتغالي في مرحلة أولى) على مجتمعات الاقتصاد المعاشي (بكُل خصوصيته، وحضارته المدهشة: الإنكا، والأزتك) في أمريكا اللاتينية. فحينما وصل الغزاة لم يكن السكان الأصليون، ومنذ آلاف السنين،

---

(٢) مع ملاحظة أن نفس الخطوات المنهجية نفترض إمكانية اتباعها حين البحث في تاريخ القهر المصاحب لتاريخ هيمنة الرأسمال في أفريقيا. على أساس من أن القارتين تمثلان التاريخ الأصيل للقهر الاستعماري، والأرض الخصبة لعملية تجديد إنتاج التخلف على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي. وبالمناسبة، فقد ذهب رأى، يقع في حقل النقد، إلى القول بأن حركة الكشوفات الإستعمارية هي بمثابة إمتداد للحملات الصليبية، إذ كتب د. فاروق أباظة :"إن خطة الغرب الأوروبي في مطلع العصور الحديثة في فرض حصار اقتصادي على العالم العربي والإسلامي هي من إفرازات الحركة الصليبية في العصور الوسطى، باعتباره عاملاً مؤثراً في طاقته الحربية، سواء بالبحث عن طريق غير طريق مصر للحصول على تجارة الشرق أو البحث عن حليف جديد يساعد في إحكام الحصار الاقتصادي عن طريق إغلاق البحر الأحمر من ناحية الجنوب، وحرمان مصر من مياه نيلها، وهي الأهداف الَّتي سعى البرتغاليون إلى تحقيقها في مطلع العصور الحديثة. غير أن رد الفعل الصليبي لم يصل إلى هذا الحد فقط، بل تطلع البرتغاليون إلى غزو الجزيرة العربية، مركز العقيدة الإسلامية، والعدوان على مقدساتها، وبلغ ذلك حد إعلان رغبتهم في نبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة. كذلك استهدفوا إدخال الحبشة في حظيرة الكاثوليكية وتحويلها عن كنيسة مصر ليستمر ولاءها لهم. ومعنى ذلك أنهم أرادوا اقتلاع كُل تراث المنطقة من جذوره إسلامياً كان أو قبطياً. وظل هدفهم هذا قائماً حتى بعد وصولهم إلى الهند والشرق الأقصى وسيطرتهم على منابع التجارة الشرقية في المحيط الهندي". انظر: فاروق عثمان أباظة، **صدى الحروب الصليبية في حركة الكشوف الجغرافية في مطلع العصور الحديثة**، في: **الاطار التاريخي للحركة الصليبية** (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٩٦)، ص٤٤١.

يعرفون لا الملكية الفردية للأرض ولا ملكية العقارات بوجه عام، إلا ان لديهم مفهوماً واضحاً للملكية الجماعية للأراضي. فقرار الإنتاج يُتخذ بشكل جماعي، وتوزيع المنتَج، حتّى ما كان نتيجة القنص والصيد، يتم بشكل جماعي. والنقود، والأرباح، والرأسمال، هي من قبيل الأمور غير المفهومة على الإطلاق! فالتبادل، مع ندرته، كان يتم عن طريق المقايضة. والذهب، إله الأوروبي الغربي، لم يكن يستخدم سوى في بعض الحُلي وبعض الأدوات والمصنوعات البسيطة. ولم يرق هذا المعدن حتّى إلى منزلة وسيط التبادل لدى المايا أو الإنكا أو الأزتك أو غيرهم في أرجاء امريكا اللاتينية قبل مجيء المستعمر الَّذي يَعبد هذا المعدن. أما هؤلاء الغزاة، عبدة الذهب، فهم قادمون من مجتمع التجارة والأرباح والمضاربة والتبادل النقدي المعمم، ولكنهم، مع الغزو، لم ينقلوا التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الآخذ في التشكل في بلادهم الأوروبية وباقي أرجاء العالم الحديث، أَيْ لم ينقلوا نمط الإنتاج الرأسمالي الناشيء؛ إنما نقلوا جميع نظم الاستغلال الهمجية البالية[٣]، إذ نشأ الإقطاع بكُل قسوة العبودية في المستعمرات، في نفس الوقت الَّذي تَحلل فيه الإقطاع في العالم الوسيط، وانزوت فيه العبودية في الأعمال المنزلية، وبعض الأجزاء اليسيرة المتفرقة من العالم المعاصر!

(٣) تعد أطروحة د. كمال مظهر مركزية في سبيل تحليل طبيعة نمط الإنتاج الَّذي تم اعتماده في المستعمرات من قبل الغزاة، كتب د. مظهر:"... كان من الطبيعي ان تتأثر أسس الرق بظهور الرأسمالية تأثراً نوعياً، ذلك لأن الرأسمالية بطبيعتها كان من شأنها، منذ ظهورها، ولا سيما بعد تطورها، أن تجر وراءها حتّى أكثر الشعوب بربرية. وعلى الرغم من أن أسلوب الإنتاج الحديث يعتمد على استغلال العمل الأجير الحر، إلا أن الرأسمالية لم تتردد في اللجوء إلى استخدام أساليب ما قبل عصرها، بما فيها عمل الرقيق، حيثما وجدت ذلك ممكناً ومربحاً، ولكن في اطار التحديث حسب متطلبات المرحلة طبعاً. فقد فرض الإسبان والبرتغاليون، ومن بعدهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز، أعمال السخرة على السكان المحليين أينما حلوا خارج بلدانهم". كمال مظهر أحمد، **الرأسمالية وتجارة الرق**، في: **مسألة الرق في أفريقيا** (تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،١٩٨٩)، ص١٢٨.

ويجب أن يكون واضحاً أنه من المؤكد تاريخياً أن أوروبا لم تكن أكثر تطوراً أو تقدماً من الحضارات الأخرى في عام ١٥٠٠، بل كانت أوروبا الأشد تخلفاً والأكثر بلادة. إن الاستعمار النهبوي هو الوحيد القادر على تفسير نهضة أوروبا. وبفضل الموقع الجغرافي الَّذي احتلته القارة الأوروبية، تمكنت سفن الغزاة، عبدة الذهب، من بلوغ العالم الجديد. ولكن، كَيْ تفرغ شَحنات البارود في قلوب السكان الآمنين، وتملأ بدلاً منه الذهب! وفي المستعمرة؛ فبحصول الصراع الجدلي بين رغبة الغزاة المحمومة في الأرض الشاسعة، والذهب، ومجابهة السكان الأصليين(٤)، الَّذين كانوا في الأصل مالكين لشروط تجديد إنتاجهم، تبدأ العملية التاريخية (الدامجة) للأجزاء المستعمرة في الكُل الرأسمالي الناشيء. تزامنت هذه العملية مع

(٤) فلقد"اغتنت أوروبا سريعاً". جي. إم. بلاوت، **ثمانية من مؤرخي المركزية الأوروبية،٢ج**. ترجمة هبة الشايب(القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠)، ج١، ص٤٩. ولقد كتب المرسَل الإيطالي أنطونيو ريباريو، عن السكان الأصليين، في كتاب بعث به إلى ميلانو سنة ١٦٣٧:" لا بد من توفير الطعام لكل واحد منهم، وتوزيع الأراضي لبذر الحَب فيها، والتردد عليهم للتثبت من أنهم بذروا ما فيه الكفاية واعتنوا بالزرع وقطفوا الثمار في حينها". وبعد نحو قرن من ذلك التاريخ، روى كاهن حاضرة بابيو، الأب خوسيه كرديل، ما لا يَختلف في جوهره عن الخبر نفسه. حيث كتب:"قد تكفي، لزراعة هذه الحقول، أربع أسابيع، كما اثبته أنشطهم في العمل، ولأن الأرض في غاية الخصب؛ إلا أنه لا بد من ستة أشهر أو أكثر بسبب خمول الهنود. وينبغي على المرسل أن يسعى بكُل قواه وبمزيد العناية ليؤمن القوت لسائر العائلات.كما أنه من الضروري، لحمل الكثيرين على العمل، أن يضربوا بالعصا...". انظر: ألبرتو أرماني، **جمهورية اشتراكية مسيحية: اليسوعيون وهنود البركواي**، ترجمة كميل إسكندر حشيمة (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٠)، ص١١٩. والواقع أن الموضوع ليس له علاقة بخمول المواطنين الأصليين، إنما هو بالأساس في مجمله رفض وجودي للمستعمر الذي جاء إلى بلادهم محملاً بآلات القتل، والجشع، والأمراض. انظر:

Friedrich Katz, **The Ancient American Civilizations** (London: Phoenix Press, 1969)

وقد أصدرت"إيزابيلا"مرسوماً ملكياً عام ١٥٠٣يلخص تاريخ القارة:"أما وقد بلغنا أنه نظراً للحرية المفرطة التي يتمتع بها الهنود، فهم يتجنبون الاحتكاك أو الاختلاط بالإسبان، لدرجة أنهم يأبون العمل لديهم لقاء أجر، ويفضلون أن يهيموا بلا شاغل، وأن المسيحيين يعجزون على تحويلهم إلى العقيدة الكاثوليكية... إنني آمرك يا أيها الحاكم أن تُجبر الهنود وترغمهم على الإختلاط بالمسيحيين، وعلى العمل في بناياتهم، وعلى جمع الذهب والمعادن الأخرى وتعدينها، وفلاحة الأراضي، وإنتاج الغذاء للسكان المسيحيين". ب. هاريسون، **في قلب العالم الثالث**، ترجمة إلهام عثمان (نيقوسيا: ميد تو للتنمية والرعاية،١٩٩٠)، ج٢، ص٧٣.

ضخ المزيد من قوة العمل (المستورَدة، المقتَنَصة) من خلال تجارة سَيطر عليها آنذاك التاج الإسباني والتاج البرتغالي، وتبعهما في ذلك في ما بعد باقي القوى الاستعمارية الأوروبية. بصفة خاصة فرنسا وإنجلترا وهولندا. يتعين هنا الوعي بمجموعة من الأحداث الجوهرية، ففي الفترة ١٦٨٨-١٨١٥ اشتبكت فرنسا وإنجلترا في سبع حروب، كان من أهم أسبابها على الإطلاق، التنافس في المستعمرات، وفرض السيادة والهيمنة على البحار، وكانت كلما نشبت حرب بين دولتين في أوروبا، امتد لهيبها إلى ما وراء البحار، واشتعلت نيران الحرب كذلك في المستعمرات. ومن جهة أخرى، عندما ورث الإمبراطور شارل الخامس، عرش الإمبراطورية الهولندية في أوائل القرن السادس عشر، نُظمت الإدارة وتحسنت الأحوال الداخلية، كما أن إتسعت الحركة التجارية، لكن عندما ظهرت حركة الإصلاح الديني، اعتنق كثير من سكان الشمال مذهب كالفن، فأظهر شارل قسوة بالغة في معاملتهم، وأحرق عدداً كبيراً منهم، ولما خلفه إبنه فيليب الثاني، واصل سياسة الاضطهاد بعنف، مما أدى إلى إندلاع الثورات ضد الحكم الإسباني (حتّى بلغت حدود المستعمرات). واستمر الصراع بين الفريقين طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر؛ حتّى انتهى الأمر باستقلال هولندا. وما إن استقلت هولندا، حتّى صارت من أقوى دول أوروبا في البحر، وأوسعها تجارة، ولا سيما في الشرق. وقد ساعدها في ذلك ازدياد قوتها البحرية خلال حرب الاستقلال، وسطوها على السفن الإسبانية، وكذلك الاستيلاء على بعض المستعمرات الإسبانية الّتي آلت لها من البرتغال بعد إخضاعها وضمها إليها. هذا إلى جانب ضعف قوة البرتغال بعد فقدانها لاستقلالها، وكذلك اضمحلال قوة إسبانيا البحرية، بعد انهزام أسطولها

العظيم المعروف بـ"الآرمادا" الَّذي لا يُقهر، أمام الأسطول الإنجليزي في عام ١٥٨٨، مما شجع السفن الهولندية على معارضة تجارة إسبانيا في البحار، بل وإنتصار أسطولها على الأسطول الإسباني في عام ١٦٠٧ عند مضيق جبل طارق.(٥)

٢- الوَعيْ بالهمجية والقسوة والبشاعة الَّتي اقترنت بالحقبة الإستعمارية وفجر الرأسمالية المشرق! فعلى سبيل المثال كان عدد سكان المكسيك في عام ١٥١٩ نحو ٢٥ مليون نسمة، انخفض هذا العدد إلى مليون وتسعمائة ألف مع حلول عام ١٥٧٩! وكَي يبلغ ذروة انخفاضه مع عام ١٦٢٩ حين يبلغ مجموع سكان المكسيك نحو مليون نسمة! أيْ أن عملية الإبادة الَّتي تمت في مئة وعشرة سنة قضت على ٢٤ مليون مكسيكي تقريباً! وفي منطقة الكَاريبي، على سبيل المثال أيضاً، انخفض عدد السكان من ٥,٨٥٠ مليون نسمة في عام ١٤٩٢ إلى نحو ١,٩٦٠ مليون نسمة في عام ١٨٢٥(٦). كتب ماركس:"ان اكتشاف مناجم الذهب والفضة في أمريكا، واقتلاع سكانها الأصليين من مواطنهم واستعبادهم ودفنهم أحياء في المناجم، وبدايات غزو ونهب الهند الشرقية، وتحويل أفريقيا إلى ساحة محمية لصيد ذوي البشرة السوداء، إن ذلك كله يميز فجر عهد الإنتاج الرأسمالي، وإن هذه العمليات الرغيدة هيَ العناصر الرئيسية للتراكم الأولي".(٧)

---

(٥) ك. د. بوكسر، **إمبراطورية هولندا البحرية (١٦٠٠- ١٨٠٠)**، ترجمة شوقي جلال (أبوظبي: منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٤)، بصفة خاصة: الفصل الخامس: الكسب والورع، ص١٦٩-٢٢٠.

(٦) انظر:

"Between 1520 and 1620, Mexico indigenous population fell drastically, partly due to wars and slavery, but mostly due to viruses and bacteria". **Latin American History on File**, Media Projects Inc.Victoria Chapman& Associates, p.437.

قدر الذهب المنهوب بنحو ٢٠٠ ألف طناً في الفترة ١٥٢١-١٦٦٠.

Michel Beaud, **A History of Capitalism 1500-1980**, translated by Tom Dickman and Anny Lefebvre (London: Macmillan press1988), p19.

(٧) Marx, **Capital,** p.682 .

يتعين إذاً البحث في دور الغزو الاستعماري الأوروبي (الإسباني والبرتغالي تحديداً، في مرحلة أولى) في دمج الاقتصادات المستعمَرة ذات الاكتفاء الذاتي، أيْ الإنتاج خارج فكرة التداول النقدي، في اقتصاداتها المستعمِرة كأحد الأجزاء التابعة. فلقد ظل الإسبان، عقب استقرارهم في جُزر الهند الغربية، يُرسلون البُعوث الاستعمارية لاستكشاف شواطيء أمريكا الوسطى، حينما سمعوا عن بلاد في الغرب، يكثر فيها الذهب، والفضة بكميات لا تُحصى؛ فعَهدوا إلى حملة صغيرة بقيادة كورتيز لغزو هذه البلاد، المكسيك حالياً، الَّتي كانت موطن قبائل ذات كُنوز هائلة وحضارة رائعة وديانات وفنون راقية. إنها حضارة الأزتك، الَّتي أُبِيدَت ومُسحت مِن على خريطة العالم! وحينما سمع الإسبان عن بيرو، وهيَ موطن قبائل أخرى ذات كنوز وحضارة لا تَقل فى روعتها عن الأزتك؛ إنها حضارة الإنكا؛ أعدوا حملة بقيادة بيزارو للاستيلاء عليها، وتَحكي المراجع المختلفة في هذا الشأن أن أهل تلك البلاد أهل سلام وسلم وسكينة، يَملكون مِن الذهب مالم يَخطر على بال أوروبي واحد؛ حتّى أن ملك الإنكا، أتاهوالبا، افتدى نفسه لما أُسر، كما يُروى[٨]، بملء الحجرة الَّتي كان فيها ذهباً، ولكنه لم يدع كَيْ يمضي في سلام، إنما تم تقديمه إلى المحاكمة بتهمة عبادة الأوثان وارتكاب الزنا! وأعدم في ١٥٣٣.

(٨)"أوقد الإسبان المشاعل في الساحة وربطوا أتاهوالبا إلى عمود الإعدام تحيط به حزم الحطب المعدَّة لحرق جثته. ثم ظهر القسيس الَّذي كان أول مَن ألقى عليه محاضرة حول فضائل المسيحية، وأمسك بالصليب ووضعه أمامه وحذره من اللعنة الأبدية التي ستصيبه إذا لم ينبذ دينه الوثني ويقبل دين المسيح. رفض أتاهوالبا الإذعان. وفي النهاية، وعد القسيس أتاهوالبا أنه إذا تحول إلى الدين المسيحي فإنهم سيوفرون له موتاً سريعاً بالخنق بالطوق الحديدي، بدل معاناة آلام الخازوق. إستسلم أتاهوالبا وقد هده اليأس. وتقبل المعمودية باسم جوان دي أتاهوالبا وذلك تكريماً للقديس يوحنا المعمدان، الَّذي صادف وقوع هذا الحدث الحزين في يوم عيده. ثم قام الجلاد بتنفيذ مهمته الشنيعة بينا وقف الإسبان يمتمون بصلواتهم من أجل خلاص روح ابن الشمس". بيتر ل. بيرنشتاين، **سطوة الذهب: قصة استبداده بالقلوب والعقول**، ترجمة مها حسن بحبوح (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٢)،ص٢٠٠. أما مأساة هاتوي فيرويها لاوريت سيجورنه: "فحين علم أن =

٣- الوَعي بالكيفية الَّتي تم من خلالها فرض الزراعة الأحادية على أغنى أراضي قارة أمريكا اللاتينية وأخصبها وأوفرها إنتاجاً: البرازيل، وباربادوس، وجزر سوتابنتو، وترينداد وتوباجو، وكوبا، وبورتوريكو، والدومينيكان، وهاييتي، الأمر الَّذي كوَّن، تاريخياً، بلداناً كالإكوادور على سبيل المثال، يتوقف مصير سكانها على تقلبات الأسعار العالمية للبن أو الكاكاو، أو الموز! هنا يجب الوَعيْ أيضاً بالكيفية الَّتي تمت مِن خلالها عملية تعميق هذا الشكل مِن الزراعة مِن خلال هيكلة اقتصادات بلدان القارة على نحو يَخدم، بإخلاص، اقتصادات الأجزاء الاستعمارية؛ بجعل بلدان القارة مورداً دائماً للمواد الأولية، الحال الَّذي أفضى، بعد استنزاف التربة، إلى استيراد المواد الغذائية؛ فالأرض آلت ألا تُنتِج سوى المحصول الواحد(٩)، المحصول الاستعماري: سكر، كاكاو، مطاط، بن، قطن؛ وهو

الغرباء سيغزون الجزيرة جمع أبناء قومه، وبعد تحليل للوضع، أوضح لهم أن سبب سلوك البيض هو التوقير الَّذي يكنونه لملك عظيم يعرفه جيداً. وفيما هو يقول ذلك كشف عن سلة مملوءة بالذهب: ههنا ترون سيدهم، الَّذي يخدمونه ويحبونه ويسعون إليه؛ ومن أجل هذا السيد يذيقوننا الويل؛ ومن أجله يطاردوننا؛ ومن أجله قتلوا آبائنا وإخوتنا وكُل أهلنا وجيراننا، وحرمونا من كل أملاكنا، ومن أجله يمتهنوننا؛ ولأنهم كما علمتم يريدون المجيء إلى هنا، ولا يرغبون بشيء آخر سوى البحث عن هذا السيد، وللعثور عليه واستخراجه سيعملون على مطاردتنا وإنهاكنا، مثلما فعلوا في وطننا من قبل، ولذا فلنقم حفلاً لهذا السيد ولنرقص له، فلعله يقول لهم حين يجيئون أن لا يؤذوننا أو لعله يبعث إليهم بذلك. ومع ذلك لم يهتز ذلك الإله لتوسلات هاتوي ورفاقه، فلقد جرى اغتيال جميع المقاومين وأحرق هاتوي حياً؛ فحين أعلمه أحد الأباء الفرنسيسكان، وهو مقيد إلى عمود المحرقة، بأن التعميد يتيح له كسب فردوس السماء، سأله هاتوى عن مصير المسيحيين بعد موتهم، وحين علم أن الأخيار يذهبون إلى الفردوس، رفض التعميد قائلاً إنه يفضل الجحيم على صحبة أناس بهذه الهمجية والقسوة". لاوريت سيجورنه، **أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية**، ترجمة صالح علماني (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٣)، ص١٥٢."والحق أن اليسوعيين، على الرغم من قولهم بالتزام جانب الاعتدال ومراعاة أحكام الضرورة، قد انصرفوا في أعمالهم التجارية إلى مدى بعيد ملحوظ". أرماني، **جمهورية اشتراكية مسيحية**، المصدر نفسه، ص١١٩.

(٩) وعلى سبيل المقارنة، نجد نفس الأمر حدث في أفريقيا الشرقية والوسطى:"... بعد اعادة فتح السودان مباشرة، شرعت السلطات البريطانية في زراعة القطن طويل التيلة من أجل توفير منتج للتصدير ومصدر للدخل الحكومي. وأثبتت التجربة الَّتي أجريت،... والَّتي استخدم فيها الري بالضخ، ملاءمة المحصول. ومع =

الأمر الَّذي تزامن مع نشوء المزرعة الاستعمارية (اللاتيفونديات) وتبلور الطبقات الاجتماعية المكونة تاريخياً في ركاب الرأسمال الأجنبي (الإسباني والبرتغالي والإنجليزي والفرنسي والهولندي، ثم الأمريكي كامتداد للهيمنة الإستعمارية الأوروبية) ومن هنا نشأت أرستقراطية السكر، وأوليجارشية الكاكاو، كما ظهر أثرياء الغابة (المطاط) وأباطرة البن. ولسوف تنهض هذه الطبقات، في ما بعد، بتأدية دور البطولة المطلقة من خلال الأرباح الَّتي تجنيها بفعل القانون الموضوعي للقيمة، في تدعيم بنية الخضوع والهيمنة، وتكريس عوامل التخلف التاريخي لدول القارة، فتلك الطبقات الَّتي تربّت في كنف المستعمِر وتلقت تعليماً استعمارياً راقياً[١٠] لا توجه (ولا يمكن

= استكمال العمل في سند سنار في عام ١٩٢٥، افتتح مشروع الجزيرة، القائم على زراعة القطن. وأصبح القطن على الفور هو المحصول النقدي وسلعة التصدير الأساسية في السودان...". انظر: شارل عيسوي، **التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا**،ترجمة سعد رحمي (بيروت: دار الحداثة،١٩٨٥)، ص٢٢٧-٢٢٨. وانظر أيضاً: البحث المهم: يوسف فضل، وب. أغوت، **السودان، من١٥٠٠ إلى١٨٠٠**، في: **تاريخ أفريقيا العام**: ج٧: **أفريقيا من ظل السيطرة الاستعمارية**، إشراف ب. أ . أغوث، سلسلة تاريخ أفريقيا العام (القاهرة: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،"د.ت")، ص٤٦٣-٤٦٨. وانظر أيضاً: م. كانيكي، **الاقتصاد الاستعماري: المناطق التي كانت خاضعة للنفوذ البريطاني**، في: **تاريخ أفريقيا العام**، ج٥، المصدر نفسه، ص٣٩٣.

(١٠) على سبيل المقارنة:"... بالقدر الَّذي يخصنا، نحن البريطانيين في السودان، لم نعترض على السودنة، وقمنا بدفعها للأمام بالسرعة الممكنة، وقمنا بترقية بعض السودانيين إلى وظائف أعلى...". مذكرات السير جيمس روبرتسون، **السودان من الحكم البريطاني المباشر إلى فجر الاستقلال**، ترجمة مصطفى عابدين الخانجي (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٦) ص٢٢٩. وربما يتأكد المعنى حينما نتدبر الأسباب الَّتي من أجلها تم تأسيس كُلية جوردون التذكارية Gordon Memorial College فقد تم انشاء الكلية بناءً على إقتراح من اللورد كرومر، ليس فحسب من أجل تخليد ذكرى الجنرال، وإنما من أجل نقل الثقافة الأوروبية من خلال مناهج تتفق مع مصالح بريطانيا، ومن ثم تضمن تكوين عقليات تميل إلى الثقافة الأوروبية ولا تجد غضاضة في وجود بريطانيا العظمى على أرض الوطن، وحينما أطلقت حملة التبرعات سارع الأغنياء في بريطانيا للتبرع بمبالغ وصلت ١١١ ألف جنيهاً إسترلينياً بعد أن وجدت فكرة خلق أداة لنقل المعرفة الأوروبية وتوفير فرص التعليم (الأوروبي) لأبناء السودان ترحيباً كبيراً. ومن ثم سوف تنمو البرجوازية الوطنية في ركاب الرأسمال المهيمن، ومن ثم ثقافة الرأسمال المهيمن. كتب د. سمير أمين:" الحقيقة هي أن برجوازيات العالم الثالث اختارت جميعاً الاندماج في العالم الرأسمالي وليس فك الروابط. فهي ترى في هذا الانخراط ضماناً لمصلحتها". انظر: سمير أمين، **ما بعد الرأسمالية** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨)، ص١٣٠.

على هذا النحو أن توجه) هذه الأرباح إلى الحقول الاستثمارية الوطنية، بل يُعاد ضخها في نفس العروق... إلى الخارج!

٤- الوَعيْ بدور متطلبات عملية دمج الأجزاء المستعمَرة في الاقتصادات المستعمِرة، كأحد الأجزاء التابعة، في قلب الميزان الديموجرافي في معظم أجزاء القارة[١١] وهو الأمر الَّذي معه يتعين الوَعيْ بطبيعة نمط الإنتاج الَّذي استخدمته الاقتصادات المستعمِرة في سبيل انهاك الاقتصادات المستعمَرة وتصفيتها مادياً، وسلبها لشروط تجديد إنتاجها. ونمط الإنتاج الَّذي استخدمته القوى الاستعمارية إنما يحتاج (لتمحوره حول السخرة والعبودية) إلى قوة عمل وفيرة، أكثر من وسائل الإنتاج (مواد العمل وأدوات العمل) ولذا سيكون من الضروري أن تقوم قوى الاستعمار الأوروبي بضخ نحو ٨ مليون عبداً (إنسان) أفريقي إلى مناطق البرازيل وغرب الانديز وجيانا في الفترة من ١٥٥٠ وحتّى ١٨٥٠ بعد أن قضى الاستعمار على السكان الأصليين. تركز هذا الضخ في معظم جُزر الكاريبي ومناطق زراعة القصب ومناجم الذهب ومزارع البن. الأمر الَّذي أفضى إلى تكوّن طبقة (الكريوليس) الَّتي ستنهض بدور هام في سبيل ترسيخ الهيمنة الاستعمارية حتّى بعد تولت شطر القارة الأفريقية ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر؛ فلقد كرس الاستقلال في بداية القرن التاسع عشر تحويل السلطة إلى أيدي الملاك العقاريين

---

(١١) من الدراسات القيمة في هذا الصدد، بصفة خاصة بشأن البرازيل، دراسة: ماريا فيليلا بتيت: **التحام الكثيرين في واحد: التجربة البرازيلية**. وهذه الدراسة على الرغم من استهدافها أساساً الدفاع عن الهوية البرازيلية؛ فإنها تمدنا بفكرة عامة وجدية معاً عن تركيبة "شعب البرازيل ذات الطبيعة الَّتي جعلت تزاوج الأجناس يأخذ وضع واقع حقيقي وأيضاً موهبة صادقة"، على حد ما ذكرت في دراستها. انظر أيضاً: بارتولمي بيناصر، **مناس جيريس: ذروة عالية لامتزاج الأعراق**. انظر: **ديوجين** (المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية)، العدد ١٩١(٢٠٠٢).

والبورجوازية الكمبرادورية. عقب ذلك استمر التحويل وتدعيمه على امتداد القرن إزاء تكثيف التبادلات مع المتروبول الجديد، بريطانيا العظمى.

٥- الوَعيْ بالكيفية التاريخية الَّتي بمقتضاها أمست القارة اللاتينية للأوروبيين عالماً جديداً بما تحمله الكلمة من معنى؛ إذ تبين سجلات الأشخاص المرخص لهم بالذهاب إلى الهند الغربية أسماء وحرف كثير من أصحاب الحرف والصناع المهرة، ونستطيع أن نستخلص من تحليل هذه السجلات، وما تضمنته من حرف ومهن، الأحوال المعقدة الَّتي كانت تتزايد في المجتمعات المدنية الآخذة في التطور ليس في الأجزاء المستعمرة فحسب إنما في الأجزاء المستعمرة كذلك. فمن الَّذين رُخص لهم بعبور الأطلنطي في الفترة من عام ١٥٠٩ حتّى عام ١٥١٧: مزارع، وبغّال، وتاجر، ومحترف فلاحة بساتين، وصيدلي، وأربعة من صانعي الأحذية، وصانع آلات قاطعة، ومتخصص في أعمال السباكة، وفاحص معادن، ونجار، وحلاق، وحفار، وحائك ملابس، ونقاش، وحداد، وصانع أحذية، وصانع جوارب، وصانع عربات، وصانع فضيات، وصيرفي، وصانع شموع، وصانع معدن، وخياط، وجراح خلع أسنان، وراعي غنم، وزارع فاكهة، وثمانية بنائين، وخراطين، وخزافين، وصناع صهاريج، ومطرزين، وحدادي أقفال، وخبازين، وصانعي أحذية.[١٢]

٦- من المهم أن نعلم أن الغزاة، عبدة الذهب، قد نهبوا، من بوليفيا وبيرو والمكسيك والهند الغربية والبرازيل وتشيلي، في الفترة الممتدة من ١٥٤٥

(١٢) وليم ليتل شورز، **حضارة أمريكا اللاتينية**، ترجمة محمد سيد نصر (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٠)، ص١٩٩-٢٠١.

حتّى ١٨٠٠ نحو١٥١٧٣,١مليار ماركاً من الفضة، ونحو٤٥٧٢ مليار ماركاً من الذهب. وتكمن أهمية معرفة هذه الجرائم في فهم الكيفية الَّتي تحققت من خلالها عملية هيمنة قوانين حركة الرأسمال.

فقد استقبلت أوروبا ثروات، هي بالأساس أدوات دفع، غير مسبوقة تاريخياً. الأمر الَّذي انعكس على الوظائف الَّتي تؤديها النقود في الحياة اليومية في داخل الأجزاء المستعمِرة، فقد زادت كمية النقود في نفس الوقت الَّذي نشطت فيه التجارة عبر بحار ومحيطات العالم الحديث، وتمكنت أوروبا من الوصول إلى مراكز التجارة البعيدة شرقاً وغرباً.

في الوقت نفسه، الَّذي بدأ فيه التراكم الرأسمالي، بدأت الاكتشافات المعرفية والمخترعات العلمية، وأصبحت النقود تلعب دوراً تعدى الاكتناز إلى الرأسمال. الرأسمال الَّذي يستخدم من أجل الإنتاج. وهو الأمر الَّذي تطلب البحث عن قوى الإنتاج الأخرى. فالرأسمال موجود بكثافة عالية، وأدوات العمل يجري اختراع المزيد منها وتطويرها بوتيرة متسارعة. يتبقى مواد العمل أيْ المواد الخام. حينئذ تكون المستعمرات المورد الرئيسي لهذه المواد مثل السكر والقطن والمطاط والبن والموز... إلخ. يجب إذاً الوَعيْ بطبيعة التراكم الرأسمالي على الصعيد العالمي(١٣)وحقيقة التكون التاريخي لاقتصاد المبادلة النقدية المعممة في أوروبا في القرن الخامس عشر، هذا التكون التاريخي الَّذي تم من خلال التواطؤ بين الرأسمال

---

(١٣) انظر للمزيد من التفصيل:

Rosa Luxembourg, **The Accumulation of Capital,** Translated from Germany by: A. Schwarzschild (London: Rutledge and Kegan, 1963) p.351-368.

سمير أمين، **التراكم على الصعيد العالمي**: نقد نظرية التخلف. ترجمة من الفرنسية وتحقيق حسن قبيسي (بيروت: دار ابن خلدون،١٩٨٧)، ص ٧٥-١٠٢.

التجاري (عقب تبلوره الطبقي والاجتماعي) والسلطة المعبرة عن فكرة الدولة القومية الساعية إلى تحطيم الاصطفائية الَّتي نهض عليها نمط الإنتاج الإقطاعي، والمتجهة نحو الإنسلاخ من الجسد اللاتيني[١٤] وذلك حتى آواخر القرن السابع عشر، ثم توسع الرأسمال الصناعي حتّى أوائل القرن الثامن عشر، والَّذي تزامن مع هيمنة نمط الإنتاج الرأسمالي في طريقه إلى خلق السوق العالمية وتدويل الإنتاج من خلال أنماط مختلفة للتقسيم الدولي للعمل والتغلغل في هياكل المجتمعات المتخلفة؛ مشكلاً بذلك أجزاء للاقتصاد الدولي بمستويات مختلفة من التطور. فأضحت أجزاء متقدمة، وأمست أجزاء متخلفة، بالمعنى العِلمي لا الأخلاقي للتخلف.

٧- الكيفية التاريخية الَّتي تبلور من خلالها التاريخ النقدي "للهيمنة" الأمريكية في القرن التاسع عشر، بعد سلسلة متصلة من العلاقات الجدلية بين القوى الأوربية[١٥] المتصارعة (هولندا، إنجلترا، فرنسا، روسيا، النمسا، المانيا، إيطاليا، بروسيا، الدولة العثمانية) وانتهاءً بالحرب العالمية الأولى الَّتي خرج منها الاقتصاد الأوروبي حطاماً، بينما خرجت الولايات المتحدة الأمريكية كأغنى وأقوى دولة رأسمالية في العالم، يزيد مجموع أرصدتها الذهبية عن مجموع الأرصدة الذهبية الَّتي تملكها روسيا وفرنسا والمانيا وبريطانيا، وكأن الحرب لم تفعل شيئاً سوى تحريك التراكم، أيْ نقل ثروات أمريكا اللاتينية من أوروبا إلى الولايات المتحدة. هنا

(١٤) في تفصيل ذلك، انظر: بول هازار، **أزمة الضمير الأوروبي**، المصدر نفسه، ص٢٣٦. انظر أيضاً: كرين برنتن، **أفكار ورجال: قصة الفكر الغربي**، ترجمة: محمود محمود (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٥) الفصل العاشر.

(١٥) للمزيد من التفصيل:
Vincent Renouf, **Outlines of General History** (London: Macmillan, 1910)

ينبغي أن نعي الظروف التاريخية الَّتي سادت في القرن التاسع عشر، والَّتي تمكن الذهب من خلالها من إرساء الأثمان المعبر عنها بعملات وطنية مختلفة نظير سلع تم إنتاجها في أماكن متفرقة من العالم وفي ظل ظروف إنتاجية مختلفة.

ولم يكن من الممكن للذهب أن يؤدي هذه الوظيفة إلا ابتداءً من تداوله كنقود في داخل الاقتصاد الرأسمالي القومي الأكثر تطوراً والَّذي كان في سبيله للسيطرة على الجزء الأكبر من المعاملات الدولية: الاقتصاد البريطاني. وتمكن قاعدة الذهب الدولية بدورها الرأسمال البريطاني من تأكيد هيمنته داخل الاقتصاد العالمي، وهي هيمنة استمدها من تفوق الإنتاجية النسبية للعمل عمقاً ومدى، وبفضل هذه الهيمنة يصبح الاسترليني، العملة الوطنية البريطانية، سيد العملات دولياً، ويمكن أن يحل محل الذهب لعملات بلدان أخرى تخضع لهيمنة الرأسمال البريطاني.

وهكذا تحل هيمنة رأسمال أحد البلدان على الصعيد الدولي محل سلطة الدولة على الصعيد القومي، وتمكن هذه الهيمنة عملة الرأسمال المهيمن من القيام في المعاملات الدولية بدور النقود الدولية، سواء كانت هذه العملة تستند إلى الذهب أو لا تستند، وإن يكن من الضروري أن تبدأ فترة سيطرتها التاريخية، بحكم تاريخية النقود، بالاستناد إلى الذهب.

ويكون من الطبيعي، كما كتب د. دويدار، عند إنتقال الهيمنة من رأسمال قومي إلى رأسمال قومي آخر أن ترث عملة المهيمن الجديد وظيفة النقود الدولية حالة بذلك محل عملة الرأسمال الَّذي فقد هيمنته على الاقتصاد الرأسمالي الدولي. وذلك هو ما حدث في فترة الحربين العالميتين

عندما فقد الرأسمال البريطاني هيمنته على الاقتصاد الدولي (تاركاً الاقتصاد الدولي كي يُقسم عدة كتل نقدية)؛ فقد ظهر الرأسمال الأمريكي كَيْ يفرض هيمنته، ولكَيْ تأتي الحرب العالمية الثانية لتؤكد الهيمنة الجديدة الَّتي تفرض جميع تبعاتها في الفترة التالية للحرب.[١٦]

٨- كما يتعين التقدم خطوة إلى الأمام، تاريخياً، ومِن ثم منهجياً، بالبحث الواعي في دور الشركات الأجنبية العملاقة، دولية النشاط، ورساميلها القومية في تعميق التخلف والتبعية في أجزاء القارة المختلفة كمورِد رئيسى للمواد الأولية، من دون أَيْ مشاركة مِن هذه الأجزاء في عملية التجارة في أي مرحلة مِن مراحلها (الإنتاج، التسويق[١٧]، التوزيع، التخزين،...)، مع الحفاظ دائماً على إثارة القلق في أسواق تلك المنتجات، حفاظاً على التحكم في أسعارها العالمية وإمكانية التلاعب بها. وتعتبر شركات النفط العالمية الكُبرى من أقدم الشركات دولية النشاط في هذا الشأن.

٩- وإذ ما اتخذنا من النفط أداة فكرية تنقلنا نوعياً من التحليل المنهجي لتخلف القارة اللاتينية إلى محاولة تكوين الوَعيْ بطبيعة العلاقات الاقتصادية الراهنة على الصعيد العالمي، من خلال فهم الدور الَّذي يلعبه النفط على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي في عالمنا المعاصر (الرأسمالي)، فإنه يتعين الوَعيْ، إنما الناقد، بثلاث أفكار رئيسية:

- الدور التاريخي للنفط في تثوير الإنتاج الزراعي والصناعي بل والخدمي،

---

(١٦) محمد دويدار، **الاقتصاد الرأسمالي الدولي في أزمته** (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨١)، ص١٢٤.

(١٧) في امتصاص الفائض الاقتصادي من خلال النشاط التسويقي، انظر: بول باران وبول سويزي، **رأس المال الاحتكاري: بحث في النظام الاقتصادي والاجتماعي الأمريكي**، ترجمة حسين فهمي مصطفى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١)، الفصل الخامس.

على الصعيد العالمي، وبصفة خاصة في الأجزاء المتقدمة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، وما استصحب ذلك من صراع محموم على الزيت متزامن مع تطوير متسارع في الهياكل الصناعية، ومن ثم تطوير عمليات الإنتاج من أجل السوق الدولية بوجه عام، بعد تقليص الدور الَّذي كان يلعبه الفحم، ابتداءً من النصف الأول من القرن العشرين.

- الوَعيْ بطبيعة النفط، وقيمة استعماله، كسلعة محولة، ويُعد فعل التحويل هذا في ذاته شرط تحقق تلك القيمة (البنزين، المازوت، زيوت التشحيم، الكيروسين، البتروكيمياء،... إلخ). الأمر الَّذي يستلزم الوَعيْ بأدوات تحويله، ومن باب أولى يوجب الوعيْ بأدوات إنتاجه (صوراي الحفر ومواسيره، ومصاطبه"البحرية والبرية"، والروافع، والمناضد، والدورات، والكلابات، والحفارات، والمضخات، المحركات، الأنابيب، المصافي... إلخ) وإذ ما أضفنا إلى ذلك الوسائل المساعدة (النقل مثلاً) فإنه يمكن افتراض إفتقار الأجزاء المتخلفة للسيطرة على شروط تجديد إنتاج النفط.

- تلعب الشركات دولية النشاط، والرأسمال الخاص بوجه عام الدور الأكثر أهمية؛ ويتبدى مدى نشاط الشركات دولية النشاط بوضوح حينما نعلم أن مصر، على سبيل المثال، تفتقر إلى السيطرة على شروط تجديد إنتاجها من النفط، لأنها تعتمد على هذه الشركات في جُل مراحل العملية الإنتاجية ابتداءً من تقنية البحث والتنقيب والإستخراج، ومروراً بأدوات الإنتاج ومواد الإنتاج. وانتهاءً بالتسويق ووسائل النقل ومعداته. والأجزاء المتخلفة حالها حال جُل البلدان المصدرة للنفط لا تشارك، بشكل فاعل، إلا بقوة العمل، في أيْ مرحلة من مراحل إنتاجه (الكشف، التنقيب، الاستخراج، التكرير، التصنيع، النقل) فالتقنية أجنبية، والآلات أجنبية،

والمواد أجنبية، ومعدات الشحن والتفريغ أجنبية، وسفن النقل أجنبية! ولا تقدم الأجزاء المتخلفة المنتِجة للنفط (بدقة: المنتَج لها النفط) إلا قوة العمل!

١٠- ولنتقدم خطوة كَيْ نرى الصورة الأكبر أوضح: فالعلاقة بين الزيت والقوة العسكرية تعود إلى السنوات الأولى من القرن العشرين؛ حينما حولت القوتان المتحاربتان، ألمانيا وبريطانيا العظمى أسطوليهما البحريين من التسيير بالفحم إلى التسيير بالنفط. ولما كانت بريطانيا تفتقر إلى الزيت، فقد وجدت نفسها معتمدة على احتياطيات النفط في الشرق الأوسط، ولهذا أصبحت حماية هذه الاحتياطيات حاسمة مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. فظهور الدبابة والغواصة والطائرة المقاتلة الَّتي تعمل بمحرك ديزل، عمل على تعميق أهمية الزيت، وعند نهاية الحرب كان الوصول إلى النفط عاملاً رئيسياً في التخطيط الاستراتيجي للقوى المتنافسة.

واستمر الوضع على ما هو عليه بعد الحرب. وحاولت بريطانيا، الَّتي كانت حينئذ مسيطرة فعلياً على حقول الزيت في إيران، أن تمد نفوذها إلى الحقول في العراق والكويت. وكانت فرنسا أيضاً تبحث عن موطيء قدم في هذه المنطقة. وركزت اليابان على منطقة الهند الشرقي الهولندي، الَّتي كانت آنذاك منطقة منتجة للنفط. وبدأت الولايات المتحدة بحثها عن النفط على امتداد الحافة الجنوبية للخليج، وكانت هذه القوى كُلها، إضافة إلى ألمانيا والاتحاد السوفياتي، تعرف أن الوصول إلى الزيت سيكون حاسماً في الحرب القادمة، ولهذا كرس الجميع، عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، قوات أساسية للحصول عليه. ولقد قدمت اليابان نموذجاً

واضحاً للإقدام على الحرب من أجل النفط؛ فلم تكن اليابان مؤمّنة من تلك الجهة، وكان شبح فقد أو نقصه النفط دائمًا ما كان يلوح أمام أعين القادة في طوكيو، ولذلك كان القرار هو الاستيلاء على الحقول المنتجة في منطقة الهند الشرقي الهولندي، فأقدمت اليابان على ذلك العدوان على حقول النفط وهي تعلم يقيناً أن أمراً كهذا لا شك سيثير غضب الولايات المتحدة، فكان القرار الثاني هو توجيه ضربة عسكرية استباقية إلى الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر في هاواي. ومن ثم صارت الولايات المتحدة أحد الأعضاء الرئيسيين في دائرة القتال العالمي. ولم يكن التقدم، المؤقت، الَّذي أحرزه الزحف الألماني في الأراضي السوفياتية عام ١٩٤١، إلا من أجل النفط، بالسيطرة على الآبار في القوقاز.

أدركت الولايات المتحدة ما بعد الحرب أن الدور الذي يلعبه الزيت هو دور حاسم، ويتعلق بالأمن القومي، ومن هنا عملت دوماً على ترسيخ وجودها في الخليج العربي ضماناً لأنسياب النفط. ولم يقتصر هذا التواجد فقط على الخليج العربي، بل امتد إلى العديد من الأجزاء على مستوى العالم؛ وتظهر اعتبارات أمن الزيت بالنسبة للولايات المتحدة في برنامج المساعدة العسكرية لآذربيجان وكازخستان؛ فوفقاً لوزارة الخارجية الأمريكية فإن جزءاً مهماً من مبلغ الخمسين مليون دولار المخصص لآذربيجان في السنة المالية ٢٠٠٤ سينفق من أجل تعزيز "أمن الحدود البحرية" للبلد. وفي كازخستان تستخدم المساعدة الأمريكية لتجديد القاعدة الجوية القديمة من العهد السوفياتي في أتيروا على الساحل الشمالي لبحر قزوين، قرب حقل زيت تنجيز الغني بالزيت[١٨] ومن أجل الزيت

(١٨) مايكل كلير، **دم ونفط: أمريكا واستراتيجيات الطاقة: إلى أين؟**، ترجمة أحمد رمو (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١)، ص٢٨٥.

كان الزحف السوفياتي على أفغانستان وصولاً إلى المناطق الأبعد الغنية بالنفط، ومن أجل الزيت تم قذف العراق، ومن قبله أفغانستان، وإن كان السبب الأكثر أهمية، في تصوري، هو ضبط أسواق المخدرات الَّتي كادت تشهد الانفلات على صعيد الإنتاج والتوزيع العالميين. ومن المعروف مدى ارتباط بارونات المخدرات وأباطرة الدواء بتلك السوق.

ومن أجل الزيت تم قصف ليبيا، وكما سبق الذكر، فإن الأمر لا يقتصر على العدوان العسكري من أجل تثبيت الأقدام وضمان الإمداد المستمر، وإنما يصل إلى المشاركة الفعالة في الانقلابات العسكرية وتأجيج الحروب الأهلية والصراعات الإثنية خلقاً لبؤر التوتر على الصعيد العالمي، وهو الأمر الَّذي يضمن عدم تولي حكومة وطنية السلطة في بلاد الزيت!

ومن أجل الزيت، كذلك، تدور حروب مريرة في نيجيريا، البلد الرئيسي المنتِج للنفط في أفريقيا بعد أن نهب الجنرالات الثروة. ولم تكن دول حوض بحر قزوين أحسن حالاً؛ فلقد شهدت تلك المنطقة صراعاً دموياً سقط فيه عشرات الضحايا وبصفة خاصة في أوزبكستان في مارس ٢٠٠٤.

ومن أجل الزيت، أيضاً، حدثت المجازر في الشيشان، الَّتي يتم تقديم الصراع الدامي فيها عادة على أساس من كونه صداماً بين قوى معادية، إثنية ودينية، أو صراعاً على السلطة بين الحكومة المركزية في موسكو وسكان يسعون إلى الاستقلال، بيد أن ثمة بُعداً جيوبولتيكياً مهماً: فقد كانت جروزني، في ظل الحكم السوفياتى، مركزاً رئيسياً لتكرير الزيت،

كما كانت نقطة ترانزيت حرجة لأنابيب النفط الَّتي تحمل طاقة بحر قزوين إلى روسيا، وأوكرانيا، وأوروبا الشرقية.

(٣)

"في الأسواق الجديدة لم يعد نمط الإنتاج الإقطاعي، أو المشغل الحرفي في الصناعة، يسد الحاجة المتنامية، فأزاح الصناعيون المتوسطون أصحاب المشاغل الحرفية. بيد أن الأسواق كانت تتسع والطلب كان يزداد باستمرار. وظهرت الآلة فأحدثت ثورة في الإنتاج الصناعي. وحل الصناعيون أصحاب الملايين محل الصناعيين المتوسطين. والصناعة الكبيرة أوجدت السوق العالمية. والسوق العالمية أنمت التجارة والملاحة والمواصلات البرية. وبقدر ما كانت الصناعة والتجارة والملاحة والسكك الحديدية تتوسع، كانت البرجوازية تتطور، وتنمي رساميلها، وتدفع إلى الوراء جميع الطبقات الَّتي خلفتها القرون الوسطى. ومنذ أن توطدت الصناعة الكُبرى وتأسست السوق العالمية استولت البرجوازية على كل السلطة السياسية في الدولة التمثيلية المعاصرة. والبرجوازية حيث ظفرت بالسلطة دمرت كل العلاقات الإقطاعية من كل لون، الَّتي كانت تربط الإنسان بسادته الطبيعيين، ولم تُبق على أية رابطة بين الإنسان والإنسان سوى رابطة المصلحة البحتة، والإلزام القاسي بـ الدفع نقداً وأغرقت الحمية الدينية، وحماسة الفروسية، وعاطفة البرجوازية الصغيرة، في أغراضها الأنانية المجرَّدة من العاطفة، وحولت الكرامة الشخصية إلى قيمة تبادلية، وأحلّت حرية التجارة الغاشمة وحدها، محل الحريات. لقد انتزعت البرجوازية عن المهن والأعمال الَّتي كان يُنظر إليها حتى ذلك الحين بمنظار الهيبة والخشوع، كُل بهائها ورونقها وقداستها. فجعلت الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم في عداد الشغيلة الأجراء. ومزقت البرجوازية الحجاب العاطفي الَّذي كان مسدلاً على العلاقات العائلية واحالتها إلى علاقات مالية صرف. والبرجوازية لا تستطيع البقاء بدون أن تُثوِّر باستمرار أدوات الإنتاج، وبالتالي علاقات الإنتاج في المجتمع... وهذا الانقلاب المتواصل في الإنتاج، وهذا التزعزع الدائم في كُل الأوضاع المجتمعية، والقلق والتحرك الدائمان، هذا كله

يميّز عصر البرجوازية عمّا سبقه من عصور. فإن كل العلاقات الاجتماعية التقليدية الجامدة، وما يحيط بها من هالة المعتقدات والأفكار، الَّتي كانت قديماً محترمة مقدسة، تنحل وتندثر؛ أما الَّتي تحل محلها فتتشيخ ويتقادم عهدها قبل أن يصلب عودها. وكل ما كان تقليدياً ثابتاً يطير ويتبدد كالدخان، وكل ما هو مقدّس يعامل باحتقار وازدراء، ويضطر الناس في النهاية إلى النظر لظروف معيشتهم وعلاقاتهم المتبادلة، وبدافع الحاجة المستمرة إلى أسواق جديدة تنطلق البرجوازية إلى جميع أنحاء الكرة الأرضية. فينبغي لها أن تدخل وتتغلغل في كُل مكان، وتوطد دعائمها في كُل مكان، وتقيم الصلات في كُل مكان. والبرجوازية، باستثمارها السوق العالمية، طبَّعت الإنتاج والاستهلاك، في جميع البلدان، بطابع عالمي، وانتزعت من تحت أقدام الصناعة أرضيتها القومية. فالصناعات القومية الهرمة دُمّرت وتدمَّر يومياً لتحل محلها صناعات جديدة، أصبح اعتمادها مسألة حيوية بالنسبة إلى جميع الأمم المتحضرة، صناعات لم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية، بل المواد الأولية من أقصى المناطق، صناعات لا تُستهلك منتجاتها في البلد نفسه فحسب، بل أيضا في جميع أنحاء العالم. لقد اخضعت البرجوازية الريف للمدينة، فأنشأت المدن الكُبرى وزادت سكان المدن زيادة هائلة. واخضعت البلدان الهمجية ونصف الهمجية للبلدان المتمدنة، الأمم الفلاحية للأمم البرجوازية، الشرق للغرب. وتقضي البرجوازية أكثر فأكثر على تبعثر وسائل الإنتاج والملكية والسكان. فقد كدّست السكان ومركزت وسائل الإنتاج وجمعت الملكية في أيدي أفراد قلائل. وخلقت البرجوازية، منذ تسلطها الَّذي لم يكد يمضي عليه قرن واحد، قوى منتجة تفوق في عددها وعظمتها كل ما صنعته الأجيال السالفة مجتمعة".

هكذا لخص ماركس[١٩] فترة الانتقال، فماذا يمكننا قوله، بعد قرنين تقريباً من الزمان، وتغلغل الرأسمال في مسام خلايا عالمنا المعاصر؟ من أجل الإجابة يمكننا أن نسأل عالم اليوم، العالم الرأسمالي، السؤاليين التاليين: ما الحياة؟ وما الهدف منها؟

---

(١٩) كارل ماركس وفريدريك انجلز، **بيان الحزب الشيوعي** (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٢) ص٣٩-٤٤.

ربما عالم اليوم، وحده، هو القادر على الإجابة على هذين السؤالين؛ يُجيب: لا أعرف! وكيف يعرف بعد أن صار عبر خمسمائة عام من الانحطاط لا يعرف سوى الهذيان؛ بعدما أصر على الانتحار الجماعي، لقد صمت فينا صوت الحياة... وغفل بداخلنا ضمير الإنسان حتّى كاد الإنسان أن ينسى أنه إنسان؛ بعد أن فقد عبقرية مشيته المستقيمة حين ألف السجود للطغاه فزحف على بطنه من الفاقه والجوع... أو تحول إلى حشرة كافكا... إن حشرة كافكا هي التجسيد الرائع لعالم يترنح إنسانه بعد أن صارت الحياة بلا معنى وبلا هدف، وبلا مشروع حضاري لمستقبل آمن.

كيف يعرف عالمنا اليوم معنى الحياة والهدف منها! وقد مهد له دانتي حين فصل تاريخياً، وبمنطق أرسطو المقدس بين الحياة والدين، وإختزل له ديكارت الإنسان إلى آلة مفكرة؛ المشاعر... الأحاسيس... العواطف... كُلها صارت عمليات عقلية تخضع مع التطور التكنولوجي إلى القياس الدقيق على أحدث أجهزة بيل جيتس، ويمكن حسابها طبقاً لسعر الصرف العالمي.

كيف يعرف عالمنا اليوم معنى الحياة والهدف منها! وقد أعلن له نيتشه أن الناس هم الَّذين أقاموا الخير والشر فابتدعوهما وما إكتشفوهما ولا أنزلا عليهما من السماء.

ابتداءً من اللامعنى صار الإلحاد إبداعاً. والدين أسطورة. والرسل مرتزقة. حتّى الإلحاد صار مسخاً. ابتداءً من اللامعنى لعنَ فاوست كُل شيء صالح على الأرض واتبع مارجريت.

ابتداءً من اللامعنى واللاهدف أمسى الانسلاخ عن حضارة الإنسان حداثة، وهجر التراث الإنساني المشترك تجديداً، أما وحدة المعرفة الإنسانية فقد باتت عتهاً... كيف يعرف عالمنا اليوم معنى الحياة والهدف منها! وقد همس له حلاق أشبيليه:"إن للذهب قدرة على تفتيح مدارك الإنسان". كم هي عبارة مهذبة مقارنة بما صاح به كولومبس في جاميكا: "الذهب شيء مدهش. مَن يملكه يملك كُل شيء، مَن يملكه يملك كُل ما يرغب فيه، بل بالذهب يستطيع المرء أن يُدخل الأرواح إلى الجنة".[٢٠]

(٤)

ابتداءً من اللامعنى صار الهوس العقلي مرحاً في موسيقى "الهارد روك" و"الميتال" و"التكنو" و"الفانكي"، ولقد أمسى الخواء تجريباً، وتدمير المعنى واللون إنطباعية، وإهدار الشكل والأبعاد تكعيباً، والاختزال والتسطيح أسموه تجريداً. ومع اللامعنى تجرعنا مر تراث الدين الوضعي... التراث الَّذي جرد النصوص الخلاقة من قوتها المتسائلة عن معنى حياتنا والهدف منها، حتى صرنا لا نميز بين وقت الفراغ وبين الوقت الفارغ، لأن تجريد تلك النصوص من قوتها تلك إنما تم في نفس اللحظة الَّتي تحولت فيها من أيقونة إلى وثن... من نقطة بداية إلى خط نهاية العابر له مرتد!

ولنتقدم خطوة فكرية أبعد كَيْ نتعرف آنياً إلى عالمنا الحقيقي، بالتعرف إلى معالمه الرئيسية الَّتي تكشف عن إتفاق جماعي عالمي... ولكن على الإنتحار... إن هذا الكوكب بمن فيه يتجه مسرعاً صوب الأعماق، أعماق

(٢٠) مُشار إليه في: Michel Beaud, **A History of Capitalism**,p19.

الانحطاط... إنها سكرة الموت؛ موت عصر وميلاد عصر. فهل من الضروري أن نُسحق تحت عجلة حتميته؟

ومَن كان لا يروقه قولي فلينظر إلى الخواء في الفن، وإلى الإضمحلال في الأخلاق، وإلى الهمجية في الاقتصاد، وإلى القمع في السياسة، وإلى التجارة بالدين،.... فلينظر إلى التحلل في الرغبة الجماعية... وإلى النهضة في الفردية والأنانية... فلينظر إلى الأُحادية في المعرفة، وإلى الثيوقراطية في الإيمان، وإلى الهوس في الدين، وإلى الصنمية في الرآي... فلينظر إلى ادعاء امتلاك الحقيقة الاجتماعية، ورفض الآخر من باب أنه آخر، فلينظر إلى الحروب... إلى الإبادة... إلى طمس حضارات، وإزالة ثقافات من على خريطة العالم.

حقاً هذا هو العالم الَّذي أفرزه عالم الخمسمائة عام الماضية، أنه العالم، الَّذي شرع يرنم ترانيم هلاكه على مذبح الإله الأبطش: الرأسمالية، بقيادة كاهن معبدها: اقتصاد السوق، وفي هستيريا جماعية أطلق خدام المذبح (المرصع بالدولار) بخور الجنائز بعد أن تُليت عليه إصحاحات من كتاب الانحطاط في معابد "وول ستريت" وفروعها في طوكيو وبرلين وباريس.

ها هي الآلهة اليونانية العائدة في صيغة هندية، تعود من جديد. إله السوق. إله الرأسمالية. إله الإمبريالية، الثلاثة في واحد (أمين)؛ إنهم في إله واحد نهم عطِش إلى مزيد من دماء الشعوب الَّتي اختلطت بأوراق "النقد" في خزائن "صندوق"الموت الحامل لعرش أسياد العالم ومفسديه، محركي الفتن فيه وجلاديه. طليعة الانحطاط أمريكا وخدام معابدها.

(٤)

الجات... البنك الدولي... صندوق النقد، ثلاثة عناصر في مركب عضوي واحد. سام... يسري ببطء ويتغلغل بلا هوادة في كُل خلية من خلايا اقتصاد عالمنا ولا يُغادرها إلا وهي في دمائها غارقة... إنه المركَّب الَّذي يتجرعه زعافاً كُل من آمن بعقيدة الوحدانية. وحدانية السوق الكريمة! الموزعة بالعدل! واتبع الكاهن الأعظم: اقتصاد السوق الواحد الأحد!

أزمة المديونية... أزمة الطاقة... أزمة النقد، تلك هي قرابين المذبح الدولاري، وأضحية العيد الرأسمالي، المسمى بالأزمة الدورية.

البطالة... الجوع... الفقر... الكساد... الإفلاس، تلك هي آلهة الفتك العوالى الساكنة في سماء عالم دنس"اليد"؛ يد الإنسان، الَّتي بفضلها إنفصل عن مملكة الحيوان... تلك هي النتائج الحتمية لعبادة صنم التداول ليقرب إلى الأرباح زلفى، بعد الإطاحة بالنصوص المقدسة الحقيقية الَّتي جاء فيها: أن الأرباح لا تلدها عذراء؛ فهي تتكون في مجال الإنتاج بتفاعل قوة العمل مع وسائل الإنتاج، وان الثمن هو المظهر النقدي للقيمة، ولايفترض أن يكون تعبيراً صادقاً عنها، إن الأزمة في بعد كبير من أبعادها تكمن في القطيعة بين القيمة والثمن على المستوى الأول، وتتبدى في الثمن نفسه في المستوى الأول مكرر. هي إذاً النتائج الطبيعية لمسخ عِلم الاقتصاد السياسي. إنها نتائج أولية لسيادة ثقافة واحدة، وهيمنة حضارة وحيدة ليس في إمكانها سوى صناعة نَعشاً... يلفظ العالم بداخله أنفاسه الأخيرة.

التخلف... التنمية، مفردتان لا يجوز فهمهما إلا مِن خلال شروح كهنة المؤسسات الدولية للإبادة الإنسانية؛ فلقد سطر في كتاب الانحطاط أن التخلف هو أن تحيا عاصياً لرب السوق، مارقاً عن شريعته المدونة في ملاحق الجات المقدسة. التنمية هي محبته والفناء فيه... التخلف هو الفرار من الهلاك، أما أن تهرول نحوه فتلك هي التنمية... التنمية الَّتي تمتلىء أحشاؤها بالمزيد من ضحايا البطالة والجوع والفقر والمرض... حقاً، ٥٠٠ سنة من الإنحطاط قاد المخبولون فيها العميان على ظهر كوكب ينتحر!

(٥)

ولنتقدم خطوة أخرى كَيْ نقترب أكثر من رؤية عالم اليوم[٢١] وهو

---

(٢١) إعتمدت بشكل رئيسى على **تقارير البنك الدولي** (سنوات مختلفة) **وتقارير صندوق النقد الدولي** (سنوات مختلفة) **وتقارير المجلس الاقتصادي والاجتماعي** (سنوات مختلفة). وبوجه عام لا تبخل التقارير الصادرة عن المنظمات الدولية بإمدادنا بسيل من الأرقام المعبرة بوضوح شديد عن الأوضاع السائدة على الصعيد العالمي، ومن ثم يمكن الرجوع لأيّ تقرير صادر عن الأونكتاد على سبيل المثال، للتعرف إلى مجمل الوضع الاجتماعي والاقتصادي على الصعيد العالمي، وبالإضافة إلى تقارير المنظمات الدولية تلك، والَّتي لا نجد أيّ مبرر لإهدارها، على الرغم من صعوبة التوصل إلى ما تبحث عنه بالضبط تلك التقارير في بعض الأحيان! فلتكوين التصوّر العام (الناقد) عن الوضع الحالي على الصعيد العالمي، انظر: نعوم تشومسكي، **٥٠١ سنة الغزو مستمر**، ترجمة مي النبهان (دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢)؛ لوريتا نابوليوني، **الاقتصاد العالمي الخفي**، ترجمة وتحقيق لُبنى حامد عامر (بيروت: الدار العربية للعلوم- ناشرون، ١٩٩٨)؛ فرنسيس لابه وجوزيف كولنز، **١٠ خرافات عن الجوع في العالم** (نيودلهي: مركز دراسات العالم الثالث، ١٩٩٩)؛ بول كروجمان، **العودة إلى الكساد العظيم: أزمة الاقتصاد العالمي**، ترجمة هاني تابري (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١٠)؛ وهو كتاب إمبريالي من الدرجة الأولى، ولكنه يحتوي، من حيث لا يريد، على ما بدا لي، شرحاً، فاضحاً أحياناً، للإتجاه العام للرأسمالية في الوقت الراهن. جان زيجلر، **إمبراطورية العار: سادة الحرب الاقتصادية الإقطاعيون الجدد**، ترجمة هالة عيسوي (القاهرة: سطور الجديدة، ٢٠٠٧)؛ ميشيل تشوسودوفيسكي، **عولمة الفقر**، ترجمة محمد مستجير (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢)؛ باتريك آرتو وماري فيرار **الرأسمالية في طريقها لتدمير نفسها**، ترجمة سعد الطويل (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨)؛ روبرت إسحاق، **مخاطر العولمة: كيف يصبح الأثرياء أكثر ثراءً والفقراء أكثر فقراً**، ترجمة سعيد الحسينة (بيروت: الدار العربية للعلوم- ناشرون، ٢٠٠٥)؛ جيرى سيبروك، **ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل**، ترجمة فخري لبيب (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٢)؛ وإنني أعتبر كتاب بول هاريسون، **في قلب العالم الثالث**، بأجزائه =

يقف عاجزاً عن الإجابة على السؤالين الجوهريين: ما الحياة؟ ما الهدف منها؟

- تبلغ ثروة ثلاثة من أغنى أغنياء العالم ما يُعادل الناتج المحلي لأفقر ٤٨ دولة، كما أن ثروة ٢٠٠ مِن أغنى أغنياء العالم تتجاوز نسبتها دخل ٤١% من سكان العالم مُجتمعين. وتوضح الدراسات أنهم لو ساهموا بـ ١% من هذه الثروات لغطت تكلفة الدراسة الإبتدائية لكُل الأطفال في الأجزاء المتخلفة!

- يعيش نحو ٨٥% من سكان العالم في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر!

- بلغ متوسط نصيب الفرد في عام ٢٠٠٥ من إجمالي الناتج القومي في الأجزاء المتخلفة نحو ١٧٥٠ دولاراً سنوياً، على حين بلغ هذا النصيب ٣٥١٣٠ دولاراً سنوياً في الأجزاء المتقدمة!

- ١٠% من أطفال تنزانيا يموتون خلال سنتهم الأولى من الحياة، ويقترب الدخل القومي لهذه البلد من نصف ما ينفقه الأمريكيون على ورق الحائط!

- مليار شخص يعيشون على أقل من دولار واحد في اليوم، ومثلهم يعانون من سوء التغذية!

= الخمسة، من المؤلفات الّتي يمكن تصنيفها ضمن أهم ما تم إنجازه في فترة العشرين سنة الماضية، كمحاولة تحليل جدّية للواقع الاجتماعي والاقتصادي على الصعيد العالمي، انظر: بول هاريسون، **في قلب العالم الثالث**، ترجمة إلهام عثمان (نيقوسيا: ميد تو للتنمية والرعاية، ١٩٩٠)، ج١: **جذور الفقر**، وج٤: **الضائعون**.

- ٧٠ مليون طفل جنوب الصحراء في سن التعليم الأساسي خارج المدرسة، ويموت سنوياً أكثر من عشرة ملايين طفل قبل أن يكملوا عامهم الخامس!

- يعيش ٧٦% من سكان العالم في بلدان فقيرة، بينما يعيش ٨% في بلدان متوسطة الدخل، ويعيش ١٦% من سكان العالم في بلدان غنية!

- يبلغ عدد الفقراء من بين سكان العالم ما نسبته ٧٨%، بينما نسبة الطبقة الوسطى تبلغ ١١%، والطبقة الغنية ١١%!

- أكثر من مليار شخص حول العالم لا يتمكنون من الوصول إلى مصدر مياه عذبة ونظيفة، وغالبيتهم من سكان الريف!

- أفادت منظمة العمل الدولية (٢٠١١/١/١٧) أن أعداد الأشخاص العاطلين عن العمل في أنحاء العالم قد ارتفعت إلى معدلات تاريخية لتبلغ ٢١٢ مليون شخص، أو ٦,٦% من القوى العاملة، ومن المتوقع أن يتدهور الوضع في أوروبا. وفي التقرير السنوي بشأن العمالة في العالم، قدرت المنظمة أن ٣٤ مليون شخص إنضموا إلى صفوف العاطلين عن العمل عام ٢٠٠٨ و٢٠٠٩، مما دفع بأعداد العاطلين إلى أرقام غير مسبوقة! إضافة إلى فقدان ثلاثة ملايين شخص لوظائفهم في الاتحاد الأوروبي والدول المتقدمة، وقال التقرير إنه على الرغم من الحوافز العالمية الَّتي ساعدت على تجنب كارثة اقتصادية واجتماعية أكبر، إلا أن عدد الشباب العاطل عن العمل قد ارتفع لأكثر من ١٠ ملايين شخصاً خلال العامين الماضيين، كما أن ملايين النساء والرجال بلا عمل أو مساعدات

اجتماعية. وأشار التقرير إلى أن ٦٣٣ مليون عامل وأسرهم كانوا يعيشون على أقل من ١,٢٥ دولار في اليوم عام ٢٠٠٨!

- في الأجزاء المتخلفة نجد أن نسبة ٣٣,٣% ليس لديهم مياه شرب آمنة أو معقمة صالحة للشرب والاستعمال، و٢٥% يفتقرون للسكن اللائق، و٢٠% يفتقرون لأبسط الخدمات الصحية الاعتيادية، و٢٠% من الأطفال لا يصلون لأكثر من الصف الخامس الإبتدائي، و٢٠% من الطلبة يعانون من سوء ونقص التغذية!

- تمتلك الدول الصناعية ٩٧% من الامتيازات العالمية كافة، وأن الشركات دولية النشاط تملك٩٠% من امتيازات التقنية والإنتاج والتسويق، وأن أكثر من٨٠% من أرباح إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في الأجزاء المتخلفة يذهب إلى ٢٠ دولة غنية![٢٢]

- بينما يموت ٣٥ ألف طفل يومياً بسبب الجوع والمرض، ويقضي خمس سكان البلدان المتخلفة اليوم وهم يتضورون جوعاً، تقل المساعدات

---

(٢٢) "ويمكن أن نأخذ شركة (نستله) كمثال... فقد تم تأسيسها مثل جميع الشركات عبر القارية على أساس (مراكز الربح) وهي مستقلة نسبياً عن الآخريات وتستخدم مصانعها الخمسمائة وأحد عشر حول العالم نفس شهادات الصلاحية التابعة للشركة الأم أو لمؤسسة توظيف الأسهم... وتحقق نستلة أرباحاً في البرازيل، ولا يُعاد إستثمار إلا جزء يسير من هامش أرباح المصانع والشركات الخمس وعشرين المحلية المقامة في الدولة المضيفة، ويوجه جزء آخر لتمويل عملية التوسع وفتح أسواق جديدة مثل سوق غذاء الحيوانات الأليفة. أما الجزء الأكبر من الأرباح، فيُحول إلى مقر شركة نسلة الأم، ويتم هذا التحويل، الَّذي يرهق اقتصاد الدولة، عن طريق بنك البرازيل، حيث إن نستلة لا تقبل أن تحول عملة البرازيل إلى الشركة الأم بما أنها عملة ضعيفة فتقوم بتحويل أرباحها بالدولارات (أو أيْ عملة أجنبية قوية) وهكذا، يقوم البنك المركزي للبلد المضيف بتقديم مخزونه من النقد الأجنبي لكيْ يتم تحويل الأرباح والأمتيازات الأخرى مثل حوالات الحماية عبر المحيط الأطلنطي؛ وبالتالي تزيد التمويلات الأجنبية من ثقل الدين الخارجي لهذا البلد". جان زيجلر، **إمبراطورية العار، سادة الحرب الاقتصادية، الإقطاعيون الجدد**، المصدر نفسه، ص٢٣٨.

المخصصة للدول الفقيرة عن طريق منظمة الأمم المتحدة عما تنفقه تسعة من البلدان المتقدمة على غذاء القطط والكلاب!

- مليار جائع في العالم معظمهم أطفال بإفريقيا وآسيا!

- معدل المخاطر الَّذي تتعرض لها المرأة الحامل في الجنوب، يزيد ٣٠٠ مرة عنه في الشمال!

- يُسيطر ٢٠% من سكان العالم على ٨٠% من الموارد الطبيعية!

- الغالبية العظمى من وفيات الأمهات (أكثر من ٩٩%، حسب وكالات الأمم المتحدة المشتركة عام ٢٠٠٥) حدثت في الدول النامية، وحدث نصفها (٢٦٥,٠٠٠) في إفريقيا جنوب الصحراء، كما حدث ثلث آخر منها (١٨٧,٠٠٠) في جنوب آسيا، وقد شكلت هاتان المنطقتان في ما بينهما نسبة ٨٥% من وفيات العالم المتعلقة بالحمل والولادة، وشكلت الهند وحدها نحو ٢٢% من المجموع العالمي للوفيات. وطبقاً لليونيسيف كذلك فإن معدلات وفيات المواليد تصل إلى ٤٥% في غرب ووسط أفريقيا، ونحو ٤٠% جنوب الصحراء. بينما لا تتعدى هذه المعدلات نسبة ٢% في دول وسط أوروبا!

- يُسيطر ٢٠% مِن سكان العالم على ٨٣% من الثروة، و٨٢,٧% من المنتَج العالمي، و٨١,٢% من التجارة العالمية، و٩٦,٦% من القروض التجارية، و٨٠,٦% من المدخرات، و٨٠,٥% من الاستثمارات، و٩٤% من بحوث العمليات!

- طبيب لكُل ٦٤٧ فرداً في سويسرا (٨ مليون نسمة). وطبيب لكُل ٥٧٣٠٠ فرداً في بوركينافاسو (١٧ مليون نسمة)!

- في نيجيريا، وحيث يبلغ عدد السكان نحو ١٧٥ مليون نسمة، فإن ٧٠% من هؤلاء يعيش على أقل من دولار واحد في اليوم، وفي نيجيريا كذلك فإن معدلات الفقر في الريف تقدر بحوالي ٦% في عام ٢٠٠٤، وهي أعلى بمقدار مرة ونصف تقريباً من معدلها في المدينة الَّذي يبلغ ٤٣%، وعلاوة على ذلك فإن مُعدل الفقر في الإقليم الشمالي الشرقي يبلغ ٦٧%، وهو ما يُعادل تقريباً ضعفي مستوى الفقر (٣٤%) في الجنوب الشرقي باعتباره أكثر ازدهاراً!

- يموت يومياً ٥٠ ألف شخص لأسباب مرتبطة بالفقر!

- يبيت ٨٠٠ مليون إنسان جوعى بشكل يومي!

- ٨٨٠ مليون إنسان لا يتمتعون بالخدمات الصحية!

- الجوع وسوء التغذية يوديان بحياة نحو ٦ ملايين طفل سنوياً!

- يُعاني نحو ٨٥٠ مليون شخص سوء التغذية في مختلف أرجاء العالم، بمن فيهم ٨١٥ مليون في البلدان النامية و٢٨ مليون في البلدان الَّتي تمر بمرحلة انتقالية و٩ ملايين في البلدان الصناعية!

- ١٠٠ ألف طفل رضيع و٥٣٠ ألف إمرأة تلقى حتفها أثناء الحمل والولادة، و٣٠٠ مليون إصابة بمرض الملاريا الحادة وأكثر من مليون حالة وفاة بسبب الملاريا!

- عبّر بوفييه عن تطور"سوق الفن"حسب المواصفات الأمريكية بقوله: "الجهل في الرسم قد أُرسيت قواعده، وكُلَّما كان الفن جاهلاً إعتبروه رائداً ليس مهما أن تدرس أو ترسم، كل ما يهم هو أن تبحث عن أشياء جديدة، مهما كانت، حتى إن كانت لوحات من براز الإنسان، إذ أن المقياس أصبح مالياً ولم يعد جمالياً"[٢٣]. إن النظرية الاستهلاكية الأمريكية (المشبعة بقوانين السوق) دخلت عالم الفن، وحددت قواعد سوق الفن. فالمعيار الوحيد هو الغرابة، وإجتذاب المتحذلقين من المشتريين، وإدخال التبذير في سوق الفن. تماماً كما عبر أحد التجار:"يجب، وبأيْ شكل إدخال الطريقة الأمريكية: إن الأشياء عندما تتقادم تصبح متخلفة في عالم الأعمال الفنية. يجب أن نُعلم مقتني وجامعي اللوحات إلقاء اللوحة في صندوق القمامة حين تصبح قديمة، مثلها مثل السيارة أو الثلاجة، عندما تأتي لوحات أخرى جديدة لتحل محلها".[٢٤]

- وفي عام ١٩٩١ باعت صالة كريستي الشهيرة "لوحة" للرسام دي كونينج، أحد المشاهير الَّذين تم تسويقهم إعلامياً، مع فرساتشي، وكلفن كلاين، وأرماني، من أجل إفساد الذوق العالمي! بنحو مئة مليون دولاراً.

- في أثر تفكك الاتحاد السوفياتي، وإنتشار الدعارة على أوسع نطاق، تم

---

(٢٣) مشار إليه في: روجيه جارودي، **كيف صنعنا القرن العشرين**؟ المصدر نفسه، ص١٨٦.

(٢٤) جارودي، **كيف صنعنا القرن العشرين؟**، المصدر نفسه، ص١٦٩. كتب جون برجر:" لما كانت الدعاية تتمتع بنفوذ هائل فهي بالتالي ظاهرة سياسية عظيمة الأهمية، ولكن مراجعها واسعة بقدر ما عرضها محدود لأنها لا تعترف إلا بقوة الاستهلاك؛ فتخضع لها سائر ملكات البشر وحاجاتهم. إنها تراكم الأمال وتمطها وتبسطها، فتمسي وعداً مكثفاً غامضاً وسحرياً تعرضه تكراراً مع كُل عملية شراء. هكذا ينعدم أي أمل أو إنجاز أو متعة أخرى في ظل ثقافة الرأسمالية. إن الرأسمالية باقية على قيد الحياة مِن خلال إرغامها الأكثرية الشعبية الَّتي تستغلها على تعريف مصالحها في أضيق نطاق مُمكن. في السابق، كان بقاؤها على قيد الحياة مَرهون بالحرمان الشديد للاكثرية الشعبية. أما اليوم فإنه يتحقق بفرض مقياس مزور لما هو جذاب ولما ليس هو بجذاب". أنظر: جون برجر، **وجهات نظر**، ترجمة: فواز طرابلسي (دمشق: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي،١٩٩٩)

إجراء دراسة على فتيات المدارس الروسيات بعمر الخامسة عشرة، فأعربت ٧٠% منهن عن رغبتهن بأن يصبحن مومسات، في حين كن قبل ذلك بعشر سنوات يرغبن في أن يصبحن رائدات فضاء وطبيبات ومُعلمات!

- تم تقدير القيمة السنوية للدعارة على الصعيد العالمي عام ٢٠١٠ بما يُعادل ١٧٥ مليار دولار!

- تعد إسرائيل من أكبر موردي البغايا "السلافيات" على الصعيد العالمي، وبحسب تقديرات عدة مصادر، يبلغ عدد الرجال الإسرائيليين الذين يستعينون بخدماتهن المليون رجل في كُل شهر. ووفقاً لما أوردته لجنة الاستيضاح البرلمانية الإسرائيلية، فإنه يتم الإتيان بحوالي ٣,٠٠٠ إلى ٥,٠٠٠ إمرأة (من الاتحاد السوفياتى السابق) إلى إسرائيل سنوياً وبيعهن للعمل فى مجال الدعارة... وتعمل هؤلاء النسوة ٧ أيام في الأسبوع بمعدل يصل إلى ١٨ ساعة يومياً، ولا يحصلن إلا على ٢٠ شيكلاً (ما يُعادل ٤,٥ دولار) من أصل ١٢٠ شيكلاً (٢٧ دولاراً) يدفعها العميل. ويتم الاتجار بهن في مقابل أسعار تتراوح بين ٨,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ دولار للمرأة الواحدة!

- إن مَن يعلنون أنفسهم مدافعين عن"حقوق الإنسان" على الصعيد العالمي، والذين اجتمعوا لمكافحة الإرهاب، هم الذين شربوا نخب الإرهاب في كؤوس من جماجم البشر، وانتشوا حتى أطاحوا كل ما هو مقدس. هم في الحقيقة رؤساء الدول الأكثر إرهاباً في تاريخ العالم وحاضره؛ وهم أبشع المعتدين على حقوق الإنسان. وليس تاريخهم القديم وحده هو الدليل على

ذلك (إبادة الهنود، واستعباد الزنوج، وتلك خصوصية أمريكية، وشن الحروب واستعمار دول وقارات) وإنما جرائمهم تتواصل، مثل البشاعة الأمريكية فى فيتنام حين استُخدم النابلم على نطاق واسع. وليس قذف الشعب الأفغانى الأعزل البائس بالقنابل عنا ببعيد!

- هم كذلك المسئولون عن قتل ما يزيد عن ٢٥٠ ألف طفل لا تزيد أعمارهم عن خمس سنوات في المستشفيات وخارجها، بإصرارهم على فرض الحصار على العراق، والآن إشعال نار الفتنة وتركه، إن حدث، خرباً. ولن ينسى التاريخ خبراء التعذيب والإبادة فى رواندا؛ مما أسفر عن ٤٠٠ ألف قتيل. كذلك توريد السلاح للحكومات الدكتاتورية وتمويلها، لا لشيء سوى "حفظ السلام والأمن والأمان"، وهي الأهداف النبيلة التي تتحقق على رفات الشعوب... ملايين القتلى وملايين الجرحى!

- هم الَّذين ساندوا سفاح جواتيمالا(جراماجو) وطاغية كوريا الجنوبية (تشون) والعميل الزائيري (موبوتو سيسي سيكو)، وهم الذين وضعوا شامورو على سدة الرئاسة في نيكاراجوا، وأطاحوا محمد مصدق في إيران، وسوكارنو في إندونيسيا، وباريستد في هاييتى، وهم أيضاً الذين أداروا مذبحة ريوسومبول على الحدود السلفادورية- الهندوراسية. وهم ذاتهم الذين توجهوا إلى أفغانستان وأشعلوا نار الحرب كي يتمكنوا من ضبط أسواق الأفيون، والتحكّم في إنتاجه!

هذا هو عالم اليوم، وما ذكرنا لا يُمثل سوى جزءٍ يسيراً تتمكن مِن الإضافة إليه كما يحلو لك، عليك فقط أن تمسك بواحد من آلاف التقارير الصادرة، دورياً، عن المنظمات أو المؤسسات الدولية المعنية، عن

أحوال الجوع والفقر والمرض والتّنمية، وسيصيبك الاندهاش لتجاهل تلك التقارير من قبل النظرية الرسمية، ولسوف تتيقن من أن هذا العالم بحالته الراهنة ونظامه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الراهن، لا يستطيع بحال أو بآخر التقدم لإعطاء إجابة بشأن ما الحياة؟ وما الهدف منها؟ الأمر الَّذي يُحتم علينا البحث عن الخلاص من خلال مشروع حضاري لمستقبل آمن. مستقبل أكثر إنسانية. مستقبل يَطمح خلاله الإنسان إلى أكثر من وجوده. مستقبل يبدأ من نهاية الاقتصاد السياسي للرأسمالية. وبزوغ آفاق جديدة تحمل معها المشروع الحضاري لمستقبل إنساني آمن، وهو الأمر الَّذي بات مطلباً ملحاً في تلك المرحلة من عمر النظام الرأسمالي، إنها المرحلة الَّتي معها نرى السهم آخذاً في إتجاهه نحو الهبوط... نحو الانهيار، وحينما يصل السهم منتهى إنحداره لن يكون للبشرية سوى المشروع الحضاري الَّذي يرسم للبشرية مستقبلها الآمن. المشروع الَّذي يضع أسس نظام أخر بديلاً لذلك النظام الَّذي أخذ فرصته كاملة خلال خمسة قرون من الإبادة والجوع والمرض والفقر. قرون خمسة لم تسفر إلا عن تجويع ربع سكان الكوكب وإبادة الربع الآخر، وتشريد الربع الثالث! ولم يزل الجرح نازفاً ولم تزل، كما قال جاليانو، الشرايين مفتوحة!

(٦)

السؤال المهم الآن: ما هو نوع الفكر الاقتصادي الَّذي يتعين أن تتبناه المؤسسة السياسية كَيْ تخفي هذه الأرقام والوقائع المأساوية؟ هل تتبنى فكراً يكشف عن هذه الكوارث الإنسانية؟ أم فكراً يطمس معالم الانحطاط؟ لا داعي كَيْ نرهق أنفسنا في التخمين! دعونا نعاين الواقع.

واقع (الفكر!) الأكاديمي/ التعليمي، الخادم الأمين للمؤسسة السياسية! كيْ نرى كيف تم مسخ العِلم. وكيف يتم حشو دماغ الطلاب بكلام فارغ ليس له علاقة بالإنسانية. إنما هو اغراق العقول في المعادلات والدوال والرموز عديمة المعنى؛ بغية صرف الأنظار عن نظام يسوده أباطرة الذهب والدم. وتهيمن عليه ثقافة الإبادة والجشع. فلننتقل إلى أزمة فهم الأزمة. أزمة الاقتصاد السياسي.

الفصل الخامس عشر
مسخ الاقتصاد السياسي

(١)

الاقتصاد السياسي علم أوروبي النشأة، والنكهة. ظهر كَيْ يُفسر ظواهر (جديدة!) على المجتمع الأوروبي. ظواهر لم يألفها، بل لم يعرفها من قبل، أو هكذا صور المفكرون الرسميون الأمر: الآلة. السلعة. الإنتاج من أجل السوق. الهدر الاجتماعي. الرأسمال. الرأسمالي. القيمة الزائدة. المصنع. بيع قوة العمل. الأثمان. المبادلة النقدية... إلخ؛ فكان من المتعيّن ظهور العلم المفسر لهذه الظواهر والكاشف عن قوانينها الموضوعية. ولذا ظهر الاقتصاد السياسي كعلم هدفه البحث في ظواهر نمط الإنتاج الرأسمالي. وبعبارة أكثر دقة: هدفه البحث في القانون الموضوعي الَّذي يحكم عمليتي الإنتاج والتوزيع في المجتمع. هذا القانون هو قانون القيمة. وحينما يمسخ هذا القانون، أو يحرّف تخريباً أو تخريفاً، يتوقف الحديث عن الاقتصاد السياسي ويستدعى (عِلم!) الاقتصاد الَّذي يتجرعه علقماً الطلاب في المدارس والمعاهد والجامعات في العالم الرأسمالي المعاصر بوجه عام[1]، وفي عالمنا العربي بوجه خاص. ومصر بالأخص... وتكمن المأساة في استمراء الخلط بين الاقتصاد السياسي والاقتصاد، بل في الكثير من الأحيان، كما سنرى، يتم تلقين نظريات "الاقتصاد"بداخل كتاب كُتِبَ على غلافه الخارجي: مباديء/محاضرات في الاقتصاد السياسي.

---

(١) من أهم وأشهر المقررات الدراسية، على الصعيد الدولي:

Samuelson and D. Nordhaus, **Economics** (New York: McGraw-Hill Companies 2005).

Richard G. Lipsey and Paul N. Courant, **Economics** (New York: Addison-Wesley, 1999).

(٢)

خلال قرنين من الزمان(١٦٢٣-١٨٧١) تبلور الاقتصاد السياسي ونضج كعِلم اجتماعي انشغاله المركزي نمط الإنتاج الرأسمالي (ابتداءً من قانون القيمة) في **الإنتاج** عند آدم سميث، وفي **التوزيع** لدى ديفيد ريكاردو، وفي **هيكل النظام** لدى كارل ماركس. لكنه توقف عن التطور بعد صدور المجلد الثاني من كتاب **رأس المال** الَّذي أنجزه ماركس، المفكر لا الصنم، وراجعه فريدريك إنجلز عام ١٨٨٥ في هامبورج. عدا بعض الدراسات والأبحاث الجادة (إيمانويل، أمين، أوتار، براون، بتلهايم، فرانك، سنتش، على سبيل المثال بالطبع) إلا إنها لم تصل لمستوى الحديث عن استكمال عِلم لم يكتمل، ومن هنا كذلك، لا أعتبر إطلاقاً التيار الفكري الَّذي سوف يتربع على عرش الفكر الأكاديمي التابع للمؤسسة السياسية امتداداً لعِلم الاقتصاد السياسي، بل أعتبر ذلك التيار، وهو ما سنراه أدناه، ممثلاً لفن جديد يستلهم بعض الأفكار العامة جداً من عِلم الكلاسيك. أيْ على العكس تماماً لما يقولونه للطلبة الَّذين يتم إعدامهم فكرياً كُل صباح.

فكما علمنا أن ماركس تلقى عِلم الكلاسيك وحاول أن يستكمل بمقتضاه الاقتصاد السياسي، ولكنه كان أكثر قسوة، في النقد، من أسلافه الَّذين مفصلوا حول القيمة جملة من القوانين الَّتي تتيح فهم النظام وتطوره عبر الزمن. وفي الوقت الَّذي كانت فيه شوارع أوروبا تغلي بالثورات العمالية، في أواسط القرن التاسع عشر، كانت المؤسسة التعليمية الرسمية (الجامعة الأوروبية) تعد العدة للحرب الفكرية المضادة.

- ما الَّذي يريده هؤلاء الثوار من العمال في الميادين والمصانع والساحات؟
- إنهم يريدون حقهم في القيمة الَّتي أنتجوها وذهبت إلى جيوب الرأسماليين والريعيين والمرابيين.
- ومَن الَّذى قال لهم مثل هذا الكلام الخطير الَّذي سيطيح بعروش أباطرة المال؟
- مَن قال لهم ذلك هو علم الاقتصاد السياسي.
- حسناً.
- القيمة! فلنمسخ القيمة. فلنقل لهم أن القيمة تُقاس بالمنفعة. وليس بعرق العمال.
- الاقتصاد السياسي! فلنفرغه من محتواه الاجتماعي.
- فلنخرب العِلم.
- ولنجعل من الاقتصاد السياسي علماً معملياً. فلنحوله إلى رموز ومعادلات وأحجية وطلاسم.
- فلنصرف الأنظار عن المحتوى الطبقي والموضوع الثوري لهذا العلم.
- فلنجعله على أرفف التاريخ.
- ونستبدله بعلم، أو هكذا نقول للناس، آخر. يخلو من الوَعيْ بمعنى الحياة والهدف منها.
- ولنسم ذلك (علم الاقتصاد)!

وذلك هو الَّذي حدث تماماً مع تيار النيوكلاسيك، وفي المقدمة: فون ثنن (١٧٨٣-١٨٥٠)، وكورنو(١٨٠١-١٨٧٧)، وهيرمان هينريخ جوسن (١٨١٠-١٨٥٨)، وستانلي جيوفنز (١٨٣٥- ١٨٨٢)، وكارل منجر (١٨٤٠-١٩٢١)، والفريد مارشال (١٨٤٢-١٩٢٤)، وفون فايزر

(١٨٥١-١٩٢٦)، ويوجين فون بوهم بافرك (١٨٥١-١٩١٤)، ولودفيج فون ميزيس (١٨٨١-١٩٧٣)، وفريدريك هايك (١٨٨٩-١٩٩٢).

(٣)

ولأن كتابنا مخصص لعلم الاقتصاد السياسي، فسوف نكون حاسمين في عدم الخلط بين الاقتصاد السياسي الَّذي كف عن التطور، بل اختفى من الوجود الأكاديمي والحياتي اليومي، وبين (علم!) الاقتصاد كفن تجريبي مهيمن على فكر المؤسسة التعليمية وفكر المؤسسات النقدية والمالية الدولية كصندوق النقد والبنك الدولي. نقول ولأن كتابنا مخصص للاقتصاد السياسي كعلم نمط الإنتاج الرأسمالي المتمفصل حول قانون القيمة، فلن ننشغل بنقد موسع لهذا الاتجاه في أبحاثنا الراهنة[٢]، ونكتفي هنا بتأكيد اتفاقنا مع ما عبر عنه د. سمير أمين، وببراعة، في أطروحة باريس عن"التراكم على الصعيد العالمي" بشأن (العلم!/الفن) الجديد الَّذي طغى على المؤسسة التعليمية الرسمية؛ إذ رأى ان فناً "للتسيير" وليس"للاقتصاد" هو الَّذي يركن إليه منظروا الرأسمالية والإمبريالية العالمية، لكنهم يغلّفونه بغلاف العِلم إمعاناً في التدليس والتضليل. كتب

---

(٢) بالإضافة إلى الكتابات الأساسية لمفكري هذا الاتجاه، يمكن لمن أراد المزيد من التحليل، أن يرجع إلى:

Laurence S Moss, **The Economics of Ludwig von Mises: toward a Critical Reappraisal**, (Kansas City: Sheed and Ward, Inc, 1976.)

Edwin Dolan, **The Foundations of Modern Austrian Economics** (Kansas City: Sheed and Ward, Inc, 1976.)

James Buchanan, **Cost and Choice: An Inquiry in Economic Theory** (Indianapolis, IN: Liberty Fund, Inc, 1999 .)

Ludwig von Mises, **Human Action: A Treatise on Economics** (Irvington-on-Hudson, NY: The Foundation for Economic Education, 1999)

O'Driscoll Gerald, **Economics as a Coordination Problem: The Contributions of Friedrich Hayek** (Kansas City: Sheed and Ward, Inc, 1977.)

د.سمير أمين:"مات العِلم الاقتصادي الجامعي إذاً كعِلم إجتماعي ميتة العجز لصرفه النظر عن النظرية الموضوعية للقيمة. لكنه خلّف وراءه فناً في التسيير. فالملاحظة التجريبية للارتباطات القائمة بين الظاهرات تتيح صياغة جُعبة من تقنيات العمل تتفاوت في مدى فعاليتها. فبمقدار ما تكون مفاهيم العِلم الحدي، الَّتي تدعي الأزلية لنفسها، مستقاة مِن ملاحظة نمط الإنتاج الرأسمالي. بمقدار ما يكون بوسعها إتاحة المجال لصياغة فن في التسيير الاقتصادي، وهو فن لا شك في عيبه ونقصانه لأنه يقوم على الملاحظة الوضعية بلا نظرية، سواء على الصعيد الميكرو/اقتصادي فن تسيير المؤسسة أو على الصعيد الماكرو- اقتصادي فن السياسة الاقتصادية الوطنية) فالتحولات البنيوية داخل نمط الإنتاج الرأسمالي نفسه، تجعل فن التسيير هذا أمراً لازماً. طبيعة الإشكالية في هذا الفن تصعيد بعض المقادير الاقتصادية إلى حدّها الأقصى، الربح، أو الإنتاج، تحت وطأة بعض الصعوبات المعينة لا سيما صعوبات ندرة الموارد في زمن معين، وفي نظام معين (هنا نمط الإنتاج الرأسمالي، الَّذي غالباً ما يُصار إلى إهمال ذكره) تحول دون أن نرى في هذه المجموعة مِن التقنيات بديلاً للعِلم الاجتماعي: فالفن ينبثق عن عِلم، ظاهراً كان العِلم أم ضمنياً، والعِلم المضمَر هنا هو العِلم الحدي. إن أدلجة ما هو اقتصادي وحدها، وهذه هي الاقتصادوية، هي الَّتي تُتيح انشاء عِلم مِن ما لا يمكن أن يكون عِلما على الإطلاق".[٣]

(٤)

فمع الربع الأخير من القرن التاسع عشر، تبلورت أفكار المدرسة النيوكلاسيكية، والَّتي تُسوق خطأ على أساس من كونها إمتداداً لأفكار الكلاسيك، وكَيْ تقوم بتصفية العِلم، علم الاقتصاد السياسي، من محتواه الاجتماعي. بل ولا ضرر كذلك لديها من عزله عن العلوم الاجتماعية

(٣) سمير أمين، **التراكم على الصعيد العالمي**، المصدر نفسه، ص٣٤-٣٩.

الأخرى، فـ (عِلم!) الاقتصاد بالنسبة للتيار النيوكلاسيكي هو عِلم معملي، والعلاقات الاقتصادية المتمثلة في الإنتاج والتداول والتوزيع، بين أفراد المجتمع إنما هي علاقات بين الأشياء المادية، وليست اجتماعية.

وعلى ذلك، يؤسس هذا التيار الفكري، الَّذي سيكون تياراً جارفاً في المؤسسة التعليمية الرسمية، فكرة المنفعة(٤) كمركز تدور في فلكه جُل العلاقات الاقتصادية بمفهومها الَّذي لا يرى سوى علاقات بين الأشياء المادية الخاضعة للمعادلات الرياضية والدوال الخطية والرسوم البيانية.

وبتلك المثابة يكون التيار الفكري النيوكلاسيكي قد قام بتقديم موضوعاً غير مسبوق للعِلم، عِلم الاقتصاد السياسي، يعتمد على تفسير هزلي للقيمة؛ إذ المبدأ الأساسي عند النيوكلاسيك هو أن المنفعة **مقياس** القيمة، وهو المبدأ الَّذي يُناهض، كما رأينا، ما قال به الكلاسيك، وديفيد ريكاردو بوجه خاص، الَّذي اشترط المنفعة في السلعة كَيْ تكون محلاً للقيمة التبادلية. فالمنفعة، عند الكلاسيك، شرط القيمة. وليست، كما يقول النيوكلاسيك، مقياساً لها. هنا نفسية المستهلك هي نقطة البدء الَّتي على أساسها لا تتحدد قيمة السلعة فحسب، وإنما يتحدد التوزيع

---

(٤)
"PLEASURE and pain are undoubtedly the ultimate objects of the Calculus of Economics. To satisfy our wants to the utmost with the least effort—to procure the greatest amount of what is desirable at the expense of the least that is undesirable—in other words, to maximize pleasure, is the problem of Economics. But it is convenient to transfer our attention as soon as possible to the physical objects or actions which are the source to us of pleasures and pains. A very large part of the labour of any community is spent upon the production of the ordinary necessaries and conveniences of life, such as food, clothing, buildings, utensils, furniture, ornaments, etc.; and the aggregate of these things, therefore, is the immediate object of our attention".William Stanley Jevons, **The Theory of Political Economy** (London: Macmillan and Co.1888), p.217.

ذاته؛ بعد أن تم تعميم مبدأ المنفعة على عناصر الإنتاج. لاحظ: عناصر الإنتاج، وليس قوى الإنتاج. إذ تعطي كلمة "عناصر" دلالة على انفصال (الأرض) عن (قوة العمل) عن (الرأسمال) عن (التنظيم). ومن ثم انفصال (الريع) عن (الأجر) عن (الفائدة) عن (الربح) ومن ثم نفي التناقض بين قوى (عناصر) الإنتاج، وبالتبع نفي الصراع بين دخول الطبقات الاجتماعية المختلفة المشاركة، وغير المشاركة، في عملية الإنتاج الاجتماعي! وبالمناسبة؛ إن مَن يتحدثون في (الاقتصاد الإسلامي!) يتكلمون بلغة النيوكلاسيك مزخرفة ببعض الأيات والأحاديث، وفتاوى السلف الصالح!

القيمة إذاً، وفقاً للنيوكلاسيك، لم تعد سمة للأشياء، كالحجم أو الوزن. إنما يقيم الأفراد السلع المختلفة على نحو متباين باختلاف الأوقات والأماكن. فالقيمة هنا لا تكمن في ما بُذل من عرق في سبيل إنتاجها إنما هي فقط في عقول الأفراد. تكمن القيمة في عقل المشترى. ومن ثم فالشيء نفسه تتباين قيمته في نظر مختلف الأشخاص؛ فالناس، وفقاً للنيوكلاسيك، مثل المضاربين بالأسهم، فيعتقد أحدهم أن هذا هو الوقت المناسب للشراء، بينما يرى الآخر أن هذا هو الوقت المناسب للبيع.

فالقيمة إذاً صارت مسألة متعلقة بالتقدير الشخصى. صارت من قبيل الأمور الوجدانية. الخلط إذاً واضح تماماً بين قيمة الشيء ومنفعته. ربما تتباين المنفعة من شخص إلى آخر. وذلك من طبائع الأمور. ولكن القيمة لا يمكن أن تتباين إلا إذا تم تمييع مفهومها وتم خلطه بالمنفعة مسخاً لمذهب الكلاسيك. من هنا يكون القول بأن النيوكلاسيك لديهم نظرية في القيمة هو من قبيل اللغو؛ فلم يكن أبداً لهم نظرية في القيمة، إنما هي نظرية في

المنفعة. تحاول تمييع مفهوم القيمة. ولم يكن أبداً لهم نظرية فى القيمة التبادلية، إنما هي نظرية في ثمن السوق. ومن هنا نستسخف كثيراً انشغال الأساتذة. أساتذة الاقتصاد في الجامعات. بحشو دماغ الطلاب بكلام مرسل سيال عن "نظرية القيمة عند النيوكلاسيك"!

(٥)

وإذ ما أردنا الحديث في تفسير غير أيديولوجي، بالمعنى الإيجابي، للأسباب الَّتي أدت إلى ظهور هذا التيار، فيمكننا أن نبدأ تحليلنا من حيث الاهتمام المركزي للكلاسيك. الاهتمام الَّذي تحدد بإشكاليات النمو والتطور والإنتاج وتوزيع الدخل، وكان ذلك أمراً مفهوماً ومبرراً، فقد ظهرت الآلة على المسرح الاجتماعي بمنتهى الوضوح والفاعلية وجعلت من جميع العلاقات الاقتصادية بين أفراد المجتمع علاقة تبدأ وتنتهي حيث الآلة؛ الأمر الَّذي يستدعي ظهور التفسير العلمي لهذه الظواهر الَّتي أخذت في التبلور آنذاك.

أما النيوكلاسيك، فإن دائرة التبادل، وإنما إبتداءً من الاستهلاك، هي مجال الانشغال الأساسي، وفي حقل التبادل، لدى النيوكلاسيك، يظهر أشخاص هم من قبيل الرجل الاقتصادي، الرشيد الحكيم، الَّذي يسعى إلى تحقيق أقصى قدر ممكن من الإشباع لحاجاته، ولكنه حال سعيه هذا تحكمه الحاجات المادية غير المحدودة ويريد إشباعها بأشياء مادية محدودة، ومن هنا لم يجد النيوكلاسيك بدّاً من دراسة العلاقة بين الإنسان والأشياء المادية دراسة كمية تُهمل المظهر الكيفي للظواهر. إرتبط التغير الفكري الَّذي صاحب النيوكلاسيك بالتغييرات

الاقتصادية والاجتماعية الَّتي حدثت في دول غرب أوروبا على وجه التحديد، إذ مرت هذه الدول بمرحلة من الركود (أزمة الهيكل) وصار الاعتقاد بأن الاهتمام بالنمو والتطور ليس ضرورياً كما فعل الكلاسيك، إذ أن النمو، في تقدير الغالبية من مفكري النيوكلاسيك، يتم من تلقاء نفسه دون حاجة جدية لدراسته وتفسير ظواهره على الصعيد الاجتماعي. ولكن المهم هو استخلاص قواعد اقتصادية تنطبق في كل زمان ومكان، وفي كل مجتمع، وبغض النظر عن علاقات الإنتاج فى هذا المجتمع. كما ارتبط التغير الفكري الَّذي قاده هذا التيار بما لحق الواقع الاجتماعي على الصعيد الثقافي، إذ انتشر الخطاب العِلمي، والسعي من أجل فهم الكون بشكل مادي، استناداً إلى العلوم الطبيعية والرياضيات؛ استكمالاً للرغبة الجماعية في التحرر من صنمية الفكر ووثنية الرأي الَّذين فرضا الظلام على القارة بأسرها طوال قرون من الجهل والفقر والمرض والثيوقراطية وادعاء امتلاك الحقيقة، وهو الأمر الَّذي إنعكس على كتابات النيوكلاسيك، فرغبوا في الابتعاد عن لغة العلوم الاجتماعية الَّتي قد تؤدي، وسوف تؤدي، إلى التعرية الطبقية وابراز الصراع الاجتماعي بين قوى الإنتاج، واتجهوا بقوة نحو القياس الكَمي عن طريق التعبيرات الرياضية، واستعاروا أيضاً بعض الألفاظ، والأفكار، من العلوم الطبيعية، وظهروا أكثر ميلاً إلى تجريد الظواهر الاقتصادية! وقادهم ذلك إلى النظر إلى علمهم (الجديد) كعِلم منفصل عن العلوم الاجتماعية والسياسية، والسياسية بصفة خاصة، الأمر الَّذي عنى فصل عِلم الاقتصاد عن دائرة التاريخ والعلوم الاجتماعية، وصار يُنظر له على أنه عِلم طبيعي بحت يحوي نظريات ثابتة قابلة للتطبيق دائماً، حالها حال ما يتعلق بالعلم المعملي.[٥] جاءت المدرسة النيوكلاسيكية، وقد وجهت سهام النقد العنيفة

جداً لكتابات ماركس، بل ولبعض أفكار الكلاسيك نفسهم[٦]، وبصفة خاصة إلى نظرية القيمة، ولكيْ تقدم موضوعاً جديداً كما ذكرنا (لعِلم!) الاقتصاد، رغبة في نسف التحليل الطبقي الَّذي أعطاه ماركس!

(٦)

إبتداءً من النصف الثاني من خمسينات القرن الماضي، طرأت على المدرسة النيوكلاسيكية تغيّرات واضحة؛ فلقد تحول اهتمام التحليل من

---

(٥) بالإضافة إلى الاستخدام الفج والمبالغ فيه للرياضيات ولغة الرموز والأرقام والمعادلات، بصفة خاصة عند ليون فالراس، فعلى سبيل المثال تم نقل فكرة (منحنيات السواء) من علم الجيولوجيا، الَّتي تقيس ارتفاعات الجبال والأجسام المرتفعة بوجه عام بالنسبة لسطح البحر. كما تم نقل فكرة (المرونة) من علم الطبيعة.

(٦)

"The classical economists and their epigones could not, of course, recognize the problems involved. If it were true that the value of things is determined by the quantity of labor required for their production or reproduction, then there is no further problem of economic calculation. The supporters of the labor theory of value cannot be blamed for having misconstrued the problems of a socialist system. Their fateful failure was their untenable doctrine of value. That some of them were ready to consider the imaginary construction of a socialist economy as a useful and realizable pattern for a thorough reform of social organization did not contradict the essential content of their theoretical analysis. But it was different with subjective catallactics… Wieser was right when he once declared that many economists have unwittingly dealt with the value theory of communism and have on that account neglected to elaborate that of the present state of society, it is tragic that he himself did not avoid this failure. The illusion that a rational order of economic management is possible in a society based on public ownership of the means of production owed its origin to the value theory of the classical economists and its tenacity to the failure of many modern economists to think through consistently to its ultimate conclusions... Thus the socialist utopias were generated and preserved by the shortcomings of those schools of thought which the Marxian's reject as "an ideological disguise of the selfish class interest of the exploiting bourgeoisie." In truth it was the errors of these schools that made the socialist ideas thrive. This fact clearly demonstrates the emptiness of the Marxian teachings concerning "ideologies" and its modern offshoot, the sociology of knowledge".Ludwig Von Miss, **Human Action**, op, cit, p.364 .

الجزئي إلى الكُلّي، من تحليل توازن المستهلك والمنتِج، إلى تحليل توازن الاقتصاد القومي. جاء هذا التبدل كبلورة لما أسهم به ليون فالراس (١٨٣٤-١٩١٠) في استخدام تحليل التوازن الشامل بكيفية لم تكن معهودة من قبل؛ وبطريقة خاصة في التحليل باستخدام مجموعة من المعادلات الرياضية البحتة في محاولته للبحث عن التوازن الاقتصادي العام بدراسة جميع العوامل الَّتي تتضافر لتحديد سلوك المنتج والمستهلك في السوق. وهو يدرس، رياضياً، أثر كل هذه العوامل في نفس الوقت.

وقد ظلت هذه التحولات في حقل التيار النيوكلاسيكي في الخمسينات والستينات من القرن الماضي محصورة في مجال النظرية الأكاديمية، والمراجع والمؤلفات العلمية. أما على الصعيد السياسي الاقتصادي فلم يكن لها أدنى تأثير، فخلال تلك الفترة كان مذهب مينارد كينز (١٨٨٣-١٩٤٦) يشهد قمة انتصاراته وطغيانه الفكري، واضعاً ما عداه من مذاهب وأفكار في الزوايا المعتمة، فحتى نشوب الحرب العالمية الأولى، كان مذهب الحرية الاقتصادية سائداً إلى حد بعيد في الأوجه المختلفة للنشاط الاقتصادي. ولكن ما أن اندلعت نيران الحرب، حتى تبدلت الأحوال وتغيرت التصورات، فخلال الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين(١٩١٩-١٩٣٩) وهي الفترة الَّتي زاد فيها تركز الرأسمال وتمركزه، وتبلورت فيها الاحتكارات الصناعية الضخمة، إعلاناً عن بداية سيادة المشروع الرأسمالى في شكله الدولي، كما تعرض النظام الرأسمالى للعديد من التوترات، بدءً بثورة العمال في ألمانيا عام ١٩١٨، ثم أزمة الديون والتعويضات الَّتى فرضتها معاهدة فرساي عام ١٩١٩، ثم أزمة الكساد الكبير عام ١٩٢٩، وبروز الحرب النقدية والتكتلات الاقتصادية، ثم انهيار قاعدة الصرف بالذهب... فكان طبيعياً ظهور الكينزية، في زمان

الأزمة في شكلها الدوري، ونظريتها الَّتي تعتمد على وجوب التدخل الحكومي بوصفه عاملاً مساعداً في تحريك الاقتصاد الَّذي كف عن السير، بعدما لاحت في الأفق أزمات متتالية.

(٧)

في ظل هذه الهيمنة الكينزية، كان هناك تيار فكري يتكون في أحضان التيار النيوكلاسيكي، هو تيار النقديين بقيادة م. فريدمان (١٩١٢-٢٠٠٦)، الَّذي سيتزعم حملة ضارية على الكينزية، كَيْ ينتهي الأمر باختلاف جذري، وتواري للسياسة الكينزية، وظهور التيار النيوكلاسيكي المطور. تيار النقديين. الَّذي سيلقى تطبيقاً رسمياً في الفترة من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٤، وبصفة خاصة في المملكة المتحدة بزعامة مارجريت تاتشر، والولايات المتحدة برئاسة رونالد ريجان، ولم تكن النتائج سارة على الإطلاق؛ إذ تعمّق الكساد، واستفحلت البطالة، وانخفض الميل الاستثماري، وازدادت الضغوط التضخمية، نتيجة للزيادة الواضحة في عرض النقود، بالإضافة إلى إضعاف المركز التنافسي للاقتصاد داخل السوق الرأسمالية العالمية. ويخرج عن إطار بحثنا هنا معالجة هذه الإشكاليات.

(٨)

وما يهمنا هنا هو توضيح طبيعة ومحتوى(العلم!) الَّذي يُلقن للطلاب في المدارس والجامعات. على الصعيد العالمي وكيف تم الانتقال من عِلم يوضح ويكشف إلى فن يخفي ويطمس. من عِلم اجتماعي إلى فن معملي. وكيف تم تسويق هذا الفن وبصفة خاصة في الأجزاء المتخلفة من النظام

الرأسمالي المعاصر، وعالمنا العربي في مقدمة هذه الأجزاء بتفوق! ولأننا سوف نرى في الفصل القادم كيف يتم الإعدام اليومي للطلبة، فسنكتفي هنا بمراجعة، موجزة بطبيعة الحال، لانعكاس هذا الانتقال والتحول من علم الاقتصاد السياسي إلى فن التسيير على واقع نظرية التخلف، فهي ما ينبغي، كما ذكرنا سلفاً، أن تمثل المحل الدائم لإنشغالنا، في عالمنا العربي.

فمن العبارات المألوفة والَّتي عادةً ما يتم تداولها في الندوات والمؤتمرات وعلى المنصات الإحتفالية للمؤسسات المهتمة بمشكلات الوحدة العربية، وللعجب نجد العبارات نفسها يتم تداولها في بعض الندوات والمؤتمرات والفعاليات الفكرية والثقافية الّتي تنظمها الأنظمة السياسية الحاكمة، والمؤسسات الرسمية في الأقطار العربية، تلك العبارات الَّتي تقول: أنه يَحق لكُل عربي مؤمن، بل وحتّى غير المؤمن، بالقومية، ووحدة المصير، والهدف المشترك، أن يندهش، بل ويَسخر حزيناً متألماً، حينما يجول ببصره على خريطة عالمنا المعاصر، ومهما أن كانت الخريطة الَّتي يُنظر إليها، سياسية، جغرافية، طبيعية،... أو حتّى صماء؛ فلسوف يُدرك على الفور ان هناك شيئاً مستنكراً غريباً يحدث على أرض الواقع؛ إذ أن تلك المساحة الشاسعة الهائلة على الخريطة والَّتي تحتل نحو ١٠% من يابسة الكوكب؛ وتُسمى بالعالم/الوطن العربي، لا ينقصها أيْ شيء من الموارد البشرية والإمكانيات الطبيعية والمادية، حتّى تنطلق نحو التقدم. نحو حياة أفضل. نحو خَلق حياة كريمة للأجيال القادمة، ومع ذلك لم يزل وطننا العربي (متخلفاً) تابعاً على الرغم من أن الاستعمار، الَّذي كان حُجة المتحججين، قد انقشع منذ عشرات السنين، ولم يزل الوطن العربي مكبلاً بقيود التخلف! فلماذا؟ وإلى أيْ حد؟ وكيف الخروج من هذا الأَسر؟ وهل هذا من الممكن إنجازه؟

أعتقد أن الإجابة على هذه الأسئلة، وغيرها من الأسئلة المرتبطة بوجودنا الاجتماعي ذاته كعرب، بل كبشر، تتعلق بمدى وعينا بالأمور الخمسة الآتية:

١- إن غالبية المساهمات النظرية، وما يُعرف بـ (التراكم المعرفي) في حقل تحليل ظاهرة التخلف الاقتصادي العربي، بوجه خاص، لم تستطع أن ترى ظاهرة التخلف إلا من خلال بيانات المرض، والفقر، والجوع، وإحصائيات الدخل والناتج والتوزيع والتضخم،... إلى آخره. ومن ثم يصير الحل لدى هذه المساهمات، وهي المعتمدة رسمياً، للخروج من الأزمة، أزمة التخلف، هو التركيز على النداء، وأحياناً الصراخ، باتباع السياسات"الرأسمالية/الحرة" الَّتي تتبعها الدول الَّتي لا تُعاني من الفقر المرض والجوع؛ لكي تخرج البلدان المتخلفة من الفقر والمرض والجوع!

٢- وهو ما يترتب على أولاً، إن غالبية المساهمات إنما تنتهي حيث يجب أن تبدأ، إذ عادةً ما نرى مئات الكتابات في هذا الصدد تقترح للخروج من أزمة التخلف سياسات اقتصادية ذات مدخل آدائي/ خطي، من دون محاولة إثارة الكيفية، الجدلية، الَّتي تكوّن بها التخلف تاريخياً على الصعيد الاجتماعي في الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر بوجه عام، وعالمنا العربي، الَّذي هو أحد تلك الأجزاء، بوجه خاص. وأفضل ما أمكن تحقيقه هو الإشارة إلى الإستعمار، كتاريخ ميت، ثم القفز البهلواني، بعد الجهل بالتاريخ أو تجاهله بجهل، إلى إقتراح سياسات السوق الحرة.

٣- عادةً ما يتم تناول إشكالية التخلف الاقتصادي العربي بمعزل عن إشكالية التخلف على الصعيد العالمي، أيْ دون رؤية الاقتصاد العربي كأحد الأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، وربما كان هذا ترتيب منطقي لتناول الإشكالية من منظور أُحادي، يفترض التجانس، ولا يرى سوى الطرح "التكاملي" والمنادة "المثالية" بالتكامل الاقتصادي العربي. وكأن البلدان العربية تعيش خارج الكوكب. على الرغم من ارتباط (إنجاز) مشروع التكامل الاقتصادي العربي بالخروج من الرأسمالية؛ كنظام عالمي، باستبدال علاقات اجتماعية رأسمالية الطابع بعلاقات ذات طابع اجتماعي/إنساني. علاقات ترتكز على فك الروابط مع الإمبريالية العالمية من خلال مشروع حضاري لمستقبل آمن.

٤- السؤال الأهم، وهو غالباً ما لا تتم الإجابة عليه، هو: لماذا بعد أن خرج الاستعمار، الَّذي شوه الهيكل الاقتصادي وسبّب التخلف، لم تزل بلدان العالم العربي متخلفة؟ هذا السؤال من المعتاد تجاهله، من قِبل النظرية الرسمية، وبالطبع من قِبل المؤسسات المالية والنقدية الدولية، والإنتقال، الكوميدي، إلى: كيف نخرج من التخلف "بالتكامل"؟ وهنا نرى سيلاً من المقترحات (المدرسية/الرسمية) الَّتي لا تَعرف ما الَّذي تقترحه للخروج من الأزمة. لأنها في الغالب لا تَعرف ما الَّذي تبحث عنه؛ وذلك أمر منطقي، أيضاً، حينما لا تَعرف هذا المقترحات ماهية التخلف ذاته، على الرغم من أن الحديث عن التكامل الاقتصادي يكون عديم المعنى والفائدة معاً إذ لم يقترن بالبحث الموازي في ظاهرة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في بلدان العالم العربي، وإنما، وهذا ضروري فكرياً وواقعياً، كأحد الأجزاء المتخلفة (وغير المتجانسة) من النظام الرأسمالي العالمي المعاصر، من جهة درس ماهية ظاهرة التخلف ومحدداتها وكيفية تجاوزها

التاريخي؛ فلن يُمسي مقنعاً الحديث عن تكامل اقتصادي عربي من دون الحديث عن كيفية هيكلية لتجاوز التخلف ذاته، وإنما ابتداءً من إعادة النظر في التراكم المعرفي في حقل نظرية التخلف ذاتها.

٥- ولأن النظرية الرسمية[٧](النيوكلاسيكية في مُجملِها) هي المعتمدة للتلقين في المدارس والمعاهد والجامعات في عالمنا العربى؛ فالنتيجة هي الإعدام اليومي لمئات الآلاف من الطلاب، الَّذين يتم تلقينهم صباحاً ومساءً بيانات الفقر وعدد المرضى والجوعى، ويُقال لهم أن هذا هو التخلف بعينه، وإذ ما أردتم الخروج ببلادكم من هذه الحالة فلتنظروا إلى ما يفعله صُنّاع القرار السياسي الاقتصادي في الغرب الرأسمالي، وأفعلوا ما لا يَفعلون! لأنهم حقاً يستحون! كونوا أكثر طموحاً. إفتحوا الأسواق. حرروا التجارة. عوموا العملة. لا تدعموا الفلاح، وأتركوه نهباً للرأسمال المضاربي. سرحوا العمال. قلصوا النفقات العامة. ارفعوا أيديكم عن الأثمان. ساندوا كبار رجال المال. تخلصوا من القطاع العام. رحبوا بالرأسمال الأجنبي. وإفعلوا ما تمليه عليكم المؤسسات المالية والنقدية الدولية، قدسوا نموذج هارود/دومار. لا تقرأوا إلا للنيوكلاسيك. جوفنز، ومنجر، ومارشال،

---

(٧) لتكوين الوعي بشأن النظريات الرئيسية في حقل نظرية التخلف، بمفهومها التقليدي، أنظر، على سبيل المثال:

B.Higgins, **Economic Development: Principles, Problems, Policies** (London: Constable and Co, 1959).
Ragnar Nurkse, **Problems of Capital Formation in Underdeveloped Countries** (Oxford: Basil Blackwell, 1960).
G.Myrdal, **Economic Theory and Underdeveloped Regions** (London: Gerald Duckworth Co, 1957).
J.Schumpeter, **The Theory of Economic Development** (Cambridge University press, 1967).
W.Rostow, **The Stages of Economic Growth, A Non-Communist Manifesto** (Cambridge, University press,1960).

(وفالراس، وجوارتيني، وفريدمان، وكروجمان، وصولو، وغيرهم من الكينزيين والنقديين والحديين؛ طبعاً بعد أن يُقال لهؤلاء الضحايا الَّذين يتم إعدامهم يومياً، في المؤسسات التعليمية في العالم العربي، إن"الاقتصاد" هو ذلك الكم المكدس من الأرقام والمعادلات فى مؤلفات هؤلاء فقط، أما غيرهم فهم إما تاريخ مقبور، أو كفار مُلحدون... ولكيْ تكون المحصلة النهائية، حينما يكون بأيد هؤلاء الطلاب/الضحايا صُنع القرار السياسي، في بلادهم المتخلفة، هي المساهمة الأكثر فعالية في تعميق التخلف، وربما تسريع وتيرة تجديد إنتاجه. فالَّذى إذاً يتم تلقينه للطلاب في عالمنا العربى، الَّذين يومياً يتم إعدامهم فكرياً، يرتكز على قاعدة رئيسية في الاقتصاد قوامها: ان كُل شيء متوقف على كُل شيء.

الطالب (الضحية): ما هو عِلم الاقتصاد؟

الأستاذ: هو ذلك العلم الَّذي يدرس الظواهر الاقتصادية.

الضحية: وما هي الظواهر الاقتصادية؟

الأستاذ: الظواهر الاقتصادية هي تلك الَّتي يدرسها"علم!" الاقتصاد!

الضحية: شكراً.

هؤلاء الطلاب هم الأجيال القادمة الَّتي سوف تَتحمل مسئولية أمة!

(٩)

الأدهى والأمر، ان الأساتذة. أساتذة الاقتصاد في الجامعات. الَّذين يتولون التلقين، لا يَجدون أدنى غضاضة في أن يقولوا لهؤلاء الطلاب، الضحايا، ان الاقتصاد هو الاقتصاد السياسي، والاختلاف بينهما هو إختلاف، مزاجي، في الاسم، نتج عن تطور تاريخي! على الرغم من أن

الفارق بين الإثنين هو كالفارق بين الخيال والحقيقة، بين الافتراض والقانون، بين التبرير والعلم. فلننتقل الآن إلى الفصل السادس عشر كَيْ نشاهد هذه المأساة عن قرب!

الفصل السادس عشر
الإعدام اليومي للطلبة

(١)

ولأن إنشغالنا الفكري يأتي دائما محدداً بالأجزاء المتخلفة من النظام الرأسمالي المعاصر، وعالمنا العربي كما ذكرنا يحتل مكانة (متميزة!) في إطار هذه الأجزاء. فسوف نستعرض أدناه ما يدرّس للضحايا والشهداء في المدارس والجامعات في عالمنا العربي. ولنؤجل النقد الموسع لهذا الفكر المهيمن على المؤسسة التعليمية إلى أبحاث أخرى، ولنكتف هنا بأبسط الأمور. أيْ تعريف (العلم!) الَّذي يتم تدريسه للضحايا في هذه المؤسسات. فهل يعرف الأساتذة. أساتذة الاقتصاد. حقاً ما الَّذي يدرسونه للطلبة؟

(٢)

مثل أول: جاء في أحد الكتب المقررة لتلقين الطلاب في مصر:"فمع كونها (يقصد الدراسة م.ع.ز) تحمل وصف الاقتصاد السياسي، فإنها تلتزم بالأصول العلمية السائدة في عِلم الاقتصاد... لا شك ان النظرة الطموحة في البحث تقتضي إجراء دراستنا في الاقتصاد السياسي من خلال الإحاطة بالقسيمات المختلفة والمتداخلة التي يعرفها علم الاقتصاد".[١]

أولاً: الاقتصاد السياسي مصطلح مختلف تمام الإختلاف عن مصطلح الاقتصاد. ثانياً: الواقع أني لا أدري ما علاقة عِلم الاقتصاد

---

(١) عادل أحمد حشيش، **أصول الاقتصاد السياسي: مدخل لدراسة أساسيات علم الاقتصاد** (الإسكندرية: دار الجامعة، ١٩٩٨)

السياسي كعلم اجتماعى منشغل بنمط الإنتاج الرأسمالى المتمفصل حول قانون القيمة، بذلك الفن التجريبي المسمى بالاقتصاد؟ وما علاقة عِلم ينشغل بالقيمة كأساس لتجديد الإنتاج الاجتماعي، بفن تسيير همه المنفعة؟ وما علاقة عِلم حقل إهتمامه الإنتاج، بفن تسيير لا شاغل له إلا السوق والتداول؟ وما علاقة عِلم محور إهتمامه زيادة ثروة الأمم، بالإنتاج، وتحليل توزيع هذا الإنتاج، بفن تسيير يعبد الاستهلاك ويقدس التدمير وسلة المهملات؟ وما علاقة علم اجتماعي، بفن تسيير يُصفّي العلم من محتواه الاجتماعي؟ وما علاقة علم يفرق، بوعي، بين قيمة السلعة وثمنها، وبين فن تسيير لا يعى إلا النفعية يخلط، ودون وعي، بين القيمة والثمن؟ وما علاقة عِلم مجتمعي، بفن تسيير أناني؟ ربما الإجابة على كل هذه الأسئلة موجودة في عنوان الكتاب نفسه:"أصول الاقتصاد السياسي: مدخل لدراسة أساسيات علم الاقتصاد". إنها التوليفة غير العلمية (الاقتصاد السياسي/الاقتصاد) الَّتي يتم حشو دماغ الطلاب بها.

مثل ثان، وهو من كتاب آخر مقرر أيضاً لتلقين الطلاب في مصر، إذ جاء في الكتاب:"ففي خلال القرن الماضي كان يُطلق على هذا الفرع الاقتصاد السياسي، ثم أُطلِق عليه مع الفريد مارشال اسم الاقتصاد. ونجد الآن نوعاً من العودة إلى الاسم القديم وخصوصاً مع بروز أهمية الدور الَّذي يلعبه هذا العلم في التأثير على السياسة الاقتصادية".[(٢)]

الآن عرفنا ان الاقتصاد السياسي أصبح اسمه الجديد الاقتصاد. وهو يستمد وجوده من السياسة الاقتصادية! ولكننا نعرف أيضاً، ان العبرة في موضوع العلم. أيْ علم. ليست بما نخلعه نحن عليه، أو بما نريده

(٢) حازم الببلاوي، **أصول الاقتصاد السياسي** (الإسكندرية: منشأة المعارف،١٩٩٦)، ص٢٣.

له، إذ العبرة بما صار عليه موضوع العلم نفسه على صعيد الواقع. ومن ثم فإن النشأة/ الواقع التاريخي يقول ان الاقتصاد السياسي هو: علم نمط الإنتاج الرأسمالي المتمفصل حول قانون القيمة، بل هو **علم قانون القيمة**، وليس العلم المنشغل بالسياسة الاقتصادية (وفقاً لسياسات صندوق النقد!) حقاً ما ذنب الطلاب، الَّذين يتم إعدامهم يومياً، كَيْ يُقال لهم ان الاقتصاد كان قديماً يُسمى الاقتصاد السياسي؟

مثل ثالث، من مصر أيضاً، وهو من كتاب أيضاً يتم تلقينه للطلاب، فبعد أن ذكر المؤلف مجموعة من التعريفات الَّتي تنتمي إلى مدارس نظرية ومذاهب فكرية مختلفة للغاية وربما متنافرة، دون تفرقة ما بين الاقتصاد السياسي والاقتصاد، كتبَ للطلاب:"... الواقع أنه لا يوجد بين هذه التعريفات تعريف يمكن أن نصفه بأنه جامع مانع بسبب اتساع مفهوم ونطاق هذا العلم. فكل من هذه التعريفات يشمل جانباً أو أكثر من جوانب عِلم الاقتصاد، ولكنه أعم منها جميعاً".[٣]

أخيراً تعلم الطلاب انهم يدرسون عِلم لا تعريف له! والأهم هو انهم تعلموا ان كُل المفكرين الذين سعوا أو تجاسروا لوضع تعريف لهذا العلم الواسع، الَّذي يستعصي على التعريف، انما كانوا جميعهم ينظرون إلى موضوع عِلم واحد! على الرغم من أن منهم من نظر إلى الثروة، ومنهم من نظر إلى الإنتاج، ومنهم من نظر إلى التوزيع، ومنهم من نظر إلى التداول. بيد أن هذا العلم الجهني الَّذي لا يعرف، فهو الأمر الَّذي لم يكن، ولن يكون سوى في الكتاب الَّذي بين يدي طلاب جامعة المنصورة فقط!

(٣) أحمد جمال الدين موسى، **مبادىء الاقتصاد السياسي** (القاهرة: دار النهضة العربية،٢٠٠٣)، ص٢٤.

مثل رابع، ولكن من بيروت، فالطلاب هناك يدرسون كتاباً يشرح، باخلاص شديد، النظرية النيوكلاسيكية، تحت عنوان الاقتصاد السياسي.(٤)

مثل خامس من ليبيا. استكمالاً لأسطورة هذا العِلم الَّذي لا يمكن تعريفه، وإستخدام طريقة إختر أنت ما يُناسبك، فالطلاب في ليبيا يدرسون: "هناك تعريفات كثيرة للاقتصاد ولكن يصعب في العادة ايجاد تعريف شامل يحتوي على كُل شيء... ولكن يمكن مثلاً تعريف الاقتصاد بأنه: أ: دراسة للثروة، ب: دراسة للأفراد في حياتهم المعيشية اليومية، ج: دراسة الاختيار بين البدائل، هـ: دراسة الندرة، و: دراسة كيفية تخصيص الموارد الاقتصادية النادرة أو المحدوة...".(٥)

وعلى الرغم من أن كل تعريف من تلك التعريفات هو في جوهره تعبير عن وجهات نظر مختلفة للغاية عبر تاريخ الفكرالاقتصادي، وكُل تعريف من هذه التعريفات إنما يصدر عن تصور معين لموضوع العلم الَّذي ينشغل به المفكر؛ فالتعريف الأول مثلاً هو تصور خاص بالكلاسيك(٦) بوجه عام، والثاني يعود إلى ألفريد مارشال، الَّذي يُعد معبراً فكرياً من الكلاسيك إلى الحديين، إلا أن الأساتذة. أساتذة الاقتصاد. يرون أن كُل التعريفات صحيحة! بل وجميلة! وكُل التعريفات واحدة! هكذا تعلم

(٤) عزمي رجب، **الاقتصاد السياسي** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٧)

(٥) أبو القاسم عمر الطبولي، وآخرون، **أساسيات الاقتصاد** (مصراته: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ٢٠٠٣)، ص١٢.

(٦) على وجه التحديد، يعرف آدم سميث الاقتصاد السياسي بأنه "ذلك الفرع من فروع المعرفة الذي يتسلح به رجل الدولة أو المشرع، لأنه يمدهما بأمرين: الأول: كيف يوفرون عوائد وفيرة للمواطنين، أو كيف يوفرون هم عوائدهم. والثاني: كيفية تزويد الدولة أو الكومنولث بالإيرادات الكافية للخدمات العامة وإثراء الشعب والسلطة". Adam Smith, **The Wealth of Nation**,op,cit,Book IV,p.277.

الطلاب، قادة الغد، أن الاقتصاد علم لا تعريف له، ولو كان من الضروري تعريفه، فإنه يمكن تعريفه بأيْ تعريف!

مثل سادس، من دمشق، فطلاب كُلية الاقتصاد في جامعة دمشق، يلقنون أن:"علم الاقتصاد السياسي يندرج في نظام العلوم الاجتماعية، كما أصبح واضحاً ان موضوع هذا العلم هو البحث في طبيعة وماهية كُل نوع من أنواع العلاقات الاجتماعية الَّتي تنشأ بين البشر في المراحل التاريخية المختلفة أثناء قيامهم بعملية إنتاج وتوزيع الثروة المادية".(٧)

ها نحن وصلنا سالمين إلى علم التاريخ! وصلنا إلى علم طرق الإنتاج عبر التاريخ! وصلنا إلى إختزال الاقتصاد السياسي في التاريخ! وصلنا إلى كراسات التعميم سوفيتية الصنع! حيث الاقتصاد السياسي علم يدرس علاقات الإنتاج والقوانين الكامنة في أساليب الإنتاج المختلفة التي تعاقبت تاريخياً. لقد وصلنا إلى نيكيتين وأبالكين ورفاقهما!(٨) والسبب الرئيسي في اعتناق تعريف الاقتصاد السياسي بأنه علم أنماط الإنتاج؛ هو التقديم الأيديولوجي، البائد، لفكرة الشيوعية، فمن رحم نمط انتاج يخرج نمط إنتاج آخر؛ فمن نمط الإنتاج البدائي يخرج نمط الإنتاج العبودي، ومن الأخير يخرج نمط الإنتاج الإقطاعي، ومن نمط الإنتاج الإقطاعى يخرج نمط الإنتاج الرأسمالي، ومن نمط الإنتاج الرأسمالى، مروراً بالإشتراكية، يخرج نمط الإنتاج الشيوعي، فمن بدائية إلى شيوعية يتلخص تاريخ أنماط الإنتاج، بل ويتلخص تاريخ البشر أنفسهم! وفقاً للموجزات الأولية

---

(٧) محمد سعيد نابلسي، **الاقتصاد السياسي** (دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ١٩٩٨) ص٢٩.

(٨) على سبيل المثال: أبالكين، وآخرون، **الاقتصاد السياسي**، ترجمة سعد رحمي(القاهرة: دار الثقافة الجديدة،١٩٨٧) ص٥٤. ويعد أستاذي د. محمد دويدار من أبرز المفكرين المصريين الَّذين تبنوا تعريف الاقتصاد السياسي كعلم لأنماط الإنتاج. محمد دويدار، **المبادىء الأساسيات**. المصدر نفسه، ص٢٨٧-٣٢٨.

وكراسات التعميم! ولأن النمط الشيوعي هو المطمح، غير العِلمي، وفقاً للنبوءة، فلا بد من لَيّ عنق العلم وتطويعه كَيْ يُخدّم على الأيديولوجيا، ومن ثم يُصبح علم الاقتصاد السياسي هو خادم مبشر بالخلاص من شرور البشر! فهو يرصد (جميع) أنماط الإنتاج السابقة على مجيء المخلص، ومن ثم يُطلق له بخور القداسة!

(٣)

إن ما يدرسه الطلاب الآن في جُل المؤسسات التعليمية في عالمنا العربي نظرية تقدم على أساس من أنها النظرية النهائية والوحيدة الصحيحة عبر تاريخ فكر البشر على صعيد النشاط الاقتصادي، هذه النظرية هي النيوكلاسيكية المنشغلة بالسوق والتداول والاستهلاك، وهي مباحث مكدسة في كتب التسويق والإدارة وربما عِلم النفس، ولا يدرسون الاقتصاد السياسي على الإطلاق! ولا يعلمون منه سوى أسمه! لا يدرسون ما ينبغي أن يدرسوه. لا يدرسون العلم الحقيقي القادر، دون ادعاء امتلاك الحقيقة الاجتماعية، على شرح كيف يعمل النظام، وإن حدث ودرسوه، عرضاً، فإنما يدرسونه باستخفاف على عجل، في باب أفكار مهجورة، وعادة ما تشرح هذه الأفكار بشكل مشوه. والأمثلة لا حصر لها في كتب الأساتذة. أساتذة الاقتصاد. في وطني العربي![٩]

---

(٩) والأمر لا يقتصر على ذلك، إنما نجد في بعض الأحوال، وهي في الواقع كثيرة، استخدام المصطلح، مصطلح الاقتصاد السياسي من قبيل "الديكور"! والخلط الفج بين الاقتصاد السياسي والاقتصاد. فعلى سبيل المثال رسالة دكتوراه موضوعها ليس له أيْ علاقة بالاقتصاد السياسي، ولكنها تستخدم الاصطلاح دون وَعيْ بكونه يعبر عن علم قانون القيمة. القانون الّذي يحكم عمل النظام الرأسمالي، بحكم نشأته التاريخية وما تبلور على أرض الواقع المادي بتفاصيله كافة. فالرسالة المذكورة موضوعها: السياسة المصرية تجاه الولايات المتحدة في الثمانينات من القرن الماضي. ولأنها تعالج الأطروحة من منظور (الاقتصاد!) فقد قررت أن تضيف اصطلاح يكسب غلاف الرسالة بريقاً، فأضافت (السياسي) إلى (الاقتصاد) ما أجمل الثقافوية العربية! =

(٤)

الاقتصاد السياسي حقاً بريء من كُل الكتابات، المبتذلة، الّتي تستخدم اسمه زيفاً وزوراً. ويجب علينا أمام كُل بحث يبدأ وينتهي حيث السوق والتداول، أن نفقد الأمل في أن بإمكانه تحمل مسئولية أجيال قادمة كَيْ تقود أمة من خلال مشروع حضاري لمستقبل آمن نحو الخلاص من الفقر والجهل والمرض.

= انظر: زينب عبد العظيم محمد، **السياسة المصرية تجاه الولايات المتحدة "١٩٨١- ١٩٩١": دراسة من منظور الاقتصاد السياسي**(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧).

المراجع

١- العربية

كتب

إ. العيسوي، **قياس التبعية في الوطن العربي.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩.

---------- ، **الاقتصاد المصري في ثلاثين عاماً.** القاهرة: المكتبة الأكاديمية،٢٠٠٧.

إبراهيم نصحي، **تاريخ مصر في عصر البطالمة.** القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٨٨.

ابن إياس، **نزهة الأمم.** القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥.

ابن الحاج، **المدخل.** القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩.

ابن الهمام، **فتح القدير.** بيروت: دار الفكر، د.ت.

ابن المأمون، **نصوص من أخبار مصر.** القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي،١٩٨٣.

ابن تغري بردي، **حوادث الدهور.** المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٠.

ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض.** بيروت: دار صادر، د.ت.

ابن رشد، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد.** بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ابن عابدين، **رد المحتار.** بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٩٨٧.

ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة.** القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٥٥.

ابن قدامة، **المغني.** بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.

ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم.** القاهرة: دار الحديث،١٩٧٢.

ابو البقاء الكفوي، **الكليات.** بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣.

أبو الحسن الواحدي، **أسباب النزول.** القاهرة: المكتبة التوفيقية،٢٠٠٣.

أبو بكر السرخسي، **كتاب المبسوط.** بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.

أبو الفضل الدمشقي، **الإشارة إلى محاسن التجارة.** بيروت: دار صادر، ٢٠٠٩.

أبو حيان التوحيدي، **الامتاع والمؤانسة.** القاهرة: دار الرسالة. ١٩٩٥.

أبو منصور الثعالبي، **خاص الخاص.** بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٦٦.

أبو نصر الفارابي، **إحصاء العلوم.** القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٩.

---------- ، **كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة.** القاهرة: مطبعة النيل، ١٩٢١.

أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة.** بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٠.

أبو يعلى الفراء، **الأحكام السلطانية.** بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

أحمد بن أبي يعقوب، **كتاب البلدان.** بيروت: دار صادر، د.ت.

أحمد صابر سعد، **تاريخ مصر الاجتماعي- الاقتصادي**. بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٧٩.
أحمد عبد الباقي، **الحضارة الإسلامية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١.
أ. أرماني، **جمهورية اشتراكية مسيحية**. بيروت: المشرق، ١٩٩٠.
أ. جروهمان، **أوراق البردي العربية**. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٤.
ألفريد زيمرن، **الحياة العامة اليونانية**. القاهرة: البيان العربي، ١٩٥٨.
أ. رودريجث، **حضارة أمريكا اللاتينية**. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ١٩٩٨.
آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨.
أ. إرمان، رانكه، **الحياة المصرية في العصور القديمة**. القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٢٥.
آرتو، وفيرار، **الرأسمالية في طريقها لتدمير نفسها**. القاهرة: الشروق، ٢٠٠٨.
أرشيبالد لويس، **القوى البحرية والتجارية**. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨.
أريك هوبسباوم، **عصر رأس المال**. بيروت: دار الفارابي، ١٩٨٦.
إ. لابدوس، **مدن إسلامية في عهد المماليك**. بيروت: الأهلية للنشر، ١٩٨٧.
أ. إيمار وجانين أبوايه، **تاريخ الحضارات العام**. بيروت: عويدات للنشر والطباعة، ٢٠٠٣.
أرسطو، **في السياسة**. بيروت: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع الإنسانية، ١٩٨٠.
إي. كانتريري، **موجز تاريخ علم الاقتصاد**. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١.
أيمن فؤاد، **الدولة الفاطمية في مصر**. بيروت: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠.
البهوتي، **الروض المربع**. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ١٩٨٣.
مخطوطات قمران- البحر الميت. دمشق: دار الطليعة، ١٩٩٨.
الحبيب الجنحاني، **المغرب الإسلامي**. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧٧.
الجاحظ، **التبصر بالتجارة**. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٤٩.
الجهشياري، **كتاب الوزراء والكتاب**. القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨.
الحسن الوزان، **وصف أفريقيا**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣.
الشيرازي، **تكملة المجموع شرح المهذب**. القاهرة: دار الحديث، ٢٠١٠.
الشيزري، **نهاية الرتبة**. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦.
الماوردي، **الأحكام السلطانية والولاية الدينية**. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. ليدن. مطبعة ليدن، ١٩٠٩.
المقريزي، **اغاثة الأمة بكشف الغمة**. حمص: دار ابن الوليد للنشر، ١٩٥٦.
ـــــــــ ، **شذور العقود**. القاهرة: دار الأمانة للطباعة والنشر، ١٩٩٠.
ـــــــــ ، **المواعظ والاعتبار**. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧.
ـــــــــ ، **السلوك**. القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦.

الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة.** بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٤.

الطبري، **جامع البيان.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.

القرطبي، **تفسير القرطبي.** القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠.

القلقشندي، **صبح الأعشى.** القاهرة: المؤسسة المصرية، ١٩٦٣.

الكتاب المقدس. القاهرة: دار الكتاب المقدس، ١٩٩٩.

الكاساني، **بدائع الصنائع.** بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

الونشريشي، **المعيار المعرب.** بيروت، الرباط دار المغرب العربي، ١٩٨١.

ب. باران، ب. سويزي، **رأس المال الاحتكاري.** القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩١.

برتراند رسل، **النظرة العلمية.** القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦.

برهان غليون، **اغتيال العقل.** بيروت: دار التنوير، ١٩٨٧.

برهان الدين دلّو، **حضارة مصر والعراق.** بيروت: دار الفارابى، ١٩٨٩.

بطرس البستاني، **دائرة المعارف.** بيروت: دار المعرفة، د. ت.

بيير مونتيه، **الحياة اليومية في عهد الرعامسة**، القاهرة: الدار المصرية للتأليف، ١٩٦٥.

ب. هاريسون، **في قلب العالم الثالث.** نيقوسيا: ميد تو للتنمية والرعاية، ١٩٩٠.

ب. هازار، **أزمة الضمير الأوروبي.** القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٥.

ب. كروجمان، **العودة إلى الكساد العظيم.** بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١٠.

تاج الدين بن ميسر، **المنتقى من أخبار مصر.** القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٨١.

ت. روبنسون، **أثينا في عهد بركليس.** بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٦٦.

ت. ورث، **الامبراطورية الرومانية.** القاهرة: الهيئة المصرية، ١٩٩٩.

ت. سنتش، **نقد نظريات الاقتصاد العالمي.** دمشق: مركز الأبحاث الاشتراكية، ١٩٩٠.

توفيق الطويل، **أسس الفلسفة.** القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨.

ج. كرامب، أ. جاكوب، **تراث العصور الوسطى.** القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٩٤.

ج. برجر، **وجهات نظر.** دمشق: مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية، ١٩٩٩.

ج. كونتنو، **الحضارة الفينيقية.** القاهرة: مركز الشرق الأوسط، ١٩٤٨.

ج. روبرتسون، **السودان من الحكم البريطاني إلى الاستقلال.** بيروت: الجيل، ١٩٩٦.

جان زيجلر، **إمبراطورية العار.** القاهرة: سطور الجديدة، ٢٠٠٧.

ج. مازيل، **تاريخ الحضارة الفينيقية.** اللاذقية: الحوار للنشر، ١٩٩٨.

جبور عبد النور وسهيل ادريس، **المنهل.** بيروت: دار الآداب، ١٩٨٩.

جرجي زيدان، **تاريخ مصر الحديث.** القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩.

جمال الدين بن منظور، **لسان العرب.** بيروت: دار الفكر، ١٩٩٤.

جواد علي، **المفصل**. بيروت: دار العلم للملايين. بغداد: مكتبة النهضة،١٩٦٩.

جوزيف يوسف، **تاريخ العصور الوسطى الأوروبية**. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٧.

ج. هوسون، وفالبيل، **الدولة والمؤسسات في مصر**. القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٧.

ج. شومبيتر، **عشرة اقتصاديين عظام**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٨.

جيرار جهامي، **موسوعة مصطلحات ابن سينا**. بيروت: مكتبة لبنان، ٢٠٠٤.

جيرمى سيبروك، **ضحايا التنمية**. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٢.

جيمس فولتشر، **مقدمة قصيرة عن الرأسمالية**. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١.

حيدر بامات، **إسهام المسلمين فى الحضارة**. القاهرة: المركز المصري، ١٩٨٥.

خير الدين التونسي، **أقوم المسالك**. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة،٢٠١١.

رالف بيرى، **آفاق القيمة**. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨.

رسائل اخوان الصفاء وخلال الوفاء. القاهرة: المطبعة العربية بمصر، ١٩٢٨.

ر. إسحاق، **مخاطر العولمة**. بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥.

روجيه جارودي، **كيف صنعنا القرن العشرين؟**. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١.

ــــــــــ ، **كارل ماركس**. بيروت: بيروت: منشورات دار الآداب، ١٩٧٠.

ر. لوطورنو، **فاس قبل الحماية**. بيروت: الغرب الإسلامى، ١٩٩٢.

روزا لوكسمبورج، **ما هو الاقتصاد السياسي؟**. بيروت: ابن خلدون، ١٩٧٧.

زكريا ابراهيم، **مباديء الفلسفة والأخلاق**. القاهرة: مطبعة الفجالة، ١٩٦٢.

زكي حسن، **كنوز الفاطميين**. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٧.

ز. أبو الأنوار، **أسواق وتجار أوروبا العصور الوسطى**. القاهرة: الآفاق العربية، ٢٠١٢.

ز. هونكه، **شمس العرب تسطع على الغرب**. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣.

ستيفن رنسيمان، **الحضارة البيزنطية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

سعيد عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٦.

ــــــــــ ، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٤.

سمير أمين ، **التراكم على الصعيد العالمي**. بيروت: دار ابن خلدون،١٩٨٧.

ــــــــــ ، **ما بعد الرأسمالية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨.

ــــــــــ ، **التطور اللامتكافيء**. بيروت: دار الحداثة،١٩٨١.

شارل عيسوي، **التاريخ الاقتصادي**. بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٥.

ــــــــــ ، **تأملات في التاريخ العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١.

صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٣.

عاطف العراقي، **العقل والتنوير**. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، ١٩٩٥.

عبد الله البستاني، **فاكهة البستان**. بيروت: المطبعة الأمريكانية، ١٩٣٠.
عبد الله بن المقفع، **الأدب الكبير**. بيروت: دار الآداب. ١٩٩٨.
عبد الحكيم الذنون، **التشريعات البابلية**. دمشق: علاء الدين للنشر، ١٩٩٩.
عبد اللطيف الخلابي، **الحرف والصنائع**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية،٢٠١١.
عبد الرزاق السنهوري، **الوسيط**. الإسكندرية: منشأة المعارف، ٢٠٠٤.
ع. الدوري، **تاريخ العراق الاقتصادي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥.
على حسن، **مصر في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٤٧.
على بن اللبودي، **فضل الاكتساب**. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧.
على البارودي، **القانون التجاري**. الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٨٦
عزمي رجب، **الاقتصاد السياسي**. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٧.
عزيز سوريال، **الحروب الصليبية**. القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٠.
فخر الدين الطريحي، **مجمع البحرين**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٥.
ف. كورينطي، قاموس **إسباني- عربي**. مدريد: المعهد الإسباني العربي، ١٩٨٥.
ف. لابه. كولنز، **١٠خرافات عن الجوع في العالم**. نيودلهي: مركز العالم الثالث، ١٩٩٩.
فؤاد مرسي، **التخلّف والتنمية**. بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٢ .
ف. فيتللو، **الفكر الاقتصادي الحديث**. القاهرة: الدار المصرية، ١٩٦١.
فيكتور مورجان، **تاريخ النقود**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٣.
فيليب حتّى، **تاريخ لبنان**. بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٢.
قاموس أكسفورد، **المحيط**. بيروت: أكاديميا إنترناشيونال،٢٠١٠.
قاموس: عربي- إيطالي، إيطالي- عربي. لندن: دار عكاظ، ١٩٨٩.
قتيبة الشهابي، **نقود الشام**. دمشق. وزارة الثقافة، ٢٠٠٠.
قدامة بن جعفر، **الخراج وصناعة الكتابة**. بغداد: دار الرشيد، ١٩٨١.
ك. بوكسر، **إمبراطورية هولندا البحرية**. أبوظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٤.
ك. برنهردت، **لبنان القديم**. دمشق: قدمس للنشر ١٩٩٩.
كارل ماركس، ف. انجلز، **بيان الحزب الشيوعي**. موسكو: دار التقدم، ١٩٨٢.
كرامب، وجاكوب، **تراث العصور الوسطى**. القاهرة: سجل العرب، ١٩٩٤.
ك. نوبلكور، **المرأة الفرعونية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٩.
ك. برنتن، **قصة الفكر الغربي**. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٥.
ك. لالويت، **نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة**. القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٦.
ك. اليازجي، **معالم الفكر العربي في العصر الوسيط**. بيروت: العلم للملايين، ١٩٥٤.

ل. سيمينوفا،**صلاح الدين والمماليك**. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ١٩٩٨.

ل. ديلايورت، **بلاد ما بين النهرين**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

ل. فيشر، **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٠.

ل. سيجورنه، **أمريكا اللاتينية**. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٣.

ل. نابوليوني، **الاقتصاد العالمي الخفي**. بيروت: الدار العربية للعلوم، ١٩٩٨.

ليو تولوستوي، **كتابات تربوية**. بيروت: دار القلم،١٩٦٩.

مالك بن أنس، **المدونة الكبرى**. القاهرة: مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، ١٩٤٦.

مايكل هاملتون، **تاريخ ضائع**. القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨.

مايكل كلير، **دم ونفط**. بيروت: دار الساقي، ٢٠١١.

مجد الدين الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**. بيروت: دار الجيل، د.ت.

محمد الرازي فخر الدين، **تفسير الفخر الرازي**. بيروت: دار الفكر، د.ت.

م. أركون، **أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟**. بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦.

محمد القرشي،**كتاب معالم القربة**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

محمد بن بسام، **أنيس الجليس في أخبار تنيس**. القاهرة: مكتبة الثقافة،٢٠٠٢.

محمد سرور، **الدولة الفاطمية في مصر**. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٥.

محمد دويدار، **الاقتصاد المصري بين التخلف والتطوير**. الإسكندرية: دار الجامعات، ١٩٧٨.

———، **الاقتصاد الرأسمالي الدولي في أزمته**. الإسكندرية: منشأة المعارف،١٩٨١.

———، **مبادىء الاقتصاد السياسي: الأساسيات**، الإسكندرية: دار الجامعة، ٢٠٠٨.

محمد نابلسي، **الاقتصاد السياسي**. دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ١٩٩٨.

محمد الشرقاوي، **الشركات التجارية**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٦.

محمد صالح، **شرح القانون التجاري**. القاهرة: مطبعة فتح الله إلياس ١٩٣٨.

محمد صبري، **الإمبراطورية السودانية**. القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٤٨.

محمد كامل مرسي، **شرح القانون المدني**. الإسكندرية: منشأة المعارف، ٢٠٠٥.

محمد شكري، **بناء دولة مصر محمد علي**. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨.

محمد قدري، **مرشد الحيران**. القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٨٩١.

محجوب باشري، **معالم الحركة الوطنية في السودان**. بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٦٦.

مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي**. القاهرة: المطابع الأميرية، ١٩٨٣.

مصطفى كمال طه، **القانون التجاري**. الإسكندرية: مطابع رمسيس، ١٩٥٦.

مراد وهبه، **المعجم الفلسفي**. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨.

مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**. بيروت: دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٩٤.

م. رستوفتزف، **تاريخ الامبراطورية الرومانية.** القاهرة: مكتبة النهضة العربية، ١٩٥٧.
م. كين، **حضارة أوروبا العصور الوسطى.** القاهرة: عين للدراسات والأبحاث، ٢٠٠٠.
م. تشوسودوفيسكي، **عولمة الفقر.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٢.
ناصر خسرو، **سفرنامة.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٣.
نادر فرجاني، **هدر الإمكانية.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١.
نديم البيطار، **المثقفون والثورة.** بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ٢٠٠٢.
ن. تشومسكي، **سنة ٥٠١ الغزو مستمر.** دمشق: المدى، ٢٠٠٢.
نعيم فرح، **الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى.** دمشق: جامعة دمشق، ١٩٩٩.
هـ. آ. أيرنسايد، **نبوة حزقيال.** القاهرة: دار الإخوة للنشر،٢٠٠٩.
هـ. ولز، **معالم تاريخ الإنسانية.** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
هالة العوري، **أهل الكهف.** بيروت: رياض الريس للكتب والنشر،٢٠٠٠.
هوميروس، **الأوديسة.** القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨.
وليم باركلي، **تفسير العهد الجديد.** القاهرة: دار الثقافة المسيحية،١٩٨٦.
و. شورز، **حضارة أمريكا اللاتينية.** القاهرة: نهضة مصر، ١٩٧٠.
ول ديوارنت، **قصة الحضارة.** بيروت: دار الجيل، د.ت.
يولي تسيركين، **الحضارة الفينيقية في إسبانيا.** بيروت: جروس برس، ١٩٨٨.
زكريا أحمد نصر، **تطور النظام الاقتصادي.** القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٥.

دوريات

ب. بيناصر، **مناس جيريس: ذروة عالية لامتزاج الأعراق.** القاهرة: المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية. :"ديوجين"، العدد ١٩١. ٢٠٠٢
بدرو شلميطا، **صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي.** في: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس،** ترجمة مصطفى الرقي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨.
ب. لويس، **النقابات الإسلامية.** ترجمة عبد العزيز الدوري. القاهرة: الرسالة، ١٩٤٦.
سمير أمين، **التبعية والتوسع العالمي للرأسمالية.** في: **التنمية المستقلة في الوطن العربي.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.
عبد الهادي علي النجار، **الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لتعبئة الفائض الزراعي نحو المدينة.** مصر المعاصرة؛ العدد٣٧٦. القاهرة: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، ١٩٧٩.
عبد العزيز الدوري، **نشوء الأصناف والحرف في الإسلام.** بغداد: كلية الآداب، ١٩٥٩.

فاروق عثمان أباظة، **صدى الحروب الصليبية في حركة الكشوف الجغرافية في مطلع العصور الحديثة**. في: **الاطار التاريخي للحركة الصليبية**. القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٩٦.

كمال مظهر أحمد، **الرأسمالية وتجارة الرق**. في: **مسألة الرق في أفريقيا**. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،١٩٨٩.

محمد محمود الإمام، **الوطن العربي ومشروعات التكامل البديلة**. أعمال المؤتمر الثالث للجمعية العربية للبحوث الاقتصادية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،١٩٩٧.

يوسف فضل، وب. أغوت، **السودان، من١٥٠٠ إلى١٨٠٠، تاريخ أفريقيا العام**: ج٧: **أفريقيا من ظل السيطرة الاستعمارية**، إشراف ب. أ . أغوث، سلسلة تاريخ أفريقيا العام . القاهرة: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،"د.ت".

يوسف صايغ، **موجبات البحث في موضوع الوطن العربي ومشروعات التكامل البديلة**، أعمال المؤتمر الثالث للجمعية العربية للبحوث الاقتصادية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،١٩٩٧.

٢- الأجنبية

A. Smith, **The Wealth of Nations.** New York: Barnes& Noble. 2004.

A. Emmanuel, **Unequal Exchange. A Study of Imperialism of trade** London: Monthly. Review Press, 1972.

Albert Hourani, **A history of the Arab peoples**. Cambridge: Harvard University press, 1991.

Ame'lie Kubrt, **The Ancient Near East** ,London: Routledge,1995.

Barry Kemp, **Ancient Egypt: Anatomy of Civilization**. London: Routlede, 1991.

Baptiste. **A Treatise on Political Economy**. Philadelphia: Lippincott, Grambo&Co, 1855.

B.Higgins, **Economic Development: Principles, Problems, Policies**. London: Constable and Co, 1959.

Chronology of European History 15,000 B.c to 1997, Volume 1: 15,000 B.c-1763, Edited by John Powell ,London: Fitzroy Dearborn publisher, 1998.

C. Gide& Rist, **A history of Economic Doctrines.** London: George Harrap&Co, 1949.

Collins Dictionary: New York: Harper Collins Publisher: 1997.

Coline et E. Levi -Provençal, **Un Manuel Hispanique De Hisba**, Traite D'abc Abd ALLAH Muhammad B. Abi Muhammad As-sakti De Malaga, Sur la Surveillance Des Corporations Et La Répression Des Fraudes En Espagne Musulmane. Paris: Librairie Ernest Leroux 1931.

Clifton&J.mc Laughlin, **Nouveau Dictionnaire** .Paris: Librairie Grainer présures1904.

D.Stewart, **Lectures on Political Economy**.London:Macmillan &co,1875.
D. Ricardo, **The Principles of Political Economy and Taxation**. New York Barnes & Noble. 2005.
D. Greenwald, **Encyclopedia of Economics**. New York: McGraw-Hill Book Company, 1982.
Diodore De Sicile, **Bibliotheque Historique**, Livre I, and introduction generale par Francois Chamoux et Pierre Bertrc, Traduit par Yvonne Verniere .Paris: Les Belles Lettres, 1993.
Eugen Böhm-Bawerk, **The Positive Theory of Capital** .London: Macmillan and Co.1888.
Edwin Dolan, **The Foundations of Modern Austrian Economics** .Kansas City: Sheed and Ward, Inc, 1976.
E. Roll, **History of Economic Thought**. London: Faber and Faber, 1973.
Edward Gibbon, **The Decline and fall of the Roman Empire**, An Abridgement by D. M. Low .London: Chatto and Windus, 1961.
Francois Quesnay, **Tableau Economique** .Paris: A La Institut National de Etudes d Emographiques, 2005.
Friedrich Katz, **The Ancient American Civilizations** .London: Phoenix Press, 1969.
Fernand Braudel, **Civilization Materielle, Economie et Capitalism, XV^e-XVIII^e siècle**, Vol II. Paris: Librarie Armand Colin, 1979.
Fustel De Coulanges, **La Cite Antique**. Paris: Librairie Hachette, 1900.
Georges Ripert, **Traite' Elementaire de Droit Civil de Planiol**. Paris: Librairie G.Myrdal, **Economic Theory and Underdeveloped Regions.** London: Gerald Duckworth Co, 1957.
H. Higgs, **Palgrave's Dictionary of Political Economy.** London: Macmillan and Co., Ltd.1958.
H.Fowler&F.Fowler, **The Concise Oxford dictionary** .Oxford: Oxford University press, 1939.
Henri Denis, **Histoire De La pensee Economique**.Paris: Presses Universitaires de France, 1966.
John S.Cambs, **Man, Money, and Goods**. New York: Columbia University press, 1952.
J. M. Keynes, **The General Theory.** London, Macmillan, 1967.
John Merriman, **A History of Modern Europe from the Renaissance to present** .New York,: W.W.Norton & Company,1996.
John Kenneth Galbraith, **A History of Economics.** Penguin Books, 1987.
John Fred Bell, **A History of Economic Thought** .New York: The Ronald press company, 1953.
James Buchanan, **Cost and Choice: An Inquiry in Economic Theory** Indianapolis, IN: Liberty Fund, Inc, 1999.
Joseph A.Schumpeter, **History of Economic Analysis** (New York: Oxford University press,1959).p.167-168.
--------------, **The Theory of Economic Development** .Cambridge University press, 1967.
Jean-Paul Colin, **Dictionnaire Des Difficultés du Française** .Paris Les Usuels du Robert, 1977.

Justinian's Institutes, Translated by Peter Birks & Grant McLeod .London: Duckworth, 1987.

K. Marx, **Capital: A Critique of Political Economy**. New York: The Modern Library, 1906.

Lewis Haney, **A history of Economic Thought**. New York: Macmillan Company, 1936.

La Loi De Hammourabi: Vers2000 AV. J.-C. .Paris: Ernest Leroux, Editeur, 1906.

Latin American History on File, Media Projects Inc.Victoria Chapman& Associates1988.

Ludwig Von Mises, **Human Action: A Treatise on Economics**. Irvington-on-Hudson, NY: The Foundation for Economic Education, 1999.

Laurence S Moss, **The Economics of Ludwig von Mises: toward a Critical Reappraisal**, Kansas City: Sheed and Ward, Inc, 1976.

Norman Davies, **Europe : A History**.Oxford: Oxford Univ press,1996.

Marc Van de Mieroop, **A history of the Ancient Near East ca.3000-323 BC**.Oxford: Blackwell publishing, 2004.

M.Dobb, **Studies in the Development of Capitalism**. London: George Routledge, 1947.

Maurice Lombard, **The Golden Age of Islam**. Princeton, NJ: Markus Wiener Publishers, 2004.

Mill, John Stuart, **Principles of Political; Economy with some of Their Applications to Social Philosophy** .London: Longmans, Green &Co, 1909.

Michel Beaud, **A History of Capitalism 1500-1980** .London: Macmillan press1989.

Oxford Latin Dictionary. Oxford: Oxford University press, 1996.

O'Driscoll Gerald, **Economics as a Coordination Problem: The Contributions of Friedrich Hayek**. Kansas City: Sheed and Ward, Inc, 1977.

Petit Larousse. Paris: Librairie Larousse, 1977.

Percy Gardner, **A History of ancient Coinage 700-300 B.C** .Oxford University Press, 1918.

R. Cantillon, **Essay on the Nature of Trade in General**, London: Frank Cass and Co. 1959.

Rosa Luxembourg, **The Accumulation of Capital**. London: Rutledge and Kegan 1963

R .Heilbroner, **The worldly Philosophers**.New York: Simon&Schuster, 1961.

Robin Osborne, **The Economics and Politics of Slavery at Athens** London: Routledge, 1995.

Richard G. Lipsey and Paul N. Courant, **Economics** .New York: Addison-Wesley, 1999.

Ragnar Nurkse, **Problems of Capital Formation in Underdeveloped Countries**. Oxford: Basil Blackwell, 1960.

S.Amin, **Le change inegale et la loi de la valuer**, la fin d'un debat. Arthropods -IDEP, Paris, 1973.

ST.Thomas Aquinas, **Philosophical Texts** .London: Oxford University press, 1951.
Schwarzschild, London: Rutledge and Kegan, 1963.
Samuelson and D. Nordhaus, **Economics**.New York: McGraw-Hill Companies 2005.
Thomas Munck, **Seventeenth Century Europe: State, Conflict and The Social order in Europe 1598-1700**.London: Macmillan,1990.
The Oxford English Dictionary .Oxford: Clarendon press, 1989
Turgot, Robert Jacques, **Reflections on the Formation and Distribution of Wealth** .London: E.Sprag, 1898
T.Malthus, **Definitions in Political Economy** .London: John Murray, 1827.
The Columbia Encyclopedia .Columbia University Press, 1959.
Vincent Renouf, **Outlines of General History** .London: Macmillan, 1910.
Werner Sombart, **The Jews and Modern Capitalism**, Kitchenr: Batoch Books, 2001.
Warren Treadgold, **A History of the Byzantine State and Society**. California: Stanford University Press, 1997.
William Stanley Jevons, **The Theory of Political Economy** .London: Macmillan and Co.1888.
W.Rostow, **The Stages of Economic Growth, A Non-Communist Manifesto** .Cambridge, University press, 1960.

دار الفتح
للطباعة والنشر
شارع سوتير، الاسكندرية، امام كلية الحقوق

